

النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري

الدكتور محمد حسن الخالوي



المقدمة

لكل فن من الفنون الانسانية مادة يصاغ منها ، فالألوان مادة الرسم ، والرخام أداة النحت ، والأصوات وسيلة الموسيقى . وتنزل اللغة من الأدب منزلة هذه المواد من تلك الفنون . فهي اداة الأديب التي بها يصوغ روائمه ، ويبدع آثاره .

ولطريقة استخدام الأديب للغة ، في عرض مضامينه الجيدة ، تحدد منزلته بين الأدباء ، وتعطيه السعة التي يتفوق بها على غيره ، أو يتخلف . والتجديد في الشعر خاصة والادب عامة يعني القدرة على اقامة علاقات متميزة بين الالفاظ ، فاذا استعرضنا الشعراء المبرزين عبر العصور وجدنا أنهم اختطوا لأنفسهم سبلا في التعبير اللغوي غير ما شاع بين الناس ، والافنا فضيلة الأديب المبدع في الكشف عن افكاره واحاسيسه غير ان ينفرد بأداء لغوي ، ويتخذ لنفسه اسلوبا في التعبير يختص به وحده ؟

واذا كانت اللغة مادة الفن الأدبي ، واذا كان نبوغ الأديب او تفوقه يرتبط بطريقته في استخدام اللغة ، والتعامل معها ، فان على الناقد ان يولي هذه الأداة عنايته ، ويصرف إليها جهده واهتمامه ليكون ذلك كفاء لاهيتها في الأدب ، ومكانها منه . ومعنى ذلك أن الموضوع الاول للنقد هو اللغة ، لان اللغة هي الحقيقة الاولى في الفن الأدبي . اما موضوعات النقد الاخرى ، وقضاياها المتعارفة المشهورة ، فهي لا ترقى من حيث الاهمية الى قضية (اللغة) . بل ان كثيرا من موضوعات النقد وقضاياها يمكن ان تعالج من خلال اللغة ، أو تكون اللغة الأساس الذي ينطلق منه الناقد في معالجة تلك الموضوعات .

وكما ان التفنن في استخدام اللغة هو مجلى عبقرية الأديب ، كذلك يعد تصدي الناقد لدرسها ، واستكشاف ما أودعه الأديب فيها من اسرار ، مجلى نبوغه ، وآية تسكنه من ميدانه ، ورسوخ قدمه فيه .

وقد ادرك نقادنا العرب هذه الحقيقة ، وفطنوا الى اهمية اللغة في العمل الأدبي ، فأولوها اهتمامهم ، وحرفوا اليها عنايتهم ، حتى صار الناقد منهم - كابن الاثير مثلا - يدل على غيره ، بما يستكشف من دقائق اللغة ، واسرار الالفاظ والتراكيب .

وادرك الدارسون المحدثون عناية النقاد العرب باللغة ، ومنهم من عاب ذلك عليهم . وعندى أن النقاد العرب لا يلامون على اهتمامهم بلغة الأدب ، فذلك ما يجب ان يصنعه كل ناقد ، ولا بد من عشرات في أي سبيل ، فان وجد بعض الدارسين في النقد اللغوي جوانب ضعف فان ذلك لا يغض من شأنه ، ولا يقلل من أهيمته ولا يغطي على جوانب أخرى منه راسخة وقوية .

وعلى الرغم من ادراك المعاصرين ان قضية اللغة قد استفدت جزءا كبيرا من عناية النقاد العرب ، وكانت مدار الدرس النقدي عندهم ، فانهم حين أقدموا على الكتابة في النقد العربي لم يولوا تلك القضية ما تستحق من العناية، وانما راحوا يتصفنون ما في ذلك النقد من آراء تتعلق بموضوعات النقد الأخرى : كاهية الشعر وغايات الأدب وصفات الناقد والذوق ووحدة الموضوع والطبقات والخصومة والخيال واجناس الأدب والطبع والتكلف والصدق والكذب والموازنات والسراقات الخ . . . وتركوا ، برأى ، ما هو أهم من ذلك جميعا ، أعني الاطار اللغوي الذي يضم تلك الموضوعات كلها .

فنحن اذا رجعنا الى أي كتاب من الكتب التي صفت حديثا عن النقد عند العرب وجدناه يعنى بما في ذلك النقد من آراء وملاحظات تتصل بالموضوعات التي أشرنا اليها ، مع محاولة ربطها او موازتها بما للنقاد المحدثين من آراء . أما قضية النقد العربي الاولى ، وهي اللغة ، فلا نجد في هذه الكتب

الحديث الا اشارات سريعة اليها ، لا تجلي موقف القدامى منها ، ونظرتهم اليها مع انهم لم يهتموا بشيء ، اهتمامهم بها ، وما أكثر خصوماتهم حولها .
 وحين أردت أن اسهم بجهدى المتواضع في كتابة بحث ، اسدي به خدمة الى اللغة العربية الخالدة وأدبها وتقدها ، لم أجد غير موضوع النقد اللغوي يأخذ عليّ مسار تفكيري لأهيته القصوى ولانصراف الدارسين المحدثين عنه وتلهيهم بغيره من موضوعات النقد ، فرأيت أن ادرس هذا الموضوع خدمة للتراث العربي وتجليه له من جوانبه جميعا ، ولم أحفل - عند اقتناعي بأهمية هذا الموضوع - بما يعرض للباحث فيه من صعوبات جمة ، بل زادني تلك الصعوبات رغبة فيه ، واندفاعا نحوه .

ومن هذه الصعوبات ان المادة النقدية التي تتعلق بلغة الأدب لا توجد في كتب النقد فحسب ، بل هي مبثوثة في المعجمات وكتب اللغة والنحو والبلاغة والتراجم والطبقات . ولا يستطيع الباحث ان يبرز موقف النقاد من لغة الأدب ، ما لم يرجع الى هذه المطان جميعا ، ويستخلص ما تفرق فيها من نقد لغوي . وليس هذا العمل بالامر الهين وقد كابدناه ، وعانينا منه .

وهناك صعوبة أخرى ، لا بد من الاشارة اليها ، وهي ان جزءا كبيرا من النقد اللغوي وصل الينا على أنه لاحق بالنقد البلاغي ، أو متصل بالبلاغة ذلك لأن المتأخرين جعلوا كثيرا من باحث (النقد اللغوي) في دائرة البلاغة ، ففسوا بعضها الى (الممانى) والحقوا بعضها بـ (البديع) وتابعهم على هذا بعض المحدثين ، فصاروا ينظرون الى تلك الموضوعات على انها أمس رحما بالبلاغة منها بالنقد اللغوي ، أو على انها موضوعات بلاغية خالصة .

أما نحن فلم نخدعنا تقسيمات المتأخرين ، ومتابعيهم من المحدثين ، واخذنا من البلاغة ما رأيناه من النقد اللغوي ، وسيتضح ذلك للقارئ في غير موضع من هذه الرسالة .

وكانت طبيعة الموضوع تقضي بأن أجعل البحث في ثلاثة أبواب يستبها تمهيد ، وتقونها خاتمة . ففي التمهيد قدمت لمحة موجزة عن اللغة ، ورأيت أن

هناك ضريين من الاستخدام لها ، هو استخدام الجماعة في حياتها اليومية ، واستخدام الفن ، ثم أوضحت ميزات الاستخدام الفني ، وألمت بعد ذلك بالمنهج النقدي المتعارفة لأصل من ذلك الى تقرير أن (المنهج اللغوي) هو المنهج الملائم لطبيعة العمل الادبي ، القادر على استكشاف ملامح الاستخدام الفني للغة . وأوضحت أن العرب عرفوا (المنهج اللغوي) في النقد ، وقدمت الدليل على ذلك ، ثم ختت التمهيد بأمثلة من أقدم صور النقد اللغوي عند العرب .

وفي الباب الاول درست العوامل التي أثرت في النقد اللغوي أو التي أذكت حركته ودفعت الى استخدامه ، وجعلت الباب في حقة فصول هي : الرواية ، والتطور اللغوي ، والتعصب للتقديم ، والخصومة ، والاعجاز ، وتناولت في كل فصل واحدا منها والمقاييس والنظرات التي أثارها .

ولما كان الناقد اللغوي يعرض النص على ضريين من المقاييس ، يتكفل الضرب الاول بتشخيص ما في لغة الأدب من أخطاء وأوهام ، ليرشد الى ما يقابلها من الصواب ، ويتكفل الضرب الثاني بتحديد مواطن الجودة والرداءة في تلك اللغة ، فقد جعلت الباب الثاني في فصلين ، بحث في الفصل الاول مقاييس الخطأ والصواب ، وتحدثت في الفصل الثاني عن مقاييس الجودة والرداءة .

وجاء الباب الثالث من البحث ليبين قيمة النقد اللغوي ، أي ما له من أهمية وفوائد ، وما عليه من المآخذ ، وقد وزعت الباب على فصلين تكلمت في أولهما على وجوه الاهية والفوائد ، وتناولت في ثانيهما المآخذ والعيوب . ثم أوجزت في الخاتمة صورة البحث ، وقدمت خلاصة لأهم ما جاء فيه .

وإذا كان من شأن الباحثين أن يأتوا في رسائلهم بجديد ، أو يرتادوا افتقا لم يسبقوا اليه ، فإني قد فعلت ذلك ، وعرضت لموضوع شائك ووعر ، تجافى الدارسون قبلي عن الغوص وراء دقائقه وتفصيلاته ، واقتصروا على الامام السريع الموجز ببعض قضاياها وأطرافه . لقد قدم هذا البحث ، أول

مرة ، وبصورة مفصلة نظرة النقاد العرب للغة الأدب ، وما اثاروه حولها من قضايا ومشكلات ، وما بذلوه في سبيلها من جهد خصب ومشر .

ومن أجل أن اصل بهذا البحث الى ما كنت أرجوه له من نضج وسداد ، فقد بذلت فيه اقصى الجهد ، ومنحته من وقتي وعافيتي غاية ما يمنحه باحث ، ولكنني مع ذلك لا ادعي له الكمال ، فلك غاية لا تتال .

وبعد :

فاني مدين بهذا البحث لاثنتين من اساتذتي هما : الدكتور علي جواد الطاهر الذي اقترح علي موضوع البحث وأثار لي سبيل معالجته وخطة السير فيه . والدكتور جلال الخياط الذي تولى الاشراف عليه ، فكان لي من توجيهاته الصائبة وآرائه السديدة خير عون على تسهيل وعورته وتذليل صعابه ومشكلاته . فاليهما تحية التليذ البار وشكر المعترف بالجميل . والله ولي التوفيق .

نعمة رحيم المزاي

التهويد

اللغة تربط بين الفرد وغيره من ابناء الجماعة اللغوية ، فهي وسيلة للتعبير والتفاهم وتبادل الآراء والافكار ، ولولا اللغة لظل الانسان بعيدا من مجتمعه ، منفصلا عن الآخرين ، لا يدرك تماما ما يجري حوله من أحداث ، ولا يسهم فيها بشكل مؤثر فعال . وساعدت اللغة على إثراء العقل البشري بما تطور من علوم ومعارف ، بوصفها أداة توصيل ، وحفظ لما اكتشفه الانسان في هذا المجال أو ذلك . والمتكلم بلغة ما يجد أمامه اصولا وضوابط ، قوامها عدد من الاجهزة تحكسها قوانين معينة ، وما عليه سوى أن يراعيها ، ولا يحيد عنها .

فاللغة جهاز صوتي يتم استعماله حسب قواعد معينة ، لا بد للمتكلم من أن يطابقها عند الكلام ، وللغة جهاز صرفي يتكون من مجموعة من الصيغ ، تخضع لقوانين محددة ، درجت عليها البيأة اللغوية ، فلا مفر للمتكلم من أن يراعيها ، ويخضع لها ، ومثل هذا يقال عن (النحو) و (المعجم) ، فلكل منها اصول وقوانين يجري المتكلم عليها ، ولا يخل بشيء منها (١) .

وهكذا فاللغة مجموعة تقاليد صوتية ، ورثتها الجماعة اللغوية عن اسلافها ، فالتزمت بها . واذا كان العرف هو الذي يحدد المقاييس الاجتماعية ، فانه هو الذي يحدد معايير الاستعمال في اللغة ، واذا كان الفرد خاضعا دائما لما يحدده العرف من المقاييس الاجتماعية ، فهو خاضع أيضا لما يحدده العرف من معايير لغوية . بمعنى أن الفرد الذي يتكلم بلغة المجتمع الذي نشأ فيه ، يستعمل اصواتا وصيغها ومفرداتها وتراكيبها ، حسب اصول استعمالية معينة .

(١) لتفصيلات اكثر ينظر : اللغة بين المعيارية والوصفية : ٩ ، ١٠ .

بعد أن يحذقها ، ويرن عليها بالدربة ، والمشاركة المستمرة في التخاطب ، فتصبح سلوكا اعتياديا ، يصدر عنه دون عت او مشقة .

فاللغة ، اذن ، من نتاج (العقل الجمعي) كما يقول علماء الاجتماع ، وكل فرد منا يشأ فيجد بين يديه نظاما لغويا يسير عليه مجتمعه ، فيتلقاه عنه ، كما يتلقى النظم الاجتماعية الاخرى (٢) .

وكما يحصي المجتمع ما يتواضع عليه من تقاليد وعادات سلوكية ، فانه يحصي اللغة ، ويشدد الرقابة على من يتكلمها ، ويقف موقفا صارما ازاء أي خروج عن نظامها ، ويرمي من يخطيء فيها بالجهل والغفلة ، وقد يجعله موضع هزة وازدراء (٣) .

والمجتمع لا يستكر الخطأ اللغوي الناشئ، عن جهل المتكلم باللغة ، أو سهوه عن تقاليدها ومواضعاتها فحسب ، بل يتكر أيضا الاخطاء التي لايد للتكلم في الوقوع فيها ، ولا قبل له باصلاحها ، لنشأتها مثلا عن خلل طبيعي في احد اعضاء النطق . ان مثل هذه الاخطاء الطبيعية تعرض صاحبها لسخرية المجتمع ، وتجرب عليه متاعب وآلاما ، وتزهده في المحاوراة والمخاطبة . وفي بعض كتب اللغة والأدب امثلة كثيرة (٤) ، لما كان يمانيه المصابون بخلل في اعضاء النطق من متاعب ومصاعب ، ليجعلوا كلامهم خاليا من الاصوات التي لا يحسنون نطقها ، ولا يعطونها المخارج التي تجب لها .

فالمجتمع يرعى النظام اللغوي ، ويأخذ الناس بالمحافظة عليه ، وليس لمن يخالفه ، أو يغفل بشيء من قواعده ومواضعاته عذر . ولكن مع ايماننا بأن اللغة ظاهرة اجتماعية ، فاننا يجب أن نفرق بين استخدامين للغة : استخدام الجماعة ، واستخدام الفن .

(٢) اللغة والمجتمع : ٤ .

(٣) لتفصيلات اكثر ينظر : اللغة بين المعيارية والوصفية : ١٠ وما بعدها و : اللغة والمجتمع : ٥ ، ٤ .

(٤) ينظر مثلا : البيان والتبيين : ٢٤/١ وما بعدها ، و٧٢ وما بعدها . والشعر والشعراء : ٧٦٦/٢ . هـ . ٣ .

فليس من شك في أن لغة الكلام العادي تنقل الافكار من المتكلم الى السامع ، وان على الانسان ان يلتزم في حديثه العادي بلغة الجماعة ، ويخضع لما تتبع هذه اللغة من نظام في مفرداتها وتراكيبها وأساليبها ، كما يتقيد بدلولات الالتفاف ، فلا يحيد عن شيء من ذلك ، ليضمن للغة أن تؤدي عنه ما يريد . ولو حاول فرد ان يخرج في حياته عن النظام اللغوي للجماعة ، بأن يخترع لنفسه لغة يتفاهم بها ، لما وجد من يفهم حديثه ، ولصح للجماعة ان تصفه بالشذوذ والمروق (٥) .

غير ان الذي يحدث في ميدان الحياة العملية ، لا يصح في عالم الفن والادب . فاذا تقيد الفرد العادي في حياته العامة بلغة الجماعة ، وخضع لنظامها وقوانينها ، وجدنا الأديب يتمتع بقدر كبير من الحرية الفنية في استخدام اللغة . فمع التزام الأديب بلغة الجماعة وقواعدها واصولها ، ومع رعايته لقوانينها العامة ، فهو حر ، بحدود ما يبدع ويبتكر ، في استخدام هذه اللغة ، ويملك من أمرها ما لا يملك الانسان العادي من أمر لغته .

ان لغة الادب لا تقتصر على نقل الافكار فقط ، بل هي - الى جانب تأديتها هذه الوظيفة الاساسية - غاية بنفسها ، أو هي أداة الخلق الفني ، لا تلتزم أحيانا بالاطار اللغوي الشائع . ولو اتبع الأديب التركيب اللغوي الاعتيادي لكان كلامه نوعا من التقليد البحت ، أو شكلا من اشكال الكلام الذي يفتقر الى الاساس الاول الذي ينبني عليه أي خلق أدبي ، وهو رؤية الفنان الذاتية ، وقدرته الخاصة في صياغة أثره الفني في صورة جديدة ، تدهش القارئ ، وتلفت انتباهه الى عبقرية الأديب في استخدامه للغة (٦) .

فاللغة تتخذ عند الأديب الحق ، في بعض الأحيان ، اشكالا غير التي يتداولها الناس ، ويتواصلون بها ، فلا نجد فيها الفاظا كثر استخدامها حتى بليت ، وامسحت معالمها ، وبهتت نلالها ، فلم تعد تقدر على تحريك أو اثاره .

(٥) اللغة والمجتمع : ٥ . وينظر : قضايا النقد الادبي والبلاغة : ١٥ .

(٦) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ١٦ .

ولا تحكم تلك الالفاظ غالبا علاقات وارتباطات عامة ألقها الناس ، وسكنوا اليها ، حتى استحالت الى ما يشبه الاصطلاحات الجامدة . ان مهمة الأديب تنحصر احيانا في اقامة علاقات جديدة بين الالفاظ ، وابتداع سياق لغوي مسلوء بالايحاءات الجديدة (٧) . يأتي الأديب المبدع الى الكلمة ، وهي أداة عادية ، فيجعلها تدل دلالة غير مألوفة ، وأول ما يلجأ اليه ليجعل الكلمة العادية غير عادية ، هو ان يستعملها بارتباط غير مألوف (٨) .

ومن عرف باقامة علاقات غير مألوفة بين الالفاظ ابو تمام ، الذي كان مولعا ، في هذا المجال ، بالابتعاد عما ألف الناس ، فجرّ ذلك عليه نقد الذين لا يبيحون للأديب حرية التركيب اللغوي ، ويطالبونه بالابتناء على ما بين الالفاظ من علاقات شائعة . قال ابو تمام :

رقيق حواشي الحلم لو ان حلمه بكفيك ما ماريت في أنه برد

فقال ابن عمار :

« هذا هو الذي أضحك الناس منذ سمعوه والى هذا الوقت » (٩) .
 أما الأديب فلم يكتف بالسخرية من الشاعر ، بل قال : « والخطأ في هذا البيت ظاهر ، لأنني ما علست أحدا من شعراء الجاهلية والاسلام وصف الحلم بالرقّة ، وانما يوصف بالعظم والرجحان والثقل والرزانة » (١٠) . ثم ساق عددا كبيرا من الشواهد على ذلك ، اختارها من شعر الجاهليين والاسلاميين ، وذكر أن العرب كانوا اذا ذموا الحلم وصفوه بالخفة ، وأيد ما ذكره بشواهد كثيرة . ثم أخذ على أبي تمام انه وصف البرد بالرقّة ، وقد جرت العادة بوصفه بالمثانة والصفاقة . واستنكر أشد الاستنكار قوله (لو أن حلمه بكفيك) . ثم أقر الأديب بأن ابا تمام لم يكن ليذهب هذا المذهب في شعره ، جلا منه

(٧) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ١٥ ، ١٦ .

(٨) النقد الادبي (سهر القلماوي) : ٦٧ .

(٩) الموازنة : ١٢٨/١ .

(١٠) نفه : ١٤٢/١ .

بالمعارف من وصف الحلم ، أو نعت البرد ، فكثيرا ما جاء في شعره وصف
الحلم بالرزاة ، مقتديا في ذلك بالعرب ، ولكنه كان يجنح في بعض الاحيان
الى مغايرة ما تعارف عليه الناس (١١) .

وفي « مغايرة ما تعارف عليه الناس » من علاقات بين الالفاظ يكمن
الابداع احيانا وتبرز شخصية الاديب . لقد غير الناس زمانا قبل ابي تمام
وهم يجدون « الحلم » مقرونا الى الرزاة ، او موصوفا بها ، ويجدون «البرد»
مضموما الى الغلظة أو المتانة ، فجاء أبو تمام ، فلم يشأ ان يجري على ما جرى
عليه الناس ، أو أن يأخذ بقوالبهم واستعمالاتهم ، فانشأ للحلم قرينا آخر ،
وابتدع له الفا جديدا ، وضم اليه كلمة اخرى ، غير التي لصقت به زمنا
طويلا فقال (رقيق الحلم) ، وفعل مثل ذلك في تغيير العلاقة بين (البرد)
و (المتانة) فقال : (رقيق البرد) . ان عمل ابي تمام هذا هو الذي قصدناه
حين قلنا ان الاديب يتعد ، احيانا ، عن العلاقات المألوفة بين الالفاظ ، وينشيء
سياقا لغويا جديدا ، غير الذي سكن اليه الناس ، وألقوه .

*

واذا عرضنا للاستخدام الفني للغة ، فأتنا نأخذ الان في ايضاح المنهج
النقدي الذي يجلي هذا الضرب من الاستخدام ، ويتكفل بابرار جبالية اللغة
الأديبية .

تفاوت المناهج التي يتبعها النقاد ، فبعضها ينظر الى النص الادبي في
ضوء قواعد وأصول فنية ، للنوع الادبي الذي يتسم اليه النص ، مستمدة من
آثار قديمة خالدة . ويسمى هذا المنهج بالمنهج الفني (١٢) . وبعضها يتجاوز
العمل الادبي وما ينطوي عليه من قيم تعبيرية وشعورية الى البحث في مدى
تأثر صاحبه بالبيئة او العصر ، والناقد الذي يفعل هذا ، ينحو منحى تاريخيا

(١١) نفسه . ١٤٢/١ .

(١٢) لتفصيلات اكثر ينظر : في النقد الادبي : ٢٧٧ .

في نقده (١٣) . ومن النقاد من يصطنع (المنهج النفسي) ، ويرى أن من انتعذر عليه أن يفهم هذا العمل أو ذلك دون الاعتماد على حقائق علم النفس (١٤) .

ويبدو ان الذي بحث على اتباع المنهج التاريخي أو المنهج النفسي ، هو الرغبة في جعل النقد علما ، يقوم ، كما تقوم العلوم الاخرى ، على قواعد وقوانين تنأى به عن أن يكون احكاما تأثرية ، لا تخضع لقواعد ولا تستند الى دليل (١٥) .

واذ حاول عدد من النقاد تطويع النقد لنظم العلم ، صاروا يستينون بالعلوم ، فاستنجد بعضهم بحقائق التاريخ ، واستنصر آخرون بقوانين علم النفس ، والتس غير هؤلاء في حقائق علم الاجتماع ما يعينهم على فهم الأدب ، وتفسير ظواهره .

غير ان هذا الاتجاه قد وجد من يقاومه ، ويقف في سبيله ، لا في النقد العربي الحديث فحسب ، بل وفي النقد الاوربي أيضا . فقد حرص بعض النقدة في أوربا على أن يظل النقد « حرا طليقا لا تقيده قيود » (١٦) . كما سخروا من النقد الذي يواجه الادب بحقائق غريبة عنه ، ووصفوه بأنه « يدور حول الفن ولا يدخل فيه » (١٧) . وكان هؤلاء النقاد يرون « أن الاثار الأدبية ليست الا دلالات على نفسها ، ولا تعبر عن شيء في الواقع الا عن نفسها » (١٨) . وعلق بعضهم على نظرية الزمان والمكان والجنس بقوله : « ان دراسة هذه النواحي من الاثر الادبي هي معاملة النص الفني على انه مستند تاريخي أو اجتماعي والنتيجة بالتالي لا تكون الا دراسة في تاريخ الثقافة او المدنية ، دون أن يكون للادب بل لتاريخ الادب المكان الاول » (١٩) .

(١٣) لتفصيلات اكثر ينظر : نفسه : ٢٨٨ .

(١٤) لتفصيلات اكثر ينظر : التفسير النفسي للادب : ١٦ وما بعدها .

(١٥) في الميزان الجديد : ١٣٢ .

(١٦) النقد الادبي : ٤٨ .

(١٧) نفسه .

(١٨) نفسه : ٤٩ .

(١٩) نفسه .

وإذا جئنا الى النقاد العرب المحدثين ، وجدنا منهم من يهاجم اقحام العلوم على الادب ، ويرتاب أشد الرعب في النتائج التي يتوصل اليها النقاد اعتمادا على شيء من قواعد علم النفس او التاريخ أو الاجتماع : « فالأثر الادبي ليس في طبيعته ما يمكنه من هذه الدلالة المباشرة على أي شيء من تاريخ أو اجتماع أو سياسة بل من علم نفس أيضا ، وانما هو بحكم فنيته التي هي هدفه الاول يدل - ان دل - على مثل هذه المعلومات بطريق ملتو غير مباشر » (٢٠) .

وكان محمد مندور يرى في اقحام العلوم على الأدب كارثة عليه ، وقتلا لروحه : « وأنا اذ اقاوم بكل قوتي هذا الاتجاه الذي يصدر عنه الاستاد خلف الله ، لا ادعو الى الكسل او الى اسهال ابحاث علماء النفس والجمال والاجتماع فهذه أشياء اضعنا فيها جزءا كبيرا من شبابنا ، وهي لا ريب تفتح آفاقا للتفكير ، وقد تزيدنا بالانسان معرفة ، ولكنني أقول إنها غير الأدب ، وانه لا يجوز ان نطن اتنا سجدد الادب في شيء عندما تفحصها فيه ، وخير عندي من كل هذا ان تناقش قصيدة شعر او رواية ، واني لمؤمن ايماننا لا يتزعزع بأنه من الاجدى على استاذ الادب ان يناقش امام طلبته ، او يعرض على قرائه مناقشة نص ادبي ، يقف عند تفاصيله ، ويظهر ما فيه ، من ان يشرح لهم في سنين او في مئات الصفحات نظريات علم النفس او علم الجمال ، فهذه ان تكون ادراكا ادبيا ، هذه لن تصقل ذوقا ، ولن ترفه حسا ، وتلك هي ملكات الادب التي يجب ان نتميتها وان نتمهدا . يجب ان نحبس أنفنا في الأدب ، واما الفرار الى غيره فلا » (٢١) .

وإذا كانت محاولة اقحام العلم على الادب قد فشلت ، أو لم تجد لها الا انتصارا قلائل ، لان الادب بطبعه نام متغير ، ومحاولة أخذه بالمعادلات محاولة ظالمة له ، تعمل على جفافه ، وتسلبه نظرفته ، ولا تصل بنا الى ما نروم

(٢٠) نفسه .

(٢١) في الميزان الجديد : ١٢٢ .

معرفته ، والوقوف عليه من اسراره ، فما المنهج الذي رأى عدد من النقاد أن يدرس الادب في ضوءه ، وعلى هدى منه ؟

وجد بعض النقاد ان المنهج الفني احق بالاتباع ، لانه اقرب الى طبيعة الادب ، من المنهجين الآخرين ، ومن كل منهج يقم العلوم وقواعدها على الادب . ووجدوا أيضا ان هذا المنهج يتيح للنقاد قدرا كبيرا من الحرية ويمكنهم من ان ينتفعوا بما تقفوه ، وحصلوا عليه ، من الوان الثقافة ، وفنون المعرفة ، ويحررهم من اتباع علم معين ، أو الاعتداد على ثقافة دون سواها (٢٢) .

وامة ميزة أخرى للمنهج الفني ، هي انه يجعل النص محور العملية النقدية ، في حين ان المنهجين التاريخي والنحوي ، يبعدان الناقد عن النص ، ويقلان من عنايته به ، لانها يجعلانه يحوم حول النص ، دون ان يدخل فيه ، أو يحبس نفسه في داخله ، ويواجهه بما هياه له من عدوة ، قوامها الذوق المدرب المصقول ، والنظرة العلمية الواسعة ، التي تدعم الذوق ونسده ، وتجعل ما يصدر عنه مقبولا ، يعتد به ويركن اليه .

ووجد غير هؤلاء ان النص الادبي يجب ان يتأثر بكل اتجاه الناقد ، ودراساته (٢٣) ، وهم لذلك لم يروا في المنهج الفني ، على وثاقة علاقته بالنص ، منهجا كافيا لخدمة النص الادبي ، واستباط جميع قيمه وأسراره . ثم نظروا ، فوجدوا ان الادب فن لغوي ، وان اللغة هي المادة الاولى له ، وهي تقوم منه مقام الالوان من التصوير ، والرخام من النحت ، انها « الصق بموضوع الادب من هذه المواد الاولى بموضوع فنونها ، وذلك لان الفكرة والاحساس لا يعتبران موجودين حتى يسكنا الى اللفظ . وكثيرا ما تكون المشقة في اخضاع الفكرة او الاحساس للفظ ، وكثيرا ما يكون الخلق الفني مستقرا في العبارة ذاتها ، بحيث انك لو اعدت التعبير عن الفكرة او الاحساس لانهت الى شيء مغاير للخلق الفني الاول » (٢٤) .

(٢٢) في النقد الادبي : ٢٠٨ .

(٢٣) النقد الادبي : ٥٨ .

(٢٤) في الادب والنقد : ١٧ .

ادرك بعض النقاد ذلك ، فاتجهوا الى اللغة ، بوصفها الاداة التي يستعملها الفن الادبي ، واخذوا يهتمون بدراساتها ، حتى اصبحت كل شيء ، عندهم ، وحتى أخذت دراساتهم حولها ، تنحصر ، وتسم في التخصص ، فتقتصر على الصوت اللغوي مثلا ، أو تقف عند جرس اللفظة وعلاقته بمضمونها ، الى غير ذلك من ابحاث ، تكشف عن نتائج كثيرة ، تميز النقد بلا جدال ، لانها تدور حول حقيقته الاول ، وتزيد العلم اللغوي أيضا (٢٥) .

لقد استقر هؤلاء النقاد على ان المنهج الذي يلائم الدرس النقدي ، ويرتبط أشد الارتباط بالفن الادبي ، هو « المنهج اللغوي » الذي يقوم على النظر في لغة النص ، ويتجه الى فقها ، بوصفها أداة الاديب ، وموضع عنايته ، ومجلى نبوغه ، واصالته .

ولا شك في أن ما ينفع الناقد ، وهو يواجه اللغة ، ويجعلها مدار نقده ، هو علم اللغة ونظرياتها ، ومناهج درسها وفتحها ، لان من شأن هذه العلوم والنظريات أن تزیده علما بلغة الادب ، وتجعله أبصر بأسرارها ، وأقدر على استخراج طاقاتها التعبيرية . يقول محمد مندور : « وموضع الخطر هو ان نقحم على دراستنا معارف اقل ما فيها من اضلال ، هو صرفنا عن ان نركز نظرنا في الادب كفن لغوي ، واهمين اننا نجدده ، اذ تتناوله بباديء علوم أخرى . واما النظريات اللغوية ، واما علوم اللغة ، ومناهج اللغة ، فذلك موضع دراستنا الذي نعتز به » (٢٦) .

وكان مندور قد دعا الى « المنهج اللغوي » في درس الادب ونقده ، وعقد لشرحه ، وبيان جدواه واهميته ، فصولا عديدة في كتابه (في الميزان الجديد) ثم جدد الدعوة اليه في كتابه (النقد المنهجي عند العرب) . وقد دفعه الى التزام المنهج اللغوي ما أخذ يشيع في النصف الثاني من هذا القرن من دراسات نقدية ، اتخذت لها متكا من قواعد علم النفس او غيره من العلوم ،

(٢٥) النقد الادبي : ٥٨ .

(٢٦) في الميزان الجديد : ١٤٤ .

بدعوى اخضاع النقد للعقل ، وتخليصه من التحكم الذوقي ، وانطراب المقاييس ، فاتمى أكثر تلك الدراسات الى نتائج لا تؤيدها النصوص التي أريد لتلك النتائج ان تقوم عليها . ذلك لان الدارسين لم يفهموا تلك النصوص على وجهها ، ولم يمتدوا الى دلالات الالفاظ والتراكيب فيها .

من ذلك أن محمد خلف الله درس خطب الحجاج ، فوجده في احدى خطبه يكثر من كلمة « واني » فيقول : اني لأرى رؤوسا اينمت وحنان قطاقها ، واني لصاحبها . . . واني . . . واني . . . » وذكر ان في علم نفس الاطفال مرحلة تسمى « التركيز الأنبي » ، وهي تلك التي يرد فيها الاطفال كل شيء الى أنفسهم . واذا كان الحجاج يكثر من استعمال ضمير المتكلم ، فهو اذن مولع بذاته ، أو مصاب بـ « الأنية » (٢٧) . فقال مندور : « وهذا مثل ثان لطغيان علم النفس على الادب . وأنا بعد لا أرى في هذا انية ما ، وانما هي حساسة قلب ، تلتمس من طرق الاداء ما يشفيها . ذلك ما يحدثني به المنهج الفقهي ، المنهج الطبيعي المستقيم » (٢٨) .

ولا اشك في أن خلف الله قد ابعد في الاستنتاج ، ولم يوفق الى تفسير اختيار الحجاج لكلمة « واني » واستكثاره منها . وكان مندور على حق عندما أحس بذوقه المرهف ان استخدام الحجاج للضمير « أنا » وتكراره آياه ، يدل على انه كان في سورة غضب وهياج ، لم يجد ما يفتؤها ، ويخفف من حدتها ، الا الاكثار من هذا الضمير .

وكان العقاد قد لاحظ ان المتنبى يكثر من استعمال التصغير ، فربط بين هذه الظاهرة ، وبين ما عرف عن المتنبى من غطرسة وتكبر (٢٩) . بمعنى أن المتنبى لو لم يكن تياها ، مفرط الكبر ، لما استخدم التصغير ، ولا عرج عليه .

(٢٧) في الميزان الجديد : ١٤٥ نقلا عن عدد من « الثقافة » لم يذكره .

(٢٨) نفسه : ١٤٥ .

(٢٩) مطالعات : ١٢٤ وما بعدها .

وقد علق مندور على رأي المقاد بقوله : « وهذا أيضا من طغيان
النفسيات على الأدب » (٢٠) . والحقيقة ان التصغير - كما يرى النحاة (٢١) -
كثيرا ما يكون للتحقير ، والنتيبي لم يأت به الا في معرض ذم أو هجاء . كان
يقول « الثومير » أو « كوفير » أو « الاحيق » أو « الخويدم » أو
« أهيل » ، مريدا بذلك تحقير خصومه ، والنض من شأنهم . ومعنى ذلك أن
التصغير عند المنتبي - كما هو عند غيره من الشعراء - اداة من ادوات الهجاء ،
ووسيلة من وسائل ايلام المهجو ، وليس وليد كبرياء ، أو وليد طبيعة نفسية
خاصة (٢٢) . وقد استخدمه المنتبي للتعظيم فقال :

أحاد ام سُداس في أحاد ليلتنا المنوطة بالناد

فالليلة طويلة حتى ظن الشاعر أنها لم تكن واحدة ، بل سبعا . واذا كان
هذا طوليا ، فلا يتقيم له تصغيرها فيقول : « لَيْلَتْنَا » الا ان يكون قد
أراد تعظيمها . والتصغير من معانيه التعظيم . ولقد سئل المنتبي نفسه عن
ذلك فقال : « هذا تصغير التعظيم ، والعرب تفعله كثيرا ، قال لبيد :

وكل أناس سوف تدخل بينهم دُوَيْهِيَةٌ تصغرَ منها الا نامل

أراد لطف مدخلها فصغرها . وقال الانصاري : أنا عذيقها المرجب
وجذيلها المحكك فصغر ، وهو يريد التعظيم » (٢٣) .

من هذا نرى ان العلاقة بين التصغير والتكبير لا تطرد ، لان التصغير
لا يفيد التحقير وحده ، بل يفيد معاني أخرى كالتلميح والتعظيم وما إليها (٢٤) .

(٢٠) في الميزان الجديد : ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٢١) شرح العكبري : ١٨٢/٣ .

(٢٢) في الميزان الجديد : ١٤٦ .

(٢٣) الوساطة : ٥٨ ، ٥٩ (عديق : تصغير علق وهي النخلة . والترجيب :

ارفاد النخلة من جانب اليمنها من القوط ، ومعنى قوله : لي عشرة

تمعدني . والجلد عود ينصب للابل الجربى تحتك به فتشفى اي لي

علم ورأى يشفى بهما كما تشفى الابل الجربى بهذا الجلد) .

(٢٤) شرح العكبري : ١٨٢/٣ .

وما على الناقد الا ان يستعين بالسياق الذي ترد فيه الصيغة ، ليستشف معانيها .
ومن الخطأ أن نعسم على غير احتياط ، فربط بين التكبر والتصغير ، اعتمادا
على قوانين علم النفس (٢٥) .

فالدرس النقدي لا يكون مأمون النتائج ، قريبا من طبيعة انعسل
الأدبي ، الا اذا ابعدنا العلوم عنه ، وجعلنا غايته الاولى فقه لفة النص ،
واستكشاف اسرارها ، وما دفع اليها من ظروف قولية ، في ضوء ما تسليح
به من معرفة عامة ، ومعرفة لغوية لا تقف عند حدود الالمام بالنحو وانصرف
وغيرهما ، بل تتعدى ذلك الى معرفة اللغة معرفة حس وعاطفة . بمعنى ان ندرك
« أرواح » الالفاظ لا أشباحها ، وما أرواحها الا الايحاءات والظلال ، وأما
اشباحها فمعانيها المعجية الباردة . وهذا الضرب من معرفة اللغة هو من
المواهب التي لا يرزقها الا القليل (٢٦) .

على أن المنهج اللغوي لا يقتصر على اثاره مواطن الحسن ، والتقاط
القيم النفسية والشمورية التي تنبض بها الالفاظ والتراكيب ، وإنما يتعدى ذلك
الى النظر في تلك اللغة ، من حيث موافقتها او مخالفتها لمواضعات اللغة ،
ونظامها المتعارف . ان من تمام عمل الناقد اللغوي أن يدل الاديب على قاعدة
فارقها ، أو زلة لغوية وقع فيها .

ومن النقاد من يرى أن هذا الجانب من عمل الناقد اللغوي ليس بذى
قيمة أو خطر ، اذا قيس بعمله في تفسير لغة النص وتحليلها ، ووضع اليد على
منابع الجمال فيها . وأن بإمكان الاديب أن يرجع الى المعجمات ، وكتب
التواعد ، ليصحح لغته ، ويتخلص من اخطائه (٢٧) . او يرجع الى الشعراء
الكبار ، فما طابق لغتهم ، وكان جاريا على اساليبهم ، كان صحيحا ، وما ندد
عن تلك اللغة والأساليب ، هو خطأ ولحن (٢٨) .

(٢٥) في الميزان الجديد : ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٢٦) في الادب والنقد : ١٨ .

(٢٧) اللغة بين الفرد والمجتمع : ١١٠ .

(٢٨) اللغة بين الفرد والمجتمع : ١١٥ .

ولكن الاديب لا يستطيع أن يرجع الى المعجمات لمعرفة اخطائه ، لأن المعجمات سجل للالفاظ والعبارات ، كما استعملت منذ عصر بعيد ، وهذا يجعلها احيانا مخالفة لما صارت اليه الالفاظ والتراكيب في العصور المتأخرة (٢٩) . كما أن الاديب لا يستطيع أن يرجع الى الشعراء الكبار بشأن الصواب والخطأ في لفته ، اذ ليس من السهل الاتفاق على شاعر معين ، أو عصر خاص ، يتخذ الادباء من لفته نبراسا للصواب ، ومقياسا للصحة . وحين اتخذ اللغويون في أول العصر العباسي لغة الاقدمين من الجاهليين لغة مثالية ، يجب أن تحتذى ، نشب صراع جاد بين الأدباء والنقاد ، وثار الشعراء على هذا القرار الذي أهمل ما جاءوا به من جديد طريف . ثم ان الشعراء الكبار ، متقدمين ومتأخرين ، لم يسلّموا من الخطأ ، ولذا لا يصح الاقتداء بكل استعمالاتهم وقد حفظت كتب اللغة والنقد ناذج من أخطائهم ، ومخالفاتهم اللغوية (٤٠) .

فالظاهرة الادبية ، اذن : « ظاهرة لغوية في جوهرها ، لا سبيل الى التانييها الا من جهة اللغة » (٤١) . ومعنى ذلك ان النقد اللغوي دون سواه من فنون النقد الاخرى ، هو الذي يلائم هذه الظاهرة ، لارتباطه الوثيق بأدائها الخام ، ومادتها الاولية ، أعني اللغة . على ان الناقد اللغوي يعرض لغة النص على ضريين من المقاييس : يتكفل الاول ببيان مواضع الجودة والرداءة في تلك اللغة ، ويتكفل الآخر بتشخيص الخطأ فيها ، والارشاد الى الصواب . وكلا المقاييسين متمم للآخر ، ولا تصح عملية النقد اللغوي الا بالرجوع اليهما .

*

بقي ان نعرف : هل خبرت العرب النقد اللغوي ؟ وما أقدم صورته عندهم ؟ لقد احب العرب لغتهم ، وفتنوا بها ، وبهرتهم قدرتها العجيبة على

(٢٩) نفسه : ١١٠ .

(٤٠) اللغة بين الفرد والمجتمع : ١١٧ .

(٤١) التركيب اللغوي للادب : هـ .

الاعراب عن أدق خلجات النفس ، وأخفى اسرار الضمير ، وقد أدام هذا الحب الى ان يبالغوا بالعناية بها ، ويتجهوا الى البحث المدقق عن اصولها وخصائصها ، ويؤلفوا الكتب التي تتوخى صيانتها ، والابقاء على نقائها ، فحظيت بمؤلفات كثيرة في نحوها وصرفها ومنتها ، وغير ذلك من فروع درسها المتشعب انواحياً ، المتعدد الاتجاهات .

وقد كان نزول القرآن الكريم بالعربية سبباً مهماً في زيادة حب العرب للغة ، واشتداد حفاوتهم بها ، لانهم ادركوا ان العناية بها سبيلهم الى فهم القرآن ، والوقوف على مراميها ، وطريقهم الى المحافظة عليه من تسرب الخطأ الى تلاوته .

ولم يكن القرآن الكريم باعثاً على زيادة حب العرب للغة فحسب ، بل كان السبب الذي جعل افئدة غير العرب من المسلمين ، تهوي الى هذه اللغة ، وتتشد معرفتها ، معرفة حذق وتخصص ، ليشاركوا اخوانهم العرب في فقه الدين ، وادراك مرامي القرآن .

لقد كان حب العرب للغة حقيقة لا مرء فيها ، وكانت خدمتهم لها ، وعنايتهم بدرسها ، حقيقة أخرى لا تقل عن الاولى وضوحاً وسطوعاً ، وتكفي لاثباتها الاشارة العابرة الى ضخامة التراث الذي ورثناه بهذا الشأن .

والنقد اللغوي جانب من جوانب عناية العرب بلغتهم ، ووسيلة من الوسائل التي اتخذوها لبيان سحرها ، والحفاظ على سلامتها ونقاها . لقد عرف العرب النقد اللغوي ، وتوسعوا فيه ، واهتموا به في مصنفاتهم ، حتى لقد ذهب بعضهم الى ان العرب لم يعرفوا غير ضربين من النقد : الاول هو النقد اللغوي ، والثاني هو النقد البياني الذي يقوم على نقد الصور البلاغية المختلفة ، والكشف عن طبيعتها ، والتفنن في شرحها ، وابرار مواطن الجودة والرداءة فيها (٤٢) .

(٤٢) النقد الجمالي واثره في النقد العربي : ١١٥ .

وترجع معرفة العرب بالنقد اللغوي الى مرحلة مبكرة من العصر الجاهلي والدليل على ذلك أمران : الاول ان الشعر الجاهلي الذي وصل الينا يشل درجة عالية من النضج والاتقان ، وهو لم يبلغ هذه الدرجة الا بعد ان تعاقبت عليه مراحل ، خضع خلالها الى عملية نقد ، توخت تهذيبه ، وتقويم أوزانه وأساليبه . والثاني : ان هذا الشعر تنتقله لغة مشتركة ، ولا تكاد تظهر فيه اللهجات المتباينة التي كانت سائدة بين القبائل ، حتى يخيل الى المرء ان قائله جميعا كانوا ينحدرون من قبيلة واحدة ، وليسوا من قبائل شتى (٤٣) .

وتوحد لغة الشعر الجاهلي يعود الى عملية نقد لغوي طويلة الامد ، كانت قد بدأت منذ عصر مبكر ، لا نعرف حدوده ، ثم استمرت حتى نشأت لغة أدبية مشتركة ، استطاعت ان تتخلص من كثير من مظاهر اللهجات المحلية، التي لم تذب ، ولم تتلاش ، وانما ظلت قائمة ، يقصد اليها في مجالات الحياة اليومية (٤٤) .

وكانت قريش ذات اثر كبير في تهذيب لغة الادب ، وتقويتها من مستبح اللهجات ، ومبتسح الالفاظ والتراكيب . فقد كانت مكة - موطن قريش - ملتقى القبائل ، ومهوى افئدة العرب ، يأتون اليها ليطوفوا بالكعبة ، ويؤدوا

(٤٣) ان الاختلاف الذي كان حاصلًا بين اللهجات يتمثل في مظاهر معينة يتعلق بعضها بالاصوات كان تنطق تميم الهمزة (عينا) فتقول (امن) بدلا من (ان ..) فتسمى ليجتها هذه (عننة) وتبدل طياء الهمزة (هاء) فتقول (لهتك ...) بدلا من (لانك ...) ويتعلق بعضها باوزان المفردات ، كان تقول قبيلة (اسرى) في جمع (اسير) وتقول الاخرى (اسارى) . وتقول قبيلة (انظر) ، فتقول الاخرى (انظور) باشباع الضمة ومطلها . ويتعلق بعضها الاخر بالمفردات ، كان تقول قبيلة (مدينة) بدلا من (سكين) وتقول هذيل (متى) بدلا من (من) الجارة . وتقول حمير (وثب) بمعنى (جلس) . وقد يرجع الاختلاف الى الاعراب ، فمن العرب من يلزم المثنى الالف في جميع حالات الاعراب ، وبهذه اللغة قرىء :

« ان هذان لساحران » . ينظر : فقه اللغة : ٩٦ ، ٩٧ .

(٤٤) مستقبل اللغة العربية المشتركة : ٩ .

معظم ما تؤديه اليوم في فريضة الحج ، وكانت قرش تسمع لغاتهم ، وتصني لما يتناشدونه من شعر ، فتستجيب بعض لهجاتهم ، وتستنكر شيئا من عاداتهم الكلامية ، كما تستحسن لهجات أخرى ، وتستحلي الفاظا وأسايب ، فتأخذها وتضجها الى لغتها . يقول ابن فارس : « وكانت قرش مع فصاحتها ، وحسن لغاتها ورقة السنتها ، اذا أتتهم الوفود من العرب ، تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخبروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلاقتهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب . الا ترى انك لا تجد في كلامهم عننة تسيب ولا عجزية قيس ، ولا كشكشة أسد ولا كسكة ربيعة ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس مثل تعلمون ونعلم ومثل شعير وبعير » (٤٥) . ودأبت قرش على هذا الاقتباس من لغات القبائل التي تند عليها في المواسم حتى تكونت لغة جديدة هي لغة قرش وما في اللهجات الأخرى من الفاظ وتراكيب عذبة مقبولة ، ثم مالبت هذه اللغة ان شاعت بين العرب ، واصبحت اللغة المشتركة ، التي بها ينظم الشعراء ، ويتكلم الخطباء ، وصار الشاعر او الخطيب يفضل هذه اللغة على لغة قبيلته الخاصة ، لما تنطوى عليه لغة قبيلته من صفات وخصائص لا ترتضيها القبائل الأخرى ، أو يتكرها الذوق العام ، أو تتكرها لغة قرش الجديدة ، التي اصبح العرب جميعا ينظرون اليها نظرة اعجاب واكبار ، ويصطنعونها « في كل مجال جدي من مجالات القول » (٤٦) .

فاللغة المشتركة ، أذن ، ليست لغة قرش وحدها ، وانما هي تشمل لغات العرب جميعا ، أو هي مزيج منسجم من خصائص اللهجات كلها ، فلا تستطيع قبيلة أن تدعيها لنفسها (٤٧) ، وقد نزل القرآن الكريم بهذه اللغة المشتركة التي احبها العرب ، وسكنوا اليها ، وصاروا يصطنعونها فيما يصدر عنهم من تاج أدبي رفيع .

(٤٥) الصحابي : ٥٢ ، ٥٣ .

(٤٦) مستقبل اللغة العربية المشتركة : ٨ .

(٤٧) نفسه : ٩ .

وما يؤيد خلوص اللغة الادبية المشتركة بين العرب من صفات اللهجات المحلية : « أن شعر الشعراء من ربيعة لا يعرف ما اشتهر عن لهجتها من كسكشة ، وشعر الشعراء من تميم لا يعرف العننة ، بل حين تتبع صفات لهجة هذيل في ديوان الهذليين لانكاد نعثر على شيء اللهم الا تلك الاشارات السريعة التي نراها في كلام بعض شراح الديوان ، وكلها لا تخلو من التكلف أو التمسف ، وربما كانت من صنع الرواة في العصور المتأخرة (٤٨) » .

قد يال المرء عن تلك الامثلة القليلة التي وردت في الشعر القديم مشتتة على صفات محلية لقبائل معينة ، مثل :

تزود منا بين أذناء طعنة دعته الى هابي التراب عقيم

*

ان اباهما و ابا اباهما قد بلغنا في المجد غاياتها

ومثل :

أبيت أسرى وتيتي تدلكي شعرك بالعنبر والمسك الزكي

لقد فرّ بعض الباحثين مثل هذه الايات بواحد من أمور ثلاثة (٤٩) :

الاول ان يكون الرواة قد اخطأوا في روايتها ، وانحرفوا بها عن الطريق المألوفة في لغة الشعر . الثاني ان الشاعر نظم البيت على حسب ما تقضي به قواعد اللغة المشتركة ، ثم ذاعت التصيدة ، ورواها بعض الاعراب على حسب ما تقضي به لغتهم المحلية . الثالث ان تلك الامثلة من بقايا الادب الشعبي للقبيلة ، ذلك الادب الذي عبرت به القبيلة عن شؤونها الخاصة ، واتخذت له لهجتها المحلية اداة للتعبير .

(٤٨) نفسه : ١٢ .

(٤٩) نفسه : ١٠ ، ١١ .

فالأدب الجاهلي الذي وصل إلينا يخلو إلى حد كبير من اللهجات المحلية، مما يدل على أن لغة مشتركة كانت قد شاعت بين قبائل الجزيرة جسيما كما ذكرنا ، وأن العرب لم ينتهوا إلى هذه اللغة ، إلا بفضل النقد اللغوي المستمر الذي تعرّض له الشعراء والخطباء ، حتى تخلّوا عن كثير من العادات الكلامية التي استبشعها النقاد ، وكانت قريش هي القبيلة التي قادت حملة النقد هذه ، لما تمتعت به من منزلة رفيعة ، وسلطان ديني واقتصادي كبير .

ولم يصل إلينا شيء من النقد اللغوي الذي سبق مرحلة توحيد اللغة ، والذي أدى إلى توحيدها ، إلا أن علماء اللغة قد أشاروا إلى وجوده أشارات سريعة ، كإشارة ابن فارس السابقة . أما النقد اللغوي الذي تناول الشعر المنظوم باللغة الموحدة المشتركة ، فقد انتهت إلينا نماذج منه ، ذلك لأن النقد الأدبي في العصر الجاهلي ، اتجه إلى الصياغة والمعاني . والاحكام التي وصلت إلينا من ذلك العصر ، تؤكد ذلك ، فالشعراء « حين كانوا يتملحون بأشعارهم لا يجدون ما يصفونها به إلا جودة البك وقوة المعنى » (٥٠) . ومعنى ذلك أن جانباً من النقد الجاهلي كان نقداً لغوياً ينصب على الصياغة ، ويتناول لغة الشاعر .

وأهم ما أخذته النقاد على الشعراء من حيث الصياغة ، هو الأقواء ، الذي كان يصدم الأذن العربية ، ويذهب بشيء ، غير يسير من روعة النغم وانجاسه . ويبدو أن الأقواء كثير في شعر البدو الضارين في اعناق الصحارى ، وقد تنبه ابن سلام إلى ذلك فقال : « وهو في شعر الأعراب كثير » (٥١) . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى « جموة الأعراب وغلظ حسم ما يحول بينهم وبين ادراك ذلك النشاز » (٥٢) . أما أهل القرى ، فهم أرفه حساً ، وأشد تنبهاً لهذا النوع من الشذوذ ، أو النشاز في موسيقى الشعر ومن أجل ذلك

(٥٠) تاريخ النقد الأدبي عند العرب : ١٦ .

(٥١) طبقات فحول الشعراء : ٥٩ .

(٥٢) في تاريخ النقد : ٤٤ ، ٤٥ .

كان البداءة من الشعراء لا يفتنون الى هذا العيب في شعرهم ، الا بعد ان يفدوا على المدن ، وقد وصف المرزباني اهل المدن بقوله : « وأهل القرى اللف نظرا من أهل البدو » (٥٣) . وقصة اقواء النابغة مشهورة ذائعة ، فقد أقوى في بيتين هما :

أمن آل مية رائح أم معتدى عجلان ذا زاد وغير مزود

زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغراب الاسود

« فقدم المدينة فعيب ذلك عليه ، فلم يأبه له ، حتى اسموه اياه في غناء » (٥٤) .

وكان الشعراء من الاعراب يقعون في عيب آخر من عيوب الصياغة الشعرية، هو « الاكفاء » والاكفاء اختلاف حرف الروى ، بمعنى أن يكون الروى دالا ، ثم يأتي في بعض الايات طاء ، أو يكون صادًا ثم يأتي في بعض الايات سينا ، وانما كان يدخل عليهم هذا العيب ، لتقارب مخارج هذه الحروف ، وتشابهها في الصفات ، يقول ابن سلام . « وقد يغلطون في السين والصاد والميم والنون والذال والطاء وأحرف يتقارب مخرجها من اللسان يشبه عليهم ، انشدني ابو العطف :

أرمي بها مطالع النجوم رمي سليمان بذي غَضُون

وقال زعيب بن نسير العنبري :

نظرت بأعلى الصوق والباب دونه الى نَعَمَ ترعى قوافي مِرد

الصوق : يريد الصوق . ثم قال : « كَحَيْلٍ مُخَلَّطٍ » فقلت له : قل : « معقد » فيصح لك المعنى وتقيم القوافي . قال : أجل (فاستعدته فعاد الى قوله الاول) « (٥٥) .

(٥٣) الموشح : ٤٦ .

(٥٤) نفسه .

(٥٥) طبقات فحول الشعراء : ٦٦ .

ويبدو ان أهل المدن كانوا يفتنون الى هذا العيب ، ويبهون الشعراء عليه ، ذلك لأن بعض أهل المدن كانوا يكتبون ، والكتابة تجعل اصوات اللغة تأخذ صورا متميزة في أذهانهم ، فيستطيعون أن يميزوا ما بين الاصوات المتقاربة من فروق ، لأن لكل حرف عندهم صورتين ، صورة مسموعة ، وصورة مرئية ، وذلك يقبهم الخلط بين الاصوات التي يقع فيها الاكفاء ، كالطاء والذال والميم والنون والسين والصاد واللام والنون ، أما الاعراب فيعرفون للصوت صورة واحدة هي المسموعة ، فيؤدي ذلك الى أن يشبهوا في نطق الحرف ، ويضعوا مكانه حرفا آخر قريبا منه في المخرج أو الصفة (٥٦) .

وهناك لون آخر من النقد اللغوي في هذا العصر ، وهو الذي يتعلق بمعاني المفردات ، فقد يخرج الشاعر بالمفردة من مجالها الذي تستعمل فيه ، الى مجال آخر فيجرح ذلك عليه النقد . ونقد طرفة للمسيب بن علس من هذا القبيل . قال الميب :

وقد اتناسى الهمّ عند احتضاره
بناج عليه الصيرية مكّدم
فسمه طرفة ، فقال : استنوق الجمل . لأن الصيرية سمّة تكون في عنق الناقة لا في عنق البعير (٥٧) . ولما كان الميب قد ذكر البعير ثم نعت به بما تمتع به النياق ، سخر طرفة منه ، وقال قوله السابقة ، التي خلدت ، وصارت مثلا على التخليط وعدم وضع الشيء في موضعه .

وقصة النابغة الذبياني مع حسان ، صورة أخرى من صور النقد اللغوي في العصر الجاهلي . فقد روى ان النابغة أخذ على حسان في قوله :

لنا الجفّات الرّيلسمن بالضحى
وايافنا يقطرن من نجدة دما
انه استعمل في مجال الفخر مفردات ، كان غيرها أولى منها بالاستعمال ، فقد ترك الجفان ، واليوف وهما اليق بوطن الفخر ، لانهما جمع كثرة ،

(٥٦) في تاريخ النقد : ٤٥ - ٤٦ .

(٥٧) الموشح : ١١٠ .

واستعمل الجفئات والاسياف وهما جمع قلة ، فقال له النابغة : « اقلت جفانك واسيافك » (٥٨) . وقيل انه عاب كلمات اخرى هي : « الغر » و « الضحى » و « يقطرن » (٥٩) واقترح عليه ان يضع مكانها « البيض » و « يشرقن » و « يجرن » لأنها الصق بغرض الفخر .

وقد انكر الاستاذ طه احمد ابراهيم هذا الخبر ، وطمعن في صحته ، لأن الجاهلي لم « يعرف جمع التصحيح وجمع التكسير وجسوع الكثرة وجسوع القلة ، ولم يكن له ذهن علي يفرق بين هذه الاشياء كما فرق بيننا ذهن الخليل وسيويه ، ومثل هذا النقد لا يصدر الا عن رجل عرف مصطلحات العلوم ، وعرف الفروق البعيدة بين دلالة الالفاظ ، وألم بشيء من المنطق » (٦٠) . ولم ير باحث آخر في هذا الخبر ما يدعو الى التشكيك في صحته ، ذلك ان كلمة « اقلت جفانك واسيافك » لا تعني أن النابغة كان يعرف المنطق ومصطلحات العلوم ، « وانما مبلغ دلالتها ان العرب كانوا يفرقون بطبيعة حسهم اللغوي بين صيغة الجمع الدالة على القلة ، والصيغة الدالة على الكثرة ، وليس هذا مما يحتل الانكار ، بل هو الامر الطبيعي وهو الذي بنى عليه علماء النحو كلامهم عن جسوع القلة وجسوع الكثرة ، والا فمن اين لهم هذه التفرقة بين صيغ الجمع من هذه الناحية ، الا ان يكونوا صدروا بها عن الاستعمال العربي الذي يفرق بين هذه الصيغة وتلك ، دون ان يكون هذا الاستعمال صادرا عن ذهن علي كذهن الخليل » (٦١) .

لقد عني النقد في العصر الجاهلي باللغة ، ووصلت الينا أحكام من ذلك العصر تؤيد ذلك ، وهي أحكام تكاد تنحصر - كما رأينا - في التنبيه على الاقواء والاكفاء واستعمال بعض المفردات في غير مواضعها .

(٥٨) الموشح : ٨٢ .

(٥٩) نقد الشعر : ٥٢ ، ٥٤ .

(٦٠) تاريخ النقد الادبي عند العرب : ١٩ .

(٦١) في تاريخ النقد : ٤٢ ، ٤٣ .

أما في القرون الإسلامية فقد ازدهر النقد اللغوي ، ونما ، كثيره من جوانب النشاط الفكري ، حتى جملة بعض الباحثين ، كما تقدم ، أحد نوعين من أنواع النقد لم يعرف لهما العرب ثالثا ، وهما النقد اللغوي ، والنقد البلاغي . وسيتضح لنا فيما يأتي من فصول ازدهار النقد اللغوي ، وكثرة ما وصل إلينا من آراء فيه .

الباب الاول

العوامل المؤثرة
في النقد اللغوي

الفصل الاول

الرواية

الرواية في أصلها اللغوي هي الاستقاء ، فقد جاء في اساس البلاغة : « رويت لهم ورويتهم : استقيت لهم » . ثم أطلقت الكلمة على أخذ الشعر أو الحديث ، لعلاقة النقل في كل . والرواية هو البعير الذي يستقى عليه (١) ، ثم أريد بها من ينقل الاشعار والاخبار ، وذلك على سبيل المجاز . ومن الاستعمالات المجازية لهذه الكلمة قولهم : « ان فلانا لرواية الديات » أي حاملها (٢) ، والرواية بالمعنى الاصطلاحي ، أمر قديم ، عرفه العرب في الجاهلية ، كما عرفوه في الاسلام ، ذلك لانهم قوم يحبون الشعر ، ويحرصون على تناقله ، تعمر به مجالسهم ، وتسير به ركبانهم ، ويتخذون منه ديوانا ، يؤولون اليه اذا أرادوا ان يذكروا شيئا من مفاخرهم ، ومناقبهم ، أو ما عرض لهم من أحداث ووقائع . والرواة عندهم نوعان : فمنهم من يروي شعر شاعر بعينه ، ومنهم من يروي لكثير من الشعراء ، ولا يختص بواحد (٣) .

وتطور أمر الرواية في مطلع القرن الهجري الثاني ، فلم تعد تقتصر على إرضاء ما في نفوس القوم من رغبة في تناشد الاشعار ، وتناقلها ، التماسا للمتعة ، أو احياء لعصياتهم ، وتمجيذا لقبائلهم ، بل نشأت طبقة خاصة من الرواة ، اتخذت من الرواية حرفة ، يقصدون منها الى الكسب ، او يتغنون بها وجه العلم فقط . ونشأت في مقابل ذلك ، طبقة من التلاميذ والمعلمين ، كانوا يقصدون اولئك الرواة ، ويتحلقون حولهم في المساجد أو المنازل ،

(١) اساس البلاغة : ١٨٥ .

(٢) نفسه : ١٨٦ .

(٣) الرواية والاستشهاد : ٦ .

يقيدون ما يسمونه من شعر وغريب وشروح وحوادث وأخبار . وربما كان أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) وحماد الرواية (ت ١٥٥ هـ) من أوائل المشتغلين بهذا اللون من الرواية العلمية ، إذا صح التعبير ، فيما مهدا الطريق لمن جاء بعدهما من الرواة ، قال ابن سلام : « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق احاديثها حماد الرواية » (٤) . وفي نزهة الالباء : « كان خلف الأحمر أول من أحدث السماع بالبصرة ، وذلك أنه جاء الى حماد الرواية فسمع منه وكان ضئيلا بأدبه » (٥) . وقد أخذ عن أبي عمرو وحماد ، أئمة الرواية الآخرون ، كخلف الأحمر والمنضل والاصمي وأبي عبيدة وأبي عمرو الشيباني ، وأخذ عن هؤلاء تلاميذهم كابن الأعرابي وأبي حاتم السجستاني ، ثم أخذ عن هؤلاء الكري وثعلب وأضرابهما .

وكانت البادية المصدر الذي استقى منه هؤلاء الرواة عنهم ، فهم يتجمعون البوادي ، ويقصدون أخبية العرب ومضاربهم ، فيشاهدونهم ، ويقيدون في ألواحهم ودفاترهم ما يسمونه منهم أو ينصرفون عنهم وقد وعت صدورهم ما أخذوه وسموه . ولم تكن البادية وحدها مجال الالتقاء بالاعراب ، بل كانت البصرة وسوقها المربد موطنين آخرين من مواطن السماع والمشافهة يأتي اليهما الاعراب ، يتأرون ما ينتقون اليه من البضائع ، فيتعلق بهم طلاب الشعر واللغة ، ويلتفون حولهم ، يلتقطون من أفواههم الشعر والغريب والأخبار .

ولم تنشط حركة الرواية الا في البصرة والكوفة ، ولم تنافسها في هذا الجانب ، حاضرة أخرى ، وقد أحس رواة البلدين انفسهم بهذا التفرد ، فذكروا ما يؤيد ركود الرواية في الاقاليم الأخرى ، قال الاصمي : « أقمت بالمدينة زمانا ، ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة الا مصحفة او مصنوعة » (٦)

(٤) طبقات فحول الشعراء : ٤٠ .

(٥) نزهة الالباء : ٥٢ .

(٦) مراتب النحويين : ٩٩ .

وأما بغداد فلم تنافس البصرة والكوفة في نشاط حركة الرواية ، وكثرة الرواة ، بل أفادت منهما ، بعد ان انتقل اليها عدد من علماء هاتين المدينتين ، الذين قرروا ضعف الرواية في بغداد ، وأظهروا عدم ثقتهم بما يسمعون من كلام العرب على السنة أهلها . قال ابو الطيب اللغوي : « قال ابو حاتم : أهل بغداد حشو عسكر الخليفة ، لم يكن بها من يوثق به في كلام العرب ولا من ترتضي روايته فان ادعى أحد منهم شيئا ، رأته مخطئا صاحب تطويل ، وكثرة كلام ومكابرة » (٧) .

ولم يكن رواية البصرة وعلمائها متفتحين مع رواية الكوفة وعلمائها ، بل كان لكل منهم منهج في النقل والتلقي ، ومسلك في الدرس والتعميد ، وقد أدى هذا الخلاف بين علماء المدرستين الى أن « يتعصب علماء كل مدرسة لمدرستهم ، ويجرحوا هم وتلاميذهم علماء المدرسة الاخرى ، ويضعفونهم ويرموهم بالوضع والكذب والتزويد » (٨) .

وللرواية أثر جلي في النقد اللغوي ، فقد رافق الرواية ، ونشط بتشاطفها وحفظت لنا كتب اللغة والأدب الوانها منه ، لم تكن لتظهر لولا الرواية . ونستطيع أن نقول ان النقد اللغوي الذي نشأ بسبب الرواية ، يمكن تقسيمه على قسمين : الاول نظري ويتثل بالمقاييس التي كان الرواة يعرضون عليها الشعر ، فما وافقها منه قبلوه ورووه ، وما لم يوافقها طرحوه ، وأبوا روايته . والثاني عملي ، أو موضعي ، ينظر الى مواضع بعينها من لغة النص المزوي ، ليقومها ، ويصلح ما فيها من خطأ .

أما المقاييس النظرية فهي :

الزمان والمكان : حين بدأ الرواة بجمع الشعر ، اختلفوا فيما يقبلونه منه ، وما يرفضونه ، فصنفوا الشعراء الذين ارتضوا لثمتهم ، وقبلوا شعرهم ، تصنيفا يقوم على الزمان من جهة ، وعلى المكان من جهة أخرى « فأما الزمان

(٧) مراتب التحويين : ١٠١ .

(٨) مصادر الشعر الجاهلي : ٤٢٩ .

فقد قبلوا الاحتجاج بأقوال عرب الجاهلية وفصحاء الاسلام حتى منتصف القرن الثاني سواء اسكنوا الحضرم البادية» (٩) . واستمر العلماء يتجمعون أهل البادية ، يأخذون اللغة عنهم ، حتى فسدت سلتهم في آخر القرن الرابع الهجري . (١٠) وأما الضابط المكاني ، فقد كان محط خلاف بين الرواة واللغويين ، فترمت البصريون ، وضيقوا على انفسهم فلم يأخذوا الا من الاعراب الذين سكنوا الصحراء ، وبعدت منازلهم عن التخوم . أما الكوفيون فكانوا أسس خلة ، وأكثر حرية في جمع الشعر وروايته ، لانهم ضموا الى « الاطلس اللغوي » كثيرا من القبائل التي ابعدتها البصريون ، ولم يعترفوا بسلامة لغاتها .

فالذين نقل البصريون عنهم ، ورووا شعرهم وأقوالهم ، هم - على ما نقله السيوطي عن الفارابي - : « قيس وتميم وأسد ، فان هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما اخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب ، وفي الاعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فانه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري من كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الامم الذين حولهم . فانه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم اهل مصر والقط ، ولا من قضاة وغسان وأباد ، لمجاورتهم اهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن ، فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم النبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان لانهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لان الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت السنتهم » (١١) .

(٩) في اصول النحو : ٦ .

(١٠) اللغة والنحو بين القديم والحديث : ١١٧ .

(١١) الزهر : ٢١١/١ ، ٢١٢ .

أما الكوفيون فقد ارتضوا لغات الشعراء الذين يتسبون الى قبائل جاورت الحضرة ، أو خالطتهم ، كأعراب سواد الكوفة من تميم وأسد ، وأعراب سواد بئداد من أعراب الحطيمية ، الذين ترفع البصريون عن الاخذ عنهم ، ولحنوهم واتهموا الكسائي بأنه أفسد النحو ، اذ وثق بهم ، وأخذ عنهم ، واستنصر بلغتهم عن سيويه في المناظرة المعروفة التي جرت بينهما (١٢) .

لقد اتخذ الرواة البصريون من « البداوة » مقياسا لجودة الشعر وسلامته ، فلم يرووا منه الا ما كان بدويا ، لم يعرف قائله الحضرة ، ولم ينق عيش أهل المدن والارياف . وكان الذي دفعهم الى ذلك ، ما قرئ في هوسهم ، من أن الحاضرة تنسخ سليقة البدوي ، وتدخل الضيم على لسانه ، وتجبلساد للفته ، بسبب من يقطنها أو يفد عليها من الاعاجم .

وبسبب هذه النظرة لم يوثقوا شعر بعض الجاهليين الذين ترددوا على الحواضر ومال غيابهم عن البادية ، فرقت الفاظهم ، وسهلت وعوزتهم كمدي ابن زيد وأبي داود الايادي . لقد كان الاصمعي يصفهما بلين اللسان، ويقول : « لاتروي العرب أشعارها لان الفاظهما ليست بنجدية » (١٣) . وقال ابن سلام عن عدى : « كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه » (١٤) . وجاء في الموشح عنه أنه كان يسع الوفود التي تفد على ملوك الحيرة فيدخل لغاتهم في شعره (١٥) .

لقد كان مقياس « البداوة » مقياسا صارما ، أخذ به الرواة البصريون ، ولم يتسامحوا في تطبيقه ، فرفضوا كثيرا من الشعر الذي ظهرت عليه الرقة ، أو جرت فيه لغة الحضرة . قال ابو حاتم : « قلت للاصمعي : اتجيز (انك لتبرق لي وترعد) فقال لا ، انما هو « تبرق وترعد » فقلت له : فقد قال الكميث :

(١٢) مدرسة الكوفة : ٢٧٧ .

(١٣) الموشح : ١٠٤ .

(١٤) طبقات فحول الشعراء : ١١٧ .

(١٥) الموشح : ١٠٢ .

أبرق وأرعيد يا يزيد — د فما وعيدك لي بضائر

فقال : ذاك جرمقاني من أهل الموصل ولا آخذ بلغته » (١٦) .

وكان من أثر هذا الموقف الذي اتخذته الرواة والعلماء من الشعر البدوي ، أن نزع بعض الشعراء في العصر الأموي « إلى مجازاة العرب الخلفى كما يتسلون في أهل البادية ، واتخاذ سنتهم ، واصطناع أساليبهم ، وخاصة اللغة » (١٧) . وحين سأل بشر بن مروان الأخطل عن الفرزدق وجرير ، واستغفاه من الحكم بينهما ، ثم قال : الفرزدق ينحت من صخر ، وجرير يعرف من بحر ، لم يرض جرير أن يوصف بالسلاسة والليونة ، فكان ذلك سببا لهجائه الأخطل (١٨) .

وكان جرير أيضا يعيب شعر بعض الحجازيين لرقته ، ويصمه باللين ، ويقول عنه انه تيامي اذا أنجد وجد البرد ، يعني بذلك انه ليس له صلابة الشعر النجدى ، وقوة منته ، وجزالة بنائه (١٩) .

وكان الكسيت نفسه قد هوي الشعر البدوي ، وحرص على تقليد لغته حتى قيل انه قلد احدى قصائد ذي الرمة ، فوضع قصيدة على نهجها ، وصاغها على غرارها ، فنجح في هذه المحاولة بعض النجاح (٢٠) . وأظن انه لم يفعل ذلك الا ليتقرب من اللغويين ، الذين لم يرضوا عن شعره ، ونالوه بالنقد والتجريح .

وقاد تشجيع الرواة للشعر البدوي الى ان يرحل الشعراء الى البادية ويتجسروا مشقة الحياة فيها ، ليعودوا منها وقد صحت سلائقهم ، وفصحت السنتهم فيكسبوا ثقة النقاد ، ويظفروا باعجابهم ، وقد انبأتنا كتب الادب والتراجم برحلة بعض المولدين الى البادية ، كبشار الذي عاش في كنف بني

(١٦) الزهر : ٢٧٥/٢ .

(١٧) في تاريخ النقد : ١١٧ .

(١٨) طبقات فحول الشعراء : ٤٠٨ .

(١٩) الموشح : ٢١٨ .

(٢٠) في تاريخ النقد : ١١٦ .

عقيل زمانا طويلا (٢١) ، واهي نواس الذي قصد البادية ، ومكث فيها عاما (٢٢) .

لقد كان البدو ، اذن ، في نظر الرواة والنقاد « حجة لا يمتورها الشك في جميع مسائل اللغة ، وكم خلاف بين علماء اللغة حول التفسير الصائب لبيت من الشعر ، أو حول صحة تعبير من التعبيرات ، رفعه حكم بدوي حاضر عرضا » (٢٣) . وإذا أحب النقاد ان يقرظوا شاعرا ، أو يرفعوا منزلة أديب وصفوه بأنه ينطق كما ينطق البدوي ، فيكون ذلك أبلغ ثناء عليه ، وأحسن تقرظ له (٢٤) .

و « الغريب » مقياس آخر من مقاييس الرواة النقدية ، فقد جدوا في طلبه ، واحتفلوا بالشعر المشتمل عليه . وكان الباحث لهم على ذلك ما كانوا يصدده من جمع اللغة وتقييدها بوضوحها وغريبها . وآية كلف الرواة بالغريب وتنافسهم على التقاطه ، ما حكاه الاصمعي ، فقال : « جئت الى ابي عمرو بن العلاء فقال : من أين اقبلت يا أصمعي ؟ قلت : من المربد . قال مات ما معك . فقرأت عليه ما كتبت في الواحي ، ومرت به ستة أحرف لم يعرفها ، فخرج يعدو في الدرجة وقال : شمرت في الغريب (٢٥) .

وقد كان لهذا المقياس - أعني الغرابة - أثر كبير في شعر الاسلاميين والمولدين ، فقد حمل كثيرا منهم على الاكثار من الغريب ، وتوشيح أشعارهم به ، وكان الكميّ أحد المولعين بالغريب ، حتى لينسب اليه أنه قال : « اذا قلت الشعر فجانني أمر مستو سهل لم اعبأ به ، حتى يجيء شيء فيه عويص فأستمله » (٢٦) .

(٢١) الاغاني : ١٥٠/٣ .

(٢٢) اخبار ابي نواس : ١٢/١ .

(٢٣) العربية : ٥٢ .

(٢٤) نفسه : ٥٣ .

(٢٥) ذيل الامالي والنوادر : ١٨٢ .

(٢٦) الموشح : ٣٠٣ .

وكان الاحتفال بالغرب أحد المقاميس التي اعتمد عليها ابن سلام ، فقدم
الناطقة الجعدي على طرفة ، تجعل الاول في الطبقة الثالثة وقال عنه :

« وكان فصيحاً كثير الغريب ، متمكناً من الشعر » وأخر الثاني الى
الطبقة الرابعة لسهولة منطقه ، وقلة ما بأيدي الرواة من شعره (٢٧) .

وكان الذي بعث الرواة على الاحتفال بالشعر الكثير الغريب ، هو
اعتقادهم بأنه صحيح النسبة الى قائله ، أو غير منحول ، لانهم كانوا يرون
ان الشاعر اذا لانت الفاظه ، حمل عليه ما لم يقله ، فكان ابن الفاظه ، يسهل
على الوضاعين مجاراته ، والنسج على منواله . قال ابن سلام : « وعدى بن
زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف ، فلان لسانه ، وسهل منطقه ، فحمل
عليه شعر كثير ، وتخليصه شديد » (٢٨) .

ولم يكن الرواة وحدهم يجنون الغريب ، ويرفعون من شأن الشعر
المشتمل عليه ، بل كان بعض الحكام يشجعونه ، ويشيرون الشاعر اذا ضمن شعره
شيئاً منه . وكان الشعراء حريصين على ارضاء ممدوحهم ، واتخاذ انست
الذي يعجبهم ، فبشار مثلاً حين علم أن الامير سلم بن قتيبة يحب الغريب ،
ويعد نفسه بصيراً به ، مدحه بأرجوزة مالاها بالنادر المتخّل من
الالفاظ (٢٩) .

على أن اصطناع الشاعر الغريب لم يكن دائماً محط اعجاب النقاد وأهل
اللغة ، وانما كانوا يقبلونه ممن عرف بالبدواة ، ويرفضونه ممن كان يتعلمه ،
أو يتصيده من أفواه الرواة . فالكسيت والطرماح كانا يكثران من الغريب ،
الا ان العلماء أبوا الافادة من غريبهما ، لانهما أخذاه بالتعلم ، ولم يجبر على
لسانيهما فطرة ، قال الاصمعي : « الكسيت تعلم النحو وليس بحجة . وكذلك

(٢٧) طبقات فحول الشعراء : ١١٠ .

(٢٨) نقه : ١١٧ .

(٢٩) الاغانى : ١٩٠/٣ .

الطرماع وكانا يقولان ما قد سماعه ولا يفهماه . وقال رؤبة : « كانا يسألانني عن غرب شعرهما » (٢٠) .

ومن المقاييس النقدية التي احتكم اليها الرواة في قبول لغة الشعر او رفضها ، هو مقياس « الطبع والصنعة » ، فقد عدوا الصنعة مع الجودة عاملا للطعن ، وعدوا الطبع حتى مع الرداءة عاملا من عوامل الثقة والقبول . وكان الاساس الذي قامت عليه نظرتهم هذه ، هو أن الشاعر الاصيل ذا القطرة السليمة « هو الذي تجيء لفته في شعره سليقة وطبعاً ، وهو بذلك قرب من البدوي الذي تتدفق اللغة على لسانه بلا تكلف أو تعمل ، أما ذلك الذي يجود شعره ويصنعه فان دافعه لذلك من وجهة نظرهم هو ضعف سليقته ، وبعده عن القطرة السليمة (٢١) . وكان الاصمعي « يعيب الحطاية ويتعقبه فقيل له في ذلك ، فقال : وجدت شعره كله جيداً ، فدلتني على أنه كان يصنعه ، وليس هكذا الشاعر المطبوع ، انما الشاعر المطبوع الذي يرمي بالكلام على عواهنه : جيده على رديته » (٢٢) . ويعني ذلك أن الاصمعي وأضرابه من النقاد واللغويين والرواة ، كانوا يميّون تثقيف الشعر وتهذيبه ويمدون ذلك ناجماً عن ضعف السليقة اللغوية ، الا ان نظرتهم هذه لم تمنعهم من الاحتجاج بشعر زهير ، ومن تبعه من الشعراء الذين كانوا يعنون بصقل اشعارهم وتحكيكها .

والى هذه المقاييس النظرية التي وضعها الرواة اساساً ينون عليه قبولهم لغة المروي ، أو رفضهم لها ، ظهر حول الرواية لون آخر من النقد اللغوي ، وهو الذي سميته في صدر هذا الفصل بالنقد العملي ، لانه يقوم بتسليط الضوء على لغة النص ، لمعرفة المواضع التي لحقتها التغيير .

لقد كان الباعث على هذا اللون من النقد اللغوي ، هو ما لحق المتون المروية من تغيير كان بعضه مما عمد اليه الرواة ، وكان الاخر قد حدث على

(٢٠) الموشح : ٢٠٢ .

(٢١) الرواية والاستشهاد باللغة : ٣٦ .

(٢٢) الخصال : ٢٨٢/٣ .

غير عند منهم . فأما التغيير الذي حدث في النصوص المروية بلا قصد فقد كان نوعين ، هما التصحيف والتحريف . ويبدو ان الاول كان ينشأ عن طبيعة الخط العربي ، وتقارب صور الحروف ، ومن امثله ما جاء في جبهة ابن دريد : « أن الماء يؤنثه أنا : صبه . وفي كلام للقمان بن عاد : أن ماء واغله أي صب ماء واغله . وكان ابن الكلبي يقول : از ماء (بالزاي) ويزعم أن أن أن تصحيف » (٢٣) . أما التحريف فهو تفسير كلمة بأخرى ، أو احلال لفظ محل لفظ . يقول العسكري في قول ابن أحر الذي روي عنى هذا الوجه :

فلا تصلي بطروق اذا ما سرى بالقوم أصبح مستكينا

انما هو « اذا ما سرى في العي » ثم يقول : « وهذا من التحريف لا من التصحيف » (٢٤) . ويبدو أن السبب في حدوث التحريف ، ان لم يقصد اليه قصدا ، هو ما يعتري الذاكرة من ضعف يؤدي الى أن تغير الكلمة بالكلمة ، أو يوضع مكان التركيب تركيب غيره . وقد اشار بعض الباحثين الى أنس الذاكرة فيما نال المروي من تحريف فقال : والذاكرة « مهما بلغت من الدقة ، ومهما ساعد الوزن الشعري على صحة الرواية ، لا بد أن تزل ، فتجعل لفظا مكان آخر ، أو تنسى من القصيدة بيتا أو ابياتا ، فلذاكرة قدرة محدودة . . . ولا نستطيع أن نتصور ان الرواة في تلك العصور كانوا جميعا ذوي مقدرة واحدة في رواية الشعر القديم وتذكره ، واذا صحت رواية الراوي ، فربما لم تصح رواية من سبقه ، وهكذا لا يمكن ان نجزم ان الشعر القديم قد خلا من أي تحريف » (٢٥) .

وظاهرة التصحيف كانت ظاهرة شائعة في التراث ، لم يكد أحد من العلماء يسلم من التورط فيها ، الا ان النقاد اللغويين لم يتركوا النصوص تشكو من هذه الافة التي تفسدها ، وتجعلها غير صالحة لان يقام عليها درس ،

(٢٣) الجمهرة : ٢٢/١ .

(٢٤) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف : ٧٧ .

(٢٥) موسيقى الشعر : ٢٩٢ ، ٢٩٤ .

أو يستتبط منها حكم وآية اهتمام النقد اللغوي بهذه الظاهرة ، وسعيه الى تخلص النصوص منها ، ما نراه من كتب عديدة تعالجها ، ككتاب « التنبية على حدوث التصحيف » لحزرة بن حسن الاصفهاني ، وكتاب التنبهات على اغاليط الرواة » لعلي بن الحزرة البصري وكتاب « شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف » لأبي أحمد الحسن بن عبدالله العسكري . ومن الامثلة على النقد اللغوي المتعلق بالتصحيف قول ابي زيد تعليقا على بيت لامرئ القيس رواه ابو عمرو بن العلاء على هذا النحو :

تأوَّبني دائي القديم فغلّسا - احاذر ان يشتد دائي فانكنا

قال ابو زيد : « هذا تصحيف لان المتأوب لا يكون مغلّسا في حال واحدة ، ولأن « غلّس » انما هو أتى في آخر الليل ، وتأوَّب جاء في أوله ، وانما هو « فعلّسا » أي اشتد وبرّح » (٢٦) . وكان الاصمعي قد صحّف بيتا لذي الرمة فرواه على هذا الوجه :

فيها الضفادع والحيتان تصطخب

فقال ابو علي : « اي صوت للسك ؟ انما هو تصطخب أي تتجاور » (٢٧) .

وهذان المثالان يكشفان لنا عن ان النقاد لم يقبلوا لغة النصوص المروية على علاقتها ، ولم تمنعهم المنزلة العلمية لمن روى تلك النصوص ، من نقدها ، وإمالة النظر فيها ، لمعرفة ما داخلها من خطأ ، والارشاد الى الصواب فيه .

وأما الضرب الثاني من التغيير فهو الذي كان الرواة انفسهم يقصدون اليه ، ويدخلونه على ما يروونه من نصوص ، لاسباب مختلفة ، وأغراض شتى . ولم يخف هذا الضرب أيضا على النقاد اللغويين ، بل فطنوا اليه ، وخلصوا النصوص المروية منه . ونستطيع أن نقسم التغيير العائد للرواية ، بحسب

(٢٦) التنبية على حدوث التصحيف : ١٢٢ .

(٢٧) نفسه : ١٢٤ .

ما وراءه من أغراض ، الى نوعين : الاول ويتمثل في تحريف المروي ، وافساد لفته ، بقصد التشهير بقائله ، ووصفه بالخطأ ، أو البعد عن الفصاحة . وقد فطن النقاد اللغويون الى هذا ، فأعلنوا برمهم به ، وصبوا لومهم على من كان يتعامله من الرواة . ومن الامثلة على هذا النوع أن عيسى بن يزيد بن دأب (ت ١٧٠ هـ) روى بيتا للاعشى على هذا الوجه :

من دعالي غزلكي أربح الله تجارته

ثم زعم ان الاعشى هكذا قاله ، أي بحذف الالف التي قبل « الهاء » في « الله » وتسكين « الهاء » ورفع « تجارته » وهي منصوبة . وقد جرّ ابن دأب على نفسه بهذا التغير لوم الاصمعي وتقريره (٣٨) . وموقف الاصمعي هذا هو مظهر ثان من مظاهر النقد اللغوي العملي القائم حول الرواية ، وهو كما رأينا يهدف الى فحص لغة النص المروي ، لمعرفة ما طرأ عليها من تغيير ، جلبه الرواة اتسهم ، بقصد النيل من المنشئ ، والغرض من قدره .

اما النوع الثاني من التغير العائد الذي لحق بعض النصوص المروية ، فقد كان الباعث عليه ، الرغبة في نصره رأي أو تعزيز قاعدة . وقد أقدم بعض النحاة على مثل هذا التغير ليجعلوا بعض النصوص موافقة لما ذهبوا اليه من آراء . ولكن النقاد اللغويين لم يفتهم أن يدركوا ذلك التغير ، بل نبهوا عليه ، وارشدوا الى الرواية الصحيحة لتلك النصوص . ومن العجيب أن سيويه نفسه كان قد اتهم بتغير الرواية ليجعلها موافقة لما ذهب اليه من آراء . فمن آيات سيويه :

فاليوم اشرب غير متحقب اثما من الله ولا واغل

و :

رحت وفي رجلك ما فيهما وقد بدا هنك من المنزر

ساق الاول لتأييد أن المضارع قد يجزم بلا اداة جزم ، وساق الثاني شاهدا على ان العرب قد نسكن المرفوع . وقد طعن المبرد في رواية سيويه لهذين البيتين ، وقال : « ان الرواية في الاول « فاليوم فاشرب » وفي الثاني « وقد بد ذلك من المئزر » . اما ابن جنبي فقد دافع عن سيويه ، ونزهه عن الكذب ، فقال مناقشا المبرد : « وقول ابي العباس انما الرواية : فاليوم فاشرب ، فكأنه قال لسيويه : كذبت على العرب ، ولم تسمع ما حكيتهم ، واذا بلغ الامر هذا الحد من السرف فقد سقطت كلفة القول معه . وكذلك انكاره عليه أيضا قول الشاعر : وقد بدا هنك من المئزر ، فقال : انما الرواية : وقد بدا ذلك من المئزر . وما اطلب العرس لولا النفقة » (٣٩) .

وتكرر اتهام سيويه بتغيير الرواية ، ليجعلها موافقة لآرائه ، في كتاب « التبيه على حدوث التصحيف » لحمزة بن الحسن الاصفهاني وكتاب « شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف » لابي احمد العسكري . ففي الاول : « ومدر سيويه كتابه بباب ضمه اشعارا على روايات توافق ما بنى عليه الباب ، يخالفه رواة الشعر في أكثرها ، ضمنه روايته لقول الشاعر :

ألم يأتيك والانباء تسي بما لاقت لبون بني زياد
ورواه غيره : ألم يبلغك . واذا روي على هذا لم يكن لسيويه فيه حجة (٤٠) .

وفي الثاني : « وما غلظ فيه النحويون من الشعر ، ورووه موافقا لما ارادوه ، روي عن سيويه ، عندما احتج به في نسق الاسم المنصوب على المختفوض قول الشاعر :

معاوي اتنا بشر فأسجج فلننا بالجبال ولا الحديدنا

(٣٩) المحتسب : ١١٠/١ ، ١١١ .

(٤٠) التبيه على حدوث التصحيف : ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

وغلط على الشاعر ، لأن هذه القصيدة مشهورة ، وهي مخفوفة كلها ،
وأولها :

معاوي انا بشر فأسجح فلنا بالجيال ولا الحديد
اكتلم ارضنا فجردتموها فهل من قائم او من حصيد
فهبها أمة هلكت ضياعا يزيد يسوسها وأبو يزيد^(٤١)

لقد لفت النقاد اللغويين ما في لغة هذه الشواهد وامثالها ، من خروج
على المألوف من قواعد العربية ، فشكوا فيها ، وأخذوا يبحثون عن الرواية
الصحيحة لها ، أو يبحثون عن القصائد التي انتزعت منها ، ليروا مدى صحة
رواية النحاة لها ، وقد هداهم البحث الى ما اصاب تلك الشواهد ، على أيدي
النحاة ، من تغيير وتبديل ، فنبهوا على ذلك ، وأعلنوا انها شواهد محرّفة ،
لا يعتد بما بني عليها من احكام نحوية .

وارتاب النقاد اللغويون ايضا بطائفة من شواهد النحاة ، فوصفوها
بأنها مختلفة ، تفوح منها رائحة الوضع ، وهي اما اخترعها النحاة انفسهم ،
أو طلبوا اختراعها من « الاعراب المستعدين لتلبية الطلبات »^(٤٢) ليعززوا بها
قواعد لم يجدوا لها في كلام العرب ما يسندها ، وينهض شاهدا على صحتها .
ولعل الذي جعل النقاد اللغويين يشكون في صحة تلك النصوص ما لا حظوه
على لغتها من سيات تجعلها أقرب الى اشعار المبتدئين . وما زادهم شكاً فيها
أن النحاة لم يعزوا كثيرا منها الى أحد . ولا شك في أن خبرة هؤلاء النقاد
بكلام العرب ، ومعرفتهم الواسعة بطرائقهم في التعبير هي التي جعلتهم يهرجون
تلك الشواهد ، ويظهرون عدم ثقتهم بها . ومن الشواهد التي لم تحفظ بثقة
النقاد اللغويين ما رواه خلف شاهدا على أن العرب صاغوا بناء « فَعَال » من
الاعداد متسقا الى « عَشار » . أنشد خلف^(٤٣) :

(٤١) شرح ما يقع به التصحيف والتحريف : ٢٠٧ وانظر الشعر والشعراء
٩٨/١ ، ٩٩ .

(٤٢) الرواية والاستشهاد باللغة : ٥٤ .

(٤٣) درة النواص : ٩١ ، ٩٢ .

قل لعرويا ابن هند لو رأيت اليوم شئنا
 لرأت عيناك منهم كل ما كنت تنسى
 إذ أتنا فيلق شهباء من هنا وهنا
 واتت دوسر والملحاء سيرا مطبنا
 ومشى القوم الى القوم أحادي وأثنا
 وثلاثا ورباعا وخماسا فأطننا
 وسداسا وسباعا وثمانا فاجتلدنا
 وتساعا وعشارا فاصبنا وأصبنا
 لا ترى الا كينا قاتلا منهم ومنا

وقد علق الخفاجي على هذه الايات بقوله : « هذه الايات موضوعة ورائحة الوضع تنوح منها . وكان خلف الاحمر متهما بالوضع » (٤٤) . وكان الخفاجي على حق في شكه لان لغة الايات تنادي عليها بأنها موضوعة ومخترعة ، وضعها خلف ، أو غيره من النحاة ، بقصد ان يسند بها قاعدة نحوية لم يجد لها في كلام العرب ما يميزها .

وهكذا كان النقاد اللغويون يحرصون على اصلاح النصوص المروية ، واقامة متنها ، والعودة بها الى الصورة التي تركها عليها منشؤها ، أو الى صورة قريبة منها . وليت النقاد اللغويين اكتفوا باصلاح الخطأ الذي لحق النصوص بسبب رواتها ، لان هذا العمل يخدم العلم ، ويصحح مادته ، ويوثق الاسس التي يقوم عليها ، ولكنهم كانوا يصححون الاخطاء التي وقع فيها المنشيء اصلا ويغيرون مالا يروقهم أو يرضيهم من الفاظه وتراكيبه ، فكان ذلك يؤدي الى ضياع ما قاله المنشيء حقا . وكان الرواة بذلك يصدرن عن مبدأ تمارفوا عليه ، وهو أنهم لا يتلون نصا ، ولا يقدمون على روايته ، قبل ان يصلحوه ، ويرموا ما وهى منه ، أو يخلصوه مما يشوبه من اخطاء في المعاني أو الصيغ والتراكيب . وكأنهم كانوا يأتون من رواية الخطأ ، وان كانوا يعلمون أنهم

(٤٤) شرح درة النواص : ١٩١ .

غير مسؤولين عنه ، لانهم رواة او نقله . ومن النصوص التي لم يرتض النقاد صياغتها ، فغيروا الفاظها قول جرير :

فيالك يوما خيره قبل شره تغيّب واشيه وأقصر عاذله

هكذا قال جرير ، وهكذا أنشده الاصمعي ، وكان خلف حاضرا ، فقال خلف : « ويله وما ينفعه خير يؤول الى شره . قلت (الاصمعي) : هكذا قرأته على ابي عمرو بن العلاء . فقال لي : صدقت ، وكذا قاله جرير ، وكان قليل التنقيح ، مشرّد الالفاظ ، وما كان ابو عمرو ليتركك الا كما سمع . فقلت : فكيف كان يجب ان يقول ؟ قال : الاجود له لو قال : خيره دون شره . فاروه هكذا ، فقد كانت الرواة قديما تصلح من اشعار القدماء . فقلت : والله لا أرويه بمد هذا الا هكذا » (٤٥) . فعلى الرغم من صحة النص عن قائله ، وعن رواه ، وهو أبو عمرو ، وثبوت ذلك عند الاصمعي وخلف أيضا ، فإنهما غيراه وبدلا الفاظه ، اعتمادا على ما ساد بينهم ، وهو أن الرواة كانت قديما تصلح اشعار الاوائل .

ويبدو ان الشعراء كانوا مختلفين في حق التغيير والتبديل في النص الذي أدعاه النقاد لانفسهم ، فمن الشعراء من أقرهم عليه ، وأطلق ايديهم فيما يروونه من شعره ، لينقحوه ، ويغيروا مالا يعجبهم منه ، ويأتون بما يعتقدونه أنسب له ، بل ان من الشعراء من كان لا يتولى تنقيح شعره اعتمادا على تنقيح النقاد من الرواة ، قال ابن مقبل : « اني لارسل البيوت عوجا فتأتي الرواة بها قد اقامتها » (٤٦) . ومن الشعراء من لم يعجبهم هذا المبدأ ، واحسّوا بخطره على شعرهم فحرص بعضهم على كتابة شعره ، لينح النقاد والرواة من اجراء التغيير فيه ، كما فعل ذو الرمة ، حين قال لراويته موسى بن عمر : « اكتب شعري فالكتاب أعجب الي من الحفظ ، لأن الاعرابي ينسى الكلمة قد تعب في طلبها ليلة ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم ينشدها الناس ، والكتاب

(٤٥) الموشح : ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٤٦) مجالس لعلي : ٤٨١ .

لا ينسى ولا يبدل كلاما بكلام» (٤٧) . واكتفى بعضهم بالاعراب عما يتابه من قلق على شعره ، بسبب المبدأ المذكور ، فقال ، والقائل الحطياة : « ويل للشعر من راوية السوء » (٤٨) .

ومهما يكن فإن هذا اللون من النقد اللغوي العملي القائم حول الرواية الذي يفضي الى تفسير لغة المشيء ، وتبديل القاطله ، كان أمرا مختلفا فيه ، فمنهم من رآه عبثا بالمروي ، وتجاوزا عليه ، ومنهم من رآه نافعا يقوم ما اعوجج من لغة المروي ، ويصوب ما لحق معناه من الخطأ . وأما العلم فلا يبيح ذلك لأنه افتتات على الحقائق ، وافساد للتاج الأدبي ، الذي كان على الدارسين والرواة ان يحافظوا عليه ، ويرووه كما صدر عن متجيه .

فمؤدى أثر الرواية في النقد اللغوي : أن العلماء فحصوا ما وصل اليهم من الشعر ، واجالوا البصر في اعطافه ، فقبلوا منه ما قبلوا ، وزرفوا منه ما لاح عليه طابع الوضع والافتعال ، وارشدوا الى ما عرا بعضه من خلل وتحريف ، حتى نستطيع ان نقول : ان حركة الرواية ، قد خضعت اولا لمقاييس نظرية صدر عنها الرواة في قبول الشعر وروايته ، أو رفضه وطرحه ، ثم قامت بسببها حركة نقدية علمية ، مهتمها فحص المروي ، وتسليط الضوء على متنه ، لمعرفة ما شاب ذلك المتن من اخطاء ، وما طرأ عليه من تغيير . وقد كان لحركة النقد اللغوي هذه أثر كبير في تصحيح الموروث ، وتخليصه مما علق به من أوهام ، واندس فيه من تصحيف ، ولولا هذا النط من النقد الذي رافق الرواية ، لورثنا ما ورثناه محرّفا ، لا يعتد به ، ولا يطمأن اليه . وكان اختلاف النقاد في النظر الى الموروث من الشعر مصدر خير له فلو اتفقت كلمتهم على اهمال ما اهمله البصريون من شعر القبائل التي لم يسلموا لها بالفصاحة ، لحرمتنا كثيرا من الشعر ، وللحقت ادبنا خسارة فادحة ، ولكانت الخسارة مضاعفة ، لان هذا الشعر الذي نقل الينا لم يكن كل ما قالته

(٤٧) العمدة : ٢٥٠/٢

(٤٨) الاغانى : ١٩٥/٢

العرب - على حد قول ابي عمرو بن العلاء : « ما انتهى اليكم ما قالت العرب الا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » (٤٩) - فاذا أسقط منه البصريون المتزمتون ما استقطوه ، كانت الخسارة اعظم ولكن حرية الكوفيين في النقل ، حفظت لنا كثيرا من التراث .

وهناك عوامل أخرى استدعت ان يهتم النقاد بلغة الادب ، وبتقوا عليها جهودهم . وكان التطور اللغوي الذي صاحب العربية عقب موجة الفتح الكبرى ، ثم استمر بعدها ، عاملا من تلك العوامل ، حمل النقاد على ان يراقبوا اللغة ويعملوا على حمايتها ، وعلى تبصير المنشئين بما اخذوا يتورطون فيه من زيغ وانحراف عن جادة التعبير اللغوي السليم ، وسنعرض في الفصل القادم لهذا العامل ، ونبرز أثره في حركة النقد اللغوي .

الفصل الثاني

التطور اللغوي

ان العربية ، متمثلة في الشعر الجاهلي ، والقرآن الكريم ، لغة نامية ، متطورة بلغت درجة كبيرة من النضج والاستواء ، بعد أن قطعت مراحل ، وتماقت عليها اطوار ، تنقلت خلالها من حال الى حال ، و « هذه النصوص الجاهلية تقدم للباحث نماذج عالية من العربية ، وهذه النماذج لا يمكن ان تكون بأي حال من الاحوال من البدايات في اللغة ، فلا بد ان تكون العربية قد قطعت قبل هذه النصوص مراحل أخرى في تاريخها ولم تكن فيها على هذا المستوى العالي من حيث قدرة اللغة على اداء المعاني ، ومن توافر المادة العربية للتعبير عن النواحي المادية ، وانصرافها الى المعنويات من الامور توسعا ومجازا » (١) .

واذا كانت العربية التي نزل بها القرآن الكريم وليدة مراحل كثيرة ، فانها ، شأنها شأن أي لغة ، لم تكف عن التطور ، ولم تجمد على ما هي عليه ، بعد الاسلام ، بل نلت تجري في سبيل التطور ، خاضعة في ذلك لعوامل ونواميس تؤثر في كل لغة ، وتعمل على تغييرها (٢) . وكان لظهور الاسلام اثر بعيد في حياة العربية (٣) ، فقد عمل على نشرها ، وتوسيع رقعتها ، وزيادة عدد المتكلمين بها من غير العرب ، فكان ذلك سبب ما نالها من فساد وتحريف اذهل علماء اللغة ، وأثار دهشتهم ، فهبوا يسمعون اللغة منه ، ولكنه كان أقوى من أن تقفه صرخاتهم ، أو ترد موجه العاتية محاولاتهم الكثيرة المتنوعة .

(١) التطور اللغوي التاريخي : ٥٩ .

(٢) ينظر مثلا : لحن العامة والتطور اللغوي : ٣٤ وما بعدها .

(٣) العربية : ١ .

لقد زحفت العربية مع الفاتحين ، ونزلت في الامصار التي اظلمها الاسلام ، « فكان ذلك ايذاً بشروق عصر جديد للغة العربية » (٤) ، اذ ان نموذ العربية الى مناطق جديدة « كانت تستوطنها لغات أخرى ، لم يكن لير عليها دون تأثير أو تغيير » (٥) .

وكان عمر (رض) قد تنبه لما قد يجره اختلاط العرب بغيرهم من ابناء الاقاليم المفتوحة ، من اخطار تناول لغتهم ، وكثيراً من مظاهر حياتهم وتقاليدهم ، فحرم عليهم ان يتلكوا الضياع في الاقاليم الجديدة ، او ان يتخذوها لهم وطناً ومقاماً ، لكي يحفظهم « من التلاشي في جماهير الشعوب المغلوبة » (٦) .

لم يشأ عمر ان تسكن الجيوش المدن المفتوحة ، ولا ان تخلط اهلياً فائساً لهم المعسكرات التي تقع بعيداً من تلك المدن ، وأمرهم بسكانها ، ولم يرتض لهم البناء باللين ، لانه كان ينوي ترحيل الجيوش من تلك المعسكرات ، والعودة بها الى الجزيرة (٧) . غير ان المسلمين بعد عمر ، استقروا في الامصار التي فتحوها ، وتحولوا بتلك المعسكرات الى مدن ، ما لبثت ان اتسعت ، وأخذت باسباب الازدهار والمران (٨) .

وكان من اثر استقرار العرب بالامصار ، واتصالهم بابناء الشعوب ، ان بدأ الفساد اللغوي يغزو السنتهم ، ويتفشى في كلامهم ، كما بدأ الداخلون في الاسلام من ابناء الشعوب الاخرى يتعلمون العربية ، ويمالجون التفاهم بها مع العرب ، فلقيت على السنتهم صنوفاً من التغيير ، وضروباً من الانحراف والفساد ، في اصوات كلماتها وأوزانها ، وفي نحوها واساليب تركيبها . وقد أشار الزبيدي في طبقاته الى ان الفساد لم يفش في العربية الا بعد استقرار

(٤) العربية : ٧ .

(٥) نفسه .

(٦) نفسه : ٨ .

(٧) المجتمعات الاسلامية : ٢٤٩ .

(٨) نفسه .

العرب بالامصار ، واختلاطهم ببناء الشعوب المغلوبة ، قال : « ولم تزل العرب تنطق على سجيتهما في صدر اسلامها ، وماضي جاهليتها ، حتى أظهر الله الاسلام على سائر الأديان ، فدخل الناس فيه أفواجا ، وأقبلوا عليه ارسالا ، واجتمعت فيه الالسنه المتفرقة ، واللغات المختلفة ، فنشأ الفساد في اللغة العربية » (٩) .
وما يزيدنا اطمئنانا الى رأي الزبيدي هذا ، ان كلمة « اللحن » بمعنى الخطأ ، كلمة مولدة ، لم يرق استعمالها بهذا المعنى ، الى ما قبل العصور الاموي ، وهو العصر الذي تلاقت فيه الالسنه ، واختلطت الاجناس ، قال ابن فارس : « فاما اللحن بسكون الحاء ، فامالة الكلام عن جهته الصحيحة في العربية ، يقال لحن لحننا ، وهذا عندنا من الكلام المولذ ، لان اللحن محدث لم يكن في العرب العاربة ، الذين تكلموا بطباعهم السلية » (١٠) .

وما عرض للعربية من تفسير في العصر الاموي لا يخرج عن ان يكون خطأ في الاعراب ، أو أصوات المفردات ، أو أوزانها ، أو دلالاتها ، كما عد استعمال الدخيل ضربا من اللحن ، أو الفساد اللغوي . فالاعراب ، وهو ميزة العربية الاولى ، كانت العرب تلتزمه وتقيمه طبيعة وسليقة كما مر بنا ، ولكن التمازج اللغوي ، جعل العرب يتهاونون فيه ، ويتخففون منه ، بعد أن علموا يخلو اللغات الاخرى منه ، وبعد أن أصبح مجرد الافهام ، أكبر غرض المتكلم (١١) . ويبدو أن العرب ، أول الامر ، لم يصلوه كل الاصل ، وانما صاروا يقيمونه احيانا اقامة خاطئة ، تدلنا على ذلك الروايات الكثيرة التي أخبرتنا عن تفشي هذه الظاهرة ، بحيث لم تسلم منها طبقة المثقفين ، ولا العلية من القوم ، ولا العلماء (١٢) .

وثمة مظهر ثان من مظاهر اللحن يتمثل في تفسير اصوات المفردات ، والانحراف بها عن مخارجها التي تجب لها ، ومن الامثلة على ذلك ما رواه

(٩) طبقات الزبيدي : ١ .

(١٠) المقاييس : ٢٣٩/٥ .

(١١) المجتمعات الاسلامية : ٢٦٧ .

(١٢) دراسات في اللغة : ٢١ .

الجاحظ من أن عبيد الله بن زياد كان ينطق الهاء بدل الحاء ، والهمزة بدل العين ، فقد قال لهانيء بن قبيصة « اهروري سائر اليوم ، يريد : احروري » (١٣) . وكان عبيدالله بن زياد هذا ، ينطق عريية غير فصيحة ، لأنه تربى في حجر أم غير عريية تدعى « مرجريت » وصارت « مرجانة » فيما بعد . ويروى أن معاوية أوصى زيادا ، وكان خليا لنا ، بأن يعلم ابنه العريية ، ويصلح من لسانه (١٤) . اما الموالي والرقيق الذين تعلموا العريية ، وصاروا يتفاهسون بها مع العرب ، فلم يكونوا يحسنون النطق بحروفها وأصواتها ، بل كان نطقهم في كثير من الاحيان مدعاة للسخرية ، حتى ان الشاعر المعروف ، ابا العطاء السندي ، وهو مولى ، كان يجع بين لثغة ولكنة (١٥) وكان لا يكاد يفهم كلامه ، فأتى سليمان بن سليم وانشده شعرا طلب فيه أن يهب له غلاما فصيحاً ، يقوم بانشاد شعره ، قال :

أعوزتني الرواة يا ابن سليم	وأبى أن يقيم شعري لساني
وغلا بالذي أججم صدي	وجفاني لمجتي سلطاني
وازدرتني العيون اذ كان لوني	حالكما مجتوى من الالوان
فضربت الأمور ظهراً لبطن	كيف احتال حيلة للساني
وتنيت أنني كنت بالشعر فصيحاً	وبان بعض بناني
فاكفني ما يضيّق عند رواتي	بفصيح من صالحى الغلمان
يتهم الناس ما أقول من الشعر	فان اليان قد أعياني (١٦)

وظلت ظاهرة ابدال الحروف ، واقامة بعضها مقام بعض ، واضحة لمن يتقصى أمر اللحن ، ويتبجه في عصور العريية . ولم يقع هذا اللحن من الموالي فحسب ، بل تورط فيه العرب أنفسهم ، ولهذا حذت كتب (لحن العامة) بأمثلة كثيرة لهذه الظاهرة ، ذلك أن اللغويين لم يسحوا للمتكلمين

(١٢) البيان والتبيين : ٧٢/١ .

(١٤) العريية : ١٦ .

(١٥) الشعر والشعراء : ٧٦٦/٢ - ٢ .

(١٦) نفسه .

بأن ينحرفوا بنطق أصوات المفردات ، وعدوا ابدال صوت من صوت لحننا يجب أن تتحماه الالسن ، ويتجافى عنه المتكلمون . وابدال صوت من صوت ظاهرة قديمة في كلام العرب ، قال ابن فارس : « ومن سنن العرب ابدال الحروف واقامة بعضها مقام بعض ، ويقولون : مدحه ومدهه وفرس رفل رفن ، وهو كثير مشهور قد ألف فيه العلماء (١٧) » . وعلى الرغم من أن هذه ظاهرة شاعت في كلام العرب ، على حد قول ابن فارس ، فإن اللغويين لم يرتضوها للعرب المتأخرين وكأنها في رأيهم ، وقف على العرب الاوائل ، فلا يحق لمن يأتي بعدهم أن يحدثوا شيئا منها في اللغة .

وظهر اللحن أيضا في صيغ المفردات وأوزانها ، و « كتاب ما تلحن فيه العوام » للكسائي ، أقدم ما سجل لنا نماذج من الخطأ الذي كان يجري على السنة الناس ، ومن الامثلة على ذلك قوله : « ويقال فلان معدن العلم ، ولا يقال : معدن بفتح الدال (١٨) » . وهذا يعني ان الكلمة تبدلت صيغتها ، وتطور وزنها . وقوله : « وتقول : هذه أتان للاثى من الحبير ، بغير هاء » (١٩) ومعنى ذلك أن الناس كانوا ينطقون هذه الكلمة « أتانة » بتطور الصيغة من التانيث بدون علامة ، الى التانيث بالتاء . وقوله « وتقول : غثت نفسي ولا يقال : غثيت بالياء . وكذلك غلت القدر بلا ياء » (٢٠) . وقوله : « وأغلقت الباب فهو مغلوق ، ولا يقال مغلوق » (٢١) . ويعنى هذا كله أن صيغ هذه المفردات قد تطورت ، فكان هذا التطور قد خرج بها من عداد الفصحح .

وهناك مظهر آخر من مظاهر اللحن ، كان يبدو في استعمال الالفاظ في غير ما وضعت له ، أو في غير ما استعملها به العرب الذين يحتج بأقوالهم ، ويطمأن الى فصاحتهم . ومن أقدم ما روي لنا من هذا اللحن ، في انصر

(١٧) الصحابي : ٢٠٢ .

(١٨) كتاب ما تلحن فيه العوام رقم ٧٢ .

(١٩ ، ٢٠ ، ٢١) نقه : رقم ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ .

الاموي ، ما يحدثنا به الجاحظ من أن عبيد الله بن زياد قال مرة لجنوده : « افتحوا سيوفكم » يريد : سلوا سيوفكم ، فلم يقع على اللفظة التي يستعملها العرب في هذا الموضع ، وجاء بلفظة أخرى ، فاستعملها لغير ما وضعت له . وكانت قوله هذه ، مثار سخرية الشاعر يزيد بن مفرّج ، الذي هجاه فغزوه بخطه هذا ، فقال :

ويوم فتحت سيفك من بعيد أضعت وكل أمرك للضياح (٢٢)

وابن زياد هو الذي قال لسويد بن منجوف : « اجلس على آت الارض » فقال سويد : « ما كنت أحب أن لارض استا » (٢٣) .

ومن الأمثلة على سوء استعمال الالفاظ ما يرويه ابن قتيبة فيقول : « اجتمع ابو عمرو بن العلاء وعمرو بن عبيد ، فقال عمرو : ان الله وعدنا ، وأوعد ايمادا ، وانه منجز وعده ووعيده . فقال له أبو عمرو : أنت أعجم ، لا أقول انك اعجم اللسان ، ولكنك أعجم القلب ، أما تعلم ويحك أن العرب تعدّ انجاز الوعد مكرمة ، وترك ايقاع الوعيد مكرمة ، ثم انشد : واني وان اوعدته أو وعدته لمخلف ايمادي ومنجز موعدتي » (٢٤)

ومضى اللغويون الذين عنوا بتصويب الاخطاء ، وتنقية اللغة منها ، يذكرون في كل عصر أمثلة لهذا النوع من اللحن ، فينبهون عليه ، ويرشدون الى التصحيح الذي يجب أن يحل محله .

ومن مظاهر اللحن استعمال الالفاظ الاجنبية ، لمسيات ، لها أسماء بالعربية وكثر ذلك عند أهل المدن ، الذين يخاطبون الاقوام الأخرى ، ويلقونهم لقاء متصلا ، يقول الجاحظ في أهل المدينة : « .. الا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بالفاظ من الفاطميين ،

(٢٢) البيان والتبيين : ٢/٢١٠ ، ٢١١ .

(٢٣) نفسه : ٢/٢١١ .

(٢٤) صيون الاخبار : ٢/١٤٢ .

ولذلك يسون البطيخ الخربز ويسون ... » (٢٥) ويقول عن أهل الكوفة والبصرة : « ويسى أهل الكوفة الحوك الباذروج (الحوك : البقلة الحماة - الرجلة) والباذروج بالفارسية والحوك كلمة عربية . وأهل البصرة اذ التقت اربع طرق يسونها مَرَبَعَة ، ويسيها أهل الكوفة الجهار سوك ، والجهار سوك بالفارسية . ويسون السوك والسويقة : وازار ، والوازار بالفارسية . ويسون القشاء خيارا ، والخيار بالفارسية . ويسون المجذوم ويثدي بالفارسية » (٢٦) .

ولفت ظاهرة اللحن وفشت فلم تلم منها طبقة من طبقات المجتمع ، ولم ينج منها عليا القوم ، وأهل العلم منهم . وكان الجاحظ قد وصف موجة اللحن بأنها امتدت ، فشملت ابناء القرويين والمدنيين (٢٧) . فعبد الملك ابن مروان كان يحذر ابناءه من اللحن ، ويصفه بأنه في منطق الشريف أقبح من آثار الجدري في الوجه ، وأقبح من التثيق في الثوب (٢٨) . وروي عنه انه « قيل له : لقد عجل اليك الشيب يا أمير المؤمنين ، قال : شيبني ارتقاء المناير وتوقع اللحن » (٢٩) . ولم يقتصر اللحن على الطبقة الحاكمة ، وانما جاوزها الى الطبقات العاملة ، فرويت عن بعض العلماء سقطات تشهد عليهم بتورطهم في اللحن . فالجاحظ يقص علينا ان زيادا النبطي ، كان نحويًا ، وكان شديد اللكنة ، وقد دعا غلامه ثلاثا فلما أجابه قال : « فمن لذن دأوتك الى أن قلت لبي ما كنت تصنأ ، يريد : من لذن دعوتك الى أن أجبتني ما كنت تصنع » (٣٠) . وظهر اللحن على السنة البلغاء والايناء أيضا ، حتى لقد عقد الجاحظ بابا في « البيان والتبيين » جعل عنوانه « ومن اللحائين

(٢٥) البيان والتبيين : ١٩/١ .

(٢٦) نفسه : ٢٠/١ .

(٢٧) نفسه : ٢١٠/٢ وما بعدها و١٦٢/١ .

(٢٨) العقد الفريد : ٤٧٨/٢ .

(٢٩) العقد الفريد : ٤٧٩/٢ .

(٣٠) البيان والتبيين : ٢١٢/٢ .

البلغاء» (٣١) . على ان فشو اللحن لم يقتصر على المواطن الجديدة التي انتقل اليها العرب ، بل شمل الوطن اللغوي الام ، فالجاحظ يقول عن أهل المدينة : « ولأهل المدينة ألسن ذلقة ، والفاظ حسنة ، وعبارة جيدة ، واللحن في عوامهم فاش ، وعلى من لم ينظر في النحو منهم غالب » (٣٢) .

وتتيجة لفشو اللحن واستشرائه ، قوي النقد اللغوي ، فكان بمثابة رد الفعل لموجة اللحن الطاغية . أي ان موجة اللحن العارمة قد لقيت من يقف لها ، ويحاول منع فشوها .

والنقد اللغوي الذي ظهر بسبب اللحن ، مرّ بطورين : الاول طور استنكار اللحن ، واظهار الزرأية على مرتكبيه . وقد مارس هذا اللون من النقد الحكام وغيرهم ، ممن كانوا يفاوون على العربية ، ويجز في ثوسهم ما لقيته من صنوف الانحراف على السنة المتكلمين بها . فقد مرّ بنا ان عبدالمك كان يحذر من اللحن ، ويمده عيا يضع من قدر الشريف . وكان مسلمة بن عبدالمك يقول : « اني لأحب أن أسأل هذا الشيخ - يعني عمرو ابن مسلم - فما يسئني منه الا لحنه » (٣٣) . ويقول : ان الرجل يسألني الحاجة ، فتستجيب تسني له بها ، فاذا لحن انصرفت تسني عنها » (٣٤) . وكان الحجاج لا ينطق عربية ناصعة فحسب ، بل يحاول ان يعبر من يحيط به تعبيرا صحيحا (٣٥) . « ويزعم بعضهم ان كثير بن كثير البصري السذي أراد الحجاج اكراهه على عمل يتولاه تخلص منه بأن أساء الى اذن الحجاج بلحن فظيح في القواعد » (٣٦) .

وكما كان العيارى على اللغة يعييون اللحن ، ويضعون من قدر مرتكبه كذلك كانوا يمدحون من يصحح اعرابه ، ويحرص على الفصح من الالفاظ

(٣١) نفسه : ٢٢٠/٢ .

(٣٢) نفسه : ١٤٦/١ .

(٣٣) البيان والتبيين : ٢١٦/٢ .

(٣٤) طراز المجالس : ٦٧ .

(٣٥) العربية : ٢٨ .

(٣٦) نفسه .

والتراكيب ، فما هو ذا رؤية (ت ١٤٥ هـ) يمدح بلال بن أبي بردة قاضي
البصرة بأنه لا يلحن (٣٧) :

فُزْتُ بِقِدْحِي مُعْرَبٍ لَمْ يَلْحَن

وكان رؤبه نفسه يتمدح بقدرته اللغوية ، وبتفوقه على أي نحوي ،
حتى ولو كان ضليعا ، أو « دهي العلم والتعبير » . يقول في ارجوزته التي
امتدح بها القاسم بن محمد بن القاسم فاتح السند (٣٨) :

كيف تراني أتحي في دفتري - على قضيب الذاهبات الشبر
لا ينظر النحوي فيها نظري وان لوى لحيه بالتحقر
وهو دهي العلم والتعبير

غير ان انتشار اللحن لم يكن يمنعه ، أو يحد منه الاستنكار ، ولذا
فكر اولو الامر ومن تهمة سلامة العربية ، بعمل يحسن اللغة ، وينصم الناس
من القوط في اللحن ، فكان ان هداهم تكبيرهم الى وضع « علم » يدل
الناس على نظام اللغة في صياغة المفردات ، وتصريف الكلمات ، وبناء الجمل ،
وعرف هذا العلم بـ « النحو » .

وينشوء النحو ، وظهور قواعده ، بدأ الطور الثاني من اطوار النقد
اللغوي الذي ظهر بسبب اللحن ، وكان بمثابة رد فعل له . ويتيز هذا
الطور بأن الناقد كان لا يقف عند استنكار اللحن ، أو رمي المتكلم بالخطأ ،
بل كان يدعم حكمه بالحجج والبراهين ، وما تلك الحجج والبراهين الا القواعد
النحوية التي استنبطت من كلام العرب ، بمد استقرائه ، ومراقبة استعماله .
ولاجل هذا وصف بعض الدارسين النقد اللغوي في هذا الطور بأنه كان
اول ما عرفت العربية من النقد العلمي القائم على التعليل وذكر الأسباب (٣٩) .

(٣٧) اللسان : (لحن) . وينظر : لحن العامة والتطور اللغوي : ١٨ ، ١٩ .

(٣٨) العربية : ٢٩ ، ٣٠ .

(٣٩) في تاريخ النقد ، ١١٧ ، ١١٨ .

وبسبب موضوعية أكثر النقد اللغوي في هذا الطور ، واستناده ال
الاسباب والعلل ، لم يجد الشعراء بدا من التسليم به ، والاذعان له . ومن
لم يقبله منهم لم يستطع ان يدفعه بالدليل او البرهان ، بل اضطر الى دفعه
بالهجاء .

وقد أحس النقاد اللغويون بقوة سلطانهم على الشعراء ، فقال قائلهم
- وهو الخليل - ، مخاطبا ابن منذر : « انما اتم معشر الشعراء تبع لي ،
وأنا سكان الفينة ، ان قرظتكم ورضيت قولكم تهتتم ، والا كسدتهم » (٤٠) .
و « حكي ان رجلا قال لخلف الاحمر : ما ابالي اذا سمعت شعرا استحسنته
ما قلت انت واصحابك فيه فقال له : اذا خذت درهما تحسنه ، وقال لك
الصيرفي : انه ردىء هل ينفعك استحسانك اياه » (٤١) .

وتيجة لشغف النقاد بما اهتموا اليه من قواعد النحو واللغة .
ورغبتهم الشديدة في مراقبة تطبيق الشعراء لها ، وتقيدهم بها ، فانهم نوا
اذواقهم ، ولم يصدروا عنها في درس الشعر وتحليله . بمعنى انهم شغلوا
بالبحث عن مخالقات الشعراء اللغوية ، ولم يكن من همهم الحديث عما في
النصوص من عذوبة وجمال ، أو مقومات فنية وبلاغية (٤٢) .

ولم يكتف اللغويون بنقد الشعراء وبيان ما وقعوا فيه من مخالقات
لحدودهم وقياساتهم ، بل تجاوزوا هذا الموقف ، واتخذوا موقفا ايجابيا ،
فأصلحوا بعض ما كانوا يرونه معيبا او خطأ من وجهة نظرهم ، وعادوا به
الى ما يتفق مع قواعدهم ، ويساير آقيستهم ، يدل على ذلك ما رواه ابن سلام ،
من أن المرزوق أخذ عليه شيء في شعره ، فقال : « اين هذا الذي يجري في
المجد خصيه ولا يصلحه ؟ يعني ابن ابي اسحاق » (٤٣) . وفي عبارة

(٤٠) الاغاني : ١٦/١٧ .

(٤١) العمدة : ١١٧/١ .

(٤٢) تاريخ النقد الادبي عند العرب : ٥١ ، ٥٢ .

(٤٣) طبقات فحول الشعراء : ١٥ .

الفرزدق هذه ما يفصح عما كان ابن ابي اسحاق يصنعه بالشعر ، اذ كان يقيمه على حدود النحو .

فالتطور اللغوي الذي حدث في العصر الأموي ، لم يكن ليترك دون مقاومة ، ودون حملة نقد تهدف الى وقف تياره ، أو الحد من طغيانه ، وكانت تلك الحملة قد مرت بطورين : الاول طور استنكار الخطأ والزراية على مرتكبيه ، ثم وجد أن الاستنكار لا يكفي للوقوف بوجه الخطأ ، فانتقل النقد الى الطور الثاني ، وفيه نشأت مجموعة مقاييس وقواعد ، اصطلاح عليها بـ (النحو) ، واصبح الشعراء ملزمين باتباعها ، فان أخلوا بها ، او حادوا عنها ، رفض شعرهم ، ووصموا بالخطأ .

واذ أطلّ العصر العباسي استمر الفساد اللغوي في الانتشار ، وخفّت السليقة العربية أكثر من ذي قبل ، وصارت اللغة تؤخذ بالتعلم ، وتنال من افواه المؤدبين ، وذلك لبعث العرب من عصور النقاء والسلامة ، وناهم عن الجزيرة ، مهد العربية الاول ، وامعاتهم في الارض ، يجوبون امراضها ، ويستوطنون الاماكن النائية منها ، ويخالطون من فيها من ابناء الامم الاخرى . واذا أمكن لكثير من افراد القبائل المهاجرة ، ان يحتفظوا بسلامة سنتهم ، ونقاء ملكاتهم ، فان أولادهم الذين شبّوا في ديار غير ديار آباءهم . وبين اقوام ترطن بغير العربية ، لا يسكنهم ان يحتفظوا بشيء من صفاء السليقة ، ونقاء الملكة (٤٤) . يقول يوهان فك : « لقد احتفظت كثير من القبائل البدوية أيضا في البلدان التي استولت عليها بطريقة حياتها البدوية ، وحافظت بذلك على سلامة لهجاتها ، وخلوصها ، ولهذا كان لا يزال مكثرا اوائل العهد العباسي ان يلاقي المرء من جنوب البرتغال في الغرب الى خراسان في الشرق قبائل عربية ، وان يسمع من افواها عربية بدوية خالصة لا تشوبها هجنة ولا عجمة » (٤٥) .

(٤٤) تاريخ النقد الادبي عند العرب : ٥١ .

(٤٥) العربية : ٧ .

كما ان ابناء الامم الاخرى ، الذين بدأوا يتعلمون العربية ، ويعالجون التفاهم بها مع العرب ، لا بد ان يخلوا بشيء من قواعدها ، ويزينوا عن السنن الصحيح في نطقها او ادائها . وهذا كله يقودنا الى أن موجة الفساد التي دهمت العربية في العصر الاموي ، لم تراجع في العصر العباسي ، بل قوت واتسع مداها ، وأن لغة التفاهم التي نشأت عند اختلاط العرب بغيرهم في اثناء الفتوح^(٤٦) ، ترسخت في هذا العصر ، واتسعت مسافة الخلف بينها وبين الفصحى . وقد حفظ الجاحظ لنا بعض سمات هذه اللغة^(٤٧) ، ولعل أهم خصائصها ترك الاعراب ، وفتح الباب امام الدخيل والكلمات الاعجمية^(٤٨) .

فالفصحى العربية لم تعد لغة الحياة ، منذ عهد الجاحظ في الأقل ، وانما غدت لغة الادب والتأليف العلمي ، وأصبح « استعمال الاعراب والتصريف الكاملين في خارج المحيط العلمي يعد تقمرا وتشادقا »^(٤٩) . يدل على ذلك تبييه الجاحظ على ضرورة رواية نوادير الاعراب بالاعراب الكامل ، لئلا تفقد طرفتها . قال الجاحظ : « ومشي سمعت - حفظك الله - بنادرة من كلام الاعراب ، فايالك أن تحكيها الا مع اعرابها ، ومخارج الفاظها فانك ان غيرتها بأن تلحن في اعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين ، خرجت من تلك الحكاية ، وعليك فضل كبير ، وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادير العوام وملحة من ملح الحنوسة والطعام ، فايالك وان تستعمل فيها الاعراب أو تتخير لها لفظا حسنا ، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا ، فان ذلك يفسد الامتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ... ويذهب استطابتهم ايها . »^(٥٠) . ويستفاد من قول الجاحظ هذا ، ان الاعراب

(٤٦) نفسه : ١٠٠ .

(٤٧) دراسات في اللغة : ١٩٨ .

(٤٨) العربية : ١٠٤ ، ١١٣ .

(٤٩) نفسه : ١١٩ .

(٥٠) البيان والتبيين : ١٤٥/١ ، ١٤٦ .

في عصره كان ما يزال حيا على السنة البدو الغلص ، اما لغة الحضرة فقد خلت منه .

يبد أن لغة الاعراب أيضا قد ظهرت عليها أمارات مختلفة من التجديد في القرن الثالث ، فعمارة بن عقيل ، الذي عاش في سهول البصرة ، كان ابو حاتم لا يثق بمرييته ، لانه استعمل « ريانة » بدلا من « ربي » في قوله (٥١) :

ومن ليلة قد بها غير آثم بساجة الحجلين ريانة القلب

وكان عمارة هذا أيضا يستعمل « خيول » بدلا من اسم الجمع « خيل » ويستعمل كلمة « ابن » كما لو كانت همزتها همزة قطع ، وكان يحذف همزة المد في لفظ « الدهناء » (٥٢) .

واذا تركنا البدو ، وعوام الحضرة ، ونظرنا في لغة الادباء ، وجدناهما لم تبرا من الخطأ ، ولم تنج من الزيف ، الا أن الادباء كانوا متفاوتين في احاطتهم باللغة ، وتسكنهم منها ، فكان لا بد ان تكثر الاخطاء عند بعضهم ، وتقل ، وقد تنعدم ، عند الذين تفقهوا في النحو واللغة ، واخذوا بها أنفسهم ، ومرونت عليها ألسنتهم .

فلغة بعض كتاب الدواوين ، كانت على جانب كبير من الضعف والانحطاط ، وحفظت لنا كتب الادب اخبارا تدل على استعمال هؤلاء الكتاب شيئا وتراكيب مخالفة للنحو تماما . من ذلك أن ميمون بن ابراهيم كاتب اسحاق بن ابراهيم بن مصعب ، ارتكب في رسالة الى المأمون خطأ شنيعا ، اذ قال : وهذا المال مالا يجب على فلان . فخط المأمون على (مالا) ووقع بخطه في حاشية الكتاب : انكاتبني بلحن يا ابا اسحاق (٥٣) . ولم يكن

(٥١) لحن العوام : ١٦٢ .

(٥٢) العربية : ١٢٣ .

(٥٣) العربية : ١٢٧ وينظر مصدره .

اسحاق نفسه أحسن معرفة بالنحو من كاتبه ، فقد وقع في لحن امام المأمون ، فاضطر بسبب ذلك الى أن يتعلم العربية على النحوي هشام بن معاوية (٥٤) . وكان بعض كتّاب الدواوين يجهل اللغة ، كما يجهل النحو ، فقد روي ان كاتباً « اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه ، وارتضاه لرساه ، فقرأ عليه يوماً كتاباً ، وفي الكتاب (ومطرنا مطراً كثر عنه الكلال) فقال له الخليفة مستحناً له : وما الكلال ؟ فتردد في الجواب عنه ، وتمشّر لسانه ، ثم قال : لا أدري . فقال : سل عنه » (٥٥) .

وإذا تركنا الكتاب وجئنا الى الشعراء ، وجدنا حظوظهم من الثقافة اللغوية تتفاوت ، فالمتقدمون منهم جدوا في تحصيل اللغة ، وبلغوا من العلم بها منزلة رفيعة ، وقد ساعد كثيراً منهم على ذلك ، تنقلهم في البوادي ، واقامتهم بين الأعراب .

فيشار مثلاً استطاع بفضل تضلعه من اللغة ان يصمد للغويين ويقاومهم . قيل له مرة : « ليس لاحد من شعراء العرب شعر الا وقد قال فيه شيئاً استكرته العرب من الفاظهم ، وشك فيه ، وانه ليس في شرك ما يشك فيه . قال : ومن أين يأتي الخطأ ، ولدت ها هنا ، ونشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ، وما فيهم احد يعرف كلمة من الخطأ ، وان دخلت الى نائمهم ، فناؤهم أفصح منهم . وأيتمت فأبدت الى أن ادركت فمن أين يأتي الخطأ ؟ » (٥٦) .

واما ابو نواس فقد كان « متفنناً في العلم ، قد ضرب في كل نوع منه بنصيب » (٥٧) . وقال ابن قتيبة عنه : « وقد كان يلحن في اشياء من

(٥٤) معجم الادباء : ٢٩٢/١٩ .

(٥٥) ادب الكاتب : ٦ ، ٧ .

(٥٦) الاغانى : ١٤٩ / ٣ ، ١٥٠ .

(٥٧) الشعر والشعراء : ٧٩٩/٢ .

شعره ؛ لا أراه فيها الا على حجة من الشعر المتقدم ، وعلى علة بيّنة من علل النحو » (٥٨) .

وكان ابو تمام من الشعراء المتقدمين ، الذين ضربوا بسهم وافر في الثقافة اللغوية ، حتى عدّه النقاد ثقة في الشعر العربي ، وعالما به (٥٩) . وعلى الرغم مما أثير حول شعره ، فان احدا لم يتعلق عليه بلحن ، أو مخالفة لغوية (٦٠) . ومع ان اللغويين لم يكونوا يحتجون بالمولدين ، فان الزمخشري خرق اجماعهم هذا ، واحتج بأبي تمام (٦١) .

ولكن شعراء العصر العباسي لم يكونوا جميعا بهذا المستوى من العلم بالعربية ، فقد حفظت لنا كتب الادب واللغة ناذج كثيرة من اخطاء شعراء هذا العصر ، ومخالفاتهم اللغوية ، قال المبرد عن ابي العتاهية : انه كان « يكثر عثاره ، وتصاب سقطاته ، وكان يلحن في شعره » (٦٢) . وروى الصولي ابياتا لابن الرومي ، اعتذر فيها من اخطاء عرضت له في بعض شعره (٦٣) .

ولم يبرأ البحتري من بعض اللحن ، فقد أخذ عليه استعمال (ملحات) يسكون اللام (٦٤) ، واستعمال كلمة (مشن) بدل (مشيا) في قوله :

يا ماحد الفتح ويا آمله لست امراً خاب ولا مشن كذب (٦٥)

وأخذ عليه ، عدا اللحن ، عدم دقته في استعمال بعض المفردات ، وذلك في قوله :

محل على القاطول أخلق دائره

(٥٨) نفسه : ٨١٨/٢ .

(٥٩) النقد الادبي واثره في الشعر العباسي : ٧٣ .

(٦٠) العربية : ١٢٣ .

(٦١) الاقتراح : ٢٦ .

(٦٢) الموشح : ٤٠٥ .

(٦٣) ادب الكتاب : ١٢٣ .

(٦٤) خزانة الادب : ٣٩٤/٣ وانظر شرح ابن عقيل : ٢٥٣/٢ .

(٦٥) الموشح : ٥١١ .

فقيل : « ولا يقال : تُخلق دائره لان الدائر لا بقية له فتخلق أو تتجدد » (٦٦) .

وكان شعر المتجبي مادة خصبة للـغويين ، والباحثين عن الخطأ ، والاستعمالات المحظورة . غير أن كثيرا مما أخذ عليه يسكن أن يقبل ، ويجد له سندا من اقوال النحاة ومذاهبهم . ولم يكن يوهان فك على حق حين وصف المتجبي بأنه عاجز « عن التعبير الموافق لروح العربية القديمة » (٦٧) ، لان هذا حكم غال ومسرف ، وهو ان صدق على شيء من شعر الرجل ، فلا يصدق عليه كله .

وهناك من يضر الضعف الذي طرأ على الملكة اللغوية في نفوس كثير من المنشئين ، كتابا وشعراء ، والاختفاء التي ظهرت في كلامهم ، بأن اللغة الفصحى لم تعد لغة الأديب الطبيعية التي يطلق بها فطرة ، وانما أصبحت لغة يتلقاها بالتعلم والاكساب ، ومع التعلم يكون الخطأ . ذهب الى هذا شكري فيصل حين رأى أن الانحراف عن التعبير اللغوي السليم جاء « اثرا لبعدها ما بين اللغة الادبية واللغة اليومية ، فهذه اللغة التي يكتب بها الكاتب ، والتي يتغنى بها الشاعر ، ليست هي لفته اليومية التي يتعلمها في البيت والسوق ولكنها لغة خاصة يتعلمها في حلقات الدراسة وفي سحون الماجد . لم يكن هو الذي يترعرع فيها ، وانما كانت هي التي تصونه ، أعني انها لم تكن لغة طبيعية ، وانما كانت لغة مكتبة . ولهذا كان من العير ان تظل بعيدة عن هذه الاخطاء ، مهما يكن الوفاء لها ، والبر بها ، وكان لا بد ان تتسرب اليها آثار من اللغة اليومية ، رغم كل ما حولها من سدود وقوود » (٦٨) .

وازاء هذا التطور اللغوي ، ونتيجة له ، ولضعف الملكة اللغوية في نفوس كثير من المنشئين ، نشط النقد اللغوي ، وظهر نوعان من التأليف فيه :

(٦٦) نفسه : ٥١٧ .

(٦٧) العربية : ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٦٨) المجتمعات الاسلامية : ٤١٨ ، ٤١٩ .

أما الأول فقد تكفل بمعالجة الأخطاء ، والتنبيه على المفسد والمزال من الصيغ والتراكيب ، والارشاد الى ما يقابلها من الاستعمال اللغوي السليم . وقد تمثل هذا النوع من التأليف بالكتب الكثيرة التي عرفت بكتب (اللحن) ككتاب (ما تلحن فيه العوام) للكسائي ، و (البهاء فيما تلحن فيه العامة) للفراء ، و (ما تلحن فيه العامة) لأبي عبيدة ، و (ما يلحن فيه العامة) للأصمعي ، و (ما خالفت العامة فيه لغات العرب) لأبي عبيد و (اصلاح المنطق) لابن السكيت و (ما تلحن فيه العامة) لأبي حاتم السجستاني ، و (النحو ومن كان يلحن من النجوين) لابن شبة ، و (ادب الكاتب) لابن قتيبة ، و (الفصيح) ثعلب ، و (تقويم اللسان) لابن دريد ، و (ليس في كلام العرب) لابن خالويه ، و (لحن العوام) للزبيدي ، و (ما تلحن فيه الخاصة) لأبي هلال العسكري^(٦٩) . ومع أن أكثر هذه الكتب قد انصرف الى اصلاح ما يجري على السنة العوام من اخطاء في حياتهم اليومية ، فان بعضها قد انصب على معالجة اخطاء الادباء والمثقفين ، ولا بد من الاشارة هنا الى ان عددا من النقاد لم يفرّدوا لاطفاء الادباء كتباً ، كما فعل هؤلاء ، وانما اوردوا شيئاً من تلك الاخطاء مع ما يقابلها من الصواب ، في اثناء تأليفهم النقدية او اللغوية . وتشدد أكثر المؤلفين في معالجة الاخطاء وتصويبها ، ودعوا الى استعمال افصح ما في اللغة من مفردات وصيغ وتراكيب . ومن هؤلاء الفراء والأصمعي وابن قتيبة وثلث والزبيدي^(٧٠) .

وأما الثاني فقد هدف الى تنمية لغة الادباء ، والنهوض بأساليبهم ، وأمدادهم بما يحسن ويجمل من الالفاظ والعبارات ، مع تبيينهم على مناسبة كل لفظ ، والمقام الذي يقال فيه كل تعبير . ومن الكتب التي تمثل هذا النوع من التأليف كتاب (ادب الكاتب) لابن قتيبة الذي جمع الى تقويم السنة

(٦٩) لحن العامة والتطور اللغوي : ٩٧ ، ٩٨ .

(٧٠) ابو بكر الزبيدي الاندلسي وآثاره في النحو واللغة : ٢٠٧ .

الكتاب خاصة والادباء عامة ، معارف لغوية لا يتفني عنها اديب . وكتاب (اصلاح المنطق) لابن السكيت ، مما يفيد منه الكتاب والشعراء في تقويم اقلامهم واصلاح الستهم ، كما يتقنون فيه على ثروة لغوية كبيرة تسهل عليهم التعبير . ويؤخذ على هذا الكتاب انه جاء زاخرا بلهجات الاعراب ، ولغاتهم النادرة والمهجورة ، فقلل ذلك من ارتفاع الادباء ببادته ، لان اكثرهم اخذوا يعافون الالفاظ البدوية ويزهدون في الاستمسالات الغريبة . ومن الكتب التي فيها ابن السكيت للنهوض بلغة الادباء ؛ كتاب (الالفاظ) وهو مرتب على ابواب المعاني ، كتاب (الغنى والخصب) وباب (الفقر والجذب) ثم باب (الجماعة) وباب (الكثائب) ، وهكذا . الا انه كسابقه (اصلاح المنطق) زاخر بلهجات الاعراب والفاظهم ، التي لم تعد تتسلح في شعر أو نثر .

وعني قدامة بن جعفر بلغة الكتاب خاصة ، ورمى الى النهوض بها ، خالف كتابه (جواهر الالفاظ) وارشد فيه الى ما يصح ويحسن في نظره من الالفاظ والمبارات . وهو لذلك لم يورد لفظا غريبا او نائبا ، او عبارة مستهجنة غير متخيرة . كما عرض في كتابه طائفة من الالفاظ ثم شمعها بأخرى تشق معها في القافية ، ليفيد الكتاب من ذلك في أسجاعهم .

ويبدو أن قدامة لم يكن اول من ألف في هذا الباب ، بل سبقه عبدالرحمن الهذاني (٣٢٢ هـ) الى هذا الضرب من التأليف ، فآلف (الالفاظ الكتابية) ، وحذا فيه ، من حيث المنهج ، حذو كتاب (الالفاظ) لابن السكيت ، بمعنى انه رتب على ابواب المعاني . والكتابان بعد ذلك مختلفان من حيث المادة ، اذ عني ابن السكيت بالغريب ، وعني الهذاني بالسهل المتعمل (٧١) . غير ان قدامة - كما يبدو - لم يستحسن كتاب الهذاني ، ولم يره قد حقق ما هدف اليه ، من خدمة لغة الكتاب واغنائها ، واتقاها ما تردت فيه من ضعف وركاكة . على أن قدامة لم يصرح بكتاب

(٧١) ابن السكيت اللغوي : ٢١٨ .

الهمذاني ، وانا نقدا بعبارة مختصرة ، جاءت في مقدمة كتابه ، كتابا على هذه الشاكلة ، ظهر قبل كتابه بقليل . وقد رجح فك (٣٢) ان الكتاب الذي عناه قدامه هو كتاب الهمذاني .

ويؤخذ من مقدمة (الالفاظ الكتابية) ان الهمذاني كبه لانه وجد « من المتأخرين في الالة قوما أخطاهم الاتعاع في الكلام ، فهم متعلقون في مخاطباتهم وكتبهم باللفظة العربية ، والحرف الشاذ ، ليتيزوا بذلك من العامة » (٣٣) . ووجد « آخريين قد توجهوا بعض التوجه ، وعلوا عن هذه الطبقة ، غير انهم يمزجون الفاظا يسيرة قد حفظوها من الفاظ كتاب الرسائل بالفاظ كثيرة سخيفة من الفاظ العامة ، استعانة بها ، وضرورة اليها ، لخفة بضاعتهم . . . » (٣٤)

وقد نال كتاب الهمذاني اعجاب صاحب بن عباد ، أحد كبار ائكتاب في القرن الرابع . الا أن صاحب أخذ على الهمذاني أنه « جمع شذور العربية الجزلة في أوراق يسيرة ، فاضاعها في أفواه صبيان المكاتب ، ورفع عن المتأدين تعب الدروس ، والحفظ الكثير ، والمطالعة الكثيرة الدائمة » (٣٥) .

ويعد كتاب (فقه اللغة وسر العربية) للشعالبي حلقة أخرى في سلسلة الجهد النقدي الذي بذل للنهوض بالادباء المتخلفين ، فالقسم الاول من الكتاب يزخر بضروب من الاوصاف والاسماء والافعال الخاصة التي لكل منها حال معينة تناسبها ، ومقام معلوم تقال فيه . فالكتاب مادة وتوجيه في وقت واحد .

ويبدو ان بعض الكتاب لم يرق له هذا الاتجاه في التأليف النقدي ، فالصاحب كما مر بنا ، يأخذ على الهمذاني انه في عمله قد رفع عن المتأدين

(٣٢) العربية : ١٤٩ .

(٣٣) الالفاظ الكتابية : مقدمة المؤلف .

(٣٤) نفسه : مقدمة المؤلف .

(٣٥) نفسه : مقدمة المحقق .

مؤونة التعب والدرس ، وجعل أمامهم عبارات والفاظا حاضرة ، يرجعون اليها ليواروا بها ضمنهم ، ويحلوا كتاباتهم ، ولا شك في ان صاحب كان على حق في خوفه من هذا الضرب من التأليف ، لأن من شأنه ان يجعل فن التعبير الادبي عبارة عن قوالب ورواسم ، تجري على كل قلم ، ويجعل الابداء مقلدين ، يعيشون على جهود غيرهم ، ويمبرون بقولهم ، كما انه يقتل الابداع ، ويحول بين الاديب وبين امداد اللغة بالطريف الجديد .

وقد حدث ما كان صاحب يخشاه ، فاستلم ابداء العصور المتأخرة الى تلك القوالب والتعاير ، وأخذوا يستكثرون منها في آدهم ، ولم يكتفوا بسا هياه لهم منها قدامة والهمذاني والثعالي وغيرهم ، بل راحوا يأخذونها من أي وعاء ، يشجعهم على ذلك ذوق العصر ، الذي كان يرى في استعارة الاديب لتعاير غيره ، دليل حفظ واطلاع على اعمال الاخرين وتاجهم .

ومهما يكن من قيمة الكتب التي اشرنا اليها ، فانها لم تظهر لولا التطور اللغوي المتثل بضعف الملكة اللغوية في قوس كثير من المنشئين ، وقلة دراية هؤلاء باللفظ الفصيح ، والاستعمال الصائب ، فالمنشئون قبل هذه الحقبة لم تكن فيهم حاجة الى هذا الضرب من التأليف ، لانهم يملكون اللغة فطرة ، ولا يتعلمونها تملسا ، ولا يتكلفون التعبير بها تكلفا .

فالكتب النقدية التي ظهرت نتيجة للتطور اللغوي ، والضعف انذني طرا على ملكات المنشئين ، سواء منها التي عنيت بتصحيح الخطأ ، او تسمية الذخيرة اللغوية عند الابداء ، تدل بوضوح على نشاط حركة النقد اللغوي ، وتصدي النقاد الحازم لظواهر الضعف والتخلف التي بدأت تظهر في الاساليب الابدائية ، ومحاولتهم التغلب عليها ، وتخليص المنشئين منها .

واما ما ذهب اليه يوهان فك من ان النقاد في عصر المتنبى قد فقدوا الحس اللغوي ، ولم تعد ظواهر اللحن في شعره تسترعي انتباههم (٢٦) ،

فاننا لا نتفق معه ، لان النقد الذي دار حول المتسبي كان في الغالب نقدا لغويا ، يعني بلغة الشاعر وما فيها من اخطاء ، وخروج عن المألوف من قواعد العربية . وقد جمع لنا صاحب الوساطة قدرا كبيرا من هذا النقد ، كما احتوت شروح ديوانه على شيء كثير منه .

واذا جاوزنا القرن الرابع الى القرن الخامس وما بعده ، وجدنا العربية وقد عرض لها على السنة الادباء واقلامهم ما لم يعرض لها من قبل ، من صفوف الانحراف ، والوان الخطأ والفساد . وليس هذا بغريب في عصور عرفت من الانحطاط ، واضطراب شؤون الادارة والسياسة ، ما اضعف النواحي العلمية والادبية ، وهبط بها عما كانت عليه في العصور المتقدمة .

واذا كان ابن قتيبة في القرن الثالث قد شكنا من ضعف طائفة من الكتاب كانوا يعملون في الدواوين ، او يتقلدون مناصب في الدولة ، فان التبريزي في القرن الخامس وصف طلاب العلم ، والمتعلمين بتحصيله ، بضعف الثقافة اللغوية ، والقصور عن فهم الاشعار الفصيحة ، دون شرح اولي (٧٧) . وكما لفت التبريزي انحطاط مستوى الثقافة اللغوية في بغداد ، ابان القرن الخامس ، لفت الحريري ما شاع في لغة الطبقات المثقفة من اوهام ، فالف كتاب « درة الغواص » لينبه على تلك الاوهام ، ويرشد الى ما يقابلها من الفصح . واذا كان اللغويون الذين تقدموا الحريري قد ساءهم اللحن الذي شاع في لغة الحديث اليومية ، فان الحريري لم يكن يشغله هذا الضرب من اللحن ، لتثنيه واستعصاء معالجته ، بل انصرف الى لغة الادب محاولا انقاذها ، والعودة بها الى ما عرفته عصور النقاء اللغوي من الصحة والصفاء .

ويكشف لنا كتاب الحريري هذا ما كان عليه المثقفون من ضعف الاحساس اللغوي ، وقلة الدراية بالفصح . وقد تبه يوهان فك الى ذلك ، فاختار ناذج من لحن المثقفين ، ليدلل بها على ما اتابهم من بعد عن الفصح ،

(٧٧) العربية : ٢١٠ .

(٧٨) درة الغواص : ١٠١ .

وضعف في السليقة اللغوية ، من ذلك انعدام شعورهم بالفرق بين جمع القلة والكثرة ، فكانوا يقولون : « ثلاثة شهور وسبعة بحور » والاختيار « ثلاثة أشهر وسبعة أبحر » . ومن ذلك أنهم لم يعودوا يلاحظون ان اسماء الآلات تميز بـ « ميم » مكسورة في أول الكلمة ، فقد كانوا يقولون « مبرد ومبضع ومنجل كما يقولون مترعة ومقنعة ومنطقة ومطرقة فيفتحون الميم من جميع هذه الاسماء ، وهو من أقبح الاوهام ، وانصح معايب الكلام ، لان كل ما جاء على مفضل ومفعلة من الآلات المستعملة المتداولة بكسر الميم « (٧٩) . كما لم يكونوا يفرقون بين الاسم الدال على المرة الواحدة وهو وزان « فعلة » بفتح التاء ، والاسم المخبر عن حياة الحدث ، ووزنه « فعلة » بكسر التاء ، فكانوا يقولون : « قتله شر قتلة بفتح القاف » (٨٠) . كما لم يفرقوا بين « نعم » و « بلى » بل كانوا يضعون احدها موضع الاخرى (٨١) . ولم يلاحظ معاصرو الحريري ان « تاء التانيث » لا تدخل على وزن « فَعُول » بمعنى « فاعل » فكانوا يقولون : « امرأة شكورة ولجوجنة وصبورة وخؤونة » على حين أن هذه « التاء » انما تدخل على « فَعُول » بمعنى « مفعول » : « كقولك ناقه ركوبة وشاة حلوبة لانهما بمعنى مركوبة ومحلوبة » (٨٢) .

وكما كان للتطور اللغوي ، وبعد ما بين لغة الادب والحياة ، الأثر الواضح في تسرب الخطأ الى الأدباء ، في القرون الاربعة الاولى ، فقد أضحت الازدواج اللغوي الحاد سببا لا يستهان به فيما أصاب الادب في العصور المتأخرة من ضعف وركاكة ، وخطأ وانحراف . بل لقد ذهب بعض الدارسين الى أن الجذب الذي نزل بالادب في العصور المتأخرة ، فعصف بنضرتة ، وسلبه ماءه ورائه ، ليس الا نتيجة للاختلاف بين لغة الادب ، واللغة الحية

(٧٩) درة النواص : ٩٧ .

(٨٠) نفسه : ١٠٦ .

(٨١) نفسه : ١١٩ .

(٨٢) نفسه : ٦٨ .

على السنة الناس ، وليس نتيجة للانحطاط الذي طرأ على النواحي السياسية والادارية في تلك العصور (٨٢) .

لقد عرفت العربية الازدواج اللغوي منذ عصر التوحات ، كما مر بنا قبل قليل ، الا أن الازدواج في العصور الاولى كان يسيرا « لا يتجاوز النطق الصوتي للكلمات والجل من ناحية مخارج الحروف وانواع الفك والادغام والظهار والاختفاء والمد والحذف وما شاكل ذلك من قضايا علم الصوتيات أو التعريف ، ولا يتجاوز الجزئيات في النحو واليسير من المفردات » (٨٤) .

أما الازدواج الذي صارت اليه العربية في القرون المتأخرة فقد كان حاداً ، اتسمت فيه « مسافة الخلف اتساعاً كبيراً بين لغة الحديث ولغة النظم ، بحيث توشك هذه الاخيرة ، أي لغة النظم ، أن تصبح لغة اجنبية بانياس الى الناظم والى ابناء مجتمعه » (٨٥) . وقد حال هذا الازدواج اللغوي بين الشعراء « ممن ينظمون في اللغة المعربة وبين اتقان تلك اللغة اتقاناً يبلغ مبلغ اتقان الشعراء الجاهليين وشعراء العصور الاسلامية الاولى لها » (٨٦) . وقد أدى ذلك الى أن تظهر في شعر هذه العصور مظاهر ضعف كثيرة مثله « في الركافة حيناً ، وفي الخطأ اللغوي والنحوي أحياناً أخرى وفي العمية يقرن بينها وبين الفصيحة فتبدو كالرقعة في الثوب تارة ثالثة » (٨٧) .

ولم يقتصر اثر الازدواج اللغوي في الشعر على ما نزل به من ركة وضعف وخطأ ، بل تجاوز ذلك الى أن جعل الشاعر العربي يفقد ثقته بنفسه ، ويبيل الى التقليد ولا يستطيع الفكاه منه : « وسر هذا الارتباط هو ما يعتقد الشاعر بحق من أن اللغة التي يتعلها تعلمها ، ويتكلف التعبير بها تكلفاً كانت عند اصحاب التراث الاول سليقة وطبيعة ، وانهم كانوا حجة في هذه

(٨٢) ابن سناء الملك ومشكلة العثم والابتكار في الشعر : ٩ وما بعدها .

(٨٤) نفسه : ١٤ .

(٨٥) نفسه .

(٨٦) نفسه : ١٧ .

(٨٧) نفسه .

اللغة ، وكانوا أعرف بأسرارها ، وأقدر على السيطرة عليها والتحكم فيها ، فهم الأئمة المقتدى بهم في هذا السبيل ، وهم الاساتذة الذين يعتبر نفسه وابناء عصره تلاميذ لهم . ويتد هذا التقدير امتدادا طبيعيا من مفردات اللغة وقواعدها الى تراكيبها وأمثالها ثم الى تشبيهاتها واستعاراتها ، حتى تنتهي الى فن الشعر فيها بكل ما يشتمل عليه من أوزان وموضوعات واخيلة ومعان . ولو أن الشاعر المتأخر اعتقد ان اللغة ملك له ، وانها عنده ملكة كما كانت عند الشعراء في العصور الاولى ، لتغير الموقف ، ولتطورت لغة الكتابة في العربية تطورا جوهريا كما حدث ذلك في لغات أخرى ، ولتحرر الشاعر من عبوديته للشعر القديم « (٨٨) .

ولا بأس بان نسوق المثال التالي لندلل به على ان الشاعر المتأخر ، قد فقد حرته في التعبير ، وصار يلث وراء شعر العصور الاولى ، يغير على تعابيرهم ، ويتصيد الفائهم ، لانه يراها خيرا مما تهديه اليه ملكته ، ومقدرته البيانية .

قلم ابن سناء الملك قصيدة في مديح الملك الناصر جاء فيها :

صليني وهذا الحسن باق فربما يعزل بيت الوجه منه ويكنس

فلما اطلع القاضي الفاضل ، على القصيدة كتب الى الشاعر يبدي اعجابه بقصيدته وينتقد عليه البيت المذكور ويتنى لو خلت القصيدة منه ، قائلا : « ولكن بيت يعزل ويكنس ، أردت أن اكسه من القصيدة فان لفظ الكس غير لائقة بكانها » (٨٩) . فلما قرأ ابن سناء الملك نقد القاضي الفاضل كتب اليه مراجعا «قد علم الملوك ما نبه عليه مولانا من أمر البيت الذي اراد ان يكنسه من القصيدة ، وقد كان الملوك مشغوبا بهذا البيت ، مستحليا له ، متعجبا منه ، معجبا به معتقدا أن قافيته أميرة ذلك الشعر ، وسيدة قوافيه وما اوقعه في الكس الا ابن المعز ، حيث يقول :

(٨٨) ابن سناء الملك ومشكلة العمق والابتكار في الشعر : ٢٧ .

(٨٩) ثمرات الارراق : ٢٩ .

وقوامي مثل التثناة من الخط وخدي من لحيتي مكنوس

والمولى يعلم ان الملوك لم يزل يجري خلف هذا الرجل ويتعثر ، ويطلب مطالبه ، فتعمر عليه ، وتعذر عليه « (٩٠) » قالشاعر يعتذر بأنه وجد لفظة (مكنوس) عند ابن المعتز ، في حديث له عن قتي يباهي بحسنه ، فاخذها وليس ابن سناء الملك في هذا الشأن ، أي متابعة الشعر القديم ، والنظر إليه نظرة ا كبار وتقديس الا مثالا لشعراء العصور المتأخرة ، الذين جعلتهم مشكلة الازدواج اللغوي يحسون بأنهم دون القدماء معرفة باللغة ، وقدرة على تصرفها ، والتعبير بها ، فاوقعهم ذلك في اسار التقليد ، أو جعلهم ينصرفون الى التلاعب اللفظي ، يخفون وراءه عجزهم عن التعبير عما يجثم على صدورهم ، أو تستليء به نفوسهم من عواطف واحاسيس .

وكما استبج التطور اللغوي في العصور الساقطة نشاطا في حركة النقد اللغوي ، وحرصا على مراقبة لغة الادب ، بقصد تنقيتها ، والتبنيه على ما يظهر فيها من أوهام واخطاء ، فكذلك استبج التطور اللغوي في هذه الحقبة ان يعنى النقاد بلغة الادب ، ويحرصوا على تهذيبها ، واستبعاد ما يكدرها من استعمالات غير فصيحة .

غير ان التطور اللغوي في هذه الحقبة كان كبيرا ، يدنا على ذلك كثرة ما ظهر في لغة الادب من اخطاء وزيادة ضعف الملكة اللغوية في نفوس المنشئين وقد أدى ذلك الى أن يدع النقاد التشدد في محاسبة الادباء ، ويقلموا عن مطالبتهم باستعمال الافصح ، ويسحوا لهم باستعمال المرجوح وانشاذ والضعيف ، توسيعا عليهم من جانب ، وبأسا من أن يأتوا بالافصح من جانب آخر . لقد بدا النقاد وكأنهم لا يعينهم الافصح قدر ما يعينهم الفصيح ، ولا يطلبون من الاديب أكثر من أن يرتفع عن العامي ، أو الخطأ الذي لا سند له من العربية ، على سعتها ، وتعدد لهجاتها .

قابن اليد البجليوسي (ت ٥٢١ هـ) لم يرض عن يذهب مذهب التشدد وأنهى « بشدة اللائمة على ابن قتيبة لانه احتضن مذهب الاصمعي المتطرف في تقيية اللغة ، دون ان يعنى بذهاب الثقات الاخرين من علماء اللغة ولو على سبيل العرض فحسب » (٩١) .

وابن هشام اللخمي (ت ٥٧٠ هـ) نعى على الزبيدي تشدده ، وأنكر عليه تسكه بالافصح ، وأجاز كثيرا ما نهى عنه ، وحظر النطق به ، وقد صرح بذهبه في أكثر من موضع من كتابه الموسوم بـ (الرد على الزبيدي) فقال : « وما تكلمت به العرب ، ووقع في اشعارها واخبارها ونقله اهل الثقة عنها لا تلحن به العامة ، وان قلت شواهد ، وضعف قياسه » (٩٢) . وقال : « فلا معنى لانكاره مع نطق العرب به وان كان لغة قليلة » (٩٣) . وقد حاول ابن هشام اللخمي ان يحتج لمذهبه النقدي ، فذكر اقوالا عزاهما لعدد من القدماء ، ترجح عدم التشدد ، وتحض اللغويين عليه ، قال : « ومن اتسع في كلام العرب ولغاتها لم يكذب يلحن أحدا ، ولذلك قال ابو الخطاب عبدالحيد بن عبدالمجيد : انهى الناس من لم يلحن احدا . وقال الخليل رحمه الله : لغة العرب أكثر من ان يلحن بها متكلم . وروى الفراء أن الكاشي قال : على ما سمعت من كلام العرب ليس أحد يلحن الا القليل » (٩٤) .

وحين تشدد الحريري (ت ٥١٦ هـ) في (الدرّة) ودعا الى استعمال أفصح ما وعت العربية من صيغ وقوالب انكر ذلك معاصروه ومن جاء بعدهم ، وحملوا عليه حملة شعواء (٩٥) ، واجازوا كثيرا ما حظره ، ونهى عن استعماله . وكان ابن يري (ت ٥٨٢ هـ) حامل لواء الثورة على تشدد

(٩١) العربية : ٩١ .

(٩٢) مخطوطة الرد على الزبيدي : ٢ .

(٩٣) نفسه : ٤ .

(٩٤) نفسه : ٧ .

(٩٥) العربية : ٢٢٢ .

الحريري ، فقد اعترف بكثير من الصيغ التي وصفا الحريري بالخطا ، وكان الذي حدا ابن برى على قبولها ، والاعتراف بها ، أنها ظهرت في العربية قبل عصر الحريري ، وان الابداء درجوا عليها ، واطمانوا اليها ، فأصبح ذلك مموغا لقبولها والاعتراف بها . وتبعه الشهاب الخنجاوي (ت ١٠٦٩ هـ) فأجازها أيضا (١٦) .

لقد كان الحريري في نظرته للصواب اللغوي يثل انجاء غير الاتجاه ، الذي يثل ابن برى ، اذ ان الحريري كان ينهج نهج اللغويين القدامى الذين يابون الاعتراف بما جد من صيغ وأساليب لم تؤثر عن عصور الاحتجاج ، ولم تات بها النصوص الجاهلية والانسلامية الاولى . واذا علمنا ان هؤلاء اللغويين قد وصوا بالخطا كل ما جد في العربية بعد منتصف القرن الثاني ، ونظروا اليه على انه مولد ، لا يصح الاخذ به ، أدركنا ان كثيرا من الصيغ ، والأساليب ، بقيت ، في نظرهم ، خارج دائرة الفصيح المقبول . أما ابن برى ، فقد كان يثل انجاء آخر ، يذهب الى « الاعتراف بالفاظ وقوال وتعبيرات مولدة ، بل شعبية دارجة أحيانا ، على أنها صحيحة في العربية الفصيحة ، ما دام قد ثبت ورودها في كتاب القرون الثلاثة الاسلامية » (١٧) . ومعنى ذلك أن الحريري يذهب مذهب اللغويين الذين جعلوا نهاية القرن الثاني حدا يفصل بين الفصيح وغير الفصيح ، فقبلوا كل ما عرض للغة من تطور ، وجد فيها من صيغ وأساليب ، ضمن تلك الحقبة الزمنية القصيرة ، ورفضوا ما طرأ عليها ، واستحدث بها في العصور التالية . اما ابن برى ومن تبعه ، فقد كانوا أسلس الى حد ما حين مدوا عصر الاحتجاج قرنا آخر ، فاعترفوا بصحة ما نشأ من قوال وصيغ حتى نهاية القرن الثالث .

ولم يكن توسيع عصر الاحتجاج والاخذ باقوال من ساهم المترمون بالمولدين ، هو الطابع الوحيد لمنهج ابن برى ومن تبعه من النقاد في العصور

(١٦) نفسه : ٢٢٢ ، ٢٢٢ .

(١٧) نفسه : ٢٢٢ .

المتأخرة ، بل كان هناك طابع آخر لهذا المنهج ، هو الاعتماد على الحديث النبوي والاستشهاد به في الشؤون النحوية ، وكان المتقدمون يابون الاعتماد عليه في هذا المجال (٩٨) . بل لقد ذهب النقاد في هذه العصور الى ابدن من ذلك ، فاحتجوا بأحاديث غير موثقة ، من ذلك انهم صوبوا ادخال « أن » على خبر « كاد » اعتمادا على حديث « كاد الفقر ان يكون كفرا » وهو حديث لم يثبت نفيه عند ابن الانباري (ت ٥٧٧ هـ) بل عدّ ادخال « أن » فيه « من تغيير الرواة لانه حلى الله عليه وسلم أفصح من نطق بالضاد » (٩٩) . واحتج ابن بري بالحديث ليصوّب قول الأدباء في عصره : « الأسود والايض » في الكناية عن العربي والعجمي ، والعرب تقول فيهما « الأسود والاحمر » . قال ابن بري : « ذكر الهروي ان بعض الناس روى الحديث بلفظ : بعث الى الاسود والايض ، وحينئذ فلا خطأ فيما اشتهر على الألسنة بعد وروده في كلام أفصح الناس » (١٠٠) . وظل الرأي القائل بحجّة الحديث في أمور اللغة والنحو ، يلقي تأييدا مطردا بعد ابن بري (١٠١) ، فاعتد ابن خروف على الحديث واستشهد به ، وتبعه ابن مالك في ذلك (١٠٢) ، وكان ابن مالك « يرى أن القرآن هو أوثق المصادر وأصحها في اللغة ، وتجيء أحاديث الرسول (ص) بعد ذلك مباشرة في المرتبة الثانية ، على حين أن كلام البدويين من الاعراب في المرتبة الثالثة » (١٠٣) . وقد صحح ابن

(٩٨) ذهب أكثر النحاة الى عدم الاحتجاج بالحديث وذلك لعاملين : الاول ان رواية الحديث اجازوا نقله بالمعنى ، ولم يوردوه عن النبي (ص) بلفظه ، وكان احدهم ، وهو سفيان الثوري ، يقول « ان قلت لكم اني احذتكم كما سمعت فلا تصدقوني ، انما هو المعنى » . الثاني ان كثيرا من رواته لم يكونوا من العرب ، فوقع فيما رووه شيء من اللحن . تنظر : خزانة الادب : ٥/١ ، ٦ .

(٩٩) خزانة الادب : ٧/١ .

(١٠٠) - شرح دزة النواص : ٢١٦ .

(١٠١) العربية : ٢٢٦ .

(١٠٢) خزانة الادب : ٥/١ .

(١٠٣) العربية : ٢٢٧ .

مالك - نتيجة لاعتماده على الحديث - قول من يقول « أكلوني البراغيث »
 لمجرد أن الحديث النبوي جاء بهذه اللغة ، فقد روي عن النبي (ص) قوله :
 « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » . ولم يحتج الرضى
 الاسترابادي بالحديث فحسب ، بل احتج بكلام أهل البيت أيضا ، فنقرأ
 - بما لذلك - تحول حاسم على طبيعة العربية (١٠٤) .

ولم يكن بد ، إذن ، من أن يتسامح النقاد اللغويون ، منذ القرن
 السادس ، ويضربوا صفحا عن تلك الروح المتشددة التي ظهرت في نقد
 الحريري ، ومن سبته من المتزمتين ، وذلك لانحطاط المستوى اللغوي ، وتردي
 النواحي الثقافية والعلمية ، بسبب ما طرأ على البلدان الاسلامية من عوامل
 الضعف والانحلال ، وما تواتر عليها من حروب ، جعلت تناسكها يؤول الى
 اتصال ، وقوتها تحور الى ضعف ، وازدهارها العلمي والفكري يعود الى ذواء
 وذبول . وكان أحد العلماء ، في تلك العصور ، قد اعطانا صورة واضحة لما
 كان عليه شيوخ الحديث في عصره من الغفلة ، وقلة الضبط ، فوصفهم بأنهم
 « لا يدرون ما يروون ، ولا يشبطون ما في كتبهم ضبطا يصلح لأن يعتمد عليه
 في ثبوتة (١٠٥) » ، وهذا وصف « لا ينطبق على شيوخ المحدثين فحسب بل
 على جميع العلماء في عصر السلجوقيين بوجه عام » (١٠٦) . فإزاء هذا التخلف
 في ضروب من الثقافة مختلفة ، لم يكن منهج الحريري المتشدد في النقد ،
 هو المنهج الملائم ، بل إنه حين حاول أن يعود بلغة الأدباء الى فصحي العصور
 المبكرة ، وحرّم عليهم أن ينطقوا بغير اللهجات الموثقة التي ارتضاها المتشددون
 من علماء العربية ، كان في محاولته هذه كمن يلرق على حديد بارد ، أو كمن
 يرقم على الماء ، ولا أدل على فشل من أنه نفسه لم يستطع أن يبر بتعاليمه ،
 وينفي لمنهجه ، فوقع في بعض ما خطا الناس فيه ، من ذلك أنه منع أن يقال :

(١٠٤) العربية : ٢٢٧ .

(١٠٥) (١٠٦) نفسه .

كافة الناس ، ثم قال في (الدرّة) نفسها (١٠٧) : « وتشهد الآية باتفاق كافة أهل الملل » فعلق الخنجاوي على ذلك بقوله : وقول المصنف : باتفاق كافة أهل الملل استعمل فيه كافة على خلاف ما قدمه ، فكانه نسيه ، او الله انطقه بالحق « (١٠٨) . وما به على الخطأ فيه قولهم « ما كان ذلك في حسابي أي في ظني » ورأى الواجب ان يقال « في حسابي » (١٠٩) . فقال الشهاب : « والمعجب منه انه يقول في شعر له كما في الخريدة :

بلت يدي منك بسالم يكن يخطر في الوهم ولا في الحساب « (١١٠)
 وما أخذ عليه « أنه قال في المقامة الحلوانية في حديثه عن ابي زيد السروجي : (فلما رأيت تلهب جذوته ، وتالق جلوته ، أمعت النظر في توسه ، وسرحت الطرف في ميسه) فراه يقول : أمعت النظر ، وانا يقال : أمن في النظر . وفي الأساس : أمن في الأمر : أبعد فيه « (١١١) . ومنه ذلك أنه يعلق على قولهم : « اصفر لوناه من المرض ، واحمر خده من الخجل » بقوله : « وعند المحققين أنه انا يقال اصفر واحمر ونظائرهما في اللون انخالص الذي قد تسكن واستقر ، وثبت واستمر ، فأما اذا كان اللون عرض لسبب يزول ، ومعنى يحول ، فيقال فيه : اصفار واحمار ليفرق بين اللون الثابت والمتلون العارض ، وعلى هذا جاء في الحديث : فجعل يحار مرة ويصفار أخرى « (١١٢) . على حين انه نفسه يقول في المقامة الحرامية : « فازورت مقتلاه ، واحمرت وجنتاه » (١١٣) . ان مخالفة الحريري لضوابله اللغوية ، دليل على ان اقوال النقاد المتزمطين « لم تكن - عليا - مستطاعة التنفيذ » (١١٤) .

(١٠٧) درة الفواص : ٢٥ ، ١٠٩ .

(١٠٨) شرح درة الفواص : ٢٢٦ .

(١٠٩) درة الفواص : ١١٣ .

(١١٠) شرح الدرّة : ٢٣٣ .

(١١١) الاخطاء اللغوية الشائعة : ١٢ .

(١١٢) درة الفواص : ١٥ .

(١١٣) شرح الدرّة : ٥١ .

(١١٤) العربية : ٢٢٢ .

اتضح من كل ما تقدم أن العربية لم تجد على ما هي عليه ، بل امتدت إليها يد التطور منذ عصر الفتوحات ، وظلت تعمل فيها ، محدثة الواناشي من التغير ، فأدى ذلك الى ان ينشط النقد اللغوي ، ويتصدى في كل عصر شر من النقاد لحاية اللغة من التطور ، والعودة بالناطقين بها الى الموروث من النطق الصائب ، والاستعمال اللغوي السليم . كما ظهر في بعض المعصور عدد من المؤلفات ، الهدف منها زيادة ثقافة الادباء اللغوية ، وتبصيرهم بما يجعل ويحسن من الالفاظ والمبارات ، وبالمواطن التي يستعمل فيها كل منها . وقد رأينا ان أكثر النقاد في المعصور الاولى جنحوا الى التشدد ، ووصوا بالخطأ كثيرا من الصيغ والاساليب لانها في نظرهم من اللغات الضعيفة او المعسورة . ثم رأينا أن النقاد في المعصور المتأخرة - نتيجة لانحطاط المستوى اللغوي ، وضعف الملكات اللغوية عند الادباء - ينزعون عن التشدد ، ويقبلون كثيرا منا كان الاوائل يمدونه ضعيفا أو شاذا أو مرجوحا .

واذا كان التطور اللغوي قد حفز النقاد الى مراقبة لغة الأدب ، وصدّ عوامل التغير عنها ، فإن التطور الذي عرض لادبنا في اوائل العصر العباسي ، قد أثار حلة نقد لغوي أيضا ، قادها اولئك اللغويون الذين تعصبوا للقديم ، واستسكوا به ، وانكروا الجديد ، وزهدوا فيه . ومعنى ذلك أن التطور الادبي لم يكن ليثير في النقد اللغوي ما أثاره ، لولا التعصب عليه ، وثرة جهور المحافظين منه . وسيتناول الفصل القادم اثر التعصب للقديم في النقد اللغوي ، وما نشأ بسبب هذا التعصب من مقاييس ونظرات هدفت الى تسفيه الجديد ، والتدح فيه .

الفصل الثالث

التعصب للقديم

لم يخل أدب أمة من الأمم ، من نشوء طبقة تعصب للقديم ، وتحرص على تقليده ، وفرض سماته وخصائصه على من يزاول الأدب ، ويتصدى لادباعه . وهذه الظاهرة من السنن الثابتة التي لن تجد الامم عنها حولا (١) . ولم يكن العرب بدعا من غيرهم ، فقد برزت عندهم هذه الظاهرة ، وتعصب فريق منهم للقديم ، وأسرفوا في تأييده ، وغضوا من الجديد ، وانصرفوا عنه في استعلاء وازدراء .

ومن اسباب التمسك بالقديم ، والاندفاع القوي في تأييده ، أن الانسان اذا ألف شيئا أحبه ، وعزّ عليه تغييره . وهذا ما حدث لانصار القديم في أدبنا العربي ، بمعنى أنهم ألفوه ، وتوثقت صلتهم به ، ولم يكن الاعجاب وحده مبعث تلك الصلة بل أملت حاجتهم اليه فيما أقدموا عليه من أعمال علمية ، تهدف الى تفسير القرآن وفهم مراميهِ من جانب ، ووضع قواعد اللغة ، واستنباط أصولها من جانب آخر .

وهكذا تلات في نفوس أنصار القديم حاجتان ، لم يكن يرضيهما الا الشعر القديم ، الاولى حاجة فنية ، والاخرى حاجة علمية . وقد ظهرت الحاجة العلمية منذ اتجه العلماء الى تفسير القرآن ، والوقوف على معاني مفرداته وتراكيبه ، ووجدوا في الشعر الجاهلي ما يعينهم على العمل الذي تصدروا له . وكان ابن عباس من اوائل العلماء الذين اتخذوا من شعر العرب وسيلة الى فهم ما في القرآن من غريب (٢) . وتبع ابن عباس في مذهبه هذا عدد

(١) انظر حديث الاربعاء : ١/٢ فيه تفصيل اكثر .

(٢) اثر القرآن في تطور النقد العربي : ٢٢ .

من المفسرين الاوائل الذين كانوا يترشدون في تفسيرهم للقرآن بالشعر العربي الجاهلي بوجه عام (٢) .

كان ابن عباس ، اذن ، يدعو الى تفسير القرآن بالشعر ، فيقول : « اذا تعاجم شيء من القرآن ، فانظروا في الشعر ، فان الشعر عربي » (٣) . ويقول : « اذا سألوني عن غريب القرآن ، فالتسوه في الشعر فان الشعر ديوان العرب » (٤) . وقد أثار ابن عباس في عمله هذا حركة قوية تهدف الى جمع الشعر الجاهلي ، وتحصيله من صدور حفظته ورواياته ، لمواجهة ما في القرآن من غريب ، وتفسير ما غرض من مفرداته وتراكيبه .

ولم يرض وقت طويل حتى نشأ النحو ، للوقوف بوجه اللحن الذي شاع ونشأ حتى شمل اولاد الخلفاء ، كما تقدم (٥) . فتمززت الحاجة الى الشعر الجاهلي ، لأنه أصبح الأساس الذي بنيت عليه قواعد هذا العلم ، والنبح الذي استمدت منه قوانينه وأصوله .

فليس غريبا بعد ذلك أن تظهر طبقة ، تعنى بالشعر القديم ، وتجدد في روايته ، وتتخلل المشاق في سبيل جمعه وتدوينه ، ثم تسابق الى دراسته وتحليله . وكانت هذه الطبقة هي طبقة علماء اللغة ورواياتها .

ولم يعد تعلق هذه الطبقة بالشعر القديم قائما على أساس من الذوق وحده ، وانما كان قائما أيضا على ما يقدمه هذا الشعر من مادة ، تبني عليها العلوم اللغوية التي جدت ، والتي أرادوا لها أن تبني على القديم فحسب ، لصفائه ، وبعد قائله عن البيئات الجديدة التي انغمس فيها العرب بعد خروجهم من الجزيرة ، وهي بيئات تطرقها الأعاجم ، وتلتقي فيها السن شتى .

(٢) اثر القرآن في تطور النقد العربي : ٢٢

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٢٠٦/١٧ .

(٤) الالتئان في علوم القرآن : ١١٩/١ .

(٥) انظر ص ٥٩ من هذه الرسالة .

ان نظرة هذه الطبقة الى الشعر القديم تصحح عن احترام له واعتماد عليه فيما تصدوا له من أعمال علمية ، أما موقفهم من الشعر الاسلامي فقد ذهب بعضهم الى الاستغناء التام عنه ، وعلى رأس هؤلاء ابو عمرو بن العلاء الذي روي انه كان شديد الولاية على الشعر الاسلامي ، وأنه لم يرو شيئا منه ، قال الاصمعي : « جلت اليه ثنائي حجج ، فما سمعته يحتج بييت اسلامي » (٧) . وقيل انه سئل عن المولدين فقال : « ما كان من حسن فقد سبقوا اليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم » (٨) . وذهب اكثرهم الى الاعتقاد على شطر من الشعر الاسلامي ما قيل حتى منتصف القرن الثاني . فقد وضع هؤلاء حدا زنيا تنتهي عنده الفصاحة ، وأجمعوا على أن ابن هرمة المتوفى بحدود سنة ١٥٠ هـ ، ساق الشعراء ، وآخر من يحتج بشعره ، ويوثق بفصاحته (٩) .

أما بشار ومن عاصره ، وجاء بعده ، فمولدون ، امتدت الى لغتهم يد الحضارة ، فأفادتها ، ونسخت فصاحتها ، فلم تمد تصلح لأن يحتج بها على صحة قاعدة ، أو فصاحة كلمة . لقد كان اللغويون « مقتنعين بأن اللغة العربية لغة صحراوية ، تزدهر في البداوة ، وتكمل بالجزيرة العربية ، وأن الإقامة في الحضر ، تصد الملكة ، وتنقص البيان ، وتجلب اللحن ، وكانت لديهم براهين على ذلك ما شاب البيان العربي ، منذ خرج من شبه الجزيرة » (١٠) . وكان قرار اللغويين هذا مشارا لمركة نقدية عنيفة ، دارت رحاها بين المولدين والمحدثين ، وبين اللغويين ، وظلت هذه المركة مشبوبة الاوار طول القرنين الثاني والثالث ، ولم يخب ضرامها الا في القرن الرابع . وكان بشار قائد الثورة على اللغويين ، فقد أبى أن يدعن لاحكامهم ، بل لم يرههم أهلا لأن يكونوا نقادا ، لان عملهم لا يسمو بهم الى حيث يشتهون من

(٧) العمدة : ٩٠/١ .

(٨) نفسه : ٩٠/١ ، ٩١ .

(٩) نفسه : ١٣١/١ .

(١٠) تاريخ النقد الادبي عند العرب : ١٠٢ .

الحكم على الشعر أو التصدي للشعراء ، فهم ليسوا الا نقلة ، أو جامعي شعر واخبار ، ولا يستطيع نقد الشعر ، وميز رديئه من جيده ، الا من خبره وعانى نظمه ، سئل بشار عن جرير والفرزدق « أيهما أشعر ، فقال : جرير أشعرهما . ف قيل له : بماذا ؟ فقال : لان جريرا يشتد اذا شاء ، وليس كذلك الفرزدق ، لانه يشتد ابدا . ف قيل له : فان يونس و ابا عبيدة يفضلان الفرزدق على جرير . فقال : ليس هذا من عمل اولئك القوم ، انما يعرف الشعر من يضطر ال ان يقول مثله » (١١) .

وأراد بشار أن يفتح للشعراء باب التصرف في اللغة ، فاستحدث صيغا ، وابتكر مشتقات لم ترد في كلام العرب ، فانكرها اللغويون عليه وعدوها من أخطائه . قال بشار :

والان اقتصر عن سمية باطلي وأشار بالوجلتي علي مشير
وقال :

على الغزلكي مني السلام تريبا لهوت بها في ظل مخضرة زهر
نطمع الأخص في هذين البيتين وقال : « لم يسمع من الوجل والغزل
« فعلى » وانما قاسمها بشار ، وليس هذا مما يقاس ، انما يعمل فيه
بالساع » (١٢) .

ولم يكن بشار وحده غرضا لسهام اللغويين ، ومن والاهم من انصار القديم ، وانما تعرض لها المولدون عامة ، ولم ينج منها أحد منهم ، وان أبدى من العلم بالعربية ، ما كان خليقا بأن يعطف عليه اولئك المترمتين . ذلك أن اللغويين لم يكونوا ينظرون في الشعر نفسه ، وانما كانوا ينظرون الى قائله ، أو عصر قائله ، اذا شئنا الدقة . ولم يكن للمحدثين من ذنب الا أنهم تأخروا عن ذلك العصر السعيد الحظ ، وأعني به العصر الجاهلي . قال ابو عمرو

(١١) اعجاز القرآن : ١١٦ ، ١١٧ .

(١٥) الموشع : ٢٨٥ .

ابن العلاء عن الأخطل : « لو أدرك يوماً واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً » (١٣) . وقال في شاعر أموي آخر : « لقد أحسن هذا المولد حتى همت أن أمر صيانتنا بروايته » (١٤) . وإذا كان هذا شأن أبي عمرو مع الاسلاميين ، فأحرى به ، وبين يتهج نهجه من اللغويين ، ألا يسلوا بنضل لمن جاء بعدهم في العصر العباسي .

لم تكن نظرة اللغويين للمحدثين علمية ، بل كانت بعيدة عن الموضوعية والنصفية . والاخبار المحكية عنهم ، تؤيد هذا الحكم عليهم وتمززه ، وتنفي عنهم النزاهة والتجرد .

لقد كثر تقولهم على أبي نواس ، ووصفوه بأوصاف لم يجرؤوا على أن يرموا بها أحداً من السابقين ، لأخطاء ييرة ، يمكن أن يجدوا لها ، لو انصفوا ، وأحسنوا الظن ، ما يسوتفها ، على حين أن كتب اللغة قد حفظت من اخطاء المتقدمين شيئاً ، غير أن قداسة الزمن ، حالت بين اللغويين وبين أن يرموهم بالخطأ (١٥) .

وقد أحسن الشعراء بهذا الموقف الجائر الذي وقفه اللغويون منهم فكانوا يتعطفونهم ، ويرجونهم أن ينظروا الى الشعر نفسه ، لا الى العصر الذي قيل فيه . من ذلك ما جرى بين ابن منذر وأبي عبيدة ، حين قال الاول للثاني « اتق الله واحكم بين شعري وشعر عدي بن زيد ، ولا تقل : ذلك جاهلي ، وهذا اسلامي ، وذلك قديم ، وهذا محدث ، فتحكم بين المصريين ، ولكن احكم بين الشعرين ، ودع المصيبة » (١٦) .

فالتحاة واللغويون الذين حملوا على الشعر المحدث ، وناصروه العداء ، كانت احكامهم تأثرية ، كتلك التي عرفت في العصر الجاهلي وصدر الاسلام ،

(١٣) المثل السائر : ٣٩٥/٢ .

(١٤) العمدة : ١٠/١ .

(١٥) الرواية والاستشهاد باللغة : ٢٤ .

(١٦) الاغاني : ١٢/١٧ .

لأنهم لم يكونوا يفضلون التقديم لأسباب فنية من صدق احساس او جودة عبارة ، أو جمال صورة ، او غير ذلك مما يعنى به الناقد ، وانما فضلوهم لمجرد سبق في الزمن (١٧) . ولذا نراهم اذا وقعوا على شيء من شعر المحدثين ، صيغ على غرار الشعر القديم ، استحسوه ، ونظروا اليه بعين الرضا ، حتى اذا علموا أنه محدث ، اعرضوا عنه ، وعادوا الى ثلثه .

روي أن اسحاق بن ابراهيم الموصلي أنشد الاصمعي :

هل الى نظرة اليك سبيلٌ فيروى الصدى ويثفى النليلُ
ان ما قلّ منك يكثر عندي وكثير من تحبّ القليل

فقال الاصمعي : لمن تشدني ؟ فقال : لبعض الاعراب ، قال : والله هذا هو الدياج الخرواني ، قال : فانها ليلتهما ، فقال : لا جرم والله ان أثر الصنعة والتكلف بين عليهما « (١٨) .

وكان ابن الاعرابي نظير الاصمعي في التعصب للتقديم ، فقد اسرف في الطعن على ابي تمام خاصة ، حتى حكي عنه انه أنشد شعرا لابي تمام فقال : « ان كان هذا شعرا فما قالت العرب باطل » (١٩) .

وهذا التعصب المفرط من ابن الاعرابي ، جعل انتصار ابي تمام يمللون تعصبه بأنه لم يفهم معاني شعره ، قالوا : ان ابن الاعرابي « كان شديد التعصب عليه ، لرأية مذهبه ، ولأنه كان يرد عليه من معانيه ما لا يفهمه ولا يعلمه ، فكان اذا سئل عن شيء منها يأنف ان يقول : لا أدري فيعدل الى الطعن عليه » (٢٠) .

-
- (١٧) النقد المنتهجي عند العرب : ٧٥ وانظر : الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام : ٤١ .
(١٨) الموازنة : ٢٣/١ .
(١٩) اخبار ابي تمام : ٢٤٤ .
(٢٠) الموازنة : ٢٢/١ .

وكما كان الاصمعي يعجب ببعض الشعر المحدث ، قبل ان يعرف قائله ، فاذا عرفه غض منه ، وتكر له ، كذلك كان ابن الاعرابي : قال الصولي : انه « تمثل بشعر ابي تام ، وهو لا يدري ، ولعله لو درى ما تمثل به ، وكذلك فعل في النوادر ، جاء فيها بكثير من أشعار المحدثين ، ولعله لو علم بذلك ما فعله » (٢١) .

لقد عدّ اللغويون الشعر الجاهلي القدوة المثل التي يجب أن تحتذى ، ومن أجل ذلك نجدهم يمللون رفضهم لما يرفضون من شعر المحدثين بقولهم « ما سنع عن العرب » أو قولهم « وما سنعنا مثل هذا ولا علمنا في اللغة » أو « وما جاء مثله في أشعار العرب » أو بأقوال مثل هذه .

ولم يكونوا يفرعون للشعر الجاهلي ، ويتخذونه مقياسا لما يقبل أو يرفض الا لأنهم ألفوا ذلك الشعر ، وطال ترسبهم به ، وكثرت مدارستهم له ، بحكم تنقيبهم الدائم فيه عن الشواهد التي يؤيدون بها ما يستنبطونه من أحكام وقواعد . ولا شك في أن عكوفهم على هذا الشعر ، وطول معاناتهم إياه ، أكسبهم خبرة واسعة به ، وعلما راسخا بمعانيه . لقد كانوا بالقياس الى الشعر القديم كمن يسير في طريق كثر سالكوها فذلت صعاها ، ووضحت معالمها ، وكانوا بالقياس الى الجديد كمن يدنع الى السير في طريق مجهولة ، لم يسبق له أن عرفها ، أو سار فيها .

لقد اتسع اللغويون بجهود من سبقهم في درس الشعر الجاهلي ، وتفسيره ، وتذليل صعاها ، اما الشعر الحديث فلم يبتهم اليه أحد ، ليعادهم على ولوج ميدانه ، فكان ذلك من اسباب شعورهم منه ، ومعاداتهم ايها .

وقد تنبه الصولي الى هذا السبب ، فقال محللا اسباب اعراض اللغويين عن الشعر المحدث عامة ، وشعر ابي تام خاصة : « اما ما حكى عن بعض

العلماء في اجتناب شعره - اي ابي تمام - وعيه ، ولا أسى منهم احدا لصيأتي لأهل العلم جميعا ، رابقائي عليهم ، وحياطتي لهم ، فلا تنكر أن يقع ذلك منهم . لان اشعار الاوائل قد ذلت لهم ، وكثرت لها روايتهم ، ووجدوا ائمة قد ماشوها لهم ، وراضوا معانيها ، فهم يقرأونها سالكين سبيل غيرهم في تفاسيرها ، واستجادة جيدها ، وعيب رديتها . والفاظ القديما ، وان تفاضلت فانها تشابه ، وبعضها آخذ برقاب بعض ، فيستدلون بها عرفوه منها على ما أنكروه ، ويقرون على صمبها بما ذلوه . ولم يجدوا في شعر المحدثين مذ عهد بشار ائمة كائنتهم ، ولا رواة كرواتهم ، الذين تجتمع فيه شرائطهم ، ولم يعرفوا ما كان يضبطه ويقوم به ، وقصروا فيه فجهلوه فمادوه « (٢٢) » .

ويؤيد ما ذهب اليه الصولي ، ما حكى عن جهل ثعلب بمعاني شعر ابي تمام ، واستماتته على فهمها ببعض اصدقائه ، قال الصولي : « ولقد حدثني بنو نبيخت - وما رأيت ابا العباس احمد بن يحيى على جلالة عند احد أجل منه عندهم ، وكلهم ينتسب اليه في تعلمه - انه قال لهم : انا اعاشر الكتاب كثيرا ، وخاصة ابا العباس بن ثوابة ، وأكثر ما يجري في مجالسهم شعر ابي تمام ، ولست أعلمه ، فاختروا لي منه شيئا ، فاخترنا منه له ، ودفعناه اليه ، فمضى به الى ابن ثوابة ، فاستحسنه ، فقال له : انه ليس مما اخترت ، وانما اختاره لي بنو نوبخت ، قال : فكان يشدنا البيت من شعره ثم يقول : ما اراد بهذا ؟ فنشرحه له ، فيقول : أحسن والله ، وأجاد فهذا (كذا) قصة امام من ائمة الطاعنين عليه عندهم « (٢٣) » .

ولكن الدارس لموقف اللغويين من الشعر المحدث ، يقف على ظاهرة لا بد من الاشارة اليها ، وهي انه قد وجد بين لغويي القرن الثالث من كانوا أقل تعصبا عليه ، وأكثر ثقلا له ، ممن سبقهم من لغويي القرن الثاني . فبعد أن كان ابو عمرو بن العلاء ومن في طبقة يعرضون عنه أشد الاعراض ،

(٢٢) اخبار ابي تمام : ١٤ .

(٢٣) اخبار ابي تمام : ١٥ ، ١٦ .

ولا ييحبون لانفسهم رواية شيء منه ، نجد اللغويين في القرن الثالث متفاوتين في النظرة الى الشعر الجديد ، فبعضهم ظل منكرا له ، شديد التعصب عليه ، كابن الاعرابي ، وبعضهم كانت احكامه تراوح بين الانكار مرة ، والاستجادة تارة وكان ابو حاتم السجستاني من هذا الفريق ، قال الصولي : « أنشد ابو حاتم السجستاني شعرا لابي نمام فاستحسن بعضه واستبجح بعضا » (٢٤) . وهناك آخرون قبلوه ، وأذنوا له بالدخول الى كبهم ومصنفاتهم . وكان المبرد يثل هذا الفريق المتسامح « بل يكن اعتباره مثلا للفئة التي تأتي في تقيض المتزمتين ، وما كتبه « الروضة » الا شاهد على التفاته الى فن المحدثين ، واقباله على مذاهبهم » (٢٥) . وكان ابن سنان يراه من الفئة التي تقول : لا فضل لتقديم على محدث ولا لمحدث على قديم الا بالاجادة (٢٦) ، وما يؤيد تسامحه مع المحدثين ، ايراده كثيرا من اشعارهم في كتابه « الكامل » بل لقد عقد بابا فيه قال في أوله « هذه اشعار اخترناها من اشعار المولدين حكيمة مستحسنة يحتاج اليها للتشيل » (٢٧) . كما ألف كتابا ساء « الروضة » قصره على اشعار المحدثين (٢٨) .

ولئن كان موقف اللغويين من الشعر الحديث قد اتسم في جملة بالثبور منه ، والاعراض عنه ، لقد رزق هذا الشعر نقادا آخرين ، أقبلوا عليه ، وأحسنوا درسه ، ولم ينعمهم حبهم للتقديم ، من ان يعجبوا بالجديد ، ويعترفوا بما له من سمات لم تتوافر في سواه . وكان هؤلاء النقاد هم الكتاب والادباء الذين تلمذوا لائمة اللغة والنحو ، وأفادوا منهم ، ولكنهم لم يرثوا عنهم نظرتهم للجديد ، بل أقبلوا عليه ، وعثوا به أشد عناية ، فنقدوا عناصره ،

(٢٤) أخبار أبي تمام : ٢٤٤ .

(٢٥) الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام : ٤٥ .

(٢٦) سر الفصاحة : ٢٧١ .

(٢٧) الكامل : ٢/٢ .

(٢٨) معجم الادباء : ١٢١/١٩ . وينظر : الحركة النقدية : ٤٥ .

ونوهوا بالمقبول منها والمردول ، فاستحقوا ، لذلك ، في نظر الجاحظ ، ان يكونوا العلماء بالشعر ، البصراء بجوهره . قال الجاحظ : « طلبت علم الشعر عند الاسمي فوجدته لا يحسن الا غريبه ، فرجعت الى الاخفش فوجدته لا يتقن الا اعرابه ، فعطفت على ابي عبيدة فوجدته لا ينقل الا ما اتصل بالأخبار ، وتعلق بالأيام والانساب ، فلم أنظر بما اردت الا عند ادباء الكتاب » (٢١) . ولم يبعد الجاحظ عن الحق في قوله ، فقد كان الفضل في تحليل اشعار المحدثين وتعرف خصائصها ، يعود الى الادباء ، لا الى اللغويين أو غيرهم ، من لم يعنى من الشعر الا الشاهد او الخبر او اللفظ الغريب .

وجاء ابن قتيبة ، فعزز الرأي القائل بوجوب الاهتمام بالحديث ، ونبذ التعصب للتقديم ، وقال «...» ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، واعطيت كلا حظ ، ووفرت عليه حقه » (٢٠) . ثم أنحى باللوم على من كان من علماء عصره « يستجيد الشعر الخفيف لتقدم قائله ، ويضعه في متغيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده الا أنه قيل في زمانه ، أو أنه رأى قائله » (٢١) . وعني ابن المعتز بالشعر المحدث ، فدرسه ، وألف فيه . وعلى ذلك فان اتجاهها جديدا في درس الادب وتقدمه ، قد بدأ يظهر وتضح ملامحه ، وأن النقاد احموا بوجوب الالتفات الى الشعر المحدث ، وتقويته ، ووضع الأسس التي تصلح للنفاضة بين منسئيه . أما اللغويون فقد بدأوا يتركون ميدان النقد ، وان لم يودعوه ، بعد أن تصدى الادباء ، والكتاب لهذه المهمة .

وما ان جاء القرن الرابع حتى خفت الحساس للشعر القديم ، وتضاءل ، وأصبح أكثر النقاد مجسمين على التسليم بأنه لا فضل لتقديم على محدث ، ولا لمحدث على قديم الا بالاجادة (٢٢) . بل ارتفعت اصوات جريئة ، تدم التعصب ،

(٢١) العمدة : ١٠٥/٢ .

(٢٠) الشعر والشعراء : ٦٢/١ .

(٢١) نفسه : ٦٢/١ ، ٦٣ .

(٢٢) الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام : ٢٢٢ .

وتندد به ، فالجرجاني كان يرى ان العصية اذا استحكت حست للناقد الميل ، وصورت له الشيء بغير صورته ، وتخطت به الاحسان الظاهر الى العيب الغامض (٢٣) . ولم يقف الجرجاني عند هذا ، بل جهر برأي خليل ، أحجم سابقوه عن التصريح به . لقد رأى ان الاعتقاد بعصاة القدماء من الخطأ ، وهم لا سند له من الواقع ، وأن ما وصل الينا عنهم ، لم يبرأ من الخطأ ، قال : « ودونك هذه الدواوين الجاهلية والاسلامية ، فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يكن لعائب القدح فيه ، اما في لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتقسيه ، أو معناه أو اعرابه ؟ ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم ، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والاعلام والحجة ، لوجدت كثيرا من اشعارهم معية مسترذلة ، ومردودة منية ، لكن هذا الفن الجميل ، والاعتقاد الحسن ، ستر عليهم ، ونفى الظننة عنهم ، فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب ، وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام » (٢٤) . وكان الآمدي قد ذهب في القدماء هذا المذهب ، ولم يفته أن يزيغ دعوى عصمتهم من الخطأ ، قال : « . . . لأن اللحن لا يكاد يمرى منه احد من الشعراء المحدثين ولا سلم منه شاعر من شعراء الاسلاميين ، وقد جاء في اشعار المتقدمين ما علستم من الاقواء وغير الاقواء ما لا يقوم العذر فيه الا بالتاويلات البعيدة » (٢٥) . ومثل هذه الآراء ، دليل على أن الزمن قد خفف من سلطان القديم ، وأخذ تلك الحرب التي تاججت زما طويلا بين القديم والحديث ، أو قل « هدا من حديثها » (٢٦) .

والان ، وبعد أن وقفنا على ظهور طبقة من النقاد ، عرفت بالليل الشديد الى القديم ، والتعلق المفرط بشأجه ، نخلص الى القول بان هذه الطبقة قد

(٢٣) النقد الادبي واثره في الشعر العباسي : ٢٣ . وينظر مصدره .

(٢٤) الوساطة : ٤ .

(٢٥) الموازنة : ٢٨/١ .

(٢٦) النقد المنهجي عند العرب : ٩٨ .

أثرت في النقد اللغوي ، وأذكت حركته ، وجعلت ريحه تشتد طوال القرنين الثاني والثالث . ولو ان هذه الطبقة لم تظهر - على أن ظهورها أمر حتمي في كل أمة وكل عصر - لمرت الامثلة الجديدة ، دون ان تستبج طعنا عليها ، أو توهينا لها . وآية ذلك ان النقاد الذين لم يستحوذ عليهم حب القديم ، ولم يتبد بهم الميل نحوه ، قبلوا الجديد ، ومالوا اليه ، ولم ينهضوا للدفاع عنه ، الا لان المتعصين أفرطوا في تجاهله ، وتمادوا في التنكر له ، والغضب منه .

لقد أملى التعصب للقديم طائفة من المقاييس النقدية التي هدفت الى مقاومة الجديد ، والحيلولة دون استقراره ، ومعنى ذلك أن هذه المقاييس لم تكن لتنشأ لو ان المتعصين تخلتوا عن تعصبهم ، ونظروا الى الحديث بعين الناقد المتجرد .

وهذه المقاييس قد استبعت مقاييس مضادة لها ، فأباحت الثانية ما حظرته الاولى ، وعدت هذه من الاحسان ما عدته تلك من الاساءة والتقصير . أما المقاييس التي دفع اليها التعصب للقديم ، فتثلت فيما يلي :

١ - الغرابة والفخامة :

شاعت السهولة في لغة طائفة كبيرة من شعراء العصر العباسي ، حتى لقد ظهر منهم « من يبهر الناس لسرعته في قول الشعر ، وقدرته العجيبة على وزن الكلام » (٢٧) . وما ذلك الا لان هذا الفريق من الشعراء كان ينظم شعره مما يجري على ألسنة الناس من الفاظ ، فلا يتوسع ، ولا يلتبس مفرداته فيما وعته دفاتر اللغويين ، أو جرت به السنة القدماء . ولم تكن السهولة في اسلوب الشعر بالامر الغريب الذي لم يعهده الشعر العربي من قبل ، بل سبق أن ظهرت في أشعار أهل الحجاز ، الذين عاشوا خلال الحكم الاموي في ظروف تشبه ظروف العباسيين ، وأتيح لهم ان يأخذوا بأسباب الترف ولين العيش ، فادى

(٢٧) الشعر في بغداد : ٢٩١ .

ذلك الى ان ترق لغتهم ، وتشيع السهولة في قصائدهم . ولكن سهولة الحجازيين ورقة لغتهم ، كما رأينا ، لم تكن موضع اعجاب النقاد المترمين الذين النوا الجزالة ، واستطابوا قوة الرنين . وقد مرّ بنا (٣٨) أن جريرا كان يعني على أهل الحجاز رقتهم ، ولين أساليهم فيحف شعرهم بأنه نهامي اذا أنجد وجد البرد . وثالث الصخامة والجزالة الطابع المستحب عند النقاد ، الذين كان أكثرهم من اللغويين ، وحين تبدلت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي ، وشاعت مظاهر الترف والركة ، صدف الناس عن الالفاظ الغريبة ، وشرخوا من الكلمات التي تملأ الأفواه ، وتقتحم الاسماع ، ومالوا الى الرقيق الهامس ، والعذب الموحى .

وقد اشار يوهان فك الى التطور الذي نال لغة الشعر فقال : ان الذي دعا اليه هو « الانتقال من حياة البداوة الى حضارة المدن ، وتغلغل غير العرب في مناطق الادب » (٣٩) . ثم قال : « وذلك الطابع الوجداني للعبية القديمة بشرورها الفياضة في الالفاظ والقوالب تراجع في ذلك العهد امام اسلوب منوّق مهذب ، لا يسبب استواؤه وسهولته صعوبات ذات بال للانفهام » (٤٠) .

غير أن النقاد الذين رفخوا لواء المحافظة على القديم ، وعرفخوا بالتعصب الشديد له ، لم ترقهم السهولة ، ورأوا فيها خروجا على ما كان للقدمى من اسلوب تميز بالصخامة ، والاكثار من الغريب . لقد اقحم التعصب للقديم هذا المتياس في ميدان النقد اللغوي ، ولم ييال المتعصبون ذوق العصر ، الذي أخذ يجنوا الغريب ، ويجنح الى اللغة السهلة الواضحة ، يتساوى في ذلك الناس على اختلاف طبقاتهم ، شعراء ومثلقين ، ولا يشذ عنهم فيه الا المتعصبون للقديم . وطبيعي أن يكون الشعراء انفسهم طليعة الذين ارتضوا السهولة ، ودافعوا عنها ، لانهم حرصوا على أن تكون « لغة شعرهم هي لغة الحياة

(٣٨) تنظر ص ٤٠ من هذه الرسالة .

(٣٩) العربية : ٥٨ ، ٥٩ .

(٤٠) نفسه : ٥٩ .

اليومية نفسها ، أو على الأقل ان تكون قريبة منها » (٤١) . وقد سئل السيد الحسيري : « مالك لا تستعمل في شعرك من الغريب ما تسأل عنه كما يفعل الشعراء ؟ فقال : لان أقول شعرا قريبا من القلوب ، يلذّه من سعه خير من أن أقول شيئا متعمدا تزلّ فيه الاوهام » (٤٢) .

وكان الخلفاء من انصار السهولة أيضا ، لانهم لم يكونوا يفتخرون الغريب ، ولا يشجعون عليه ، فقد روى ان الرشيد نفسه لم يرض من الاصعي أن يستعمل في خطابه اياه تعبيراً غريباً مهجوراً هو « ما لاقتني بمدك أرض » أي لم تسكني (٤٣) . كما ان الخليفة المأمون ، وهو العالم الاديب ، لم يكن يفقه كثيرا ما يقول عسارة بن عقيل من الشعر في مدحه ، لان عسارة بدوي ، يذهب في شعره مذهب القدماء (٤٤) .

وعلى ذلك فان مقياس الغرابة والنخامة ، الذي اراد له المتعصبون للتقديم أن يصبح المقياس المأخوذ به ، في تقديم نص على نص ، لم يكتب له انبقاء ، بل سرعان ما انقضاء ، وصار موضع ازدراء النقاد الذين اجتمعوا على أن من عيوب الشعر « أن يركب الشاعر فيه ما ليس يستعمل الا في الضرورة ، ولا يتكلم به الا شاذا ... وهذا الباب مجوز للقدماء ، ليس من اجل أنه حسن ، لكن من شعرائهم من كان اعرابيا قد غلبت عليه العجرفة ... ولان من كان يأتي منهم بالوحشي لم يكن يأتي به على جبة التطلب ، والتكلف لما استعمله منه لكن لعادته وعلى سجية لنظله » (٤٥) .

واذا كان الرواة الأوائل ، قد طلبوا الغريب ، واحتشوا بالشعر انشتل عليه ، فان لهم من غايتهم ما يسوغ ذلك ، لان الذي حداهم عليه ، ما ندبوا أنفسهم له من جمع اللغة ، وتدوينها بواضحها وغريبها . أما انصار التقديم

(٤١) اتجاهات الشعر العربي : ٥٥٤ .

(٤٢) الاغانى : ٢٤٨/٧ .

(٤٣) وفيات الاعيان : ٢٤٥/٢ .

(٤٤) الشعر في بغداد : ٣٠٠ .

(٤٥) نقد الشعر : ١٧٠ ، ١٧١ .

فلم يكونوا معذورين في حمل الشعراء المحدثين على الاكثار من الغريب ،
والتبدي في الأسلوب .

٢ - رفض اشتقاق ما يسمح به القياس :

وبسبب التعصب للقديم ، وبحجة حاية اللغة من أن يدخلها لفظ
لم تنطق به العرب ، رفض المحافظون بعض الالفاظ التي استحدثها بعض
الشعراء قياسا على نظائر لها ، كما طعن الاخفش في بيتين لبشار لانه
قاس فيهما ما يعمل فيه بالساع (٤٦) .

٣ - رفض المغرب والدخيل :

واستعمال الكلمات الاعجمية امر قديم ، عرفته العربية من قبل بحكم
اختلاط العرب بغيرهم من ابناء الامم الاخرى ، غير أن هذا الاختلاط كان قد
اتسع واشتد ، بعد أن اندفعوا من الجزيرة في موجة الفتح الكبرى ، فكان
من اثر ذلك أن ظهرت في لغة الشعراء كثير من الفاظ الفرس وغيرهم . وليس
على اللغة خير اذا اقتبس ابناءؤها شيئا من الفاظ الامم الاخرى ، اذ راعوا
في هذا الاقتباس طبيعة لغتهم ، وطبعوا الفاظ المكتسبة بطابعها ، وذلك
بان يغيروا في حروفها أو يزيدوا أو ينقصوا في تلك الحروف ، فتصبح اللفظة
وكأنها واحدة من الفاظ اللغة الاصلية . وهكذا فعل العرب الاوائل ، فأغنوا
لغتهم بالعديد من الفاظ الامم الاخرى . وكذلك فعل العرب في العصر العباسي ،
وكما فعلت أمم أخرى حين أدخلت الى لغاتها كثيرا من الكلمات العربية وكان
الاولى بالمتعصبين أن يقبلوا ذلك منهم بحدود ويسلموا به ، لا أن يرفضوه ،
ويعدوه ما يتدح في الكلام ، أو يجهنه .

لقد رأى المتعصبون ان التعريب حق مقصور على العرب الاوائل أنفسهم
لان اللغة ملك خاص لهم ، ولا يحق لمن بعدهم ان يدخل في اللغة لفظا لم
يدخلوه (٤٧) . وستناقش هذا المقياس في موضعه من الباب الثالث (٤٨) .

(٤٦) تنظر : ص ٨٨ من هذه الرسالة .

(٤٧) اللغة والنحو بين القديم والحديث : ٢٢٤ .

(٤٨) تنظر ص ٢٢٩ من هذه الرسالة .

٤ - التقييد بالعرف اللغوي :

ومن مقاييس التقيد اللغوي ، التي نشأت بسبب التعصب للتقديم ، القول بضرورة التقيد بالعرف اللغوي في صوغ المجاز وبناء الاستعارة . ومعنى هذا ان اللغويين ومن نهج نهجهم نظروا الى اللغة على أنها مجموعة « ألفاظ » وضعها العرب ليعبروا بها عن اغراضهم ومقاصدهم ، وهي عندهم نوعان : الالفاظ حقيقية وضمت في الاصل للدلالة على مسيات معينة ، فاذا ذكرت تلك الالفاظ تمثلت مسياتها في الذهن ، والالفاظ مجازية : انتقلت دلالاتها الاصلية الى دلالات اخرى بينها وبين الدلالات الاولى علاقة . وعلى هذا الاساس فان المتكلم اما ان يستخدم اللغة استخداما حقيقيا ، واما ان يستخدمها استخداما مجازيا ، الا ان المنطل في الادب هو الاستخدام الثاني . والمتكلم في كلتا الحالتين محكوم - في نظر المتعصبين - بالعرف اللغوي ، وليس له ان يخل به ، او يعيد عنه ، فيستعمل الالفاظ في غير ما وضعت له ، او يخرج بها الى دلالات لا يوجد بينها وبين الدلالات الاولى ضرب من مناسبة ، او نوع من علاقة . وكما ان الشاعر غير حرّ في الاستخدام الحقيقي للغة ، فلا يحق له ان يغير دلالات الالفاظ ، او يعبر بها عما لم يتقرر في العرف اللغوي ، فكذلك هو غير حرّ في الاستخدام المجازي أيضا ، بل « ان عليه ان يرتبط بنوع خاص من العلاقات حددها له اسلافه من قبل ، وأي خروج على هذه العلاقات المجازية المحددة سلفا ، لا يعد خروجا على التقاليد والنظام اللغوي فحسب ، بل يعد خروجا على قواعد العقل ، وعناصر الواقع الثابتة ايضا » (٢٩) .

ومعنى هذا ان العرب جرت على أن تستعير بعض الالفاظ لتدل بها على معان اخرى غير المعاني المقررة لها ، او الموضوعة بازائها ، وما على المتكلم الا أن يتابعهم في ذلك ، فهم استعاروا « الاسد » للرجل الشجاع ، واستعاروا « النور » للعلم ، واستعاروا « الحمار » للرجل البليد ، فاذا رام شاعر أن

(٢٩) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : ٢٥٧ .

يتمثل هذه الالفاظ استعمالا مجازيا اخر ، أو يطلقها على معان غير هذه ،
رفض استعماله ، وحكم عليه بالخطأ ، وعلى هذا عيب قول الشاعر :

بل لو رأيتي أخت جيراننا إذ أنا في الدار كاني حمار

لأنه استعمل « حمار » ليدل به على صحت ، وتام قوته ، ففارق العرف.
اللغوي الذي درج على تشبيه الرجل البليد بالحمار ، أو استعارة الثاني
للاول (٥٠) .

لقد كانت إحدى سمات التجديد التي استنزت اللغويين ، ومن تبعهم
من النقاد المحافظين ، هي استخدام الالفاظ على غير النحو المألوف ، وفي غير
المجال الذي كانت ترد فيه .

لم يشأ انصار القديم أن يبجوا للشاعر شيئا من الحرية في استخدام
اللغة ، ولم يتصوروا « أن طريقة تفكير الشاعر وحالاته الذهنية ، يمكن أن
تفرض عليه استخداما خاصا للغة ، من حيث الدلالة والتركيب » (٥١) . ولم
يروا أن من حق الشاعر أن يندمج بالاشياء المحيطة به « ويعاملها كما لو كانت
هي ذاته » (٥٢) ، فينتجها بما يشاء من نعوت ، ويسقط عليها من نفسه ما يريد
من المشاعر ، ويتمثل اللغة تبعا لذلك استعمالا يتواءم مع هذه الطريقة
في تصور الاشياء والاحساس بها . ولا شك في أن هذا النحو من التصور
والتفكير يؤدي إلى أن تسحي الحدود بين الاشياء وتهتز الفواصل بين العناصر
الخارجة عن ذات الشاعر ، ويطلق على هذا الشيء ما اعتاد الناس انطلاقه على
الشيء الاخر ، فاذا المعنوي المجرد يعبر عنه بما يعبر به عن المادي المحسوس ،
وإذا الحيوان يمت بما يمت به الانسان ، أو العكس .

وكان أبو تمام - كما مرّ في التهيد - أشد الشعراء خروجاً على ما هو
كائن ، ومتعارف عليه من استعمال لغوية ، فأعطى نفسه قدراً كبيراً من

(٥٠) الكامل : ١٣٢/٣ .

(٥١) الصورة الفنية : ٢٥٨ .

(٥٢) نفسه : ٢٤٧ .

الحرية في استخدام الالفاظ ، واقامة علاقات جديدة بيننا ، وكانت طريقتة هذه « فذا يوقع اللغويين في شرك عدم الفهم » (٥٣) ، ما جعل الصولي يخر منهم سخرية مريرة ، ويرميهم بالجهل بالجديد (٥٤) .

لقد صدق اللغويون عن شعر ابي تمام - لانهم استشعروا في استخدامه للغة غموضا ، وغرابة لم يهدوها في الشعر القديم ، فحلوا عليه ، ووصفوه بأنه « شاعر عدل في شعره عن مذاهب العرب المألوفة الى الاستعارة البعيدة ، المخرجة للكلام الى الخطأ والاحالة » (٥٥) .

نظر اللغويون فوجدوا ان العرب كانت تعبير « المعنى لما ليس هو له اذا كان يقاربه أو يناسبه ، أو يشبهه في بعض احواله أو كان سببا من أسبابه ، تتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائحة بالشيء الذي استعيرت له ، وملائمة لمعناه » (٥٦) . أما ابو تمام فلم يجر في هذه السبيل ، بل كان يضع الالفاظ في غير مواضعها المألوفة ، ويعبر بها عن معان لم تتقرر في العرف اللغوي المألوف ، فجرّ عليه ذلك نقد اللغويين ، الذين دفعهم تمصّبهم الى الوقوف له ، والتشهير به .

وقد مثل الامدى نظرة اللغويين هذه ، ووقف موقفهم من حرية الشاعر في استعمال الالفاظ ، ولم ير بعض الدارسين (٥٧) غرابة في متابعة الامدى للغويين ، ومن سايرهم من انصار القديم ، وذلك لانه تلميذ مخلص لهم ، درس على الاخفش ، ورشي نهج البصريين ، ومال اليه فقال : « ينبغي ان ينتهي في اللغة الى حيث انتهوا ، ولا يتعدى الى غيره ، فان اللغة لا يقاس عليها » (٥٨) . وكان يرى ان العرب اذا اعتمدت على الشيء ضرورة ، لم يكن ذلك لمتاخر (٥٩) .

- (٥٣) الصورة الفنية : ٢٦ .
 (٥٤) تنظر ص ٩١ ، ٩٢ من الرسالة .
 (٥٥) الموازنة : ٢٢/١ .
 (٥٦) نفسه : ٢٥٠/١ .
 (٥٧) الصورة الفنية : ٢٥٧ ، ٢٥٩ .
 (٥٨) الموازنة : ٢١٦/١ .
 (٥٩) نفسه : ٢٤٣/١ .

وهذا اتجاه بصري ، لا يعترف بالقليل النادر ، ولا يقيس الا على الكثير المتعارف عليه عند الجميع . فاذا اوردنا هنا شيئا من تعليقات الامدي على استخدام ابي تمام للغة ، فذلك لانها تشل وجهة نظر النقاد واللغويين الذين سبقوه ، وقادوا الثورة على الجديد . ولان نظرة الآمدي هذه استمرت ، فآمن بها عدد من نقاد القرن الرابع والقرن الخامس كالرمانى والخطابى والقاضى الجرجاني والمسكرى وابن رشيقي وابن سنان وغيرهم (٦٠) .

لم يرض الآمدي عن عدد من مجازات ابي تمام ، وأفرط في تأنيب الشاعر عليها ، وهو يصدر هنا عن رأي اللغويين الذين أرتبتم ما كانوا يجدونه عند ابي تمام من جرأة في استخدام الالفاظ لغير ما وضعت له ، واستهانة بالشائع والمألوف من تعابير العرب ومذاهبهم . من ذلك قوله :

تحسكت ما لو حُمَّل الدهر شطره لفكر دهرأ أي عبايه أثقل

قال الآمدي في نقده : « فجعل للدهر عقلا ، وجعله مفكرا في أي العباين أثقل ، وما شيء هو أبعد من الصواب من هذه الاستعارة . وكان الاشبه والأليق لما قال (تحسكت ما لو حل الدهر شطره) أن يقول : لتضعض ، أو لا تهدد ، أو لأمن الناس حروفه ونوازله » (٦١) .

وقال ابو تمام :

أتركه الايام عن ظهرها من بعد اثبات رجله في الركاب

وقال :

يا دهر قوم من أخذ عَيْكَ فقد أخرجتَ هذا الأنام من خُرْبِكَ

فلم يرض الامدي ، ومن سبقه من انصار القديم ، عن هذا التشخيص للدهر والايام ، ونعتها بما لم يتعارف من نعوت ، ووجدوا في أمثال هذه

(٦٠) الصورة الفنية : ٢٦٨ .

(٦١) الموازنة : ٢٥٥/١ ، ٢٥٦ .

التعابير خروجاً على السن العربي الموروث ، إذ لم يؤثر عن عربي أنه جعل للايام نلهرا وركابا ، أو جعل للدهر أخذما ، وإذا كان أحد من العرب قد تورط في شيء من هذا ، فلا يحق المتأخر أن يجاريه فيه ، لأن ما يصدر عن العرب على سبيل الندره ، أو السهر ، لا يمكن أن يسوغه متأخر (٦٢) ، أو يجعله اصلا يحتذيه أو يستكثر منه (٦٣) ، كما لا ينبغي « للمتأخر أن يحتذى الاخذ الا للجدد المختار لسعة مجاله ، وكثرة امثله » (٦٤) .

لقد صدر اللغويون في هذا المقياس ، مقياس التقيد بالعرف اللغوي ، عن نظرة تكبر القديم ، وتغلو في التعصب له ، وترى في الاستعمال الجديد للغة خروجاً على الموروث من تقاليدنا ومواضعنا . ولو أنهم لم ينظروا للجديد هذه النظرة ، لقبولوا ما جاء به من استعمالات ، ان فارقت مذاهب العرب ، فانها وقت لما يقتضيه الفن الشعري من اعادة تشكيل المفردات ، على النحو الذي تسليه الرؤية الشعرية ، أو تفرضه طبيعة التجربة . ومن هنا كان لنا ان نقول : ان المقياس الاربعه السابقه لم تكن لتظهر ، لو ان التعصين تخلتوا عن موقفهم من الجديد ، وشرحوا صدورهم له . فالتقيد بالقديم ، هو الذي حال بينهم وبين تذوق الاستعمالات الجديدة ، ودفعهم الى مقاومتها بما شرعوا من مقياس ، واستنوا من اصول . أما النقاد الذين تحرروا من التعصب ولم يتقيدوا بالقديم ، فاستاغوا الجديد ، ومررت اذواقهم وعتولهم عليه . وأخيرا لا بد ان نقف قليلا عند ظاهرة من ظواهر النقد اللغوي دفع اليها تعصب اللغويين ، وأغرى بها تطرفهم في عدااء الجديد ، والفض منه ، هذه الظاهرة هي البحث عن اخطاء القدامى ، وتبع ما وقعوا فيه من اوهام .

فازاء هجوم المحافظين على المحدثين ، ورميهم بالخطا ومفارقة مقياس اللغة واصولها ، نهض انصار الحديث ليردوا عليهم ، ويثبتوا لهم ان القدامى

(٦٢) الموازنة : ٢٤٩/١ ، ٢٥٥ .

(٦٣) نفسه : ٢٥٩/١ .

(٦٤) نفسه : ١٧/١ .

لم ينجوا من الوقوع في الخطأ ، ولم يلم بعض تاجهم من مفارقة قواعد اللغة والاخلال باصولها ، ولذا نستطيع أن نقول : ان الحلة التي قامت لغرض التنقيب عن اخطاء القدامى ، انما هي حلة دفع اليها تعصب اللغويين للقديم ، واسرافهم في الغض من الجديد . غير ان هذه الحلة لم تظهر الا في القرن الرابع ، وبعد أن خف سلطان القديم على النفوس ، وتبدد بعض ذلك الضوء الذي سلطه المتعصبون عليه ، ومنعوا به العيون من ان تثبت له وتنقب فيه عما عسى أن يكون فيه من خطأ او قصور . لقد أشار انصار القديم ، ابان غلبتهم على مجالس الدرس والنقد ، أن الشاعر القديم لا يخطئ ، لان سليقته تسعه من الخطأ ، فاذا عثروا في كلامه على ما يند عن قواعد اللغة ، عدوا اليه فتألولوه ، وعادوا به الى مآيرة تلك القواعد . وسلم الناس ، في ذلك الوقت ، بهذا المنحى ونظروا الى التقديم على أنه مبرأ من كل خطأ ، فاذا جاء القرن الرابع انبرى بعض رجاله كالصولي والجرجاني والآمدي لابطال هذه الدعوى . فجمع الصولي قدرا كبيرا من اخطاء القدماء في الاناظر والمعاني ، وقال : « كما انه قد غاب العلماء على امري ، القيس ومن دونه من الشعراء القدماء والمحدثين اشياء كثيرة اخطاوا الوصف فيها وغير ذلك ما يطول شرحه فاستقلت بذلك مراتبهم فكيف خص ابو تمام وحده بذلك لولا شدة التعصب » (٦٥) ، وفعل مثل ذلك القاضي الجرجاني ، فسر أمثلة كثيرة من اخطاء القدماء (٦٦) ، قاصدا من ذلك التدليل على أن ادعاء العصمة لهم ، وهم لم يورثوا اصحابه فيه الا تعصبهم للقديم ، وشدة اعظامهم له . وسعود ، لنقف عند دعوى عصمة القدماء من الخطأ ، لنزيدها ايضاحا ، ونبين ما تركته من أثر في النقد اللغوي (٦٧) . وحسبنا هنا ان نشير الى أن هذه الدعوى ، تصدى لها من يطلبا ، ويجلب لها التند .

(٦٥) اخبار ابي تمام : ٢٢ .

(٦٦) الوساطة : ٤ وما بعدها .

(٦٧) تنظر ص ٦٠٦ من هذه الرسالة .

وإذا كان الشعراء والادباء لقوا أعنف النقد وأمره بسبب ما نشر على
لغتهم من أمارات التجديد ، ومفارقة مذاهب العرب في التعبير ، فإن كثيرا منهم
كانوا يلغون نقدا مرا ، لا لدواع فنية ، وإنما لدواع شخصية ، أو لحسد
ذاتي . ومعنى هذا أن الخصومة والعوامل الشخصية كانت وراء كثير من
النقد اللغوي الذي توجه لطائفة من الادباء . وسيتولى الفصل القادم الكشف
عن هذا العامل الجديد الذي نشأت بسببه آراء وأحكام كان يمكن ان تختفي
لو سلم النقاد من الحسد والحقد .

الفصل الرابع

الخصومة

نشأت في عالم الأدب والنقد ، خصومة شخصية بعيدة من الاسباب الفنية اذكتيا عوامل لا علاقة لها بالتقاليد الادبية ، والخصومة غير الفنية تختلف باختلاف الدوافع اليها كما حدث بين الفرزدق وابن ابي اسحاق الحضرمي ، وهو من الموالي الذين اتقنوا العربية ، وبرعوا فيها . الا أن العرب كانوا يربطون بين اللغة والجنس ، بمعنى انهم كانوا يعتقدون ان غير العربي لا يتطوع أن يتقن العربية اتقان أهلها لها (١) . وقد حملتهم هذه النظرة على عدم الاعتراف لابن ابي اسحاق وغيره من الاعاجم ، بمعرفه العربية ، الأمر الذي جعل هذا النحوي يبحث جاهدا في لغة معاصره ومن سبقهم من الشعراء الاقدمين ، عن اخطاء وزلات لغوية ، ليتناولها بالنقد والتصحيح ، ويتخذ من ذلك دليلا على أن غير العربي يتطوع اتقان اللغة ، والاحاطة باستعمالاتها . ولو لم يكن هذا غرض الحضرمي من نقده ، لتجاوز ذلك الاقواء الذي وقع فيه الفرزدق في قوله :

مستقبلين شمال الشام تضربنا بحاصب من نديف القطن مشور
على عائننا يلقي وارحلتنا على زواحف تزجي مخها رير

ولما صار يرويه « كما لو كان الفرزدق قال رير بالكر » (٢) ، ليشهر به ، ويرميه باللحن . فعلى الرغم من أن الاقواء معروف في الشعر (٣) ، فقد تعامى ابن ابي اسحاق عنه ، يباعث من حقه على الفرزدق الذي كان يتعالى عليه ،

(١) فصول في فقه العربية : ٧٩ ، ١٤٢ .

(٢) العربية : ٤٧ .

(٣) طبقات نحول الشعراء : ٥٩ .

ولا يراه أهلا لأن يتمتع بكلام العرب ، ويبحث فيه عن الخطأ . ويبدو أن الحضرمي لقي جزاءه ، فقد ناله خصومه بثل ما نالهم به من النقد والتشهير ، ووصفوا لفته بأنها لم تكن « على ما ينبغي » (٤) .

وتصح تلك الدوافع في نقد عيسى بن عسر (ت ١٤٩ هـ) أيضا ، وهو مولى ، أصاب من العلم بالعربية حظا عظيما ، حتى قيل : انه لم يكن يتكلم الا بالغريب الشاذ . وليس بعيد ان يكون عيسى بن عسر قد اراد باصطناع الغريب ، وتبعه الشعراء الاقدمين بالنقد والتخطئة ، ان يثبت أن بإمكان الموالي ان يصلوا من العلم بالعربية ، والتقيد باصولها ومواضعها الى ما عجز عنه العرب أنفسهم . ولم يثبت القدامى أن يجتمعوا بين الحضرمي وعيسى ابن عسر في قرن واحد ، ويصفوها بالظمن على العرب . واذا وازنا بين منهج ابي عسر وابن العلاء - وهو عربي - ومنهجنا ، تبين لنا ان تشدهما في النقد يرجع الى الرغبة في اظهار تفوقهما على العرب أنفسهم في علم العربية . قال ابن سلام : حكى يونس : « أن ابا عسر وبن العلاء كان أشد تليسا للعرب ، وكان ابن ابي اسحاق وعيسى بن عسر يطنان عليهم . وكان عيسى يقول : اساء النابغة في قوله حيث يقول :

فت كاني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع

يقول : موضعها (ناقما) » (٥) .

ولم يكن عيسى بن عسر على حق في نقده ، لأن النابغة كان دقيق الحس . بلغت ، كما كان يدرك أن (الاعراب) بهذه اللغة قد اعطى المتكلم بها حق التقديم والتأخير ، ذلك لان حركة الكلمة من شأنها ان تحدد قيمتها اللغوية في السياق ، وان هذه القيمة لا تفارق الكلمة في أي موضع من الجملـة . حلت . ففي قولنا : زيدا اكرم خالد ، قدمنا المنعول به للاهتمام به ، وقد

(٤) العربية : ٤٨ .

(٥) طبقات نحول الشعراء : ١٥ ، ١٦ .

خلت قيت اللغوية واضحة ومتميزة ، لان الحركة تكفلت ذلك ، ولولاها لما اهتمدى السامع لما لكلمة (زيد) من قية لغوية في الجملة ، ولولاها لما استطعنا تقديم المفعول به ، ولالزنا الكلمة موضعا معينا من الجملة لا تتعداه ، كما هي الحال في الانجليزية مثلا، ولاشك في أن هذا الالزام ، يفوت علينا انغرض البلاغي الذي يحققه تقديم المفعول . واذا علمنا هذا ادركنا ان عيسى بن عمر قد فاته أن يفهم أن « علامة الرفع في (ناقع) تدل على الصفة ، وتمطي الكلمة معناها الذي يلائم الوزن ويلائم الاعراب » (٦) ، وأدركنا كذلك ان انابغة أراد (ضئيلة ناقع في انيابها السم) ، ثم آخر « الصفة الى مكان القافية ، لانها - وهي مرفوعة - لا تكون الا صفة موافقة لموصوفها ايضا انتقل بها ترتيب الكلم المنظوم » (٧) .

والنوع الآخر من الخصومة الشخصية ، هي الخصومة المذهبية ، وقد كانت سببا في كثير مما وصل الينا من النقد اللغوي . من ذلك ما نسب الى ابي حنيفة من أنه قال : « ولو ضرب رأسه بأبا قبيس » بدلا من « بأبي قبيس » (٨) . وقد رأى يوهان فك ان هذا الخبر مصنوع ، بقصد النيل من ابي حنيفة ، صنعه ابراهيم الحزبي (ت ٢٨٥ هـ) وهو أحد كبار الحنابلة (٩) . ومع أن الخبر مصنوع ، فان ابن فارس اللغوي ، كبر عليه ان يرمى ابو حنيفة باللحن ، فرأى أن يلتبس لما نسب اليه من قول وجا من العربية ، وخرجه على لهجة خاصة تعامل الاسماء الخسة معاملة الاسم المقصور ، فتلقي معسكر الحنثيين هذا الدفاع بشغف (١٠) .

وكان الاصمعي مدفوعا بالخصومة المذهبية في نقده لعدد من شعراء الشيعة . ذهب الى ذلك غير واحد من التدامي ، كما قرره بعض المحدثين .

(٦) اللغة الشاعرة : ٢١ .

(٧) نفسه .

(٨) البيان والتبيين : ٢١٢/٢ .

(٩) العربية : ٦٥ .

(١٠) نفسه .

قال ابن درستويه (٣٤٥ هـ) : « وانا انحرف الاصعي عن الكيت لمذهبه ، لا لأدبه » (١١) . وقال علي بن حمزة (٣٧٥ هـ) : « ولكنه - يعني الاصعي - كان متعصبا على الكيت ، كما انبأك ... أنه كان متعصبا على ذي الرمة ، وأعلنتك أن علة ذي الرمة معه اعتقاد العدل » (١٢) . وقال أيضا : ان الاصعي « كان يسب الكيت ، ويقدم في شعره ، ويضع من قدره ، لان الكيت كان شيعيا » (١٣) .

وقال داود سلوم في تحليل حلة الاصعي على الكيت : « والظاهر ان هذه الحلة لها أسبابها السياسية . . . ففي العصر الاموي كان الكيت يمثل المعارضة السياسية ، وأراد الاصعي ان يكيد الكيت على ذلك ، فأخرج أدبه من لغة العرب التي يحتج بها ، وتعصبه عليه زمن العباسيين ، يبعثه نفس السب الذي تعصب به عليه زمن الامويين ، فقد كان الكيت في الحاليتين علويا ، وكان الاصعي منحرفا عن آل علي » (١٤) .

ورفضت سنية أحد محمد ان يكون الاصعي مدفوعاً بتعصبه المذهبي في تخطئة شعراء الشيعة ، وذهبت الى أن علي بن حمزة كان متعاملا عليه حين نعته بالتعصب على ذي الرمة والكيت بسبب مذهبها (١٥) . ثم قالت : « وكان تعصبه - اي علي بن حمزة - ابلغ من تعصب ادعاء على الاصعي . وكان الاولى به ان يسأل نفسه عن السبب الذي جعله يخض الكيت دون غيره بنائته ودفاعه . واذا سلنا جدلا برأيه وفرضنا ان التعصب هو الذي أدى بالاصعي الى رفض شعر الكيت فلم اذن أبعد الطرماح وضعفه مع أنه لم يكن شيعيا » (١٦) .

(١١) تصحيح الفصح : ١٧٦ .

(١٢) التنبهات (مطبوع مع المنقوص والمدود للفراء) : ٢٤٧ .

(١٣) نفسه .

(١٤) النقد العربي بين الاستقرار والتأليف : ١١٧ .

(١٥) النقد عند اللغويين : ١٦٠ .

(١٦) نفسه : ١٧٨ .

وليس ما استدلت به الباحثة هنا بكاف لتبرئة الاسمى من تهمة التعصب،
لان الطرماع أيضا كان مخالفا للاسمى في المذهب .

ويرجح لدى الباحث ان نقد الاسمى لم يكن كله نزيها ، بل كان
الرجل في بعض آرائه مدفوعا بعوامل شخصية مذهبية وغير مذهبية ، يدنا
على ذلك ما اعترفت به الكاتبة نفسها حين ذهبت الى أن الاسمى قبل شعر
عمر بن ابي ربيعة ، وابعاح الاحتجاج به ، مع أنه عرف برفضه الاحتجاج
بشعر الحضريين (١٧) . وعندما اخطأ عمر في قوله :

ثم قالوا : تحبها قلت بهرا عدد الرمل والحصى والتراب

اذ كان ينبغي أن يقول : أتحبها لانه استنهام (١٨) ، راح الاسمى
يلتس لعمر مخرجا ، فقال : « وله في ذلك مخرج اذ قد أتى به على سبيل
الاخبار » (١٩) ، ثم قال « ومن الناس من يزعم انه انما قال : قيل لي هل
تحبها قلت بهرا » (٢٠) . ويمكن ان نستدل ايضا على عدم تجرد الاسمى في
بعض نقده اللغوي ، بما روي (٢١) من انه انكر كلمة (زوجة) التي جاءت
في قول ذي الرمة :

أذو زوجة في المصرام ذو خصومة أراك لها بالبصرة العام ثاويا
واتهم ذا الرمة بسببها بضعف اللغة وبأنه « قد أكل البتل والملوح في
حوانيت البتالين » ثم قبل الكلمة نفسها حين سمعها في بيت من قصيدة لعبد
ابن الطيب يقول فيه :

فبكى بناتي شجوهن وزوجتي والطامعون اليّ ، ثم تصدّعوا

(١٧) النقد عند اللغويين : ١٦٣ .

(١٨) الموشح : ٢١٥ .

(١٩) الاغانى : ٧٩/١ .

(٢٠) نفسه .

(٢١) الموشح : ٢٨٤ والخصائص : ٢٩٥/٢ .

وثمة نوع ثالث من الخصومة الشخصية ، وهي الخصومة التي كان
الباعث عليها ما ينشأ بين العلماء والادباء من تنافس على المجد والشهرة ، اذ
ان هذا التنافس لا يلبث ان يجر الى الكراهية والبغضاء .

ومن الامثلة على هذا النوع ، الخصومة التي نشبت بين البصريين
والكوفيين ، وكانت سببا في تراشق علماء المدرستين بتهمة الخطأ واللحن .
فحماد الراوية (١٥٥ هـ) ، وهو كوفي ، نال منه يونس بن حبيب البصري
(١٨٠ هـ) ، وحكم عليه بأنه « كان يكذب ويلحن ويكسر » (٢٢) ونسج عنه
البصريون رواية اخرى تشير الى ان الكيت (١٢٦ هـ) رفض ان يبلي
اشعاره على حماد لانه خشي لحنه (٢٣) ، وبدلنا على ان الحكم على حماد باللحن
باعثه الخصومة ، ان ابا عمرو بن العلاء - وهو بصري عاش قبل نشوب الخلاف
بين البصريين والكوفيين - كان يزكي حمادا ، ويشي على عله (٢٤) . ونستطيع
ان نحلل على هذا ايضا ما نسب الى الفراء الكوفي من لحن في مجلس الرتيد ،
فلما خاطبه فيه اعتذر بأن اللحن عند سكان المدن لازم لهم كالأعراب عند أهل
البادية (٢٥) .

وقام الكوفيون يتهمون خصومهم من البصريين باللحن والخطأ ، فقد
نسجوا على لان يونس بن حبيب الجلة الآتية : « هاتي ذيك الماء من ذلك
الجرّة » (٢٦) . وقد صدق ابن جني حين وصف ما كان بين الفريقين من
تراشق بقوله : كان بعضهم « يبجن بعضا ، ولا يترك له في ذلك ساء ولا
أرضا » (٢٧) .

(٢٢) طبقات فحول الشعراء : ٤١ .

(٢٣) الموشح : ٣٠٨ .

(٢٤) طبقات الزبيدي : ٣١ ، والعربية : ٦٣ .

(٢٥) العربية : ٨٤ ، ٨٥ .

(٢٦) الزهر : ٢٠٣/١ .

(٢٧) الخصائص : ٣١٢/٣ .

والخصومة التي كانت بين الشعراء هي خصومة اساسها التنافس على
المجد والشيرة وعطايا اصحاب النفوذ . فقد كان صفار الشعراء يحقدون على
الكبار والمبدعين ، لان هؤلاء كانوا يتصونهم عن رحاب الخلفاء ، ويحرمونهم
المجد والشيرة والصلوات . وكان الخصوم يتشون عن حقدهم بالتقد وتتبع
العرثات في اللغة والصور والمعاني . ولهذا يكن ان تقرر : أن كثيرا من النقد
اللغوي الذي نال بعض كبار الشعراء كان مبعثه الخصومة .

فابو تمام كان شعره ملتمى جميعين من العائين : اللغويين ومن أخذ
بمذهبهم من الشعراء المقلدين ، وقد كان لعداوتهم مذهب ابي تمام موعغ
فني ، وهو ادعاء مناصرة مذاهب القدماء (٢٨) ، والشعراء الذين حاربوا مذهب
ابي تمام لدواع شخصية ، ولحد ذاتي (٢٩) يرجع الى ان ابا تمام قد سار
ذكره ، وعلا صيته ، فتشاغل الناس بشعره ، واقبلوا عليه يتذكرونه ،
ويتناشدونه ، ويبحثون عن المذهب الجديد الذي تمثل فيه .

وقد أشار ابن رشيق الى شيء من طغيان شخصية ابي تمام على معاصريه
من الشعراء ، ومنهم عبدالصمد بن المعتدل الذي قال عنه ابن رشيق : « غره
حبيب ذكرا واشتهارا » (٣٠) .

فبسبب ما نال ابو تمام من شهرة ، وما لقيه من حظوة عند المدوحين ،
تألب عليه كثير من الشعراء ، وانبروا يثلبون شعره ، ويسفهون مذهبه ،
ويبحثون جاهدين عن سقطاته وعرثاته في الالفاظ والمعاني والصور ، ولم يكن
الدافع الى ذلك الا ما يجدونه من كساد شعرهم ، وانصراف المدوحين عنهم .
وللخبر الذي يذكره يزيد المهلبي دلالة واضحة على هذا الدافع الشخصي
الحض الذي يكمن وراء غير قليل من النقد اللغوي الذي نال ابا تمام ، يقول :

(٢٨) الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام : ٤٧ .

(٢٩) نفسه .

(٣٠) العمدة : ١٠١/١ .

« ما كان احد من الشعراء يقدر أن يأخذ درهما واحدا في أيام ابي تمام ،
فلسا مات ابو تمام اقتسم الشعراء ما كان يأخذه » (٢١) .

ومن الذين عادوا ابا تمام ، وجهدوا في تتبع شعره بالعيب والظعن ،
الشاعر المعروف بابن الخثمي ، الذي اقصاه ابو تمام عن مكانه في قصر ابن
الزيات ، وحل محله ، فنظم الخثمي قصيدة يسخر فيها من ابي تمام ،
ويستعدي ابن الزيات عليه ، ويمرض بقصيدة ابي تمام التي مدح فيها ابن
الزيات ، فكانت سبب حظوته عنده ، والتي يقول فيها :

لك القلم الأعلى الذي بشباته يصاب من الأمر الكلي والمفاصل
قال الخثمي :

ما خطبة القلم التي أنبتنا وردت عليك لشاعر مجدود (٢٢)

ونزل ابن الخثمي يتبع شعر ابي تمام ، ليظفر باخطاء يشهر بها ، ومن
النقد اللغوي المنسوب الى هذا الشاعر ، ما ذكره الصولي ، من أن ابن
الخثمي قال : « جن أبو تمام في قوله :

تروح علينا كل يوم وتفتدى خطوب يكاد الدهر منهن يصرع

أيصرع الدهر » (٢٣) غير أن انصار ابي تمام « كانوا يردون مثل هذا
النقد المنرض الذي لا مبعث له الا الحسد » (٢٤) ، فقد روى الصولي في
اعتقابه نقد ابن الخثمي ردّ محمد بن عمرو عليه ، فقال له : « هذا بشار
يقول :

وما كنت الا كالزمان اذا صحا صحوت وان مات الزمان أموق

(٢١) اخبار ابي تمام : ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٢٢) الحركة النقدية : ٥٢ .

(٢٣) اخبار ابي تمام : ٢٤٧ .

(٢٤) الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام : ٥٢ .

قال : فكت . فقلت له : وابوك ، يقول :

ولين لي دهري باتباع جوده فكدت للين الدهر أن أعقد الدهرا» (٢٥)

وكان دعبل من ابرز خصوم ابي تمام ، واشدهم حدا له ، وانتقدم لمذهبه (٢٦) . ذلك لانه « ما اصاب مع ابي تمام طريقا على تقدمه في السن والشهرة » (٢٧) ، وقد حفظت لنا كتب الادب الوانا من النقد اللغوي المنسوب الى دعبل في شعر ابي تمام ، من ذلك انه حين سمع بيته من قصيدته التي قالها في فتح عمورية :

خسون الفا كآساد الشرى نضجت اعصارهم قبل نضج التين والعب

لم يرض عن قوله « التين والعب » ثم زعم أن ابا تمام غيره ، لما عيب عليه فقال :

خسون الفا كآساد الشرى فتدت اعصارهم فهووا في لجة العطب

ثم عقب على هذا البيت بقوله : « وان الثاني شر من الاول ، وكان ينكر لجة العطب عليه » (٢٨) . ويعلق الربداوي على نقد دعبل هذا بقوله : « ويقيني أن التعبير الذي طرأ على البيت لم يسمع به ابو تمام ، وانما هو من بنات افكار دعبل ، ليزري بشعر ابي تمام » (٢٩) .

ولا بد لنا ، ونحن بصدد عرض أمثلة للنقد اللغوي الباطل ، القائم على الحد والبغضاء أن نتجاوز شعراء جاءوا بعد ابي تمام ، وتقف وقتة أخرى عند المتبني ، لئرى ان خصومه الكثيرين اثاروا حول لفته واستعمالاته ملاحظات كان بعضها عداوتهم اياه ، وحقدهم عليه .

(٢٥) اخبار ابي تمام : ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

(٢٦) الحركة النقدية : ٥٢ .

(٢٧) العمدة : ١/١٠١ .

(٢٨) الموشح : ٤٩٤ .

(٢٩) الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام : ٦٠ .

ويبدو ان الذي تشرّ من المتبي ، لم يكن ما أحابه من جاه وشهرة فحسب ، وانا كان لكبريائه واعتداده بنفسه من جانب ، ولجراته ، وركوبه الاستعمالات النادرة من جانب آخر ، الاثر الكبير في النفرة منه ، والتألب عليه . وقد اشار الى هذا احسان عباس فقال : « وصددم المتبي الذوق مرتين : مرة بشخصه المتعالي المتعالم ، ومرة بجراته في التعر ، جراته التي تركب المبالغة حتى تس العقيدة الدينية ، وتتحل اراء فلسفية غريبة وتستخف بأصول اللياقة والعرف في مخاطبة المدوحين ورتاء النساء ، وتتصرف باللغة نصف المالك المتبد » (٤٠) . ومعنى ذلك ان النقد الذي دار حول المتبي قسان : الاول ، وهو الغالب ، كان بسبب شخصيته ، وخصاله المبغضة ، والثاني كان الباعث عليه ما في شعره من خصائص لافتة ، استرعت نظر النقاد ، ودعتهم الى تقده . وهناك من يرى ان الحركة النقدية الضخمة التي قامت حول المتبي لم تكن بسبب شعره ، وانا قامت بسبب شخصيته ، وما امتازت به من شائل لم تعيد في شخصيات معاصره او سابقه من الشعراء ، قال احد مطلوب : « وكانت الخصومة من نوع يختلف عن تلك الخصومة بين أنصار البحرني وابي تمام اللذين كانا يثلان اتجاهين مختلفين في الشعر . فالخصومة هنا ليست من أجل مذهب فني ، وانا هي في المتبي وطبعه وشهرته في زمانه » (٤١) .

وكان محمد مندور أدق حين قال : « والخصومة حول المتبي لم تكن خصومة حول مذهب شعري ، وانا كانت خصومة حول شاعر أصيل » (٤٢) . قمي قوله (شاعر اصيل) ما يفصح عن أن شعر المتبي نفسه - فضلا عن شخصيته وصفاته - كان يتوقف الناقد .

(٤٠) تاريخ النقد الادبي عند العرب : ٢٥٢ .

(٤١) اتجاهات النقد الادبي في القرن الرابع الهجري : ٢٥١ .

(٤٢) النقد المنهجي عند العرب : ١٥٩ .

كان شعر المتنبي اذن ملتحى ثلاث فئات من النقاد : فئة تعصبت له ، وأفرطت في الاعجاب به ، حتى لم تر له شيئا يعاب ، وفئة غالت في التعصب عليه والنض من شأنه ، ولم يكن يهسا من شعره الا العيوب ، تذكرها لتشبه به ، وتتخذها وسيلة لتحطيه ، والانتقام من شخصه ، وتعاطفه ، وتماليه ، وقد صور الجرجاني هاتين الفئتين المحتربتين فقال : « وما زلت أرى اهل الادب منذ الحقتني الرغبة بجملتهم ، ووصلت العناية ببني وبينهم ، في أبي الطيب أحد بن الحسين المتنبي فئتين : من منطب في تقرظه ، منقطع اليه بجلته ، منحط في هواه بلسانه وقلبه ، يلتقي مناقبه اذا ذكرت بالتعظيم ، ويشيع محاسنه اذا حكيت بالتفخيم ، ويعجب ويميد ويكرر ، ويبيل على من غابه بالزراية والتقصير ، ويتناول من ينقصه بالاستحقار والتجهيل ، فان عثر على بيت مختل النظام ، أو نبه على لفظ ناقص عن التمام ، التزم من نصرة خطئه ، وتحسين زلله ، ما يزيله عن موقف الممتذر ، ويتجاوز به مقام المنتصر ، وغائب يروم ازالته عن رتبته ، فلم يسلّم له فضله ، ويحاول حطه عن منزلة يوأه اياها ادبه ، فهو يجتهد في اخفاء فضائله واظهار معاييه ، وتتبع سقطاته ، واذاعة غفلاته . وكلا الفريقين اما ظالم له أو للادب فيه » (٤٣) .

والمسبح للنقد الذي وصل الينا حول المتنبي ، يجد ان أكثره هو النقد الذي شنّه عليه الخصوم والشائون ، يقول احسان عباس : « ان النقد الذي دار حول المتنبي كان في أكثره هجوما على المتنبي الانسان من خلال الشعر » (٤٤) .

ومن الغريب اننا نسمع بانصار المتنبي ، ونرى الكتب مسلووة بالرد عليهم ، ولكننا « لا نجد لهم آثارا مكتوبة في الدفاع عن صاحبهم » (٤٥) وكانهم اكتفوا بما كانوا يذيعونه في المجالس ، على حين تلاحقت الكتب في العراق

(٤٣) الوساطة : ٣ .

(٤٤) تاريخ النقد الادبي : ٢٥٣ .

(٤٥) نفسه : ٢٧٧ .

وفارس ومصر للرد عليهم « وليس في الحالين تكافؤ ، فانتصار المتبني يظعون جهودهم في احاديث المجالس والحلقات ، بينما يخلد خصومه مذمته في الكتب والرسائل » (٤٦) .

واما الفئة الثالثة من النقاد فهي التي توسطت بين الثنتين ، وهدفت الى التقريب بين الخصوم والانصار ، ويشل هذه الفئة القاضي الجرجاني الذي ألف كتاب « الوساطة » ليتبين في هدوء ، وبعبدا عن النجاجة ، ما في شعر المتبني من ضعف وقوة .

ويتخذ النقد اللغوي الذي لم يكن مبعثه الا العداوة للشاعر ، والحقده عليه ، مظاهر ثلاثة :

الاول : محاسبة الشاعر على الفاظ وتراكيب ليس عليه حرج ان عير بها أو أودع شعره شيئا منها ، وذلك لان الشعراء استعملوا نظائرها ، أو أن كبار اللغويين صرحوا بجوازها .

الثاني : التعليقات التي تتسم بالحدة والمبالغة والتي تمتعت المتبني وشعره بنعمت شتى لا يأتي بها ناقد منصف يحتاط لاحكامه ، ويتحرى الدقة في أقواله .

والثالث : هو الاختلاق ، والكذب على الشاعر ، ونحله أقوالا لم يقلها بغية تجريحه ، والنيل منه .

ومن الامثلة على المظهر الاول أنهم غابوا ومله « الا » بالضمير في قوله :

ليس إلاك يا علي همام سيفه دون عرضه ملولاً
وقوله :

لم تر من نادمت الاكاً

وحين علم المتنبى انكارهم ذلك عليه ، احتج بيت رواه الفراء ، هو :
فما نبالي اذا ما كنت جارتما الا يجاورنا الاك ديّار

غير أن الخصوم ، لم يفيئوا الى هذه الحجة ، وأبوا على المتنبى ان يحتدي
ما في كلام العرب من لغات صحيحة ، رواها الأئمة ، والموثوق بأقوالهم من
النحاة ، واما الجرجاني ، الناقد الذي لم يلوّن الهوى نظرتة للمتنبى ، فلم
ير قوله ما يعاب ، قال : « وأنا أرى الا يطالب الشاعر أكثر من اسناده قوله
الى شاعر عربي منقول عن ثقة ، وناهيك بالفراء » (٤٧) .

ومن هذا الباب أيضا النقد الذي دار حول كلمة « ترنج » التي وردت
في قوله :

شديد البعد من شرب الشول ترنج الهند أو طلع النخيل

فقد قال خصومه : « المعروف من العرب الا ترج ، والترنج مما يفلط به
العامة » (٤٨) ولولا الخصومة لما عييت هذه اللفظة ، ولما اسقطت الى درك
العامة ، ذلك لان من اللغويين من رواها ، فقد حكى ابو عبيدة : ترنجة
وترنج (٤٩) . ودافع المتنبى نفسه عن هذه الكلمة ، فذكر أن ابا زيد حكاها
وذكرها ابن السكيت في أدب الكاتب (٥٠) . فلقول المتنبى : « سند من
الصحيح ، وان كان غير متواتر بين اللغويين ، الا أنه سند على كل حال » (٥١) .

وأما المظهر الثاني من مظاهر هذا النقد الناجم عن الخصومة ، فيتمثل
لنا في تعليقات هازئة حادة كان خصوم الشاعر يعقبون بها على بعض أقواله ،
لا بد ان يترفع عن امثالها ناقد نزيه ، أو دارس جاد . فاذا قال المتنبى :
اذا كان بعض الناس سيفا للدولة ففي الناس بوقسات لها وطبول

(٤٧) الوساطة : ٤٥٦ ، ٤٥٧ .

(٤٨) نفسه : ٤٧٠ .

(٤٩) لان العرب (ترج) .

(٥٠) الوساطة : ٤٧٠ .

(٥١) المتنبى بين ناقديه في القديم والحديث : ٦٢ .

قال صاحب بن عباد : « وهذا التعادق منه ، كتناول الشيخ قبحا ، ودلال العجائز ساجة » (٥٢) . واذا قال :

حتى يقول الناس ماذا عاقلا ويقول بيت المال ماذا ملنا

قال العميدي : « بكم الخرس احسن من هذا الكلام العامي الفث ، والنظام الفاسد الرث » (٥٣) . واذا استعمل لفظة « جبرين » بدل « جبريل » قال صاحب : « وقلب هذه اللام الى النون ، ابغض من وجه النون ولا أحب جبريل عليه السلام يرضى منه بهذه المجازاة » (٥٤) .

والمظهر الثالث من مظاهر النقد اللغوي الذي أثارته الخصومة ، يتجلى فيما اختلقه الخصوم من روايات نسجوها حول المتنبى ، فوصفوه فيها بالجهل ، وفيما اختلقوه كذلك من اخطاء ، الصقوها به ، ودسوها في شعره .

فما اختلقوه من الروايات ما حكاه ابن وكيع عن شيخه ابي الحسن المهلبى ، من أن هذا الاخير حضر في مصر مجلسا لاحد الرؤساء ، كان قد ضم المتنبى ، فجرت مسألة في المذكر والمؤنث ، فقال المهلبى : قد يؤنث المذكر اذا نسبته الى مؤنث مثل (كما شرقت صدر القناة من الدم) ، فانكر المتنبى الشاهد ، وايدى جهله به ، ثم تساءل عن قال بهذا القول من النحاة ، فقال المهلبى : انه سيويه . فقال المتنبى : « لا اعرف هذا ، ولعله مذهب البصريين ، ولا أعلم على قولهم . قال (المهلبى) : فقلت هذا كتاب ابن السكيت في المؤنث والمذكر ، قال : ليس ذلك فيه ، فأخرجته من خزالة الرئيس الذي كنا عنده فلما قرأه ، قال : ليس هذا بخط جيد ، أنا اكتب خيرا منه ، فقلت : ما جلسنا للتخاير بالخطوط ، فانقطع » (٥٥) .

(٥٢) الكشف عن مساوىء المتنبى : ٢٢٨ .

(٥٣) الابانة عن سرقات المتنبى : ٦٣ .

(٥٤) الكشف عن مساوىء المتنبى : ٢٤١ .

(٥٥) تاريخ النقد الادبى : ٢٠٦ ، ٢٠٧ . وينظر مصدره .

فاذا فسنا هذه الرواية التي تظهر لنا المتبني قصير الباع في اللغة ، لا يعرف قاعدة مشهورة من قواعد التأنيث والتذكير ، الى روايات كثيرة ، تمتعت المتبني بالعلم باللغة ، والتشلم منها ، وتصوره ، وقد ألم بالنادر وانشارد ، بله المعروف والمتداول ، تين لنا أن هذه الرواية مصنوعة ، لفقها ابن وكيع أو شيخه ، اتقاما من المتبني الذي ورد مصر ، ثم غادرها مخلفا فيها شيعة ومؤيدين ، خلقوا حول ابن وكيع جوا لا يстриح اليه ، ولا يحقق ما يرجوه لنفسه من شهرة ، وذبوع صيت (٥٦) . وان لم تكن هذه الرواية من قبل النقد اللغوي المنفق ، فكيف نوفق بينها وبين رواية أخرى تقول ان ابا علي الفارسي سأل : « كم لنا من الجسوع على وزن (فعلى) ، فقال المتبني في الحال : حجلي وظرى ، قال الشيخ أبو علي : فطالمت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهذين الجسعين ثالثا فلم أجد » (٥٧) . أو رواية أخرى تقول عنه انه « كان من المكثرين من تقل اللغة ، والمطلعين على غريبها وحوشها ، ولا يسأل عن شيء الا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر » (٥٨) .

ومما اختلقوه من اخطاء ، ما رووا من أن صاحب بن عباد عمد الى قول المتبني :

اني على شفطي بما في خرها لأعف عما في سرايياتها

فجعل « سراويالاتها » مكان « سرايياتها » ليتنى له تجريعه ، وعكس المعنى الذي قصد اليه ، فقد اراد المتبني أن يصف نفسه بالعفة ، فمسا بدل صاحب قوله ، استقام له ان يصنفه بالتبذل والسقوط ، فقال « كانت الشعراء تصف المآزر تنزيا لافاظها عما يتشنع ذكره حتى تغطي هذا الشاعر المطبوع الى التصريح ، وكثير من المعبر احسن من هذا العفاف » (٥٩) .

(٥٦) تاريخ النقد الادبي : ٢٩٤ في ٢٩٥ .

(٥٧) وفيات الاعيان : ١٠٢/١ وحجلي جمع حجل وهو الطائر الذي يسمى القبع . والظرى جمع ظربان على مثال قطران وهي دويبة منتنة الرائحة .

(٥٨) نفسه .

(٥٩) الواحدى : ٢٧٨ .

وابو بكر الشعراني خادم المتنبى نسب الى صاحب تغيير هذه اللفظة في شعر المتنبى ، قال الواحدى : « سمعت ابا انضل المروزي يقول : سمعت ابا بكر الشعراني يقول : هذا ما غير عليه صاحب وكان المتنبى قد قال : لأعف عما في سرايياتها ، جمع سربال وهو القيص ، وكذا رواه الخوارزمي » (٦٠) .

ولم ينسب الشعراني الى صاحب تغيير هذه اللفظة فحسب في شعر المتنبى بل نسب اليه تغيير لفظة أخرى . قال المتنبى :

رواق العز فوقك مستظلاً

فرواه صاحب :

رواق العز فوقك مسبطاً

ثم أنكر عليه لفظة « مسبط » . قال الشعراني فيما رواه المروزي عنه : « قدم علينا المتنبى ، وقرأنا عليه شعره ، فأنكر هذه اللفظة ، وقال مستظلاً . قال المروزي وانا غيره صاحب وعابه عليه » (٦١) .

ولكن احسان عباس لم يقطع بان صاحب تعمد تغيير بعض الالفاظ ليتوصل الى عيب المتنبى ، والفض من شعره ، فقد يكون الامر كذلك ، وقد يكون بعض اصدقاء المتنبى والمعجبين به ، قد بذلوا هذه المحاولات ، ورووا تلك الالفاظ بوجهين ، ليخففوا من حدة النقد الموجه اليه (٦٢) .

ولا استبعد ان يكون التحامل على الشاعر ، وشهوة القدح في شعره ، قد دفعا صاحب الى أن يغير في الفاظ المتنبى ، ويدس عليه ما لم يقله .

وبعد ، فلا أقول ان خصوم المتنبى لم يكونوا على حق دائماً فيما وجهوه اليه من النقد ، ولكن الذي أراه هو أن كثيراً من المآخذ التي اخذوها عليه ،

(٦٠) الواحدى : ٢٧٨ .

(٦١) شرح العكبري : ١٢/٣ .

(٦٢) تاريخ النقد الادبي : ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

لم تكن لتبدو لهم على انها مأخذ ، لو نظروا اليها بعين الرضا ، او لو واجهوها بنظر الناقد النصف ، لانها ليست باخطاء ولا هفوات ، وانما هي استفاض وتراكيب استقاها المتبي من لغات نادرة ، لم ير بعض النحاة ان تحاكي ، أو يسج على غرارها ، ولا شك ان القليل غير الخطأ .

ولابد من الاشارة الى ان اضخم حركة نقدية لغوية ، دفعت اليها الخصومة ، نشأت حول شعر المتبي ، ويبدو أن المتبي هو الذي اعطى خصومه السلاح الذي يهاجمونه به ، فقد كثرت في شعره الصيغ والاستعمالات التي لا تسير الكثير المطرد من كلام العرب والتي اختلف حولها النحاة : قبلها الكوفيون ، لانهم يأخذون بالنادر والقليل ، ويقيسون عليه (٦٢) ، ورفضها البصريون ، ووصوا قائلها بالخطأ لانهم لا يقيسون ، الا على ما كثرت شواهد ، واستفاضت امثله (٦٣) ، فاستغل خصوم المتبي هذا الجانب من لغته ، وشدوا اليه منه ، فأخذوا بمذهب البصرين ، وخطأوه فيما ظهر في شعره من أقوال ، تسير مذهب الكوفيين (٦٤) . وجاء الجرجاني ، فلم يخطئ ، ما في شعر المتبي من صيغ واستعمالات إن لا توافق المشهور الذائع من كلام العرب ، فقد رويت ، وثبت نقلها عن العرب . وقد ترددت في كتاب « الوساطة » عبارات تشير الى مذهب الجرجاني في النقد اللغوي مثل قوله « فإن كانت اللفظة مسووعة عن العرب ، فقد زالت الكلفة » (٦٥) ، وقوله : « غير أنه ليس على الشاعر عيب ، في اتباع اللفظة النادرة ، اذا رواها الثقات . ومتى وجدت الرواية عن ثقة ، لم يحظر على الشاعر قبولها ، والعمل بها ، لأجل اختلاف النحويين » (٦٦) .

(٦٢) التواعد النحوية : ٧٥ .

(٦٤) نظرات في اللغة والنحو : ١١ .

(٦٥) الدرس النحوي في بغداد : ١٥٠ .

(٦٦) الوساطة : ٤٦٢ .

(٦٧) نفسه : ٦٣ .

ان الخصومة ، والدوافع الشخصية كانت عاملا من عوامل تنشيط النقد اللغوي ، وأن جملة من هذا النقد كان يمكن ان تختفي ، لو تجرد بعض النقاد من الغرض ، وولت صدورهم من دواعي الحسد والغيظ ، لأن كثيرا من الصيغ والاستعمالات التي عابوها ، اما مختلقة واما صيغ واستعمالات ، قبلها النقاد المنصفون ، ولم يروها مما يعاب ، لأن الثقات من الرواة ، رووها ، أو رووا نظائرها عن العرب .

وإذا كان للنثي ، أنصار فقط ، بقي كثير من معاييبه خفيا ، لا ينبه عليه أحد ، ولكن اذا تصدى له الخصوم ، وضمووا لفته تحت المجهر الدقيق ، الذي لا تستر منه هفوة ، ولا تتوارى عنه زلة . والخصوم أيضا تجابههم حركة مضادة ، تحاول تبين أخطائهم ، وتجنبتهم ، وهذا كله يغذي النقد اللغوي ، وينهيه ، ويبعث الحياة في أوصاله .

الفصل الخامس

الاعجاز

شغل العرب بالقرآن الكريم ، وعنوا بتفسيره وحياته ، وكان أساسا لكثير من علوم العربية . وبعد أن قامت حركة الفتح ، وامتزج العرب بينهم من الأمم ، أخذ الاسلام يتعرض لحسلة طعن وتشكيك ، شنها عليه أصحاب الديانات القديمة ، وكان طبيعيا ان ينال القرآن شيء من تلك الحسلة (١) .

وكان من اقدم ما تردد عن القرآن انه مغاير لكلام العرب ، وغير جاز على ما ألفوه ، واطسأنوا اليه من انساط التعبير . فجرد أبو عبيدة كتابا اسماه « مجاز القرآن » ليغند هذه الدعوى ، ويثبت ان القرآن جاز على اساليب العرب .

روى أبو عبيدة أن الفضل بن الربيع ، استقدمه الى بغداد ، سنة ١٨٨ هـ ، فلقني عنده أحد كتاب الوزير وجلسائه ، وهو ابراهيم بن اساعيل الكاتب ، الذي سأله قائلا : « قال الله عزّ وجل (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) وانا يقع الوعد والايعاد بما عرف مثله ، وهذا لم يعرف » (٢) فقال أبو عبيدة : « انا كلمت الله تعالى العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرئ القيس :

أبتلني والمشرقي مضاجعي ومنونة زرق كانياب اغوان

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يبولهم ، أوعدوا به » (٣) ، ثم قال أبو عبيدة « وعزمت من ذلك اليوم ان اضع كتابا في القرآن

(١) منهج الزمخشري في تفسير القرآن : ٢٠١ .

(٢) معجم الادباء : ١٥٨/١٩ .

(٣) معجم الادباء : ١٥٨/١٩ ، ١٥٩ .

في مثل هذا وأشباهه وما يحتاج اليه من علمه ، فلما رجعت الى البصرة علمت كتابي الذي سيته المجاز « (٤) » .

ولعل كتاب « المجاز » لأبي عبيدة اول كتاب يبحث في أسلوب القرآن ، ويوازن بينه وبين كلام العرب ، ليصل من الموازنة الى أنه نط من ذلك الكلام (٥) .

وهكذا اتجه الطاعنون الى القرآن ، فحاضوا في نطه ومعانيه ، فقام علماء الاسلام من متكلمين ولغويين ومفسرين ينافحون عنه . وكان لا يستطيع التصدي لهذه الهبة الا من « كثر نظره ، واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب وانتانها في الاساليب ، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات » (٦) .

وبعد أن أثبت المدافعون عن القرآن انه عربي ، كان عليهم أن يردوا على سؤال جديد ، هو : اذا كان القرآن عربيا ، جاريا على نط اساليب العرب ، فقيم كان الاعجاز ؟

وتعددت اراء الدارسين في سبب الاعجاز ، فذهب « قوم الى ان العلة في اعجازه الصرفة ، أي صرف الهم عن المعارضة ، وان كانت مقدورا عليها ، غير معجوز عنها » (٧) . و « زعت طائفة ان اعجازه انما هو فيما تضمنه من الاخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان » (٨) . « وزعم آخرون ان اعجازه من جهة البلاغة ، وهم الاكثرون من علماء أهل النظر » (٩) .

غير أن أكثر القائلين بان بلاغته سبب اعجازه ، لم يكونوا يحققون مواطن هذه البلاغة ، وكانها - في نظرهم - أمر يحس ولا يوصف ، أو يدرك ولا

(٤) معجم الادباء : ١٥٩/١٩ .

(٥) منهج الزمخشري في تفسير القرآن : ٢٠٢ .

(٦) تاريخ مشكل القرآن : ١٠ .

(٧) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٢٠ .

(٨) نفسه : ٢١ .

(٩) نفسه .

يعلل فهم يقولون : « انما يعرفه العالمون به عند سماعه ضربا من المعرفة ، لا يمكن تحديده » (١٠) ، ويقولون : « وقد توجد لبعض الكلام عذوبة في السمع ، وهشاشة في النفس ، لا توجد مثلها لغيره منه ، والكلامان معا فيصحان ، ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة » (١١) .

اما المحققون من الدارسين ، فلم يكتفوا بالقول بان البلاغة سبب للاعجاز ، بل ندبوا أنفسهم لبيان تلك الاسرار البلاغية ، التي علت بالاسلوب القرآني ، واكسبت سيات النوق والامتيان . وبدراسات هذا الفريق من كتاب الاعجاز ، لنا النقد اللغوي ، وغني بنظرات نقدية صائبة ، ظلت مرجعا لكل ناقد ، ومصدرا لكل باحث في خفايا التعبير العربي .

ولا أريد هنا ان اعرض لأثر « فكرة الاعجاز » في النقد الادبي ، أو البلاغة ، فليس هذا من وكدي ، ولا من هدف البحث ، وأنا أريد ان أوضح ما أثارته هذه الفكرة من نقد لغوي ، تناول اللفظة ، واقتصر على العبارة ، ووقف عندها ، يستبطن منها مقاييس للجودة أو الرداءة .

ويستطيع الباحث ان يقول باطمئنان : ان القرآن الكريم كان أهم النصوص التي استقيت منها مقاييس الجمال في العبارة الادبية ، وان جلي ما نراه من قوانين تتعلق بجودة الكلام أو قبحه ، انما انبتت على عبارة القرآن ، واستتبقت منها ، فما أمثال النقاد الوقوف على نص كما أمالوه على القرآن وما قلبوا النظر في كلام ، كما قلبوه في آيه وسوره ، وكان من الر ذلك ان اهتدوا الى دقائق واسرار جمالية كثيرة ، لولا « فكرة الاعجاز » لظلت محجوبة مطوية .

واذا علمنا ان النقد اللغوي هو البحث عن الحسن والاحسن في التعبير ، أدركنا ان اكثر النقد الذي دار حول القرآن ، ان هو الا نقد لغوي ، اتخذ الآية القرآنية ميدانا له ، فمضى ينتقب فيها عما استكن وراءها من دلائل الجمال ، ووجوه الروعة .

(١٠) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٢٢ .

(١١) نفسه .

ولكي نرسم المجال الذي تحرك فيه كتاب الاعجاز ، ونحدد السبل التي طرقتها ، وهم بصدد اثبات الاعجاز للقرآن ، نورد قول الخطابي الذي جاء في رسالته الموسومة بـ « البيان في اعجاز القرآن » ، قال : « وانما يقوم الكلام بهذه الاشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما نافهم . واذا تأملت القرآن وجدت هذه الامور منه في غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئا من الالفاظ أنصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظما أحسن تأليفا ، وأشد تلاؤما وتساكلا من نظمه ، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل انها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها ، والترقي الى أعلى درجات الفضل من نعمتها ومنفاتها . وقد توجد هذه الفضائل على التفرق في أنواع الكلام ، فاما ان توجد مجموعة في نوع واحد منه ، فلم توجد الا في كلام العليم التدير » (١٢) .

ويعني كلام الخطابي أن فكرة « الاعجاز » قادت الى درس النفاذ القرآن ، وتأمل خصائصها ، كما أدت الى درس « النظم » أو الاسلوب لمعرفة أسرارها ، والوقوف على أخص ميزات ، ثم مقارنة لفظ القرآن واسلوبه بغيره من روائع الشعر والنثر ، لاثبات أن القرآن يعلو على ما يوازن به من كلام . وهذا يعني أن « الاعجاز » أثار حركة نقدية لغوية واسعة ، شملت القرآن وكلام العرب ، وتسخضت عن قوانين وأحكام نقدية كثيرة ، منها ما يخص اللفظ ، ومنها ما يتصل بالعبارة ، أو التركيب ، ثم صارت تلك الاحكام والقوانين ، مبادئ ، يؤخذ بها عند الحكم على النصوص ، وتقديم بعضها على بعض . لقد أصبحت القضايا التي أثارها كتاب « الاعجاز » والقوانين التي اتبها اليها بشأن تلك القضايا ، دليلا يهتدي به النقاد ، فقد نقلوها من مجال القرآن الى مجال النصوص ، وشاروا يشدون في النصوص ما اكتشفه أهل الاعجاز في القرآن بمعنى أن الفاظ القرآن كانت السبل الذي يجب أن يحتذيه المشي ، كما ان تراكيبه ، وما امتازت به ، كانت المثال الذي يحاسب

(١٢) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٢٤ .

الادباء على الاقتداء به ، وتقليده . وسنعرض هنا لطائفة من قضايا اللفظ ، والتركيب ، نشأ بعضها بسبب فكرة « الاعجاز » ، وبرز بعضها الآخر بشكل واسع على ايدي كتابه ، ثم صارت تلك القضايا من صميم النقد اللغوي ، لا يفتلها أي ناقد ، ينشد معرفة اسرار البيان ، ودقائق التعبير . فأما قضايا اللفظ فهي :

١ - الغرابة والسهولة :

ان النقاد الذين سبقوا أهل الاعجاز ، خاضوا في هذا الموضوع ، وانقسموا حوله ، فمنهم من نشد الغريب ، وقدم الشعر المشتمل عليه ، ومنهم من آثر السهولة ، ورضى الكلام العذب الأليف ، الا أن الحكم الذي أصدره كتاب الاعجاز ، كان معززا الفريق الثاني من النقاد ، وظل الحكم للأخوذ به في العصور جيما . لقد نظر أهل الاعجاز ، فوجدوا ان الفاظ القرآن جمعت الفخامة الى العذوبة والسهولة ، فقرروا أن هذه هي الصفة الفنية التي يجب أن تتصف بها الالفاظ ، ثم ردوا على الذين زعموا ان اللفظ السهل ، لا فضل فيه ، ولا مزية له ، لأنه ما الفته العرب ، واستعملته في مخاطباتها ومحاوراتها . ذهب أهل الاعجاز الى ان الغرابة ليست من سات البلاغة ، وان الغريب الوحشي يكثر في كلام الاوحاش من الناس ، والأجلاف من جفاة العرب ، وقد صدف القرآن عن هذا اللون من الالفاظ ، فتحققت له البلاغة (١٣) .

٢ - موسيقى اللفظ والتركيب :

وخاض بعض كتاب الاعجاز في هذا الموضوع ، وتوسعوا فيه ، وفتحوا الباب بمدهم لمن أراد ان يدرس اللفظة من هذا الجانب ، ويحكم لها او عليها في ضوء تأليفها ، وطبيعة الاصوات التي تتركب منها ، وما بين تلك الاصوات من تلاؤم وانسجام ، أو تنافر وتناكر .

(١٣) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٣٣ ، ٣٤ .

لقد فطن الرماني مثلا ، وهو أحد كتاب الاعجاز ، الى أن من خصائص اللفظة القرآنية ، تلاؤم حروفها ، وانسجام الاصوات المؤلفة لها ، فتكلم على ذلك ، وتوسع في ضرب الامثلة ، كما تكلم على ما بين الفاظ الآية من تلاؤم ، يجعلها سهلة النطق ، خفيفة الجري على اللسان . فحين وازن الرماني بين قوله تعالى (ولكم في القصص حياة) وقول العرب (القتل أشفى للقتل) انتهى الى ان الآية ابلغ من المثل العربي ، وقرر أن أحد الاسباب التي أوجبت للآية هذا الحكم ، هو انسجام الفاظها مجتمعة ، وائتلافها وعدم تناقرها ، قال : « واما الحسن بتأليف الحروف المتلاثمة ، فهو مدرك بالحس ، وموجود في اللفظ ، فان الخروج من الفاء الى اللام أعدل من الخروج من اللام الى الهزة بعد الهزة من اللام ، وكذلك الخروج من الصاد الى الحاء أعدل من الخروج من الالف الى اللام » (١٤) . وظل مقياس التلاؤم بين الفاظ التركيب مأخوذاً به ، في التمييز بين التراكيب .

٣ - الفروق بين المترادفات :

لقد وجد علماء العربية أن هناك عددا من الالفاظ ، يحسبها الناس مترادفة ، وهي بخلاف ذلك ، متفاوتة في الدلالة ، متباينة في المراد ، لا يعني بعضها عن بعض في التعبير الدقيق السليم . ومن هذه الالفاظ : العلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، والبخل والشح ، والنعمة والصفة ، واقعد واجلس ، وذلك وذاك ، ونحوها من الاسماء والافعال والحروف . قال الخطابي : « والحمد والشكر ، قد يشتركان أيضا ، الحمد لله على نعمه ، أي الشكر لله عليها ، ثم قد يميز الشكر عن الحمد في اشياء ، فيكون الحمد ابتداء بمعنى الثناء ، ولا يكون الشكر الا على الجزاء ، تقول : حمدت هذا اذا اثنت عليه في اخلاقه ومذاهبه ، وان لم يكن سبق اليك منه معروف ، وشكرت زيدا اذا اردت جزاءه على معروف ابتداء اليك ، ثم قد يكون الشكر قولاً كالحمد ، ويكون فعلاً كقوله جلّ وعزّ : « اعملوا آل داود شكراً » .

(١٤) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٧٢ .

وإذا أردت أن تبين حقيقة الفرق بينهما ، اعتبرت كل واحد منهما بفسده ،
 وذلك أن ضد الحمد الذم ، وضد الشكر الكفران ، وقد يكون الحمد على
 المحبوب والمكروه ، ولا يكون الكفر الا على المحبوب « (١٥) . وقال :
 « واما النعت والصفة ، فان الصفة أعم والنعت أخص ، وذلك أنك تقول :
 زيد عاقل وحليم ، وعمرو جاهل وسفيه ، وكذلك تقول : زيد أسود ودميم ،
 وعمرو ابيض وجليل ، فيكون ذلك صفة ونعتا لهما ، واما النعت فلا يكاد
 يطلق الا فيسا لا يزول ولا يتبدل كالطول والقصر والسواد والبياض ونحوهما
 من الأمور اللازمة » (١٦) .

ووجد كتاب الاعجاز أن القرآن أولى الفروق بين المترادفات عناية
 خاصة ، فاذا عرض معنى يشترك في التعبير عنه لفظان ، اختار التنزيل العزيز
 أدق اللفظين دلالة على ذلك المعنى . لقد اتخذ كتاب الاعجاز من هذه الظاهرة
 الاسلوبية احد الأدلة التي استندوا اليها في اثبات الاعجاز للقرآن . وهذا
 يعني أن فكرة « الاعجاز » قد أدت الى الخوض في هذا الموضوع النقدي ،
 وأن العلماء الذين ندبوا انفسهم لاثبات الاعجاز قد افادوا من هذه الحقيقة ،
 واعتدوا عليها في دعم رأيهم ، وضاعفت اهتمامهم بهذا الجانب من جوانب
 النقد اللغوي ، تلك الحملة التي شنها بعضهم على اللفظ القرآني ، والتي
 وصفته بعدم الدقة في بعض المواضع . قال الخطابي : « فان قيل : انما
 لا نلتم لكم ما ادعيتوه من ان العبارات الواقعة في القرآن ، انما وقعت
 في أفصح وجوه البيان وأحسنها ، لوجودنا اشياء منها بخلاف هذا الوصف
 عند اصحاب اللغة ، واهل المعرفة بها ، كقوله (فأكله الذئب) وانما يستعمل
 مثل هذا في فعل السباع خصوصا الاقتراس ، يقال : اقتترسه السبع . هذا
 هو المختار النصيح في معناها ، فاما الأكل فهو عام لا يختص به نوع من
 الحيوان دون نوع » (١٧) ثم قايل : « الجواب : ان القول في وجود الفاظ

(١٥) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٢٧ .

(١٦) نفسه : ٢٨ .

(١٧) نفسه : ٢٤ .

القرآن وبلاغتها على النعت الذي وصفناه صحيح لا ينكره الا جاهل أو معاند، وليس الامر في معاني هذه الآية على ما تأولوه ، ولا المراد في أكثرها على ما ظنوه وتوهموه : فأما قوله تعالى : (فأكله الذئب) فان الافتراض معناه في فعل السبع القتل حب ، وأصل الفرس دق العنق ، والقوم انما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلا ، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه ، فلم يترك مفصلا ولا عظما ، وذلك أنهم خافوا مطالبة أيهم اياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه ، فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة ، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى ، فلم يصلح على هذا ان يعبر عنه الا بالأكل . على أن لفظ الأكل شائع الاستعمال في الذئب وغيره من السباع . وحكى ابن السكيت في النافذ العرب قولهم : أكل الذئب الشاة فما ترك فيها تامورا . وقال بعض شعرائهم :

أبا خراشة أما أنت ذا تفسر فان قومي لم تأكلهم الضبع « (١٨)

ولم تبق مسألة الدقة ، ومراعاة ما بين المترادفات من فروق ، مسألة تتردد في كتب الإعجاز فقط ، بل سرعان ما انتقلت الى كتب النقد ، وصارت من المقاييس المهمة التي يحتكم اليها النقاد في المناضلة بين لفظ ولفظ ، وصرنا نجد النقاد يوصون الخاصة ، ورجال الادب بالتفريق بين الالفاظ المترادفة ، وربما كان الجاحظ من اوائل النقاد الذين اوصوا بذلك ، حين قال : « وقد يستخف الناس النافذا ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها . الا ترى ان الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع الا في موضع العقاب ، او في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر . والناس لا يذكرون السب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة . وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به الا في موضع الانتقام . والعامية وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث » (١٩) .

(١٨) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٢٧ ، ٢٨ ، التامور : الوعاء والنفس وحياتها والقلب وحبته وحياته ودمه .

(١٩) البيان والتبيين : ٢٠/١ .

لقد كانت قضايا اللفظ السابقة من الموضوعات التي عالجها كتاب الاعجاز ، وتوصلوا بشأنها الى مقاييس مهمة ، أفاد منها النقاد اللغويون ، وساروا على هديها في تقويم الالفاظ ، والمفاضلة بينها ، ومن هنا كان لنا أن نقول : ان فكرة الاعجاز كانت عاملا مؤثرا في حركة النقد اللغوي ، فقد أغنتها بما أثارته من قضايا ، سرعان ما انتقلت الى بيأة النقاد ، وصارت من القضايا التي يماجدونها عند درس النصوص ، والتمييز بين الالفاظ والاساليب . ولم يقتصر جهد أهل الاعجاز على دراسة اللفظ القرآني ، بل تعدى ذلك الى دراسة نظم القرآن ، واسلوبه ، وكانت لبعضهم في هذا الشأن آراء مبتكرة ، أغنت النقد عامة والنقد اللغوي خاصة .

لقد وضع كتاب الاعجاز نظرية عرفت بنظرية « النظم » ، وهي في نظر المؤرخين من أنضج ما عرف النقد العربي من نظريات . وما كان لهذه النظرية أن تظهر ، لولا ما سيطر على النقاد والبلاغيين من رغبة في تلمس أسباب الاعجاز ، والاهتداء لسه . لقد كان « الاعجاز » سرا هائلا ، استفز عقول علمائنا وتقدتنا ، وحركها ، فتفتقت عن كثير من الآراء النقدية السديدة ، وكانت نظرية « النظم » احد تلك الآراء . ولمكان نظرية « النظم » من النقد اللغوي ، سنقف عندها ، ونجلو طبيعتها .

لقد برزت فكرة « النظم » مبكرة عند الجاحظ ، ثم تلقى منها المعترلة والاشاعرة ، فعملوا بها اعجاز القرآن ، وردوا اليها ما في اسلوبه من بلاغة تباين اليهود من بلاغة القوم ، وتسو عليها (٢٠) .

وعلى الرغم من أن فكرة « النظم » قديمة ، وان التائلين بها كثيرون ، الا ان أحدا منهم - قبل عبدالقاهر - لم يستطع أن يكشف ما في « نظم » القرآن من دقائق ولطائف ، وانما اكتفوا بوصف ذلك النظم بأنه عجيب ، ومباين لاساليب العرب ، فظلت فكرة « النظم » في كتبهم نظرية لم يجنوها التطبيق .

وصحيح أن الجاحظ ألف في هذه الفكرة كتابا ، إلا أنه لم يصل إلينا ،
فلا نستطيع لذلك أن تبين الجهود الذي بذلها لبيان خصائص « النظم » في
اسلوب القرآن . وجاء عبدالقاهر الجرجاني ، فاستطاع ان يتناول فكرة
« النظم » ويوسمها ، ويفصل القول فيها ، ويشفع النظر بالتطبيق ، فكان
بحق صاحب هذه النظرية المهمة في تاريخ النقد اللغوي عند العرب .

وقبل أن اعرض لنظرية « النظم » عند الجرجاني ، لا بد من الإشارة الى
مشكلة « اللفظ والمعنى » لأنها الأصل الذي تفرّعت عنه فكرة « النظم » .
ولا شك في أن فكرة « الاعجاز » هي التي أثارَت قضية « اللفظ والمعنى »
في النقد اللغوي ، فقد بدأ الباحثون في الاعجاز يتساءلون عن القرآن : أهو
معجز في لفظه أم معجز في معناه ، ثم جاء النقاد فنقلوا هذا التساؤل الى النص
الأدبي ، وصاروا يبحثون عن سبب الجمال فيه : أهو في لفظه ؟ أم هو في
معناه ؟ (٢١) .

لقد كثر الجدل حول هذه المشكلة ، واحتدم الخلاف بسببها بين
النقاد ، فتحيز أكثرهم للفظ وجحدوا المعنى ، فلم يروا له فضلا في تقديم
نص على آخر . وكان الجاحظ أول من تعصب للفظ ، وجعل التائق فيه الغاية
التي يهدف إليها الأديب ، والمجال الذي يتشوق فيه على غيره ، فقال : « والمعاني
مطروحة في الطريق يعرفها المعجبى والعربي ، والبدوي والقروي المدني ، وإنما
الشان في اقامة الوزن ، وتخيّر اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي
صحة الطبع : وجودة السبك » (٢٢) . غير أن الجاحظ لم يقصد باللفظ
الكلمات المفردة ، وإنما عنى « الصورة » التي تنجم من تآلف الالفاظ
وتجاورها في تركيب أنيق . ولذا قال : « فأنما الشعر صناعة وضرب من
النسج وجنس من التصوير » (٢٣) ، وهذا هو النظم الذي جملة سر اعجاز
القرآن .

(٢١) مشكلة السراقات الادبية : ١٩٥ .

(٢٢) الحيوان : ١٣١/٣ ، ١٣٢ .

(٢٣) نفسه : ١٣٢/٣ .

واما ابن قتيبة فقد كان يرى ان المعنى الواحد يمكن ان يعبر عنه بالفاظ مختلفة ، يخلو بعضها ، ويقصر بعض ، فقال : « تدبرت الشعر فوجدته اربعة .
أضرب : ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه . . . وضرب منه حسن لفظه .
وحلا ، فاذا انت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى . . . وضرب منه جاد .
معناه وقصرت القافله عنه . . . وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه » (٢٤) .

وكان ابو هلال قد اضطرب ، فتابع الجاحظ حيناً ، وقال بقوله ، ورفع شأن المعنى حيناً آخر ، وأعلى قيمته ، فهو القائل : « ومن الدليل على ان مدار البلاغة على تحسين اللفظ ان الخطب الرائعة ، والاشعار الرائقة ، ما عملت لافهام المعاني فقط ، لان الرديء من الالفاظ يقوم مقام الجيد منها .
في الافهام . . . ولهذا تأق الكاتب في الرسالة والخطيب في الخطبة ، والشاعر في القصيدة ، يبالغون في تجويدها ، ويفلون في ترتيبها ، ليدلوا على براعتهم ، وحذقهم بصناعتهم ، ولو كان الأمر في المعاني لطرخوا أكثر ذلك ، فربحوا كذا كثيرا ، واستطوا عن انفسهم تعبا طويلا » (٢٥) . ثم عاد المسكري بعد ذلك لينصف المعنى ، بعد ان تنكّر له ، وغض من شأنه ، فقال : « ان الكلام الفاظ تشتمل على معان تدل عليها ، وتعبّر عنها ، فيحتاج صاحب البلاغة الى اصابة المعنى كحاجته الى تحسين اللفظ ، لأن المدار بعد على اصابة المعنى ، ولان المعاني تحل من الكلام محل الابدان ، والالفاظ تجري معها مجرى الكسوة ، ومرتبة احدهما على الاخرى معروفة » (٢٦) . وقال في موضع آخر : « ولا خير فيما أجيد لفظه اذا سخف معناه » (٢٧) .

وبعد أن عرض ابن رشيق آراء النقاد في اللفظ والمعنى ، عاد ليوسّي بينهما ، ويقرر انهما مرتبطان ارتباط الروح بالجسم ، فاذا اختلف احدهما لحق الآخر نقص ، وعراه تصور ، قال : « اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه

(٢٤) الشعر والشعراء : ٦٤/١ وما بعدها .

(٢٥) الصائمتين : ٥٨ ، ٥٩ .

(٢٦) نفسه : ٦٩ .

(٢٧) نفسه : ٦٠ .

به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فاذا سلم
المعنى واختل بعض اللفظ ، كان نقصا للشعر ، وهجنة عليه ، كما يعرض
لبعض الاجسام من العرج والشلل والعمور وما أشبه ذلك ، من غير أن تذهب
الروح ، وكذلك ان ضعف المعنى واختل بعضه ، كان للفظ من ذلك أوفر
حظ ، كالذي يعرض للاجسام من المرض بمرض الارواح » (٢٨) .

وكان ابن شرف قد تعصب للمعنى ، ولم يأبه بشأن اللفظ ، وكان يرى
الاعية عمرة بالمبنى ما لم يكن فيه ساكن جميل ، فهو القائل « وان من الشعر
ما يبلا لفظه الماسع ، ويرد على السامع منه قعاقع ، فلا ترعك شياخة مبناه ،
وانظر الى ما في سكناه من معناه ، فان كان في البيت ساكن فتلك المعاسن ،
وان كان خاليا فاعدهه جسا باليا ، وكذلك اذا سمعت الفاظا مستعملة وكلمات
مبتذلة ، فلا تعجل باستضافتها ، حتى ترى ما في اضعافها ، فكم من معنى
عجيب ، في لفظ غريب ، والمعاني هي الارواح ، والالفاظ هي الانباج ،
فان حسنا فذلك الحظ المدوح ، وان قبح احدهما فلا يكن الروح » (٢٩) .

ويبدو ان ابن الاثير كان من انصار تقديم المعنى على اللفظ ، وكان
يرى ان العرب لم تهتم بالفاظها ، الا لتقديرهم للمعاني ، ومحاولتهم ابرازها
في احسن صورة (٣٠) . وكان ابن جنى قد سبق ابن الاثير الى هذا الرأي
حين قال : « فاذا رأيت العرب قد اصلحوا الفاظها ، وحسنوها ، وحسوا
حواشيها وهذبوها ، وصقلوا غروبها وأرهفوها ، فلا ترين ان العناية اذ ذاك
انما هي بالالفاظ ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني ، وتوويه بها ، وتشريف
منها ، وظلير ذلك اصلاح الوعاء وتحسينه ، وتزكيته وتقديسه ، وانما المبني
بذلك منه الاحتياط للسوعي عليه » (٣١) .

(٢٨) العمدة : ١٢٤/١ .

(٢٩) اعلام الكلام : ٢٧ ، ٢٨ .

(٣٠) المثل السائر : ١/٣٥٢ .

(٣١) الخصائص : ١/٢١٧ .

وتتيجة لشغف ابن الاثير بالمعاني ، نراه يعرّبل الشعر بحثا عما فيه من المعاني المتبدعة ، ثم يؤلف كتابين في المعاني ، الاول بعنوان « المعاني المتبدعة » والثاني باسم « عمود المعاني » (٢٢) . وكان من أثر اهتمامه بالمعاني ان سقط الجاهليون في نظره لصداجة معانيهم ، وقرب غورها (٢٣) ، وقال بتقديم ابي تمام والمتنبي ، وراها اعظم شعراء العربية ، بسبب ما في شعرها من المعاني (٢٤) .

ولولح ابن الاثير بالمعاني ، نثر من الألاعيب اللفظية التي أغرم بها الشعراء المتأخرون وعدها لاحقة بالشيبة او الهذيان ، كما لم يعجب بها في بعض رسائل الحريري من محاولات لفظية كإيراد لفظة معجبة واخرى غير معجبة على نظام مستمر ، وبشكل متوال (٢٥) .

ولكن اين الاثير لم يتنكر للفظ الرائق ، والشكل الانيق ، ولم يكن ليستطيع ان يكتفم اعجابه بما يمر به من ذلك في النصوص ، بل كان يعبر عن اعجابه بعبارة تنتشف منها عدم اهداره جانب الشكل ، على نحو ما فعل ابن شرف مثلا .

ونعود الى عبدالقاهر لثرى أنه افاد ما قاله سابقوه ، وأعمل فيه فكره ، فاتمى الى رأي ، ظهرت فيه اصالته ، واستحق به ان يكون قبة شامخة في تاريخنا النقدي .

لم يقر الجرجاني من رجحوا المعنى ، وأغفلوا شأن الصياغة ، ولم يرض عن فضل الكلام لشرف معناه ، ولو كانت صياغته ركيكة ، واهية النسيج ، فهو يقول : « واعلم أن الداء الدوي ، والذي أعى أمره في هذا الباب ، غلط من قدم الشعر بمعناه ، واقل الاحتفال باللفظ ، وجمل لا يعطيه من

(٢٢) الاستدراك : ٦٠ ، ١١ .

(٢٣) تاريخ النقد الادبي : ٥٩٦ .

(٢٤) نفسه .

(٢٥) المثل السائر : ٢٥٣/٢ ، ٢٥٤ .

المزية ، ان هو أعطى ، الا ما فضل عن المعنى ، يقول : ما في اللفظ لولا المعنى ؟ وهل الكلام الا بمعناه ؟ فانت تراه لا يقدم شعرا حتى يكون قد اودع حكمة . وأدبا « (٣٦) . ثم يقول : « لا نرى متقدما في علم البلاغة ، ميرزا في شاوها ، الا وهو ينكر هذا الرأي - يعني رأي القائلين بتقديم الكلام بمعناه - ويعيبه . ويژرى على القائل به ويفض منه « (٣٧) . ويدلل على صحة رأيه فيقول : « ان سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة ، وان سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه ، كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار . فكما ان محالا اذا انت اردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل ورداءته أن تنظر الى الفضة الحاملة لتلك الصورة ، أو الذهب الذي وقع فيه العمل ، وتلك الصنعة ، كذلك محال اذا اردت ان تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه . وكما انا لو فضلنا خاتما على خاتم بأن تكون فضة هذا اجود او فسه أفس لم يكن ذلك تفضيلا له من حيث هو خاتم ، كذلك ينبغي اذا فضلنا بيتا على بيت من أجل معناه الا يكون تفضيلا له من حيث هو شعر وكلام » (٣٨) .

وكان الجرجاني يرمي من وراء احتفاله باللفظ والصياغة الى اثبات اعجاز القرآن ، فهو يقول : « واعلم أنهم لم يبلغوا في انكار هذا المذهب ما بلغوه الا لان الخطأ فيه عظيم ، وأنه يفضي بصاحبه الى ان ينكر الاعجاز ، ويبطل التحدي ، من حيث لا يشعر ، وذلك أنه ان كان العمل على ما يذهبون اليه من أن لا يجب فضل ومزية الا من جانب المعنى ، وحتى يكون قد قال حكمة أو أدبا او استخراج معنى غريبا او تشبيها نادرا ، فقد وجب اطراح جميع ما قاله الناس في الفصاحة والبلاغة وفي شأن النظم والتأليف وبطل ان يجب بالنظم فضل ، وان تدخله المزية ، وان تتفاوت فيه المنازل . واذا بطل ذلك فقد بطل ان يكون في الكلام معجز ، وصار الامر الى ما يقوله اليهود ومن

(٣٦) دلائل الامجاز : ١٩٤ .

(٣٧) نفسه : ١٩٥ .

(٣٨) نفسه : ١٩٦ ، ١٩٧ .

قال بمثل مقالهم في هذا الباب ، ودخل في مثل تلك الجهالات ، ونموذ بالله من العسى بعد الابصار » (٣٩) .

ولكن عبدالقاهر لم يكن يتشيع للالفاظ من حيث هي الفاظ مفردة ، اذ ان ذلك يفضي الى المساس بقضية الاعجاز أيضا ، فما الفاظ الا الفاظ عرفها ، العرب وعبروا بها عن مقاصدهم ، ولا يمكن ان يكون بها تحد لهم (٤٠) .

ثم ان الالفاظ المفردة لا يقع بينها تفاضل من حيث هي الفاظ منردة ، وانما تفاضل بعد ان تتألف في عبارة ، وتتأخى في تركيب . واما قبل ذلك ، فلا تفاضل الا ان يقال : « هذه مالوفة متعملة ، وتلك غريبة وحشية ، أو ان تكون حروف هذه أخف ، وامتزاجها أحسن » (٤١) . فلا مزية للكلمة من حيث هي صوت مسوع ، وحروف تتوالى في النطق ، وانما الذي يقرر حسنها ، والذي يحكم عليها بالجودة أو الرداءة ، هو السياق الذي وردت فيه ، لانه المجال الوحيد الذي يمكن للنظة ان تتحرك فيه وتعمل . وطبيعي ان الكلمة لا تكتسب القيمة الا وهي تتحرك وتعمل ، وتؤدي وظيفة ما .

لقد أدرك عبدالقاهر ان الكلمة ، بوصفها أداة فن ، لا توجد منفردة في الادب ، وانما توجد الى جانب غيرها ، « والارتباط بينها وبين ما سبق وما لحق هو الحال الطبيعية لها كأداة فنية » (٤٢) . كما وقع عبدالقاهر « على الحقيقة الاساسية عندما رد اعجاز القرآن وبالتالي سرّ الابداع في الفن الكلامي الى النظم أو السياق » فهو يرى ان « السر في البلاغة ليس في اللفظ من حيث هو لفظ ، ولكن السر في البلاغة هو في هذه الارتباطات التي يوجدتها الشاعر بين اللفظ وما قبله وما بعده » (٤٣) .

(٣٩) دلائل الامجاز : ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٤٠) نفسه : ٣٢ ، ٣٣ .

(٤١) نفسه : ٣٦ .

(٤٢) النقد الادبي : ٦٥ .

(٤٣) نفسه : ٦٥ ، ٦٦ .

ولم يقف عبدالقاهر ، وهو بصدد مناقشة مزية اللفظ ، عند حدود الجدل النظري ، بل تجاوز ذلك الى المجال التطبيقي ، فوضع أمانا الشاهد بعد الشاهد ، من الشعر والنثر او القرآن الكريم ، لكي يثبت لنا ، من خلال تحليله الشواهد ، الحقيقة التي يتبناها ، ويروم اقناعنا بها . ففي مجال تقريره لقيمة اللفظ من خلال السياق يقول : « ان الالفاظ تثبت لها التفضيلة وخلافها ، في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها ، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ . وما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروك وتؤنسك في موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر ، كللفظ (الأخدع) في بيت الحماة :

تلقت نحو الحي حتى وجدتي وجدت من الاسماء ليتا وأخدعا
وبيت البحري :

واني وان بلغتني شرف الغنى وأعتقت من رقي المطامع أخدعي
فان لها في هذين المكائين ما لا يخفى من الحسن ثم أنك تأملها في
بيت ابي تمام :

يا دهر قوم من أخدعك فقد اضججت هذا الانام من خرقك
فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أنصاف
ما وجدت هناك من الروح والخفة والايانس والبهجة » (٤٤) .

لقد غني الجرجاني بالجملة ، أو التركيب ، ولم يكن للفظ المفردة أي شأن عنده ، ولذا قيل عنه انه كان ينظر الى اللغة على انها مجموعة من العلاقات ، وليست مجموعة من الالفاظ (٤٥) . ان المهم في اللغة « ليس الالفاظ ، بل مجموعة الروابط التي تقيسها بين الأشياء بفضل الادوات اللغوية ،

(٤٤) دلائل الاعجاز : ٢٨ ، ٢٩ .

(٤٥) النقد المنهجي عند العرب : ٣٢٧ .

وتلك الروابط هي المعاني المختلفة التي نعبّر عنها « (٤٦) . ومعنى ذلك أن الالفاظ لم توضع لتعيين الاشياء ، « وانما وضعت لتستعمل في الاخبار عن تلك الاشياء بصفة او حدث أو علاقة ، فنحن لا نقول « زيد » الا اذا اردنا ان نخبر عنه بشيء » (٤٧) . يقول عبدالقاهر : « اذا نظرنا في ذلك علمنا ان لا محصول لها غير ان تمتد الى اسم فتجعله فاعلا لفعل او مفعولا ، أو تمتد الى اسين فتجعل احدهما خبرا عن الاخر ، او تتبع الاسم اسما على أن يكون الثاني صفة للاول أو تأكيدا له أو بدلا منه ، او تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفة او حالا او تمييزا ، أو تسوخى في كلام هو لاثبات معنى أن يصير نفا او استنهما او تنيا ، فتدخل عليه الحروف الموضوعه لذلك . أو تريد في فعلين ان تجعل أحدهما شرطا في الاخر فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى ، أو بعد اسم من الاسماء التي ضمنت معنى ذلك الحرف . وعلى هذا القياس » (٤٨) . يتضح لنا من ذلك أن لا قيمة للكلمة ، الا اذا توخينا الاعراب بها عن معنى ، أو الابانة عن غرض ، ولن يتم لنا ذلك الا اذا ضمننا الى الكلمة غيرها ، وقرناها بسواها . وعندئذ تتحول الكلمة من رمز بارد ، الى خلية حية تلتحم مع غيرها من الخلايا في نسيج عضوي . أو قل تتحول من اصطلاح جامد الى شحنة من المتاعر والافكار ، تتأثر وتؤثر .

ولم يكن الجرجاني ليذهب هذا المذهب ، وينظر للالفاظ هذه النظرة الا لانه كان يصدد اثبات الاعجاز للقرآن ، ومعرفة الاسرار التي اكبت البيان القرآني ما بهر العرب ، وعقد ألسنتهم عن مجاراته . لقد ادرك عبدالقاهر ان الاعجاز لا يثبت للقرآن عن طريق الالفاظ التي استعملها ، لانها مما استعملته العرب ، وأدارته في شعرها ونثرها ، ولا يثبت عن طريق المعاني ، لان الاعتماد عليها في المفاضلة بين كلام وكلام ، يبطل ما للتأليف والنظم من

(٤٦) النقد المنهجي عند العرب : ٣٢٨ .

(٤٧) نفسه .

(٤٨) دلائل الاعجاز : ٤٤ ، ٥٠ .

الفضل والمزية ، ويفضي الى القول بأن ليس في الكلام معجز ، وهو ما قالت به اليهود . لم يبق امام عبدالقاهر ، وهو يتلس السبل التي تفقه على سرّ الاعجاز ، غير النظم . ولهذا كان لنا ان نقول : ان نظرية « النظم » ثمرة من ثمار الاشتغال بالاعجاز والبحث عن اسراره ، والسبل التي تثبتته ، وتقع من كان في ريب من أمره ، من اصحاب اللجاجة والعداء ، وتبصر المؤمنين بحقيقته ، فيزدادون ايماناً ، وكانت فتحة في عالم النقد اللغوي .

واذا كان الجرجاني قد أكبر من شأن « النظم » فانه رأى أن « النحو » هو الذي يكفل سلامته ، ويضمن للاديب استخدام اللغة على نحو يجعله يستغل كل طاقتها ، فتصبح الكلمات ، بعد رعاية قوانين النحو ، وقد ارتبط بعضها ببعض ، كسبيج ملوئ بالدلالات والايحاءات ، التي لم تكن المفردات ، وهي خارج السياق ، لتتلق بها ، أو تفصح عنها .

يقول عبدالقاهر : « واعلم أن ليس النظم الا ان تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه واصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيف عنها ، وتحفظ الرسوم التي رست لك فلا تغل بشيء منها وذلك أنا لا نعلم شيئاً يتغيه النظم بنظمه ، غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه ، فينظر في الخبر الى الوجوه التي تراها في قولك : زيد منطلق ، وزيد ينطلق ، وينطلق زيد ، ومنطلق زيد ، وزيد المنطلق ، والمنطلق زيد ، وزيد هو المنطلق وزيد هو منطلق ، وفي الشرط والجزاء الى الوجوه التي تراها في قولك : ان تخرج اخرج ، وان خرجت خرجت ، وان تخرج فانا خارج ، وأنا خارج ان خرجت ، وأنا ان خرجت خارج ويتصرف في التعريف والتكثير ، والتقديم والتأخير ، في الكلام كله ، وفي الحذف والتكرار ، والاضمار والاظهار ، فيضع كلاماً من ذلك مكانه ، ويستعمله على الصحة ، وعلى ما ينبغي له . هذا هو السبيل ، فليست بواجب شيئاً يرجع صوابه ان كان صواباً ، وخطؤه ان كان خطأ ، الى النظم ، ويدخل تحت هذا الاسم ، الا وهو معنى من معاني النحو ، قد أصيب به موضعه ، ووضع

في حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة ، فازيل عن موضعه ، واستعمل في غير ما ينبغي له . فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساد ، أو وصف بيزية وفضل فيه ، الا وانت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد ، وتلك المزية وذلك الفضل ، الى معاني النحو وأحكامه ، ووجدته يدخل في أصل من اصوله ، ويتصل بباب من أبوابه « (٤٩) .

فليس النحو عند عبدالقاهر ، هو العلم الذي يبحث في ضبط أواخر الكلمات ، ولا هو جملة القواعد الجافة ، ولا هو الشيء الذي لا علاقة له بالنن او البلاغة ، وانما النحو عنده العلم الذي يعين الأديب على معرفة الفروق بين التراكيب ليختار منها التركيب الذي يلائم معناه ، ويحصل عن نفسه ما يؤودها ، ويبحث عليها من افكار وأحاسيس .

لقد نظر النحاة الى النحو على أنه علم يبحث في أواخر الكلمات ، ويضر ما يعرض لها من اختلاف في الحركات ، ولم يتجاوزوا به هذا الحد ، فجفّ الدرس النحوي ، وغاضت حيويته ، فأراد عبدالقادر ان يوسع ونظيفة النحو ، ويد في مجاله ، فدعا الى التنبيه الى ما وراء التراكيب من أسرار ولطائف ، لم يكن النحاة ليقفوا عندها ، ويولوها شيئاً من عنايتهم . فالنحاة يدرسون الجملة ، وما يعرض للكلمات فيها من تقديم وتأخير ، وحذف وذكر ، واضمار وانقار ، وتعريف وتنكير ، ووصل وفصل ، ولكنهم لا يعرضون لما يترتب على هذه التغييرات التي تطرأ على الجمل من تغييرات في الدلالة ، ولا الى ما تنبئ به فكر ، والوان نفسية لا تقع تحت حصر .

ليس النحو عند عبدالقاهر ، مجموعة القواعد التي تهدي الى الصواب والخطأ في التراكيب ، بل هو العلم الذي يكشف لنا عن معاني التراكيب ، وما معاني التراكيب الا الافكار والاحاسيس التي اعترت الأديب ، فأفصح عنها ، متخذاً من نظم الكلمات ، وطريقة توزيعها في الجملة ، وسيلة الى ذلك الافصاح . وهكذا يفرّق عبدالقاهر بين النحو الذي هو قواعد جافة ،

تفسر اختلاف الحركات على أواخر الكلمات ، وبين النحو الذي يضع يديك على ما في التراكيب من أسرار ولطائف ، لا تسلم نفسها لكل من احاط بقواعد اللغة ونحوها وصرفها ، وانما تسلم نفسها لمن تعمق التراكيب ، ووظن الى ما وراءه من معان اضافية ، لولاهما لما كان هناك داع لان يقدم تركيب على تركيب ، أو يفضل نص على نص ، ولولاهما لما تفاوتت الكلام في سلم القيم ، حتى ينتهي الأمر الى الاعجاز الذي هو فوق طاقة البشر .

ان (النظم) هو الذي ينتقل باللفظة من مجرد رمز بارد لا تقدر على تحريك أو اثارة ، الى خلية مشحونة بما لا حصر له من مشاعر وصور .

فالجرجاني ، اذن ، يهجم في نقد الادب نهجا لغويا ، لا يكتفي بالنظرة العجلى الى التركيب ، او الالمامة اليسيرة به ، وانما يعين في استقصاء ما وراءه من معان اضافية ، لم تكن لتلوح للناقد لولا مجيء التركيب على الوجه الذي جاء عليه ، وتشكله بالشكل الذي خرج فيه . ولكي نوضح نهجه هذا ، نقف عند نماذج من النماذج التي حللها على وفق هذا المنهج .

قال ابراهيم بن العباس :

فلو اذنبنا دهر وانكر صاحب ولسلط أعداء وغاب نصير
تكون عن الاهواز داري بنجوة ولكن مقادير جرت وأمور
واني لارجو بعد هذا محمدا لأفضل ما يرجى أخ ووزير (٥٠)

وعلق الجرجاني على هذه الايات ، فقال : « فانك ترى ما ترى من الروق والطلاوة ، ومن الحن والحلاوة ، ثم تفقد السبب في ذلك فتجده

(٥٠) يصور الشاعر في أبياته هذه ، الاشاعات التي اخذت تتردد من احتمال عزله ، وتجريده من منصبه ، وما تبع ذلك من تنكر أصحابه له ، واهمالهم لشأنه ، فانصح الشاعر من ثورته على الدهر والساحب والمدور ، ولوح بان له مكانا يستطيع دائما ان يابى اليه ، ويحتمي به ، اذا حزبه امر ، او نزل به مكروه . ولكن المقادير رافقت به ، ولم تحقق ما اراده أعداؤه ، اذ انتصر له محمد بن عبد الملك الزيات آخر الامر فخبب آمال أعدائه ، وحقق له ما يريد .

١٤٤ - تنكير المعرفة الدائمية كالمهرف في الكصوصية

مثل الدهر ، اذ صوي فيه الانراد .

٢ - تنكير العارف في الاطلاقه منو امداد - نصير .

انما كان من أجل تقديمه الظرف الذي هو « اذ نبا » على عامله الذي هو (تكون) . . . ولم يقل (كان) ثم انه نكّر الدهر ولم يقل (فلو اذ نبا الدهر) ثم انه ساق هذا التذكير في جميع ما أتى به من بعد ، ثم انه قال (وانكر صاحب) ولم يقل (وانكرت صاحباً) . لا ترى في البيتين الاولين شيئاً غير الذي عدده لك يجعله حنا في النظم ، وكله من معاني النحو كما ترى . وهكذا السبيل ابدا في كل حسن ومزية رأيتها قد نبا الى النظم ، وفضل وشرف أحيل فيها عليه « (٥١) . وقال محمد مندور في تعنيق له على تحليل الجرجاني هذا : « وبالامعان في ملاحظات ناقدنا نجدنا ترجع الى مفارقات في المعاني ، والوان النفس هي التي حددت اختيار الشاعر ، وضمت له الجودة ، جودة العبارة عما في نفسه بدقة ، ثم تبصيرنا بالالوان النفسية لتلك المعاني ، فهو قد قدم الظرف على عامله : قدم (اذ نبا) على (تكون) وذلك لانه لم يتسن ان تكون داره بنجوة على الاهواز الا عندما نبا دهر ، وفي هذا النحو ما يحز في نفس الشاعر . وكأنني به قد سارع الى تقضه ، ثم هو قد اختار المضارع (تكون) على الماضي (كان) لان المضارع تحس في دلالة معنى الحالة المستمرة الناجمة من الماضي الى الحاضر ، فالمستقبل . والشاعر ودّ عندما نبا الدهر لو تكون داره على الاهواز بنجوة ، تكون حتى قبل نبو الدهر ، تكون وتستمر كذلك ، لان الدهر قد أثبت بنبوه تلك المرة أنه قادر على الغدر في كل حين ، ومن الخير أن تقدر ذلك الغدر في كل حين ، واذن فالمفاضلة بين الماضي والمضارع ، ليست مفاضلة بين الفاظ بل بين معان ، وعلى الاصح بين حالات تسمية بأكملها . ثم ان شاعرنا قد نكّر (دهر) وهو بهذا يفرد الدهر فيجعله دهرًا خاصًا به ، دهرًا غدارًا ، لا الدهر دهر الناس كافة ، نبا دهر ابتلاه به القضاء المحتوم . واذا كان تنكير الدهر ، وهو الشيء ، الواحد المعروف بوحده ، يفيد الافراد ، فان تنكير (صاحب) أو (اعداء) و (نصير) يفيد الاطلاق ، ويشعرنا بضيق الشاعر ، فهو ينكر كل صاحب لما كان من غدر اولئك الصحاب ، وهو يرى ان كل عدو قد

(٥١) دلائل الامجاز : ٦٨ ، ٦٩ .

سلط ، وان كل نصير قد غاب ، تنكير المتعدد افاد الاطلاق . والامر في تنكير (مقادير وأمور) يشبه تنكير (دهر) فهو يخصصهما بالشاعر ويجعلهما وفقاً عليه . واذن فنحن امام معان مختلفة واللوان تسمية متباينة ، ندرك بعضها بعقولنا ، ونحس الطنفا بقلوبنا ، وهذا الاحاس هو أساس الذوق عند ناقدنا « (٥٢) » .

والشواهد على منهج عبدالقاهر كثيرة ، فحيث تنقلت في كتاب دلائل الاعجاز ، تجد ناقدنا العظيم باحثاً عن أسرار التراكيب ، وعما ينبىء به كل تركيب من معان ، واللوان تسمية قادت اليه ، وأجبرت الاديب على اختياره . ومضمون الكلمة عنده يضيق ويتسع ، وينكمش وينبسط ، بحسب علاقتها بما حولها من الكلمات وبحسب ما يمرض لها من معاني النحو كالتعريف والتشكير ، والتقديم والتأخير ، والاطلاق والتقييد ، والوصل والفصل وما الى ذلك .

لقد آمن عبدالقاهر بأن التباين في الصياغة ، ينبع من تباين في الاحاس ، فانكر أن يكون ترادف بين الجمل ، أو أن يؤدي المعنى الواحد بعبارات مختلفة ، ذلك لان اي تفير يلحق بالجملة من شأنه ان يغير المعنى ، ويحيله عن جهته . وصياغة الجملة - عند عبدالقاهر - ليست مشابهة « للصياغة والتحجير والتضويف والنقش وكل ما يقصد به التصوير » فقد يمكن ان يتشابه ديباجان في النقش ، أو سواران في الصفة ، غير أن ذلك لا يمكن في الكلام « لانه لا سبيل الى أن تجيء الى معنى بيت من الشعر ، أو فصل من النثر ، فتؤديه بعينه وعلى خاصيته وصنعتة بعبارة اخرى ، حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك ، لا يخالفه في صفة ولا وجه ولا أمر من الامور ، ولا يفرنك قول الناس : قد أتى بالمعنى بعينه ، وأخذ معنى كلامه ، فاداه على وجهه ، فانه تسامح منهم ، والمراد أنه أدى الغرض ، فاما ان يؤدي المعنى بعينه على الوجه الذي يكون عليه في كلام الاول ، حتى لا تعقل ههنا الا

ما عقلته هناك ، وحتى يكون حالهما في تمسك حال الصورتين المشبهتين في عينك ، كالسوارين والشنقين ، ففي غاية الاحالة ، ولن يفضي بصاحبه الى جهالة عظيمة » (٥٣) .

وبعد أن فرق عبدالقاهر بين اللفظ المفرد ، واللفظ المستخدم ، أو بين اللفظ وهو مجرد اشارة معجمية باردة ، او اصطلاح هامد محدود الدلالة ، وبينه وهو خلية حية مشحونة بعناصر الفكر والشعور ، عاد لينكر الثنائية التي شاعت في النقد العربي بين اللفظ والمعنى ، فرأى أن من العبث ان تفصل بينهما ، وأن نرجع الفضل والمزية لاحدهما دون الاخر ، أو أن نقول بسبق احدهما الاخر في الوجود . وقد ابطال الدرس الحديث فكرة الفصل بين اللفظ والمعنى ، واتتهى الى أن الفكرة لا تكون فكرة ، الا اذا سكنت الى اللفظ ، أو عبر عنها بالكلمة ، اما قبل اخضاع الفكرة للفظ ، فلا شيء هناك (٥٤) . وهذا يعني ان الأديب لا يقف امام المعاني وحدها ، ولا أمام الالفاظ وحدها ، يختار المعاني ثم يختار الالفاظ الملائمة لها « فالتفكير في اللفظ والمعنى تفكير جملي يفكر فيه الأديب مرة واحدة ، وبحركة عقلية واحدة ، فاذا رتب المعاني في الذهن ترتيباً منطقياً ، انحدرت على اللسان بالفاظها الملائمة لها . وكبار الكتاب الذين ينقحون من ألفاظهم بعد كتابتها انما يغيرون من هذه الالفاظ لان معانيها قد تغيرت في نفوسهم ، اما بالتحديد ، واما بالزيادة والنقص ، فهم يتبدلون اللفظ باللفظ ، وفق ما غيروا في انفسهم من المعاني » (٥٥) .

وعلى الرغم من بساطة هذه الفكرة ، فان عبدالقاهر حشد لها الكثير من الادلة والمناقشات النظرية والتطبيقية ، لتستر في اذهان الناس ، فقال : « ... فاذا وجب لمعنى ان يكون أولاً في النفس ، وجب في اللفظ الدال عليه ان يكون مثله أولاً في النطق » (٥٦) . وقال : « وانك اذا فرغت من ترتيب

(٥٣) دلائل الامجاز : ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٥٤) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٢١٦ .

(٥٥) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان : ٢٦٢ .

(٥٦) دلائل الامجاز : ٤٣ .

المعاني في نفسك لم تحتج الى ان تستأنف فكرا في ترتيب الالفاظ ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ، ولاحقة بها ، وان الملم بمواقع المعاني في النفس ، علم بمواقع الالفاظ الدالة عليها في النطق» (٥٧) .

وكما قضى عبدالقاهر على فكرة الفصل بين اللفظ والمعنى ، استطاع وهو بصدد الدفاع عن « النظم » ان يبطل فكرة أخرى ، كانت تفضل التعبير المزخرف بالاستعارة والتشبيه ، على التعبير العاري منهما ، فأعلن ان الاستعارة والتشبيه مهما ملحا ولفظا ، لا يرجع اليهما الحسن في العبارة ، وانما يتم لهما الحسن اذا آزرهما النظم ، وأغاضنا تأليف الكلام على وجه دون وجه ، يقول : « وان اردت اعجب من ذلك فيما ذكرت لك ، فاقلر الى قوله :

سالت عليه شعاب الحي حين دعا انصاره بوجوه كالدنانير

فانك ترى هذه الاستعارة ، على لفظها وغرابتها ، انما تم لها الحسن ، واتبى الى حيث انتهى بما توخي في وضع الكلام من التقديم والتأخير ، وتجدها قد ملحت ولفقت بساونة ذلك ومؤازرته لها . وان شككت فاعد الى الجارين والظرف فأزل كلا منها عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه ، فقل : سالت شعاب الحي بوجوده كالدنانير عليه حين دعا أنصاره ، ثم انظر كيف يكون الحال ، وكيف يذهب الحسن والحلاوة ، وكيف تعدم اربحيتك التي كانت ، وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها » (٥٨) .

فالجبال في هذا البيت لا يرتد الى الاستعارة ، وانما يرجع الى ان الشاعر قد وزع كلماته فيه هذا التوزيع ، ونظمها هذا النظم ، الذي لولاه لم يكن للاستعارة فيه أن تبلغ ما بلغت من الحسن والجبال .

ان عبدالقاهر أدرك بحسه اللغوي النافذ ، وذوقه المرهف ، أن الشاعر قد أراد بتقديم الجار والمجرور « عليه » أن ينهنا الى ما لهذا المدوح من مكانة عند قومه ، فان صيحة واحدة منه ، قد أسالت عليه شعاب الحي ،

(٥٧) دلائل الإعجاز : ٤٤ .

(٥٨) دلائل الإعجاز : ٧٨ .

بجموع من الرجال الذين أقبلوا طائعين مختارين ، يدلنا على ذلك ان وجوههم لم تكن عابسة أو مظلمة ، بل كانت لا معة ومضيئة . ولذا لم يكن لاستمارة « سالت عليه شعاب الحي » ان تنال ما نالته من القيمة والحسن لو لم يتقدمها الجار والمجرور ويتلها الطرف وفعله . وهكذا فان الشاعر لم يختار ما اختاره من وجوه التأليف لمفردات البيت ، الا لانها تؤدي عنه ما تمليء به نفسه من المعاني والافكار ، ولو انه لم يوفق لهذا التأليف ، لما نال كلامه من الفضل والقيمة ما نال ، ولما كان تعبيره مطابقا لما أراد اليه من المعاني . ولا عبرة بعد ذلك بالاستمارة التي يهيم قوم فيحسبونها مكنس الجودة في التعبير .

ولا شك في أن عبدالقاهر كان مدفوعا الى هذا الرأي ، بسبب فكرة الاعجاز أيضا ، لان بعض كتاب الاعجاز ، وجدوا ان ما في القرآن من صور البلاغة المختلفة كالتشبيه والاستمارة وغيرها ، لا توجب له الاعجاز ، لان هذه الفنون ما يسكن ان يحذقها الناس بالتعلم والمران . قال الباقلاني : « وقد قدّر مقدرون انه يسكن استفادة اعجاز القرآن من هذه الابواب التي تفتحتها ، وان ذلك مما يسكن الاستدلال به عليه ، وليس كذلك عندنا ، لان هذه الوجوه اذا وقع التيه عليها ، امكن التوصل اليها بالتدرب والتعود والتصنع لها وذلك كالشعر الذي اذا عرف الانسان طريقه صح منه التمثل له وامكنه نظمه . والوجوه التي تقول ان اعجاز القرآن يسكن ان يعلم منها ، فليس ما يقدر البشر على التصنع له والتوصل اليه بحال » (٥٩) .

وهكذا فان الدافع الديني كان جليا عند عبدالقاهر ، في كل ما كتبه ، وفي الاراء التي توصل اليها . بمعنى انه حين ندب نفسه لاثبات الاعجاز ، والوصول الى سره ، لم يجد ما يشته ، الا « النظم » ، فكان أن خرج على الناس بهذه النظرية ، التي لمحقا سبقوه ، غير أنهم لم يصلوا بها الى ما وصلت اليه عنده من النضج والكمال ، على الوجهين النظري والتطبيقي .

ومن يدرس أثر « الاعجاز » في النقد اللغوي ، لا بد أن يلاحظ ان هذا اللون من النقد كان هو الاداة التي اطمان كتاب الاعجاز الى جدواها

في الكشف عن سرّ الاعجاز ، والوصول الى حقيقته . ووجد بعضهم كالباقلائي
وعبدالقاهر ان النقد البلاغي ، لا يستطيع أن يقدم لنا التفسير الصحيح لقضية
الاعجاز ، لأن ما في القرآن من صور البلاغة المختلفة ، على غرابتها وروعتها ،
لا يصح ان تكون في نظرهم سبب اعجازه ، وذلك لامكان التوصل الى نماذج
تقرب منها او تساويها عن طريق المران والتعلم . واذا بطل أن يكون النقد
البلاغي هو الوسيلة الى اثبات الاعجاز ، اتجه العلماء الى النقد اللغوي ،
يتخذون من بعض موضوعاته السبل التي تكفل لهم الوصول الى حقيقة
الاعجاز . فتكلموا في اللفظ وميزاته ، وتحدثوا عن النظم وأسراره ، ووصلوا
في كل ذلك الى المقاييس الصائبة التي وقفنا عند قسم منها ، وأنضنا في
الحديث عنه .

نخلص من ذلك الى ان « الاعجاز » دفع العلماء الى ان يبحثوا عن أسراره
ويستخلصوا القوانين التي مازت لفظ القرآن وعلت بأسلوبه ، وبعد أن تم
لهم ما أرادوه ، لم تبق تلك القوانين اداة ينفرد باستخدامها كتاب الاعجاز ،
بل انتقلت الى ايدي النقاد ، فساروا يقيسون بها النصوص والاساليب ،
وينشدون في المنشآت الادبية ، أن تطابق تلك القوانين .

لقد اتضح الان أن « الاعجاز » كان عاملا في اثاره كثير من قضايا النقد
اللغوي ، وقد جعلنا هذا الفصل خاصا بما أثارته هذه الفكرة . غير أن
القضايا التي اثيرت بسبب « الاعجاز » منها ما هو أساس ، ومنها ما هو فرع
أو مكمل لغيره من القضايا . فمن القضايا الرئيسة قضية الانسجام بين مفردات
التركيب ، وقضية الفروق بين المترادفات ، ثم قضية اللفظ والمعنى . وقد
تفرّعت عن القضية الاخيرة مسألة « النظم » ، ثم أنضى الحديث عن « النظم »
الى ثلاث قضايا فرعية هي : القول بعدم الفصل بين اللفظ والمعنى ، والقول
بعدم الترادف بين الجمل ، ثم القول بأن صور البلاغة لا توجب للكلام فضلا،
ولا تكسبه شيئا من الحسن ، ما لم يوازرها النظم ، ويظهرها تأليف المفردات
على وجه دون وجه . وما يجمع بين هذه القضايا ، فوق أنها من النقد اللغوي،
هو أنها اثيرت لاثبات « الاعجاز » والكشف عن سره .

الباب الثاني

موضوعات
النقد اللغوي ومقاييسه

الفصل الاول

مقاييس الخطأ والصواب

مرّ بنا ان الناقد اللغوي يخضع العمل الادبي لضربين من المقاييس : يتكفل الاول ببيان سلامة العمل المتقود من الخطأ ، ومطابقتها للمألوف من قواعد اللغة ، والمعهود من نظامها . ويتولى الثاني الكشف عن مواطن الجودة والرداءة في ذلك العمل .

وفي هذا الفصل ستعرض لمقاييس الخطأ والصواب ، وهي مقاييس علمية ، تتمتع بحظ عظيم من الثبات والاستقرار ، ولا شأن لذوق الناقد أو حسّ الفني في الكثير منها ، وهي لذلك مجمع عليها ، وليس للشخصي بد من مراعاتها .

لقد استمدت هذه المقاييس من كلام العرب الفصيح بعد جمعه واستقرائه واصبحت مرجعا ، تبصر الناس بالاستعمال اللغوي السليم ، وتقيهم الوقوع في الخطأ ، والمخالفات اللغوية .

ولم تنشأ هذه المقاييس ، ولم تدون الا في أواخر العصر الاموي ، وذلك بعد أن مت الحاجة اليها ، عندما خرج العرب من الجزيرة ، وامتزجوا بغيرهم من الامم ، وبدأ اللحن يغزو سنتهم ، ويظهر في كلامهم (١) . ومعنى ذلك أن مسألة الصواب والخطأ لم تكن واضحة في النقد اللغوي قبل هذه الحقبة ، لان الشاعر الجاهلي كان مالكا زمام لغته ، ينطقها فطرة ، وتجري على لسانه خالصة من الخطأ ، نقية من شوائب اللحن .

ومن يتبع النقد الذي وصل الينا عن العصر الجاهلي يجد انه يخلو الى حد كبير من مسألة الصواب والخطأ ، وينصرف الى بيان الجودة والرداءة،

(١) ينظر ص ٥٤ من هذه الرسالة .

فيما تناول من نصوص . ولما ظهر النحو والنحاة ، واستتبقت للعربية قواعد
 واصول ، وعثر في لغة بعض المنشئين على ما يفارق تلك القواعد والاصول ،
 برزت مسألة الصواب والخطأ ، ثم امتدت « الى ما بعد ارساء قواعد العربية
 واصولها بكثير » (٢) .

ولم يسلّم كثير من الشعراء بالحكم على بعض ابياتهم بالخطأ ، وخاصة
 اولئك الشعراء المتقدمين الذين كانوا ما يزالون قريبي عهد بالبدوّة ، أو
 الذين ثقفوا العربية ، وتضلّموا من معرفتها . ومن هنا نشبت بين النحاة
 وفريق من الشعراء معركة ، تعرّض النحاة خلالها للشتم القارس ، والهجاء
 اللاذع . فالفرزدق لم يجد ما ينجيه من نقد ابن ابي اسحاق الحضرمي الا
 الهجاء ، فضى ينال ذلك النحوي بلاذع السباب . وعمار الكلبي امتعض من
 النحاة ، وضاق بسراقتهم اياه ، فقال (٣) :

ماذا لقينا من المستعربين ومن	قياس نحوهم هذا الذي ابتدعوا
ان قلت قافية بكرا يكون بها	بيت خلاف الذي قاسوه او ذرعوا
قالوا : لحتت ، وهذا ليس منتصبا	وذاك خفض ، وهذا ليس يرتفع
وحرّضوا بين عبدالله من حسق	وبين زيد ، فطال الضرب والوجع
كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم	وبين قوم على اغرابهم طبعوا
ما كل قولي مشروحا لكم ، فخذوا	ما تعرفون ، وما لم تعرفوا فدعوا
لان ارضي ارض لا تشب بها	نار الجومس ، ولا تبني بها البيع

والخلاف الذي استعرب بين ابن خالويه والمتنبي مثل آخر لما كان بين
 النحاة والشعراء من صراع وجفاء . فقد تحدى احدهما الاخر في مسألة
 لغوية ، فتناول المتنبي على ابن خالويه ، فغضب هذا ، واخذ بفتاح كان
 يخفيه في كفه ، فضرب به وجه المتنبي ، فاسال دمه (٤) .

(٢) الاسس الجمالية في النقد العربي : ٢٢٨ .

(٣) الخصائص : ٢٣٩/١ ، ٢٤٠ .

(٤) الصبح المنبي : ٨٧ .

ومن أسباب الخلاف ان النحاة حاولوا ان يفرضوا آراءهم وقواعدهم على الشعراء ، غير آبهين بما يسكن ان يجيء ، به الشاعر من استعمالات يقيسها على نظائر لها في كلام العرب ، او يبتكرها ويتدعيا ، بعد أن تدفعه اليها مضايق الشعر ، وضرورات التعبير بقواله وأوزانه .

لقد وجد النقاد اللغويون في لغة عدد من الشعراء تراكيب واستعمالات تندّ عن المألوف من قواعد اللغة ، ولا تساير المعهود من أساليبها ، فحكموا على بعضها بالخطأ وانقسموا ازاء بعضها على فئات ثلاث :

الفئة الاولى : وتضم النقاد الذين تأولوا بعض ما في لغة الشعر من صيغ وتراكيب ، تخالف الشائع والمألوف في اللغة ، ووصفوها بأنها من « الضرائر » التي تدفع اليها طبيعة الشعر ، وتمليها على الشاعر قواعد الوزن والقافية . ومعنى ذلك ان هؤلاء النقاد نظروا الى لغة الشعر على انها « موقف فصح وعتد » (٥) ، يجوز فيها ما لا يجوز في النثر . وكان الخليل على رأس هذه الفئة ، فقد اثر عنه انه قال : « الشعراء أمراء الكلام يصرفونه أتى شاءوا ، وجائز لهم ما لا يجوز لغيرهم » (٦) . ويستشف من قول الخليل هذا انه كان يعترف بأن الشاعر لا يملك ما يملكه النثر من حرية ، وسعة في مجال التعبير ، ولذا جاز له ان يتعمل من الصيغ والتراكيب ما لو ملك حرته لكان له منصرف عنها ، ومجيد الى غيرها .

وآمن بنظرة الخليل هذه عدد من النحاة واللغويين ، فمضوا يستقرون تلك الصيغ والتراكيب ويجمعونها . والناظر في كتاب سيويه وغيره من المطبوعات يجد الكثير منها (٧) . وقد اصيحت تلك الصيغ والتراكيب مثلا يحتذيها الشعراء ، في مختلف العصور ، اذا اضطررتهم اليها قواعد الوزن والقافية ، فلا ينكرها عليهم أحد من نقاد هذه الفئة . ولا شك في ان العلماء

(٥) الخصائص : ٢٢٨/١ .

(٦) زهر الاداب : ٦٣٣/٢ .

(٧) ضرائر الشعر : ٦ .

قد فاتتهم أنواع من الضرائر ، لم يفتقروا عليها ، وأن ما جمعه منها على كثرته لا يثقل في نظر بعض الباحثين كل أنواع الضرائر ، ذلك لأن « الضرورة بابها الشعر على قول الجمهور ومخالفهم ، وشعر العرب لم يحط بجميعه أحد ، فكيف يسكن حصر الضرائر بعدد دون آخر » (٨) . والضرورة ، عند من يجيزها ، سماعية ، لا يحق للمحدثين أو المولدين ان يحدثوا شيئا منها غير ما أحدثه الأوائل (٩) .

وكان ابن جنى (٣٩٢ هـ) من اللغويين الذين اتروا « الضرورة » ، متابعا في ذلك شيخه ابا علي الفارسي (٣٧٧ هـ) ، وقد عقد لها بابا في كتابه « الخصائص » (١٠) .

كما كان محمد بن جعفر القزاز التميمي (٤١٢ هـ) من اتروا « الضرورة » أيضا والف فيها كتابا سماه « ضرائر الشعر » (١١) ، جمع فيه بعض ما تفرق من انواع الضرائر في كتب النحو واللغة ، ولكنه لم يعالج في كتابه هذا الا الضرائر المتعلقة بالنحو ، وقد فعل ذلك رغبة في الاختصار .

لقد دعا القزاز الشعراء ، في كتابه هذا ، الى الاحاطة بما أجازه الاقدمون من انواع الاستعمالات المخالفة للمألوف من قواعد النحو ، ليتسنى للشعراء الدفاع عن أنفسهم اذا وقع في كلامهم شيء من هذه الاستعمالات ، قال عن الضرائر : « وهو باب من العلم لا يسع الشاعر جهله ، ولا يستغني عن معرفته ، ليكون له حجة لما يقع في شعره مما يضطر اليه ، من استقامة قافية أو وزن بيت أو اصلاح اعراب » (١٢) . كما دعا النقاد كذلك الى العلم بالضرائر ، لئلا يحكموا بالخطأ على صيغ واستعمالات ، كان اللغويون قد

(٨) الضرائر (الالوسي) : ٢٤ .

(٩) نفسه : ٩ .

(١٠) الخصائص : ٣٢٣/١ .

(١١) طبع هذا الكتاب بعنوان (كتاب ما يجوز للشاعر في الضرورة) ثم بعنوان (ضرائر الشعر او كتاب ما يجوز للشاعر في الضرورة) .

(١٢) ضرائر الشعر : ٢٩ .

أقروها في الشعر ، واجازوا للشعراء ان يصيروا اليها ، اذا حذبهم الوزن ، او اضطرتهم القافية ، فقال : « ان كثيرا من يطلب الادب ، وأخذ نفسه بدراسة الكتب ، اذا مرّ به بيت لشاعر من اهل عصره ، أو لطالب من نظرائه ، فيه تقديم او تأخير ، أو زيادة او نقصان ، او تغيير حركة عما حفظ من الاصول المؤلفة له في الكتب ، أخذ في التشنيع عليه ، والطمع على علمه ، والاجماع على تخطئه ، ولو نظر بعين الحق لعلم ان ذلك لا يخرج الا من وجهين : اما ان يكون ذلك جائزا لعلل تغيبت عنه ، ولم يبلغ النهاية من علمها وهو كذلك ، ووهه الذي لعله ان يبه عليه ، أو أعاد نظره فيه ، رجع عنه الى الصواب ، وتخطاه الى ما لا مطمئن فيه من الكلام ، اذ كان غير معصوم من الخطأ ، ولا ممنوع من الزلل ، فليس للناظر في الاصول مع تأخره عن الاحاطة بسائر الفروع الهجوم على ما لعله جائز عند المتقدمين ، في العلم ، الناظرين بعين الحق » (١٣) .

وكتاب التراز سلوء بالدفاع عن الشعراء ، والتباس التخريجات والتاويلات لما أخذ عليهم من اخطاء . ومن الامثلة على ذلك دفاعه عن قول ابي نواس :

كمن الشنان فيه لنا ككمن النار في حجره

فقد قالوا فيه : « والنار مؤتة فكان الواجب ان يقول : ككمن النار في حجرها » (١٤) . فقال التراز : « وهذا ظاهره على ما قالوا ، ولكن العرب تسع فتذكر المؤنث لمعنى نخرجه له يؤول به الى التذكير ، كما قال امرؤ القيس :

برهرمة رخصة رودة كخرعوبة البانة المنطفر

فذكر الخرعوبة والبانة لانه يريد الغصن او نحوه من المذكر . وكما قال

الآخر :

(١٣) ضرائر الشعر : ٢٩ .

(١٤) نفسه : ٣١ .

لو كان ملحة حي منشرا احدا احى اباكن ياللى الامادىح

فقال : منشرا وهو للملحة ، فذكر ، لانه يريد المدح او غيره مما هو في معناه من المذكر . وكثير مثل هذا يذكر في مواضعه . هذا على أن بعض النحويين يقول : كل ما لا روح له يجوز تكديره وتائيثه ، فهذا وان لم يكن بشيء ، فقد ذكرنا ما يعضده من شعر العرب ، ونذكر فيما يستقبل أكثر من هذا . على أن بيت ابي نواس له وجه لا ضرورة فيه وهو ان الكمون مذكر مضاف الى النار فترد الهاء عليه ، فكأنه قال : ككمون النار في حجر الكمون أي في الحجر الذي تكمن فيه النار « (١٥) » . وهكذا يستفد التزاز الوجوه التي يسكن ان يحمل عليها قول ابي نواس ، ويذهب في الدفاع عنه كل مذهب ، وقد فعل مثل هذا في كل ما عرض من المآخذ النحوية التي اخذها النقاد على الشعراء

ويبدو لنا ان التزاز لم يكن على حق في دفاعه عن بعض الاستعمالات التي حكم عليها بالخطأ جلّة العلماء قبله . من ذلك انه حمل على الضرورة قول رؤبة في وصف الرامي :

لا يلتوى من عامس ولا نَعَق

وانما الصواب - كما قال ابن قتيبة - « النَّعِيقُ » أو « النَّعَاقُ » ، يقال لصوت الغراب (١٦) . ولكن التزاز المولع بالدفاع عن الشعراء ، عزّ عليه ان يخطئ ، رؤبة كما خطاه ابن قتيبة ، فمضى يتأول كلمة « نعق » ، ويجد لها تخريجا ، فجاء تخريجه والتكلف باد عليه . قال « يقول - أي رؤبة - لا يتظير من عامس ، ولا من صوت غراب ، والمصدر (النعيق) أو (النعاق) ولكن جاء به على هذا « النَّعَاقُ » وحرك الساكن اضطرارا . وذلك ان اصل الافعال الثلاثية ان يأتي مصدرها على (الفَعْل) فيما كان

(١٥) ضرائر الشعر : ٣١ ، ٣٢ .

(١٦) الشعر والشعراء : ٥٩٨/٢ .

متعديا نحو : ضربه ضربا ، فاذا لم يكن متعديا فأصله (فَعُول) كقولك :
 (قعد قعودا) وربما جاء (الفَعْل) فيما كان غير متعد ، و (الفَعُول)
 فيما كان متعديا ، فأما ما جاء به في المتعدى فقوله (شكره شكورا) وأما
 ما جاء من الفعل في غير المتعدى فتقولهم (عجز الرجل عجزا) ، فجاء الشاعر
 بالفعل الذي ذكرناه على هذا « (١٧) . والحقيقة واضحة ولا تحتاج الى كل
 هذا الدفاع والتأويل ، وهي ان رؤية خطأ ، اذ ترك المصدرين المسموعين
 للفعل (نفع) ، وجاء بمصدر لهذا الفعل لم تتكلم به العرب ، ولا شك في
 أن القافية قد ساقته الى هذا الخطأ ، وأما التخريج الذي جاء به القزاز فلم
 يجز لرؤية ببال .

وخطأ ابن قتيبة ابا نواس في قوله :

واذا نزع عن الغواية فليكن لله ذاك النزع لا للناس

لان الصواب ان يقول (النزوع) لانه يقال (نزع عن الامر نزوعا)
 و (نزع الشيء من مكانه نزعا) و (نازعت الى اهلي نزاعا) (١٨) . وأما
 القزاز فلم ير بأسا في عدول ابي نواس عن المصدر المسموع للفعل (نزع عن)
 الى مصدر الفعل (نزع الثوب) ، لان ابا نواس - كما يرى القزاز - شبه
 (نزع عن الشيء) بـ (نزع الثوب) وكان ابا نواس جعل الفعل الاخير هو
 الاصل (١٩) . وهكذا فان القزاز قد اسرف في حسن ظنه بالشعراء ، وحاول
 في كثير من الاحيان ان يلتبس لهم العذر فيما لا عذر لهم فيه .

ولم يكتف حنزة بن حسن الاصفهانى (ت ٤٦٠ هـ) باقرار الضرورة ،
 ولم يجعل فائدتها مقصورة على تخلص الشاعر من كسر وزن ، أو اخلال
 بقافية ، بل عدها وسيلة من وسائل نساء اللغة ، وعاملا من عوامل اغنائها

(١٧) كتاب ما يجوز للشاعر في الضرورة (القزاز) : ١٣٩ : وينظر : ضرائر
 الشعر : ١٨٢ .

(١٨) الشعر والشعراء : ٨١٢/٢ .

(١٩) كتاب ما يجوز للشاعر في الضرورة (القزاز) : ١٤٠ .

وامدادها بالجديد . فالشعراء قد يتكرون - تحت تأثير قوالب الشعر وقواعد التعبير به - صيغا ومفردات ، فيكون من الخير للناقد الاعتراف بها ، ومن الخير للغة ان تضمها الى ما فيها من صيغ ومفردات . وقد دخلت العربية - في رأي الاصفهاني - بسبب الضرورة ، مفردات كثيرة ، فلم ينكرها النقاد القدامى ، وانما قبلوها ، ففني بها متن اللغة ، وزادت مادتها . وكان الاصفهاني قد صرح برأيه هذا ، حين ذهب الى ان العلماء وجدوا العربية على الضد من لغات الامم : « لما يتولد فيها مرة بعد أخرى ، وان المولد لها قرائح الشعراء ، الذين هم امراء الكلام ، بالضرورات التي هي تمر بهم في المضائق التي يدفعون اليها ، عند حصر المعاني الكثيرة في بيوت ضيقة المساحة ، والاحراج الذي يلحقتهم عند اقامة القوافي التي لا محيد لهم عن تنسيق الحروف المتشابهة في اواخرها ، فلا بد من ان يدغمهم استيفاء حقوق الصنعة الى عسف اللغة بنتون الحيلة ، فمرة يعسفونها بازالة امثلة الاسماء والافعال عما جاءت عليه في الجبلة ، لما يدخلون من الحذف عنها او الزيادة عليها ، ومرة بتوليد الالفاظ على حسب ما تسو اليه همهم عند قرض الاشعار » (٢١) .

وأورد الاصفهاني بعد ذلك عددا من الالفاظ التي ولدها الشعراء القدامى ، بعد ان لم تكن في اللغة ، وما كانوا ليولدوها وهم في حال السعة والاختيار ، ولكنهم فعلوا ذلك حين اضطررتهم مضائق الشعر . قال الاصفهاني : « فاما ما خرج الى الوجود بالتوليد فكثير أيضا يدل عليه قليل ما نحكي منه ، فمن ذلك قول النابغة :

الاَـوَارَى لَأَيَّامَا أَيَّشَهَا وَالتَّؤَيَّي كَالْحَوْضِ بِالْمَنْظُومَةِ الْجَلْدِ

فزعم الرواة والعلماء بالشعر أنه أول من سسى الارض مظلومة وهي التي حفر فيها ولم تكن قبل ذلك محفورة » (٢١) . ومن ذلك الفاظ (الشكْم) و (الشكْد) و (الشكْب) التي صارت لغات في (الشكر) بعد أن

(٢٠) التنبه على حدوث التصحيف : ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٢١) نفسه : ١٥٨ ، ١٥٩ .

استعمل طرفه الاولى والثانية في قصيدتين من قصائده ، قافية الاولى (ميم)
وقافية الثانية (دال) . واستعمل مزرد الثالثة في قصيدة له قافيتها
(باء) (٢٢) .

وحازم القرطاجني (ت ٦٨٤ هـ) من أقروا الضرورة أيضا فدعا الى
تسوية ما عند الشعراء ، ولا سيما الذين ساهم بالمجلين ، من أقوال تند عن
الشائع او المألوف في اللغة ، وأورد آياتا لعدد من الشعراء هم عبدالرحمن
القس ، وزياد الاعجم ، وابن دراج وابو نواس ، ثم ذكر النقد الموجه اليها ،
واتبع ذلك برأيه الخاص فقال : « وكلما أمكن حل بعض كلام هذه الحلبة
المجلية من الشعراء على وجه من الصحة كان ذلك أولى من حمله على الاحالة
والاختلال ، لانهم من ثبت ثوب اذهانهم ، وذكاء افكارهم ، واستبحارهم
في علوم اللسان ، وبلوغهم من المعرفة به الغاية القصوى » (٢٣) . ثم استأنس
برأي الخليل في هذا الشأن ، فقال « وقد قال الخليل بن أحمد : الشعراء
امراء الكلام يصرّفونه انى شاءوا ، ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم من اطلاق
المعنى وتقييده ، ومن تصريف اللفظ وتمقيده ومد التصور وقصر المدود ،
والجمع بين لغاته ، والتفريق بين صفاته ، واستخراج ما كلّت الالسن عن
وصفه ونعت ، والاذهان عن فيه وايضاحه ، فيقربون البعيد ، ويبعدون
القريب ، ويحتج بهم ولا يحتج عليهم ، ويصورون الباطل في صورة الحق ،
والحق في صورة الباطل » (٢٤) . لقد ارتضى حازم مذهب الخليل هذا ،
ودعا النقاد الى الكف عن تخطئة الشعراء ، وخاصة المجلين منهم ، لان لهم من
العلم باللغة ، ما يحل على قبول ما يصدر عنهم من أقوال تبدو مخالفة
للمألوف من اساليب العرب ، والتاس التأويل والتخريج لها ، فقال :
« فلاجل ما أشار اليه الخليل رحمه الله من بعد غايات الشعراء ، وامتداد آمامهم
في معرفة الكلام ، واتساع مجالهم في جميع ذلك ، يحتاج ان يحتال في تخريج

(٢٢) التنبية على حدوث التصحيف : ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٢٣) منهاج البلاغ : ١٤٢ .

(٢٤) نفسه : ١٤٣ ، ١٤٤ .

كلامهم على وجوه من الصحة ، فانهم قل ما يخفى عليهم ما يظهر لغيرهم ، فليسوا يقولون شيئا الا وله وجه ، فذلك يجب تأول كلامهم على الصحة ، والتوقف عن تخطئهم فيما ليس يلوح له وجه » (٢٥) . وقد رأينا ان مبدأ التأويل الذي يدعو اليه حازم ، قد طبقه القزاز من قبل ، فقادته الى التحل ، وتسويغ اخطاء صريحة .

الفئة الثانية : وتضم النقاد الذين تشددوا في محاسبة الشعراء ، وأبوا ان يسحوا لهم بأن يخلوا بشيء من الشائع أو المألوف من قواعد اللغة ، وذهبوا الى ان اقامة الوزن والقافية لا تسوغ لهم ان ينفارقوا الصواب ، او يتكبوا الطريق السوي والمألوف في التعبير .

ومن هؤلاء النقاد ابن طباطبا (ت ٣٢١ هـ) الذي طلب من الشاعر الا يضع في نفسه أن الشعر موضع اضطرار ، والا يتخذ من آينات معينة - رويت عن بعض القدامى ، حجة تسوغ له الخطأ ، قال : « فليس يقضى بالمسيء ، وانما الاقتداء بالمحسن » (٢٦) .

ولقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) رأي في هذه المسألة لا يخرج عن رأي ابن طباطبا ، فقد حمل قدامة على من احسنوا الظن بالشعراء ، واجدوا انفسهم في الدفاع عن اخطائهم ، والتاس الخريجات ليا ، ودعا النقاد الى أن يحاسبوا الشعراء على ما يقولونه فعلا ، لا ان يتأولوا أقوالهم ، فيضيفوا اليها ، أو يحذفوا منها ما يصحح تلك الاقوال ، ويجعلها متفقة مع القواعد ، ومسايرة للاصول ، بحجة ان الشاعر كان قد أراد كذا ، وقصد الى كذا ، الا ان ضرورات الوزن والقافية كانت قد ثنته عن قصده ، وصرفت كلامه عن جته التي يجب له . يقول قدامة : « وليس اذا علمنا ان شاعرا اراد لفظة تقيم شعره ، فجعل مكانها لفظة تحيله وتفسده ، وجب ان يحسب له

(٢٥) منهاج البلغاء : ١٤٤ .

(٢٦) عيار الشعر : ١٠ .

« ما يتوهم أنه اراده ، ويترك ما قد صرّح به ، ولو كانت الامور كلها تجري على هذا لم يكن خطأ » (٢٧) .

وابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) كان شديد الوطأة على من يخطيء من الشعراء ، او يرتكب شيئا مما يسي (الضرائر) . وقد ألف رسالة صغيرة جعل عنوانها (ذم الخطأ في الشعر) قال فيها : « ان ناسا من قدماء الشعراء ، ومن بعدهم اصابوا في أكثر ما نظموه من شعرهم ، وأخطأوا في اليسر من ذلك ، فجعل ناس من أهل العربية ، يوجهون لخطأ الشعراء وجوها ، وينتحلون لذلك تأويلات ، حتى صنعوا فيما ذكرناه أبوابا ، وسننوا في ضرورات الشعر كتبا » (٢٨) . وسخر ابن فارس من قاعدة (يجوز للشاعر ما لا يجوز للنائر) ، ولم يرتض ان يقع الشعراء في الخطأ اتكالا منهم على تلك القاعدة ، فقال متائلا ومتهكما : « ومن اضطره - يعني الشاعر - ان يقول شعرا لا يتقيم الا باعمال الخطأ ؟ ونحن لم نر ولم نسمع بشاعر اضطره سلطان او ذو سطوة بسوط أو سيف الى ان يقول في شعره ما لا يجوز وما لا تجزونه اتم في كلام غيره . فان قالوا ان الشاعر يعنى له معنى فلا يمكن ابرازه الا بسئل اللفظ التبيح المعيب ، قيل لهم : هذا اعتذار اقبح وأعيب ، وما الذي ينع الشاعر اذا بنى حسين بيتا على الصواب ، ان يتجنب ذلك البيت المعيب ولا يكون في تجنبه ذلك ما يوقع ذنبا ، أو يزرى بمروءة » (٢٩) وقال في (الصاحبي) : « ولا معنى لقول من يقول : ان للشاعر عند الضرورة ان يأتي في شعره بما لا يجوز » (٣٠) .

وهكذا فان هذه الفئة من النقاد تنكر « الضرورة » ، وترى فيها ضربا من الخطأ ، وتدعو الشاعر الى ان يتحرى الوجه المقبول فيأخذ به ،

(٢٧) نقد الشعر : ٢٠٦ .

(٢٨) ذم الخطأ في الشعر (مطبوع في ذيل الكشف عن مساويء شعر المنهبي) :

٢٩ .

(٢٩) نفسه : ٣٠ ، ٣١ .

(٣٠) الصاحبي : ٢٧٥ .

وينأى عن الصيغ التي يعتذر منها ، أو التي لا تقبل الا على وجه من التأويل والتخريج .

الفئة الثالثة : وتضم النقاد الذين قبلوا ما حل على « الضرورة » من أقوال القدماء ، ولم يجيزوا للمحدثين أن يجاروا تلك الأقوال ، ويتصرفوا في اللغة على نحو ما تصرف فيها أسلافهم . وقد علل هذا التريق من النقاد قبولهم ما بني على « الضرورة » من كلام الشعراء القدماء ، بأن أولئك الشعراء كانوا يقولون أكثر شعرهم ارتجالاً « لا يتأنون فيه ، ولا يتلومون ^(٢١) على حوكه وعله » ^(٢٢) ، وبأنهم لم يرزقوا النقاد الذين يصرونهم بالعيب ، أو يرشدونهم الى القبيح من الاستعمال ، ليتجنبوه ، وينأوا عنه فيما ينظنون . ونستطيع أن نجعل أبا هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) مثلاً هذه الفئة من النقاد ، لأنه قال : « وينبغي أن تجتنب ارتكاب الضرورات ، وإن جاءت فيها رخصة من أهل العربية ، فإنها قيحة تشين الكلام ، وتذهب بسأته . وأنا استعملها القدماء في أشعارهم لعدم علمهم بقبحها ، ولأن بعضهم كان صاحب بدائه ، والبدائه مزلة ، وما كانت أيضا تنقد عليهم أشعارهم ، ولو قد نقدت وبهرج منها المعب ، كما تنقد على شعراء هذه الأزمنة ، وبهريج من كلامهم ما فيه ادنى عيب لتجنبوها » ^(٢٣) .

وكان ابن جنى قد عقد في الخصائص باباً جعل عنوانه (باب في هل يجوز لنا في الشعر من الضرورة ما جاز للعرب أولاً) ردّ فيه على هذه الفئة من النقاد ، وذهب الى ان ما أجازته الضرورة للقدماء أجازته للمحدثين أيضا ^(٢٤) . ولم يقتنع ابن جنى بما ذهب اليه نقاد هذه الفئة من ان الداعي الى قبول (الضرورة) من القدماء دون المحدثين هو ان القدماء كانوا يرتجلون شعرهم ، ولا يعرضون له بتنقيح او تهذيب ، وان المحدثين على العكس من

(٢١) التلوم : الانتظار والتلبث .

(٢٢) الخصائص : ٢٢٤/١ .

(٢٣) الصنائع : ١٥٠ .

(٢٤) الخصائص : ٢٢٣/١ .

ذلك ، يتأنون في قول الشعر ، ويحكمون صنعة . قال ابن جني في دفع هذه الحجة : « ليس جميع الشعر القديم مرتجلا ، بل قد كان يعرض لهم فيه من الصبر عليه ، والملاطفة له ، والتلثوم على رياضته ، واحكام صنعة نحو ما يعرض لكثير من المولدين . الا ترى الى ما يروى عن زهير : من انه عمل سبع قصائد في سبع سنين ، فكانت تسمى حوليات زهير ، لانه كان يحول القصيدة في سنة » (٢٥) . ثم قال « ان من المحدثين أيضا من يسرع العمل ولا يعتاقه بط ، ولا يستوقف فكره ، ولا يتعمق خاطره » (٢٦) . ومعنى ذلك ان الشعر القديم كالشعر الحديث من هذا الوجه ، ففي كل منهما المذهب المنفتح الذي ابطأ قائلوه في عمله ، وفيه المرتجل الذي لم يصبر عليه قائلوه ، ولم يصلوا فيه يد الاصلاح والتغيير . واذا كان الامر كذلك فلا وجه لان تقبل الضرورة من القدامى ، وترفض من المحدثين . ثم ادلى ابن جني بدليل آخر استند اليه في اجازة (الضرورة) للمحدثين هو « كثرة ما ورد في اشعار المحدثين من الضرورات ، كتقصير المدود ، وصرف ما لا ينصرف ، وتذكير المؤنث ونحوه . وقد حضر ذلك وشاهده جلّة اصحابنا من ابي عمرو الى آخر وقت ، والشعراء من بشار الى فلان وفلان ، ولم نر احدا من هؤلاء العلماء انكر على احد من المولدين ما ورد في شعره من هذه الضرورات التي ذكرناها وما كان نحوها ، فدل ذلك على رضاهم به ، وترك تناكرهم اياه » (٢٧) .

ولابن رشيقي رأي في هذا الشأن ، قال : « على أنه لا خير في الضرورة ، على أن بعضها اسهل من بعض ، ومنها ما يسع عن العرب ولا يصل به ، لانهم اتوا به على جبلتهم ، والمولد المحدث قد عرف انه عيب ، ودخوله في العيب يلزمه اياه » (٢٨) . ومؤدى هذا ان مركب الشعر وعمر ، وان وفاء الشاعر بقواعد هذا الفن قد يؤدي به الى ان يجور على اللغة ، أو يخرج عن

(٢٥) الخصائص : ٢٢٤/١ .

(٢٦) نفسه : ٢٢٧/١ .

(٢٧) نفسه : ٢٢٧/١ ، ٢٢٨ .

(٢٨) العمدة : ٢٦٩/٢ .

المألوف من قواعدها ، ولا شك في أن التعبير الذي يحدث فيه هذا الجور ليس التعبير المنشود ، وإن غيره مما يفي بتطلبات اللغة خير منه . إذ المفروض في الشاعر أن يغرر حظه من اللغة ، وأن تكون اللغة طليعة في يديه ، فلا يستشعر - وهو يعبر بها - بشيق أو حصر ، أو اضطرار إلى مفارقة شائع ، أو إخلال بالمألوف . والشاعر - من غير شك - إذا أحسن العلم بلغة واسعة كالعربية ، فاتما ستعينه على صواب الشعر ، وتسعف به بكل ما يريد . ثم المفروض في الشاعر أن يجعل نصب عينيه سلامة اللغة ، وصحة التركيب ، فلا يحمله على التضحية بها معنى يعتاص عليه ، أو خاطر يجتذبه ، إذ لا خير في معنى يخرج في إطار تنكره اللغة ، ويأباه المعروف من قواعد استعمالها . ولكن ليس معنى هذا أن نقيد الشاعر ، ونلبيه حقا تمتع به أسلافه ، فأقرهم عليه كبار علماء العربية ، وإنما المعقول أن يضع الشاعر في نفسه - وكما قال ابن رشيقي - أن لا خير في الضرورة ، فإن احتاج إليها فلينظر إليها - كما نظر بعض النقاد - على أنها نوعان : الأول : حسن ، يقبله الذوق « ولا تستوحش منه النفس كصرف ما لا ينصرف ، وقصر الجمع الممدود ، كحذف الياء في (فعاليل) ونحوه ، وأسهل الضرورات تسكين (عين) فعلة في الجمع بالالف والتاء ، حيث يجب الاتباع كقوله :

قتريح النفس من زفرتها « (٢٩) . . . واتيان الشاعر بشيء من ضرورات هذا القسم - عند الحاجة إليه - مستساغ ومقبول ، والثاني : قبيح يسجبه الذوق ، ولا يلجأ به التعبير « كالإساءة الممدولة عن وضعها الأصلي بتغيير ما من زيادة أو نقص ، كقوله :

أصابعهم الحما وهم عواف

أراد : الحمام . وقوله :

وشتا بين قتلي والسلاح

(٢٩) الضرائر (الالوسي) : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ .

أراد : شتان « (٤٠) ، وذكر حازم القرطاجني ان من اشد ما تستوحش منه النفس تنوين أفعل من (٤١) . فنوع « الضرورة » عند استعمالها لا هي ، يجب أن يكون موضع نظر الناقد .

واما الرأي الذي برز عند التراز ، ثم زاد وضوحا عند حازم ، والذي يذهب الى ان القدماء لا يخطئون ، وأن لهم من العلم باللغة ما يحصل على قبول ما يصدر عنهم من اقوال تخالف النظام اللغوي المألوف ، والتاسا تاويل وتخريج لها ، فهو رأي قديم ، كان يدين به بعض النحاة الاوائل ، وقد اوقمهم هذا الرأي في التكلف والتحمل ، وقادهم الى الدفاع عن اخطاء صريحة ، وان ما جاءوا به من تأويلات لتلك الاخطاء لم يحظ بالقبول . وسنعود نتقف عند هذا الرأي في فصل قابل لثفيه حقه من البحث .

واللغويون الذين اجازوا الضرورة لم يحملوا عليها كل استعمالات الشعراء التي نددت من المألوف من قواعد اللغة ، بل ان هناك استعمالات لم تجر على سنن العربية ، فلم يجعلها احد على الضرورة ، وانا وصت بالخطأ ، أو مجابة التصيح من كلام العرب .

وقبل ان نعرض لبيان الاخطاء التي لم يجعلها احد في (الضرائر) ، لابد لنا من وقفة عند ابن الاثير ، وكان له رأي في (الخطأ) الذي هو ليس من (الضرورة) .

ذهب ابن الاثير الى ان المطلوب في لغة الادب هو الحسن لا الصواب . وان المرجح بشأنها هو الذوق ، لا قواعد النحاة وقياساتهم ، ثم تطرف في رأيه فزعم : « ان الجهل بال نحو لا يقدر في فصاحة ولا بلاغة ، ولكنه يقدر في الجاهل به نفسه . لانه رسوم قوم تواضعوا عليه ، وهم الناطقون باللغة ، فوجب اتباعهم ، والدليل على ذلك ان الشاعر لم ينظم شعره ، وغرضه منه رفع الفاعل ونصب المفعول ، أو ما جرى مجراها ، وانا غرضه ايراد المعنى الحسن في اللفظ الحسن ، المتصفين بصفة الفصاحة والبلاغة ، ولهذا لم

(٤٠) الضرائر : ٢١ .

(٤١) نفسه .

يكن اللحن قادحا في حسن الكلام» (٤٣) . لانه اذا قيل : جاء زيد راكب
و « لم يكن حسنا الا بان يقال : جاء راكبا بالنصب ، لكان النحو شرطا في
حسن الكلام ، وليس كذلك » (٤٤) .

فالشاعر في نظر ابن الاثير لا يهدف من نظمه الى ان يرفع الفاعل ، أو
ينصب المفعول ، وانما هو يريد التمييز عن معنى عرض له ، فواء التزم في
هذا التعبير قواعد النحو ، أو اخل بها ، فان المعنى واحد في الحالين . وساق
ابن الاثير المثل التالي أيضا ، ليثبت ان الاخلال بالاعراب لا يؤدي الى الاخلال
بالمعنى المراد التعبير عنه ، قال : « لو أمرت رجلا بالقيام فقلت له (قوم)
بأثبات الواو ، ولم تجزم ، لما اختلف من فهم ذلك شيء ، وكذلك الشرط ...
والفضلات كلها تجري هذا المجرى » (٤٤) . وقد جرّ رأي ابن الاثير هذا
تقد الصفي له ، وتشيعه عليه قال الصفي (ت ٧٦٤ هـ) : « ما يورد
مثل هذا الاعوام الناس ، ومن لم يتلبس بالمعرفة ، ولم يرح رائحة العلم ،
الم يعلم انه اذا صدر عن مترسل كتاب لم يجزم أفعال أمره ، ولا شروطه
وجوابها ، ولم يرفع فاعله وينصب فضلاته ، ولا راعى شيئا من قواعد اعرابه
... كان ذلك ضحكة للسفيلين فضلا عن العقلاء ، وحينئذ فقد استوى العلماء
والجهال » (٤٥) . وقال الصفي في موضع آخر : « ما بقي بعد هذا الا ان
يقول : ان مراعاة الاعراب علة موجبة لقبح الكلام . اتراه ما سغ بقولهم :
النحو في الكلام كالملح في الطعام » (٤٦) .

وقد خالف ابن الاثير اللغويين في مسائل كثيرة ، كانوا يتصوبونها
لانها موافقة لقواعدهم وقياساتهم ، وكان يابها ، لان الذوق ينكرها ، وينبو
عنها . فالخلاف بين ابن الاثير واللغويين ناشيء من ان ابن الاثير كان يرجع

(٤٢) المثل السائر : ١٨/١ ، ١٩ .

(٤٣) نفسه : ١٩/١ .

(٤٤) نفسه : ١٠/١ .

(٤٥) نصره الثائر على المثل السائر : ٢٨ ، ٢٩ .

(٤٦) نفسه : ٤٢ .

الى الذوق بشأن أمور اللغة ، اما اللغويون فكانوا لا يعتدون بالذوق ، وانا يرجعون الى قواعدهم ، فما وافقها حكموا له بالصحة ، وان جافى الذوق وجانبه . يقول ابن الاثير : « واما جمع المصادر فانه لا يجيىء حسنا ، والافراد فيه هو الحن ، وما جاء في المصادر مجموعا قول عنتره :

فان يبرأ فلم أشث عليه وان يفتقد فحق له الفقود

قوله التقود جمع مصدر من قولنا فقد يفتقد فتقدا ، استعمال مثل هذه اللفظة غير سائغ ولا لذيذ ، وان كان جائزا ، ونحن في استعمال ما نتعمله من الالفاظ ، واقفون مع الحن ، لا مع الجواز . وهذا كله يرجع الى حاكم الذوق الليم ، فان صاحب هذه الصناعة ، يصرّف الالفاظ بضروب التصريف ، فما عذب في فمه منها استعمله ، وما لفظه فسه تركه « (٤٧) .

ويبدو ان ابن الاثير قد اسرف في آرائه ، لان التقييد باصول اللغة ، أمر لا منر للاديب منه ، ولا يصح ان يتسبغ الذوق المتتير أمرا تنكره اللغة ، وتاباه قواعد الاستعمال . ولا أحد يقول بان كل ما يجيزه النحاة واللغويون من ضروب التعبير هو جميل وسائغ . وقد فطن عبدالقاهر الجرجاني الى هذه الحقيقة ، فأشار الى أن الصواب اللغوي وحده لا يكفي لكي يكون التعبير جميلا ، فرب تركيب سائب من وجهة نظر النحاة ، الا انه قبيح في نظر الفنان او الناقد، والاديب الذي «لا يتفقد من أمر النظم الا الصحة المطلقة والا اعرابا ظاهرا ، فما أقل ما يجدي الكلام معه » (٤٨) . فالتركيب اللغوية الصحيحة كثيرة ، ولكنها ليست سواء في الحن ، واذا تذكرنا ان الفن اختيار ، فما على الاديب ، اذن ، الا ان يختار من الوجوه الجائزة أحقها بالاختيار ، وأهضها باداء ما يعتريه من مشاعر ، كما عليه أن يعلم أيضا

(٤٧) المثل السائر : ٢٨٧/١ ، ٢٨٨ .

(٤٨) دلائل الاعجاز : ٢٢٥ .

ان الغاية من اللغة في الأدب ليس الايصال والافهام ، بقدر ما هي احداث
تأثير واستجابة .

فنحن نخالف ابن الاثير في التهوين من شأن النحو ، وغيره من قواعد
اللغة ففي ذلك دعوة الى الفوضى اللغوية ، وتتفق معه في ان ليس كل جائز
في اللغة حسنا ، ومقبولا في الفن ، ولكننا لا نرى معه ان على الاديب ان
« يصرف الالفاظ بضروب التصريف ، فما عذب في فمه استعمله ، وما لنظفه
فمه تركه » الا ان يحتاط في عبارته هذه فيقول : فما عذب في فمه من الوجوه
الجائزة استعمله ، وما لنظفه فمه من تلك الوجوه تركه ذلك لان الاديب ملزم
بمطابقة اصول اللغة ، ومنهجها العام في تأليف المفردات او التراكيب .

ويبدو ان السبكي (ت ٧٧٣ هـ) قد تابع ابن الاثير في التهوين من شأن
النحو ، ورأى ان الاخلال باعراب الكلمة لا يقدرح في فصاحتها ، لان الحركة
على آخرها حركة زائدة ، وليس من أصل وضعها ، قال السبكي : « ان
الضرائر المتعلقة بحركة اعراب الكلمة ينبغي الا ينظر اليها المتكلم في فصاحة
الكلمة ، لان الحركة زائدة على وضع الكلمة عند التركيب » (٤٩) . ومعنى
قوله ان بإمكان الناقد ان يفض عينه عن الخطأ في الضبط النحوي ، لان
الاخلال بالاعراب ليس اخلالا بالفصاحة التي مردها الى البنية لا الى حركة
الآخر . وكان ابن سنان (ت ٤٦٦ هـ) قد رأى قبل ذلك ان اقامة الاعراب
شرط من شروط فصاحة الكلمة « لان اعراب اللفظة تبع لتأليفها من
الكلام » (٥٠) . ورد على من ينع ان يكون اعراب الكلام شرطا في فصاحته ،
فقال « هل يجوز عندك ان يكون عريبا ان استعمل كل اسم منه لغير
ما وضعته له العرب ؟ فان قال : نعم ، لزمه ان يكون متكلما باللغة العربية اذا
سمي الفرس انسانا والسواد بياضا ، والموجود معدوما وغير ذلك من الكلام ،
وهذا حد لا يذهب اليه محصل وان قال : لا يكون عريبا حتى يضع كل اسم

(٤٩) عروس الافراج : ٨٩/١ .

(٥٠) سر الفصاحة : ٩٧ .

في موضعه ويلفظ به على حد ما يلفظ به أهله ، قلنا فقد دخل في هذا اعراب الكلام ، لان معانيه تتعلق به ، وهو الدليل على المقصود منها ، وبه يزول اللبس والجواز فيها ، واذا ثبت انه لا يكون عربيا حتى يجري على ما نطقت. العرب به ، وجب ان يشترط في فصاحته ، تبعم فيما تكلموا به ، ولا تجيز العدول عنه « (٥١) .

ولا شك في أن رأي ابن سنان هذا أمدّ من رأي ابن الاثير والسبكي، لان في تهوينها من شأن النحو ، ما يمكن ان يؤدي الى الوقوع في العامة . والنظر الى الكلمة من زواياها جميعا ، وتحت كل الاضواء هو مبتغى الناقد ، ولا يجوز له ان يتهاون في أي أصل من أصول اللغة .

وقد حفلت كتب اللغة والنقد بأخطاء الشعراء اللغوية والنحوية ، وما دار حولها من خلاف . ولا بد ان نعرض لقسم منها :

التذكير والتانيث :

كان الاصمعي لا يرتضي (زوجة) مؤنث (زوج) ويرمي من يستعملها باللحن ، لأنها غير فصيحة ، وكان يقول : « ما أقل ما تقول العرب الفصحاء : فلانة زوجة فلان ، انما يقولون : زوج فلان » (٥٢) . وروي ان الاصمعي أقرّ (زوجة) في قول الشاعر (٥٣) :

فبكي بناتي شجوهنّ وزوجتي

وكان يعقوب يقر الصيغتين (٥٤) ، ولم ينكرها ابن منظور ، بل رمى الاصمعي بالتشدد ، وقال عنه : « واحتج بقول الله عز وجل (اسكن أنت وزوجك الجنة) فتليل له : نعم ، كذلك قال الله تعالى ، فيل قال عز وجل : لا يقال : زوجة ؟ وكانت من الاصمعي في هذا شدة وعسر » (٥٥) .

(٥١) سر الفصاحة : ١٦ .

(٥٢) الموشح : ٢٣٨ ، ٢٨٤ ، وتنظر ص ١١١ من هذه الرسالة .

(٥٣) المزهري : ٢١٤/١ .

(٥٤) نفسه .

(٥٥) اللسان : (زوج) .

الادوات والظروف :

وقد أخطأ بعض الشعراء في استعمال بعض الادوات والظروف ، فلم يستعملوها على الوجه المقرر لها في اللغة ، من ذلك ان الاسمى أنكر على ليد استعماله « أتى » للجازاة في قوله :

فأصبحت أتى تأتيها تبئس بها كلاً مركبها تحت رجلك شاجر

وذهب الى أنه لم يسمع أحداً يجازي بـ « أتى » ، ثم خرج قول الشاعر على أنه ربما اراد « آتياً تأتيها ، يريد اي جانبي هذه الناقة آتية ، وجدت مركبه تحت رجلك شاجراً ، أي ينحيك ، ويدفئك ، لا يطئن تحت رجلك » (٥٦) .

واخذ الاسمى على عدي بن الرقاع استعماله « بينا » في قوله :

اتعرف الدار أم لا تعرف الطللا أجل فيجت الأحزان والوجلا
وقد أراني بها في عيشة عجب والدمر بينا له حال اذا انتقلا

فقال الاسمى : « ليس من كلام العرب ان يقولوا : بينا كذا اذا كان كذا . انما هو : بينا كذا كان كذا » (٥٧) .

ومما أخطأ فيه الشعراء استعمال كلمة « بين » على غير المعروف او المشهور من استعمالها . فقد خطأ الاسمى قول امرئ القيس « بين الدخول فحومل » فقد رواه : بين الدخول وحومل ، وقال : لا يقال : رأيتك بين زيد فعمرو ، انما يقال وعمرو ، ويقال : رأيت زيدا فعمرا اذا رأى كل واحد منهما بعد صاحبه (٥٨) .

ولم يعدم امرؤ القيس مدافعا ، فقد ذكر الحريري « ان الدخول اسم واقع على عدة امكنة ، فليذا اجاز ان يعقب بالفاء كما يقال : المال بين

(٥٦) خزانة الادب : ١٩١/٣ .

(٥٧) الطرائف الادبية : ٨١ . وينظر : درة الفواص : ٢٨ .

(٥٨) الاغانى : ٧١/٩ .

الأخوة فزيد ، ومثله قوله تعالى « يزجي سحابا ثم يؤلف بينه » وأنا ذكر السحاب وهو جمع لانه من قبيل الجع الذي بينه وبين واحده الهاء « (٥٩) ، وذكر البطليوسي تسويفا آخر لاستعمال امرىء التيس فذهب الى انه يجوز ان تكون الفاء بمعنى الى فيكون المعنى أن سفظ اللوى بين الدخول الى حومل كما يقال هي أحسن الناس قرنا فقدا ، يريدون ما بين قرن الى قدم (٦٠) .

واخطأ ابو تمام في استعمال « بين » فقال :

ومشهد بين حكم الذل منقطع صاليه ، أو بجبال الموت متصل

فقال الأمدى : « فقوله : بين حكم الذل ، لو كان حكم الذل اشياء متفرقة لصلحت فيها (بين) غير أن حكم الذل والذل بنزلة واحدة ، وكذلك حكم العز والعز ، فكما لا يقال : بين العز فكذلك لا يقال بين حكم العز ، حتى يقال هذا ، لان (بين) انما هي وسط بين شيئين . فان قال : ان حكم الذل مشتمل على مشهد الحرب ومن يصلى بها ، فكأنه ذهب بقوله (بين) الى معنى (وسط) أي ومشهد وسط حكم الذل . قيل : (وسط) لا يحل محل (بين) و (بين) لا يحل محل (وسط) لانك تقول : البئر وسط الدار ، ولا تقول : البئر بين الدار » (٦١) .

وقد يزيد الشاعر بعض الادوات ، فيضطرب المعنى بسبب ذلك ، وتلتوي العبارة . من ذلك ان المتبني زاد « لا » في قوله :

لا يأتلي في ترك أن لا يأتلي

فقال النقاد : « افسد المعنى ، لان « لا يأتلي » : لا يقصر ، فكأنه قال : لا يقصر في ترك الا يقصر ، فوصفه بالتقصير ، ويان ذلك أنه لم يأتل ، فقد جدّ في ترك الجد ، وهو نهاية التقصير » (٦٢) . غير ان المدافعين عن

(٥٩) درة القواص : ٢٦ .

(٦٠) النقد عند اللغويين : ١٨٥ وينظر مصدره .

(٦١) الموازنة : ٢٢٦/١ ، ٢٢٧ .

(٦٢) الوساطة : ٤٧٤ ، ٤٧٥ .

المتنبى لم يروا في زيادة « لا » هنا خطأ يؤخذ على الشاعر ، وان المعنى لم يصب بغموض او التواء ببيته فقال قائلهم : « لا ارى (لا) الا زائدة ، فتقدير الكلام : لا يأتي في ترك أن يأتي ، فكأنه لا يقصر في ترك التصير ، وهذا هو الجذ . وزيادة (لا) غير مستكر ، وقد جاء في القرآن والتسعر ، قال الله تعالى (لئلا يعلم) فمعناه يعلم وقال العجاج في زيادة (لا) .
في بئر لا حور سرى وما شعر

أي في بئر حور « (٦٣) .

تغيير بنية الكلمة :

ومن بين أخطاء الشعراء تغييرهم بنية الكلمة ، وذلك بأن يزيدوا فيها أو يحذفوا منها . وقد اجاز النقاد ضربا معينة من التغيير للالفاظ ، وحفظوا على الشعراء ما سوى تلك الضروب . وما لم يجزه النقاد من تغيير صيغة الكلمة قول ابي نواس :

فما ضرها الا تكون لجرول ولا المزني كعب ولا لزياد

قال المبرد : « لحن في تخفيفه ياء النسب في قوله (المزني) في حشو الشعر وانما يجوز هذا ونحوه في القوافي » (٦٤) .

وقول ابي تمام :

شامت بروك آمالي بضر ولو أضحت على الطوس لم تستبعد الطوسا
« فأدخل في (طوس) الالف واللام وهي اسم بلدة معروفة » (٦٥) .
فاخذ النقاد ذلك عليه ، وعدوه من اخطائه .

وكان المتنبى قد شدد نون (لدن) في قوله :

فأرحام شعر يتصلن لدننه وأرحام مال ما تنى تنقطع

(٦٣) الوساطة : ٤٧٥ .

(٦٤) الموشح : ٤١٤ .

(٦٥) الموازنة : ٢٩/١ ، ٣٠ .

فثار بسبب ذلك جدل طويل ، ونشب خلاف كحاد بين النقاد ، فمنهم من أنحى على المتبني ، ورماه بالخطأ ، ومنهم من سوغ استعماله ، وراح يلتبس له ما يؤيده من شواهد ونصوص . ولما بلغ المتبني أن النقاد غابوا عليه استعماله هذا ، غير قوله ، وجعل (يبابه) مكان (لدته) . ومع ذلك فقد أسهم في الدفاع عن استعماله ، واحتج له بكلام طويل أورده الجرجاني في الوساطة خلاصته ان للشاعر ان يحذف من اللفظة او يزيد فيها ، ليستقيم له الوزن ، ويسلم بناء البيت ، وان نقاد الكلام ، وأهل البصر به ، أجازوا بذلك ، ولم يتكروه ، ثم روى ابياتا تؤيد قوله ، منها قول قطري :

غداة طفت غلاء بكر بن وائل وعجنا صدور الخيل نحو تميم

وقول لبيد :

درس المنا بتالع فأبان

يريد (المنازل) وقول تيب بن ثعلبة : وقد زاد فيه النون :

ولسبة الحرقوص بالقفن

يريد (القنا) . وخلص بعد ذلك الى ان التشديد في (لدن) أحسن من هذا كله « لأن النون ساكنة مع (هاء) والنون تتبين عند حروف الحلق لتباعدها منها ، فزاد في تبينها فاجتلب التشديد » (٦٦) . وقال : « ان النون لما كانت خفيفة ، وكانت ساكنة ، ومن حتمها ان تتبين عند حروف الحلق ، حسن تشديدها لتظير ظهورا شافيا فيذه علة قريبة ، قد يحتمل للشاعر تغيير الكلام لأجلها » (٦٧) . وقد أيد المتبني بعض النقاد فقالوا « وقد احتل للشعراء لاجل الشعر ما هو أبلغ من تغيير الالفاظ وازالة الكلام عن موضعه ، قال التبرزدق :

وما فارقتها شيبا ولكن رأيت الدهر يأخذ ما يُعار

(٦٦) الوساطة : ٤٥١ .

(٦٧) نفسه : ٤٥٥ .

اراد : يعير ، فغير البناء ، كما تراه « (٦٨) »

ولم يكن كلام المتنبى ، وكلام أنصاره ، مقنعا النقاد الاخرين ، بل رده هؤلاء وأبوا التسليم به ، فقالوا : لو « جاز للشاعر ان يقول ما شاء ، وان يتناول ما اراد عن قرب ، فيثقل كل مخفف ، ويخفف كل مثل ، ويحذف ويزيد ، ويغير الجوع ، ويتحكم في التصريف ... لا تقلبت اللغة ، وانتقضت الحقائق » (٦٩) . وذكروا ان للشاعر رخصا معلومة ، ووجوها من الضرورة حصرها العلماء ، وليس له ان يتعدها ، ويأتي من الاستعمالات ما لم يكن معدودا في تلك الرخص (٧٠) .

ومع ان العلة التي استند اليها المتنبى في تشديد نون (لدن) ، ووافق عليها بعض النقاد ، هي علة مقبولة من الناحية العقلية ، فاننا لا نلج بصحة قول المتنبى (لدته) : « وما دام العرب لم ينطقوا بها مشددة النون ، لدى اتصالها بضمير الغائب ، فليس من حق المتنبى ان يقول ما لم يقوله » (٧١) . واذا سلمنا بان للشاعر ان يأتي في الضرورة بما لا يجوز في السعة ، فان عليه ان يتقيد بما اجيز له من انواع الضرورات ، وليس منها تشديد نون (لدن) عند اتصالها بضمير الغائب .

المثنى :

ومن اخطاء الشعراء ما كان متعلقا بالمثنى ، وقواعد استعمال المثنى ، فابو نواس ثنى كلمة « عين اباغ » في قوله :

فما نجدت بالماء حتى رأيتها مع الشس في عيني اباغ تفور

(٦٨) الوساطة : ٤٥٦ .

(٦٩) نفسه : ٤٥٣ .

(٧٠) نفسه : ٤٥٤ وما بعدها .

(٧١) المتنبى بين ناقديه : ٥٨ .

« وعين أباغ موحدة لا مثناة » (٧٢) ولكن أبا نواس قال « حرصت على أن يقع لي في الشعر عين أباغ ، فامتعت علي فقلت : عيني أباغ » (٧٣) .
وعيب المتبي في قوله :

مضى بعد ما التفأ الرماحان ساعة كما يتلقى الهدب في الرقدة انهدبا
ذلك لانهم « انكروا ثنية الرماح ، وهو جمع رمح » (٧٤) . وقد دافع
المتبي عن استعماله هذا ، واحتج له بيت لابي النجم :

تنقلت من أول التنقل بين رماحي مالك ونهشل (٧٥)

وأقر صاحب الوساطة استعمال المتبي ، وأيد ما احتج به ، وقال :
« وأكثر ما على ابي الطيب أن يتبع ابا النجم واخراجه من شعراء العرب ، فهم
القدوة وبهم الائتنام ، وفيهم الاسوة » (٧٦) .
الجمع :

ومن اخطاء الشعراء جميعهم بعض المفردات جمعاً لم تتكلم به العرب ،
فأخذ النقاد ذلك عليهم ، وأرشدوهم الى وجه الصواب فيه ، وقد جاء
رؤبه في شعره بجمعين خارجين عن كل قياس ، فقال (٧٧) :

مثل الدمي تصويرهن أظفواس

أراد ب (أظفواس) جمع (ظفواوس) . وقال (٧٨) :

لمن رمى رهن برمي أصواب

أراد ب (أصواب) جمع (صواب) .

(٧٢) : (٧٣) الموشح : ٤٢٣ .

(٧٤) الوساطة : ٤٤٩ .

(٧٥) نفسه .

(٧٦) نفسه : ٤٥٠ .

(٧٧) التنبية على حدوث التصحيف : ١٦٨ .

(٧٨) نفسه .

وحكى ابو نصر عن الاصمعي انه قال : « كنا نظن الطرمح شيئاً حتى قال :

وأكره أن يعيب عليّ قومي هجائي الارذلين ذوي الحنات

لأنها احنة واحن ، ولا يقال : حنات » (٧٩) .

وقال بشار :

تلاعب نينان البحور وربها أيت تنوس القوم من جريها تجري

« فبلغ سيويه قوله (نينان البحور) فانكر ذلك ، وزعم ان العرب

لا تجمع (النون) - وهو الحوت - على (نينان) . فبلغ ذلك بشاراً ، فقال :

ويحه أما يقول : حوت وحيتان ، وغول وغيلان ، فكذلك نون ونيان .

وتوعد سيويه ولدغه ، فكفّ سيويه عن تتبع شعره ، واحتج بشيء منه ،

تقريباً اليه ، واستكفأفا لشره » (٨٠) . وواضح ان بشاراً قاس (نون) على

(حوت) وها بمعنى واحد ، وعلى زنة واحدة ، فقال : (نينان) في جمع

(نون) كما قالوا (حيتان) في جمع (حوت) ، وهو على هذا ليس بسخطىء ،

في نظر من يبيح القياس ، الا ان سيويه - كما صورّه الخبر السابق - من

وقف عند المسوع ، وأبى ان تقيس ما لم يقله العرب على ما قالوه .

وسنعرض لهاتين النظرتين في الباب الثالث من هذا البحث .

جمع المذكر السالم :

جاء في خزنة الادب : « قال ابن الشجري في أماليه ، قال : ومنهم

من جعل النون في جمع ستة حرف الاعراب والزمها الياء واثبت النون في

الاضافة ورفعها وخفضها ونونها تشبيهاً لها بنون (غسلين) فقالوا : اقتت

عنده سنيئا وعجبت من سنين زيد واعجبتني سنينك . . . وهذا مخالف لصنيع

(٧٩) الموازنة : ٤٣/١ .

(٨٠) الموازنة : ٣٠٩/٢ ، ٣١٠ .

ابن جني في سر الصناعة فانه خصه بالضرورة ، وجوزه في الجمع الحقيقي ،
وتبعه ابن عصفور في كتاب الضرائر قال : ومن العرب من يجعل الاعراب
في النون في جمع المذكر السالم وذلك كله لا يحفظ الا في الشعر نحو قول
الشرذق :

ما سدحي ولا ميت مدهما الا الخلائف من بعد النبيين

... ومثله قول الزمخشري في المنصل : وقد يجعل اعراب ما يجمع
بالواو والنون في النون ، وأكثر ما يجيء ذلك في الشعر ويلزم الياء اذ ذلك ،
قالوا : ات عليه سنين ، وقال الشاعر :

دعاني من نجد فان سنيه لعين بنا شيئا وشيئا مردا

وقال سحيم :

وماذا تدري الشعراء مني وقد جاوزت حشد الاربعين

قال شارحه ابن يعيش : اعلم ان من العرب من يجعل اعراب هذا الجمع
في النون بشرط ان يلحقه تقى كنين والشيخ قد اطلق هنا والحق
ما ذكرته « (٨١) » .

ويفهم ما سبق ان هناك رأيين في جمع المذكر السالم : الاول يجيز
ان يجعل اعرابه في النون على ان يلزم الياء ولا يكون ذلك الا في الشعر
وعند الضرورة ، وجعله ابن الشجري جائزا في الةة أيضا . والثاني :
يجيز ذلك ، عند الضرورة ، في الفاظ معينة من هذا الجمع هي التي اصطلح
على تسميتها بـ « الملحق بجمع المذكر السالم » مثل (سنون وبنون) . وعلى
هذا فقد أخطأ ابو نواس حين قال :

تراث أناسٍ عن أناسٍ تخرّموا توارثها بعد النبيين بنون

(٨١) خزانة الادب : ٤١٢/٣ ، ٤١٣ . وينظر : الفصل : ١٨٩ .

« لانه - على حد قول المبرد - جمع في الكلمة اعرابين : اعرابا بالحرف واعرابا بالحركة ، وهو غير مسوع في كلام العرب » (٨٢) .

الاشتقاق :

وقد يشتق الشعراء صيفا لم يتكلم بها العرب ، ولم تك ما أثر عنهم ، فيخطئهم بعض النقاد . من ذلك ان بشارا اشتق صيغتين هما (الوَجَلَى) وجاءت في قوله :

والان اقصر عن سية باطلي وأشار بالوَجَلَى عليّ مشير
و (العَزَلَى) ووردت في قوله :

على العَزَلَى مني السلام فربما لبوت بها في ظل مخضرة زهر
فسح الاخشى بذلك ، فعاب بشارا ، وطمع عليه قائلا : « لم يسع
من الوجل والغزل » فعلى « وانا قاسها بشار ، وليس هذا ما يقاس ،
انا يعمل فيه بالساع » (٨٣) . وتقل صاحب الوساطة رد اللغويين تقول
المتبي :

فدى من على الغبراء اوليم أنا لهذا الأبي الماجد الجائد القرم
فقد قالوا « لم يحك عن العرب الجائد ، وانا المحكي عنهم رجل جواد
وفرس جواد » (٨٤) . وكان قول المتبي :

العارض الهتن بن العارض الهتن بن العارض الهتن
قد أثار اعتراض ابن التلحاع فقال « غلط المتبي في هذا البيت وكرر
غلطه اربع مرات ، وقد أجمع العلماء ان اسم الفاعل من هتن هاتن . ولا جاء

(٨٢) خزائن الادب : ٤١٨/٢ . وينظر الشعر والشعراء : ٨١٩/٢ .

(٨٣) الموشح : ٢٨٥ .

(٨٤) الوساطة : ٤٧٠ .

عن أحد من العلماء البتن ، ولم يذكره احد من جيع الرواة حتى نبوت عليه « (٨٥) » .

فعل وافعل :

وقد يكون الفعل على وزن (افعل) فيستعمله الشاعر على وزن (أفعل) وقد يكون على (افعل) فيورده الشاعر مجردا ، فيكون ذلك ما يؤخذ عليه ، ويوجب له النقد ؛ ويبدو ان الخلط بين صيغتي (فعل) و (أفعل) قد كثر عند الادباء ، حتى اضطر اللغويون الى التبيه عليه ، وتاليف الكتب لخصر هاتين الصيغتين ، ككتاب (فعلت و أفعلت) للاصمعي ، و (فعلت و أفعلت) لابي عبيدة ، و (فعلت و افعلت) للسجستاني وغيرها (٨٦) .

والخلط بين هاتين الصيغتين قديم ، فقد وقع فيه زهير : حيث قال :

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم قطينا بها حتى اذا أنبت البقل

فردده الاصمعي قائلا « هو خطأ الا ان يقول : أنبت الله ، وانما يقال :

نبت البقل » (٨٧) . وقال الأعشى :

نبي يرى ما لا ترون وقوله أغار لعري في البلاد وأنجدا

فقال الاصمعي : « ولا يقال : أغار » وانما هي « غار يغور اذا أتى

الغور فهو غائر » (٨٨) . وقبل الفراء قول الأعشى وزعم أن « غار وأغار »

لغتان بمعنى واحد (٨٩) .

وكان ابو نواس مخطئا في نظر الاصمعي لانه قال :

اهج نزارا وأفر جلدتها

(٨٥) شرح المكبري : ٢١٧/٤ . وسناقش هذا المقياس في موضعه من الباب الثالث من هذه الرسالة : تنظر ص ٢٢٩ وما بعدها .

(٨٦) رواية اللغة : ١٢٧ .

(٨٧) شرح ما يقع فيه التصحيف : ٢٦٦ .

(٨٨ ، ٨٩) اصلاح المنطق : ٢٤٠ .

ذلك لأن (فریت) تقال في النساد ، و (أفریت) تقال اذا كان القطع للاصلاح (٩٠) . وأما غير الاصمي من اللغويين فقد اختلفوا في هاتين الصيغتين : فمنهم من قال : انها تقالان في الخير والشر جميعا ، ومنهم من رأى ضد ما رآه الاصمي ، بمعنى أن (أفرى) تقال اذا كان القطع للشر و (فرى) تقال اذا كان القطع للاصلاح (٩١) .

ووقع البحرى في الخط بين (فعل) و (أفعِل) حيث قال :

شرطي الانصاف ان قيل استرطِ وصديقي من اذا صافى قسطِ

« وكان يجب ان يقول (أقط) أي عدل و (قسط) بغير ألف انا ، معناه (جار) قال الله تبارك وتعالى (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً) ، وقال (ان الله يحب المقسطين) » (٩٢) .

استعمال الكلمات :

وقد أخطأ بعض الشعراء في الفاظ وضموها في غير مواضعها واستعملوها لغير المعنى الذي اريد لها ، اما النقاد فقد تشددوا في معاني الالفاظ ، وتمسكوا بالمسوع ، ولم يرتضوا ان تستعمل الكلمة في معنى غير الذي استعملها فيه العرب الذين يوثق بأقوالهم .

ويبدو ان الشعراء القدامى أشبههم ، لم ينجوا من الوقوع في هذا الخطأ ، فالنابغة الذبياني استعمل (الغدو) بمعنى (الرواح) ، قال في صفة الشور :

تحيدٌ عن أسننٍ سُودٍ أسافلِهِ مشي الاماء الغوادي تحبل الحزوماً ،

فقال الاصمي : « وانا توصف الاماء في مثل هذا الموضع بالرواح لا بالغدو لانهن يجئن بالحطب اذا رحن ، ومثله قول الاخنس التغلبي :

(٩٠) الرشع : ٤١٨ .

(٩١) اصلاح المنطق : ٢٤٤ .

(٩٢) الموازنة : ٢٥٦/١ ، ٢٥٧ .

يظل بها ربند النعام كأنها اماء تثرَجَى بالعشي حواطب» (٩٣)
وقد حاول بعضهم ان يخرج قول النابغة ، ويجد له سوغا فقال « انا
أراد ان الاماء تغدو لحمل الحزم رواحا » (٩٤) .

وكان عدى مخطئا في نظر الاصمي لانه استعمل (فاره) صفة للفرس ،
و « لا يقال للفرس : فاره ، انا يقال له : جواد وعتيق ، ويقال للكودن
والبغل والحمار : فاره » (٩٥) .

وقد عيب ذو الرمة بقوله :

حتى اذا دوّمت في الارض راجعة كبر ولو شاء نجى نفسه الهرب
« ثقيل : انا يقال دوّى في الارض ، ودوّم في الساء » (٩٦) . وكان
الاصمي هو الذي خطأ ذا الرمة في هذا الاستعمال (٩٧) ، على حين أن بعض
اللغويين قبله ، ولم ير به بأسا . قال ابن سيده : « وقول ذي الرمة :
حتى اذا دوّمت في الارض راجعة

هو استكراه . قال النارسي : قال ابو عبيد ذلك لانه يجعل التدويم
في الساء ، وهذا للحيوان الطائر ، ودوّى في الارض ، وهذا للحيوان الماشي ،
على مذهبه ، وانا يصف ذو الرمة هنا كلابا وثور وحش . والصحيح بعكس
قول ابي عبيد انا التدوية في الساء والتدويم في الارض ، فقول ذي الرمة
ليس بتكره » (٩٨) . وجاء في اللسان : « وقال علي بن حمزة : لو كان
التدويم لا يكون الا في الساء لم يجوز أن يقال : به دوام كما يقال به
دوار وما قالوا دومة الجندل وهي مجتمعة مستديرة » (٩٩) .

(٩٣) الشمر والشمر : ١٦٨/١ ، ١٦٩ .

(٩٤) نفسه : ١٦٩/١ .

(٩٥) نفسه : ٢٣٠/١ .

(٩٦) الخصائص : ٢٩٦/٢ .

(٩٧) اللسان : (دوم) .

(٩٨) المخصص : ١٣٧/٨ .

(٩٩) اللسان : (دوم) .

وأخذوا على أبي تمام قوله :

ومها من مها الخدود وآجا ل ظباء يسرعن في الآجان

فقالوا : « وهذا ما غلط فيه أبو تمام لان الاجال جمع اجل وهو القطيع من البقر : يقال : سرب من قطا وسرب من نساء وسرب من ظباء » (١٠٠) .

ولم يرض الامدي عن أبي تمام لانه استعمل « الالتدام » وهو ان تضرب النساء صدورهن في النياحة ، بمعنى « اللطم » وهو ضرب الخدود . قال أبو تمام :

لها من لوعة البين التدام بعيد بنسجا ورد الخدود

فقال الامدي : « والتدام النساء في النياحة انما هو ضرب الصدور . واللطم هو ضرب الخدود . هذا المستعمل المعروف في كلامهم . فاللطم هو الذي يعيد بنسجا ورد الخدود لا الالتدام لان الالتدام ان تأخذ امرأة جلدا أو نعلا فتدق بها صدرها . . . فجعل أبو تمام لطم الوجه لدماء » (١٠١) . ثم عاد الامدي فقال : « ولعل ذلك يسوغ ، فان الدم هو دق الشيء على الشيء » (١٠٢) .

تعريفه

واخطأ المتبي في استعمال كلمة (الشائل) فتعبه ابن جني ورد عليه . قال المتبي :

فلقن كل رديئة ومصبوحة لبن الشائل (١٠٣)

ويبدو ان الامر اختلط على الشاعر ، فاستعمل (الشائل) : « وهي الناقة التي تشول بذنبها للقاح ، ولا لبن لها اصلا ، والجمع شوائل مثل

(١٠٠) الموشح : ٥٠٥ .

(١٠١) الموازنة : ٣٠/٢ .

(١٠٢) نفسه .

(١٠٣) يصف المتبي جيوش العدر بانها قابلت كل رمح قوي وكل فرس كريم يبقى صابحا لبين النوق لفرط اعتزاز اهله به .

« راح وركع » (١٠٤) مكان (السائلة) وهي الناقة التي أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها والجمع سُئول على غير قياس » (١٠٥) .
 وقد اعترض ابن جني عليه قائلاً له : « السائل لا لب لها . وإنما التي لها بقية من لبن يقال لها السائلة بالياء » (١٠٦) . فقال له المتنبّي : « اردت انهاء وحذفتها » (١٠٧) . وإذا كان المتنبّي قد صدق ، فإن حذفه (الهاء) أدخل يراده ، ونقل الكلمة من معنى الى معنى لم يقصده ، ولا يقتضيه المقام .

المصادر :

وكان من بين اخطاء الشعراء ايرادهم الفعل مشغوعا بصدر فعل آخر، فيؤدى ذلك الى تغيير المعنى الذي قصدوا اليه . ومن الامثلة على هذا الخطا قول محمد بن يسير :

ولو حنمت أتانى الرزق في دعة ان القنوع الغنى لا كثرة المال

قال المبرد : « اخطأ محمد بن يسير لان القنوع انما هو السؤال ، والقانع السائل . قال الله تبارك وتعالى (فكلوا منها واطمئنا القانع والمعتر) فالمعتر الذي لا يتعرض ولا يسأل . يقال : قنّع يقنّع قنوعا اذا سأل فهو قانع لا غير . واذا رضي قيل : قنّع وقانع جميعا » (١٠٨) .

واستعمل المتنبّي ايضا (القنوع) بمعنى (القناعة) فقال :

ليس التعلل بالامال من أربي ولا القنوع بضعك العيش من شيمي (١٠٩)
 والقنوع - كما تقدم - هو السؤال والتذلل . ولكن من معانيها ايضا الرضا بالقسم ، نقل بن منظور عن ابن السكيت انه قال : « ومن العرب من يجيز القنوع بمعنى القناعة » (١١٠) وذكر الفيروزآبادي ان من امثالهم

(١٠٤) ، (١٠٥) القاموس المحيط (شالت) .

(١٠٦) ، (١٠٧) المكبرى : ٢٦/٢ .

(١٠٨) الموشح : ٥٧ .

(١٠٩) الوساطة : ٦٢ .

(١١٠) اللسان : (قنّع) .

« خير الفنى القنوع وشر الفقر الخضوع » (١١١) ومعنى المثل : خير الفنى (الرضا) وليس من قصدهم ان خير الفنى السؤال والتذلل . ونحن نهم من هذا ان استعمال (القنوع) بمعنى « الرضا » قليل ، ولكن قلّة استعمالها بهذا المعنى لا تجعلنا نخفيء من يستعملها على هذا الوجه .

الثبّة والاستفانة :

وخطأ الاصعي عبدالله بن قيس الرقيات في قوله :

تبيكم أسماء معولة وتقول ليلى وارزيتيه

لأنه « كان ينبغي أن يقول وارزيتاه كما تقول : واعاءه وأخيّاه » (١١٢) .

وكان المتبني مخطئا في نظر بعض النقاد لأنه قال :

واحرّ قلباه من قلبه شجم

« فألحق الهاء في (قلباه) ... وانما تلحق في الوقت لخفاء الالف

فتبين بها ، فاذا وصلت حذف » (١١٣) . غير أن بعضهم دافع عن المتبني

قائلا : « هذا هو الاكثر عند العرب والاختيار عند النحويين ، غير أنه ليس

على الشاعر عيب في اتباع اللفظة النادرة ، اذا رواها الثقات ، ومتى وجدت

الرواية عن ثقة لم يحظر على الشاعر قبولها ، والعمل بها ، لاجل اختلافه

النحويين . وقد اجاز الفراء وغيره الحاق هذه الهاء في الوصل ، وروى فيه :

ياربّ يا ربّاه اياك أسل غنوا أيا ربّاه من قبل الأجل

وانشدوا

يا مرجاه بحمار ناجية

فتي هذه الايات عذر واضح للمتبني » (١١٤) .

(١١١) القاموس المحيط (القنوع) .

(١١٢) الموشح : ٢٦٥ .

(١١٣) الواسطة : ٤٦٢ .

(١١٤) نفسه : ٤٦٢ ، ٤٦٤ .

الاعراب :

وقد أخطأ بعض الشعراء في الاعراب ، فوقف النقاد عند خطئهم ، ونبهوهم عليه . وهذا اللون من الخطأ قديم ، وقع فيه الشعراء في حقب شتى ، الا ان النحاة ، كما مرّ بنا (١١٥) ، كبر عليهم أن يرموا المتقدمين من الشعراء بالخطأ ، فراحوا يلتسبون لهم المعاذير ، ويتأولون أقوالهم بما يجعلها متفقة مع النحو ، ومسايرة لتواعده وأصوله .

ومع تلييننا بأن كثيرا ما عدّ خطأ من ناحية الاعراب ، كان له وجه من هذه اللغة أو تلك ، فان الخطأ في الاعراب أمر قد عرض للشعراء ، والمتأخرين منهم بوجه خاص ، وقد قدمنا في فصل (التطور اللغوي) (١١٦) ما يمكن أن يكون تعليلا له . واذا تجاوزنا ما أثار عن المتقدمين كأمريء القيس والنابغة والفرزدق وزياد الأعجم من اخطاء ، فإنا نجد عند شعراء العصر العباسي على امتداده اخطاء نحوية كثيرة ، يكفي في الدلالة عليها التمثيل بهذه الامثلة :

وصم أبو نواس بالخطأ اذ قال :

يا خير من كان ومن يكون الا النبي الطاهر الميمون

فقالوا « ان حق الكلام النسب : الا النبي الطاهر الميمون » (١١٧) .

وقال البحتري :

أبا غالب بالجود تذكر واجبي اذا ما غني الباخلين نسيه

فأسكن الياء نزولا على ما تقتضيه القافية ، وهي هاء مكسورة ، فعد ذلك لحنًا ، الا أن ابن رشيقي ، قال : « ولست أرى به بأسا ، هذا الشاعر أسكن الياء لما يقتضيه بناء القافية ، فاذا أسكن الياء وما قبلها مكسور ، لم

(١١٥) تنظر ص ١٥٥ من هذه الرسالة .

(١١٦) تنظر ص ٦٨ من هذه الرسالة .

(١١٧) الموشح : ٤٧٠ .

تكن الهاء الا مكسورة اتباعا لما قبلها ، لا سا وهي طرف ، وقد فعلوا مثل هذا في وسط الكلمة ، وقال رؤبة :

كان أيديهم بالقاع القرق^(١١٨)

ولم يقل : أيديهم بالضم استقلا ، وإضا فكأنه - أعنى البحري - نرى الوقوف ثم جرّ القافية كما دتّم في تحريك الساكن ابدأ الى الجرّ «^(١١٩)» .
ولا يخلو كلام ابن رشيق هنا من نزعة الى الدفاع عن اخفاء الشعراء ومخالفاتهم ، ومحاولة تسويغها ، والتناس ما يؤيد صدور أمثالها عن الشعراء القدامى .

التعريف والتنكير :

وخطيء ابو نواس لقوله :

كانّ كبرى وصغرى من فواقها حصباء درّ على أرض من الذهب

وذلك لان (كبرى) و (صغرى) : « من قبيل ما لم تنكره العرب بحال ، ولا نطقت به الا معرفتا حيث وقع في الكلام ، والصواب ان يقال فيها : هذه الكبرى ، وتلك الصغرى ، أو هذه كبرى اللالي ، وتلك صغرى الجوارى ... وطولى القصائد ، وقصرى الارجيز »^(١٢٠) . وبمعنى أن مؤنث (أفعل) لا تعرى من (لام التعريف) أو الاضافة ، ولم يشذ من ذلك الا (دنيا) و (أخرى) : « فانها لكثرة مجالها في الكلام ، ومدارها فيه ، استعملتا نكرتين »^(١٢١) . وعلى هذا فان ابا نواس خالف المالوف من استعمال هذه الصيغة ، فأوردتها نكرتين ، فعد ذلك لحنا منه . الا ان ابا نواس ، لم يعدم من دافع عنه ، وتناول خطأه هذا ، فقد قالوا « جعل (من)

(١١٨) القرق : الاملس .

(١١٩) العمدة : ٢٤٩/٢ .

(١٢٠) درة الفواص : ٢٦ .

(١٢١) نفسه .

في البيت زائدة على ما اجازه ابو الحسن الاخش من زيادتها في الكلام
الواجب « (١٢٢) » . وعلى هذا التأويل تكون الكلمتان معرّقتين بالاضافة ،
وهو الاستعمال الصحيح لهما .

التعدي واللزوم :

وخطيء المتنبى لقوله :

فاجرك الاله على عليل بعث الى المسيح به طيبيا

وذلك « لان العرب تقول في ما يتصرف بنفسه : بعثه ، وارسلته ،
كما قال تعالى : (ثم ارسلنا رسلا) وتقول فيسا يحل : بعث به وارسلت
به ، كما قال سبحانه اخبارا عن بلقيس : (واني مرسله اليهم بهدية) » (١٢٣) .
وعلى هذا فان المتنبى لم يستعمل الفعل (بعث) على الوجه المعروف في
استعماله ، وكان الصواب ان يقول : بعث العليل ، لا ان يقول : بعث به ،
لان العليل متصرف بنفسه . ولم يعدم المتنبى من تأول استعماله هذا ،
ودافع عنه ، فقد قيل « اراد به ان العليل لاستحواذ العلة على جسده وحده
قد التحق بحيّز ما لا يتصرف بنفسه ، فلماذا عدى الفعل اليه بحرف الجر
كما يعدى الى ما لا حس له ولا عقل » (١٢٤) .

تلك هي بعض ضروب الخطأ التي وقع فيها الشعراء ، وقد أوردتها على
سبيل التثليل ، لا على سبيل الحصر والاحصاء . وواضح أن الاخطاء التي
عرضنا لها ما أخذها النقاد على الشعراء خاصة ، اما الكتاب فلم يقع لنا من
اخطائهم ما نستطيع ان نثل له ، أو نفيض في الحديث عنه . نكتب التقديرات
التي بين ايدينا تخلص من الاشارة الى اخطاء الكتاب وأوهامهم ، وقد كنت
أظن أن كتب (لحن الخاصة) مصدر يدنا باخطاء الكتاب ، ولكنني سرعان
ما تبينت أن هذه الكتب كانت كثيرا ما تعالج الاخطاء من غير ان تورد

(١٢٢) درة النواص : ٢٧ .

(١٢٣) نفسه : ١٢ .

(١٢٤) درة النواص : ١٢ .

النصوص التي وردت فيها تلك الاخطاء ، ومن غير أن تفصح عن ارتكابها ، فلا ندري أهو شاعر أم نائر ، وفي حالات قليلة كانت تسب بعض الاخطاء الى هذا الشاعر او ذاك . وبذلك لا نستطيع - فيما عدا حالات التصريح القليلة التي اشرنا اليها - أن نجزم بأن ما فيها من أخطاء هو مما اجترحه الكتاب وحدهم ، او تورط فيه الشعراء دون سواهم . كما ان هذه الكتب قد انطوت على كثير من الاخطاء التي لم ترد في شعر أو نثر ادبي ، وانا كانت تجرى على السن المتقين ، وأرباب العلوم ، وهم يتحدثون في شؤون الحياة اليومية . ولبيبي ان هذا الضرب من الاخطاء لا يعينا ونحن بصدد الكلام على لغة الادب .

ان امام الباحث ، اذن ، نوعين من الاخطاء : الاول ما اخذه العلماء على الشعراء ، ونسبوه اليهم بشكل صريح ، وقد عرضنا امثلة من هذا النوع . الثاني : ما اخذه العلماء على الخاصة ، وفيهم الشعراء والكتاب والفقهاء والمؤلفون في صنوف من المعرفة شتى ، من غير أن يصرحوا^(١٢٥) بسبته الى هذا الفريق أو ذاك من هؤلاء الخاصة . وفي هذا الصنف أيضا اخطاء لغوية يبدو أنها لم تجر في كلام ادبي نثرا كان ام شعرا ، بل كانت تجري في لغة التخاطب اليومية . ثم ان هذه الاخطاء - أعني التي لم يصرح بنسبتها الى شاعر أو كاتب - لا يخرج أكثرها في جوهره عن اخطاء الشعراء فهي أما كلمات عدل بها عن بنائها ، أو كلمات استعملت في غير ما وضعت له . وكذلك كانت أكثر الاخطاء التي نسبت صراحة الى الشعراء . ومعنى ذلك ان الخطأ - في غالب الاحيان - هو الخطأ ، سواء أكان عند الشاعر ام الناشر .

(١٢٥) وشلا ابو بكر الزبيدي في (لحن العوام) وابن مكي الصقلي في (تثقيف اللسان) وابن برى في (اغلاط الضعفاء من الفقهاء) فقد ذكر الاول خطابين نسبهما الى بعض الكتاب ، ونص الثاني على اخطاء الفقهاء والاطباء واصحاب الوثائق ، ونص الثالث على اخطاء الضعفاء من الفقهاء ، وهؤلاء جميعا - عدا من ذكر الزبيدي - غير كتاب النثر الادبي كما هو واضح . ونص هؤلاء المؤلفون كما نص غيرهم في حالات قليلة على اخطاء بعض الشعراء .

وعلى ذلك فإن كتب النقد العامة ، والنقد اللغوي خاصة ، لا تمدنا صراحة
بأمثلة من اخطاء الكتاب ، الامر الذي يجعلنا لا نستطيع أن نشرد اخطاء
الكتاب بالبحث ، على نحو ما فعلناه في اخطاء الشعراء .

وسبب خلوّ كتب النقد العامة من الاشارة الى اخطاء الكتاب وأوهامهم
هو ان النقاد وعلماء العربية لم يعنوا بلغة النثر عنايتهم بلغة الشعر ، وذلك
أمر واضح لمن يدرس النقد العربي والبلاغة العربية ، فأكثر شواهد النقاد
والبلاغيين مستمدة من الشعر ، وأكثر ابحاثهم وملاحظاتهم تدور حوله ،
وكانوا قلما يعمدون على النثر ، او يخلطون بدرسه . وقد جاءت بعض الكتب
تحمل عناوين تشير الى انها مؤلفة في نقد الشعر والنثر ، ككتاب (المثل
السائر في ادب الكاتب والشاعر) وكتاب (الجامع الكبير في صناعة المنظوم
من الكلام والمنثور) وكتاب (تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر)
ولكنها في الواقع لم تعط النثر من العناية ما اعطت الشعر ، وكانت شواهدها
من الشعر لا تقاس من حيث الكثرة بشواهدنا من النثر .

الفصل الثاني

مقاييس الجورة والراءاة

(١)

في المفردات

٢ - تأليف المفردة :

تتألف المنردة من وحدات صغيرة ، تسمى الوحدة حرفا ، أو صوتيا اللغويا . وقد عني علماء العربية منذ عهد مبكر بدراسة (الأصوات اللغوية) منفردة ، قبل أن تتألف فتتألف منها المنردات .

وكان الخليل بن أحمد أول من عرض لها بالدرس والبحث (١) ، ثم تتالى العلماء بعده على هذا الوجه من البحث (٢) : يولونه عنايتهم ، ويصرفون اليه اهتمامهم ، حتى كان لنا فيه مجموعة من المباحث القيمة ، أطلق عليها المحدثون اسم (الدرس الصوتي) .

فطن العلماء الى ان الهواء يخرج من الرئتين مع النفس ، فيجري في فراغ الفم مستطيلا غنلا « حتى يعرض له في الحلق والفم والشفنتين مقاطع تشبه عن امتداده واستطالته ، فيسمى المقطع ايضا عرض له حرفا ، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها » (٣) ومعنى ذلك أن في الفم نقاط ارتكاز ، ينقطع عندها الهواء الجارى في فراغ الفم ، فيكتب عند انقطاعه جرسا ما ، ويتكون الصوت اللغوي أو الحرف . ونقاط الارتكاز هذه

(١) عبقرى من البصرة : ٤٠ .

(٢) سر صناعة الاعراب (مقدمة التحقيق) : ١٤/١ .

(٣) نفسه : ٦/١ .

مبثوثة في الفم من أقصى الحلق حتى الشفتين ، وحيث ينقطع الهواء عند احداها ، ينشأ صوت ذو جرس يختلف عن الصوت الذي ينشأ عندما ينقطع الهواء عند نقطة ارتكاز اخرى . يقول ابن جني : « الا ترى أنك بتسدىء الصوت من أقصى حلقك ثم تبلغ به أي المقاطع شئت ، فتجد له جرسا ما ، فان اتقلت عنه ، راجعا منه ، أو متجاوزا له ، ثم قطعت ، أحست عند ذلك صدى غير الصدى الاول ، وذلك نحو الكاف فانك اذا قطعت بها سمعت هنا صدى ما ، فان رجعت الى القاف سمعت غيره ، وان جرت الى الجيم سمعت غير ذيك الاولين » (٤) .

وقد شبه بعضهم الحلق والفم بالناي « فان الصوت يخرج فيه مستطيلا املس ساذجا ، كما يجري الصوت في الألف غنلا بغير صنعة ، فاذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة ، وراوح بين أنامله ، اختلفت الاصوات ، وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه ، فكذلك اذا قطع الصوت في الحلق والفم باعتداد على جهات مختلفة كان سبب استماعنا هذه الاصوات المختلفة » (٥) التي اصطلحنا على تسميتها بـ (الحروف) .

وبعد ان أدركوا حقيقة الصوت اللغوي ، وسبب منشئه ، شرعوا يتبعون مخارجه ، وهي التي ساهبا بعض المحدثين (٦) « تقاطع الارتكاز » ، وقلنا انها مبثوثة في الفم من أقصى الحلق حتى الشفتين ، فوجدوا ان عدد هذه المخارج ستة عشر مخرجا « ثلاثة حلقية وهي الهززة والالف والهاء ، هذا على ترتيب سيبويه ، وأما على ترتيب ابي الحسن الاخش فان الهاء مع الالف لا قبلها ولا بعدها ، ومخرجان يليان هذه الثلاثة المذكورة وهما العين والحاء ، ومخرجان آخران فوق ذيك من أول الفم وهما الفين والحاء وحرف من أقصى اللسان وهو القاف . واسئل من موضع القاف قليلا مخرج الكاف .

(٤) سر صناعة الاعراب : ٦/١ .

(٥) نفسه : ٩/١ .

(٦) ينظر : عبقرى من البصرة : ٣٦ .

وهذان الحرفان - اعني القاف والكاف - يدعيان لهويين من اللهاة . وثلاثة
 أحرف من وسط اللسان : وهي الجيم والشين والياء ، وتسمى الشجرية .
 ومن أول حافة اللسان وما بينهما من الأضراس مخرج الضاد ، ويسى المتفرد
 المستطيل . ومن حافة اللسان من أدناها الى متتهى طرفه ما بينها وبين ما يليها
 من الحنك فوق الضاحك والناب والثنية والرباعية مخرج اللام ، ويسى
 المنحرف . ومن طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا السفلى مخرج انون .
 ومن مخرج التون غير أنه أدخل في ثلث اللسان قليلا لانحرافه الى اللام مخرج
 الراء . وهذه الاحرف الثلاثة اللام والراء والتون تسمى الذلثية . وقال
 سيبويه ان الاصول الخسائية لا تغلو من احدها البتة . وما بين طرف
 اللسان واصول الثنايا ثلاثة احرف هي الطاء والذال والياء ، وتسمى النطمية .
 وثلاثة أحرف ما بين طرفي اللسان وفوق الثنايا وهي الصاد والسين والزاي
 وتسمى الاسلية . وثلاثة احرف ما بين طرف اللسان واطراف الثنايا وهي
 الطاء والذال والياء وتسمى اللثوية . وحرف واحد ما بين باطن الشفة السفلى
 واطراف الثنايا العلى وهو الناء . وثلاثة احرف ما بين الشفتين وهي الباء
 والميم والواو وتسمى الشفوية ، وحرف واحد من الخيشوم وهو التون ويسى
 الخيشومي . فهذه جميع مخارج الحروف « (٧) » .

ولم يكتفوا بتحديد مخارج الحروف ، ومعرفة أحيائها ، بل أخذوا
 يتعرفون طبائعها وصفاتها ، فوجدوها متباينة في ذلك ، فمنها ما يحصر الصوت
 فيجعله لا يجري فيه بسهولة كالذال والطاء والياء والقاف ، ومنها ما يتخذ
 الصوت خلاله ، ويجري الهواء فيه ، فلا ينحبس او يتعثر كالصاد والسين
 والزاي ، ثم عادوا فصنّفوها حسب صفاتها وطبائعها ، ووضعوا لكل مجموعة
 منها لقباً ينم على ما لها من صفات وخصائص : فمنها المجبور والمهموس
 والشديد والرخو والمستعلي والمثل والاذلق والمصت والصحيح
 والمعتل (٨) .

(٧) الجامع الكبير : ٢٧ ، ٢٨ .

(٨) جمهرة اللغة : ٧/١ ، ٨ .

وبعد أن تمّ لهم درس الحروف منفردة ، والوقوف على ما لها من خصائص وأحوال ، شرعوا يراقبونها حين تتضام وتتجاور ، لتكون منها الفردات ، وكان الخليل أول من تبه الى ان العرب لا تألف في كلامها تجاور الحروف المتقاربة في مخارجها ، فاذا تجاور حرفان متقاربان في المخرج في كلمة واحدة تافرا ، ويرداد التنافر شدة اذا كانا من حيز صلب لا يؤدي عمله بسهولة ، كحيز الحلق ، فالهاء والعين وهما متقاربان في المخرج ، لا يأتلفان في العربية الا اذا تقدمت العين نحو (عهد) و (عمن) أو كاتا منصولتين نحو (هرع) و (حلع) وعلى هذا الاساس افكر (الهمضع) وقال : « سغنا كلمة شغناء فانكرنا تأليفها » (٩) . ورأى ان (القاف) و (الكاف) لا يأتلفان الا في كلمات معرّبة وكان يقول « تأليفها معقوم في بناء العربية لقرب مخرجيهما » (١٠) . والضاد والكاف لا تجتمعان في بناء عربي الا اذا قدمت الضاد وفصل بينها وبين الكاف مثل (الضنك) و (الضحك) ولكنها تأتيان في المضاعف متصلتين كالضكك والككك ، وهما مشي في سرعة ، قال الخليل « وهو جائز في المضاعف نحو الضكك » (١١) .

نحو

ومن المتايس التي وضعها لبيان المهمل وتسيّزه من غيره ما قاله عن الابنية الرباعية والخاسية ، فقد كان يرى ان هذه الابنية لا تعرى من واحد أو أكثر من أحرف الذلاقة الستة وهي (ر ، ل ، ن ، ف ، ب ، م) . قال الخليل : « فان ورد عليك خاسي معرّى من الحروف الذلق والشفوية فاعلم انه مولد وليس من صحيح كلام العرب نحو الخضعج والكشعطج واشباه ذلك ، وان أشبه لنظهم وتأليفهم ، فلا تقبلنّ منه شيئا فان النحارير ربما ادخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب ارادة التليس والتنت » (١٢) .

(٩) العين : ٦٢/١ .

(١٠) اللسان : حرف القاف .

(١١) العين : ٦٢/١ .

(١٢) تهذيب اللغة : ٤٤/١ .

ولكنه يستثني البناء الرباعي المجرد من هذه القاعدة ، فقد يخلو هذا البناء من أحد أحرف الذلاقة ، ويشترط عندئذ أن يقترن بحرفي الطلاقة (العين والقاف) أو بأحدها ، فيما يحسان جرسه ، ويخففانه على اللسان ، ويشترط ان يقترن ايضا بالسين أو الدال او بكليهما لانهما يحسان جرس الابنية أيضا ، وكان يقول : « فهما جاء من بناء اسم رباعي منبسط معرّى من حروف الذلق والشفوية فانه لا يعرّى من أحد حرفي الطلاقة أو كليهما ومن السين والدال او احدهما ولا يضره ما خالطه من سائر الحروف الصتم » (١٣) .

وظلت هذه المقاييس التي اهتدى اليها الخليل بشأن بناء الكلمة العربية معترفا بها عند اللغويين (١٤) والنقاد الذين تأخروا عنه ، فقد طال ترددهم لها ، واتخذوها مرجعا في التمييز بين التأليف الحسن والتأليف الرديء ، للسفردات كما استطاعوا في ضوئها ان يفرقوا بين الدخيل والأصيل ، أو المصنوع المقحم في اللغة ، والصحيح الذي نطقت به العرب ، وجاءت به الرواية عنهم .

وكان ابن سنان الخناجي قد عرض في كتابه (سر النصاحة) لخصائص المفردة العربية ، ووضع ثمانية شروط لنصاحتها ، وكلما كانت اللفظة اكثر حيازة لهذه الشروط كانت ادخل في باب النصاحة ، وعلى قدر ما تجمع من اضداد هذه الشروط تبعد عن الحسن او النصاحة .

وكان الشرط الاول متعلقا بتأليفيها وطريقة بنائها ، ولم يخرج ابن سنان في هذا الشرط عما قرره الخليل ، وهو ان تتركب المفردة النصيحة من حروف متباعدة الخارج ، ثم ذكر ان الخليل « قسم تأليف الحروف ثلاثة أقسام : فالاول تأليف الحروف المتباعدة ، وهو الاحسن المختار ، والثاني تضعيف هذا الحرف نفسه ، وهو يلي هذا القسم في الحسن ، والثالث تأليف الحروف المتجاورة ، وهو اما قليل في كلامهم ، او منبوذ رأسا ، لما قدمناه ، والشاهد »

(١٣) تهذيب اللغة : ١/٥٠ .

(١٤) ينظر مثلا من اللغويين ابن جني في الخصائص : ١/٥٢ ، ٥٥ .

على ما ذكرناه الحس ، فإن الكلفة في تأليف المتجاور ظاهرة ، يجدها الانسان من شبه حال التلفظ ، ومن الحروف التي لم يتركب في كلامهم بعضها مع بعض الصاد والسين والزاي ، ليس في كلام العرب مثل صس ولا صس ولا سز ولا زس ولا زص ولا صز ، والعلة في هذا كله واحدة « (١٥) » .

ولم يفت ابن سنان ان يعلل القبح الناشيء من تجاور الحروف المتقاربة المخارج في كلمة واحدة ، فقال : « ان الحروف التي هي اصوات تجري من السمع مجرى الالوان من البصر ، ولا شك في ان الالوان المتباينة اذا جمعت كانت في المنظر احسن من الالوان المتقاربة ، ولهذا كان البياض مع السواد احسن منه مع الصفرة لقرب ما بينه وبين الاصفر ، وبعد ما بينه وبين الاسود » (١٦) .

وجاء ابن الاثير فلم يوافق ابن سنان على تشبيه اصوات الكلمة بالالوان ، فكلما كانت الالوان المزوجة متباعدة قبلها البصر ، واستراح اليها ، وكلما كانت الحروف التي تتركب منها الكلمة متباعدة في المخارج ، قبلها السمع ، وهشت لها الاذن ، لان السمع حاسة ، والبصر حاسة ، وقياس حاسة على حاسة مناسب ، كما تصور ابن سنان . لم يرض ابن الاثير عن قياس ابن سنان هذا ، فقال - مخاطبا ابن سنان - : « انما يستقيم لك ما ذكرته من هذا القياس ان لو توقف في عرفان جودة اللفظة على سماع اصوات مخارجها ، كما يتوقف في عرفان حسن الالوان على ابصارها ورؤيتها ، وانما قد يعلم جودة اللفظة ، ويعرف حسن تركيبها ، من غير ان يسمع لها صوت ، وذلك ان المتأمل للكلام مكتوبا ، من غير تصويت ولا نطق ، اذا عرضه على طبعه السليم ، وفكره المستقيم ، عرف جودة الفاظه ، وعلم حسن تركيبها من قبحه ، ولا خلطة للسمع في ذلك ولا مشاركة ، فقد ثبت بهذا الدليل

(١٥) سر الفحاحة : ٤٨ ، ٤٩ .

(١٦) نفسه : ٥٤ .

فساد ما ذكرته من قياس السمع على البصر ، واختلال ما أشرت اليه من ذلك « (١٧) .

وأتى ابن الاثير بتعليل آخر لجمال اللفظ المؤلف من حروف متباعدة. المخارج فقال : « وانما القول السديد في حسن اللفظ المتباعد المخارج ، وقبح اللفظ المتقارب المخارج ، ما سنورد هاهنا : وهو أن الفائدة في الاشياء المركبة انما هي اختلاف أجزائها وتباين مفرداتها ، ليؤثر التركيب عند ذلك شيئاً لم يكن ، اما حسناً واما قبحاً . فاما اذا كانت اجزاؤها مشابهة بعضها البعض ، فانه لا يكون لتركيبها حينئذ كبير فائدة ، وهذا مما لا نزاع فيه لوضوحه وبيانه » (١٨) .

ثم جاء بعد ذلك بتفسير آخر لما نحسه من جمال في اللفظ المؤلف من حروف متباعدة المخارج ، وما نجده من ثقل وكراهة في اللفظ المركب من حروف متقاربة المخارج ، فقال : ان « النطق اذا أتى على مخارج حروف اللفظة ، وهي متباعدة ليجسما ويؤلفها كان له في ذلك مهلة وأناة ، لان بين المخرج الى المخرج فسحة وبعدا ، فتجيء الحروف عند ذلك متمكنة في مواضعها ، غير قلقة ولا مكدودة . واذا أتى النطق على مخارج حروف اللفظة وهي متقاربة ، ليجسما ويركبا ، لم يخلص من مخرج الا وقد وقع في المخرج الذي يليه ، لتقرب ما بينها ، فيكاد عند ذلك يعتبر أحدهما بالآخر ، فتجيء مخارج حروف اللفظة قلقة مكدودة غير مستقرة في اماكنها ، ولهذا لم ترد العين مع الحاء ولا العين مع الخاء ولا الطاء مع التاء ولا القاف مع الكاف . ولا الذال مع التاء ولا مع الطاء ، وذلك لتقرب مخارج هذه الحروف بعضها من بعض » (١٩) .

(١٧) الجامع الكبير : ٢٨ ، ٢٩ .

(١٨) نفسه : ٢٩ .

(١٩) نفسه : ٤٠ .

وواضح ان تعليل ابن الاثير الاول فلسفي نظري ، لا يصلح لتشير حقيقة لغوية كهذه ، ومثله تعليل ابن سنان السابق الذي قاس فيه الحروف على الالوان ، والتعليل الجديد لها هو ما أشار اليه ابن سنان ، حين ذهب الى ان الحسن هو المرجع في معرفة الفرق بين تأليف حسن وآخر ردي ، يسعى ان ما يستثله اللسان ، ويتعر بنطقه هو التبيح المستكره ، ولا يستثله اللسان الا المفردة المؤلفة من أحرف متقاربة المخارج . وهذا ايضا ما فطن اليه ابن الاثير في تعليله الثاني .

غير ان ابن الاثير لم يوافق ابن سنان على تعليقه فصاحة الكلمة أو حسنها بالتباعد أو التقارب في مخارج الاحرف المؤلفة لها ، ولم يجعل تباعد المخارج قاعدة ثابتة تؤدي الى الحسن في الكلمة ، كما لم يرتق تقارب المخارج . مؤولا عن قبج الكلمة ، وثقلها ، فقال : « قد يجيء في المتقارب المخارج ما هو حسن رائع الا ترى ان الجيم والشين والياء مخارج متقاربة ، وهي من وسط اللسان بينه وبين الحنك ، وتسمى ثلاثتها الشجرية ، واذا تركب منها شيء من الالفاظ جاء حسنا رائعا ، فان قيل : « جيش كانت لفظة محسودة ، او قدمت الشين على الجيم فقيل : (شجي) كانت أيضا لفظة محسودة . وما هو أقرب مخرجا من ذلك : الباء والميم والفاء ، وثلاثتها من الشعة وتسمى الشفوية ، فاذا نظم منها شيء من الالفاظ ، كان جيلا حسنا كقولنا : (فم) ، فهذه اللفظة من حرفين هما الفاء والميم ، وكقولنا : ذقت (بضي) وهذه اللفظة مؤلفة من الثلاثة بجعلتها ، وكلاهما حسن لا عيب فيه » (٢٠) . ثم قال : « وقد ورد من التباعد المخارج شيء ، تبيح أيضا ، ولو كان التباعد سببا للحسن لما كان سببا للقبج ، اذ هما ضدان لا يجتمعان . فمن ذلك انه يقال : ملع : اذا عدا ، فالميم من الشفة والعين من حروف الحلق ، واللام من وسط اللسان ، وكل ذلك متباعد ، ومع هذا فان هذه اللفظة مكروهة الاستعمال ، ينبو عنها الذوق السليم ، ولا يستعملها من عنده معرفة بفن الفصاحة » (٢١) .

(٢٠) المثل السائر : ١٥٢/١ ، ١٥٤ .

(٢١) نفسه : ١٥٤/١ .

وما قاله ابن الاثير حق ، فاللفظ المركب من أحرف متباعدة المخارج جيل ، يخف على اللسان ، ويمدب وقعه في السمع ، كما ان اللفظ المؤلف من حروف متقاربة المخارج ثقيل ، لا تستحليه الاذن ، ولكن لهاتين التاعدتين شواذ ، والذوق هو التيصل في هذا الشأن . ولم يكن ابن سنان موقفا حين جعل تباعد المخارج وتقاربها سببا للحسن او القبح على وجه ثابت ، وبشكل مطلق .

ولكي نستوفي الآراء التي قيلت بشأن تأليف اللفظة من حروف دون حروف ، وما ينجم عن ذلك من جمال أو قبح ، لا بد من الاشارة السريعة الى رأى عبدالقاهر الجرجاني بشأن الكلمة المفردة ، الذي أوردناه في فصل سابق (٢٢) ، وهو رأي يخالف ابن سنان وابن الاثير وغيرها من القائلين بأن اللفظة المفردة يمكن ان توصف بجمال أو قبح ، وتنتع بجودة أو رداءة ، ذلك لان عبدالقاهر لم يجعل للكلمة ، وهي خارج التأليف ، أي شأن أو قية ولم يرها تستحق ان توصف بجمال أو قبح ، بجودة أو رداءة ، حتى تدخل في تركيب ، وتتأخر مع غيرها في سياق . فالفصاحة عند عبدالقاهر من خصائص (النظم) وليست من خصائص اللفظ ، أو هي « خصوصية في نظم الكلم وضم بعضها الى بعض على طريق مخصوصة » (٢٣) . يقول عبدالقاهر : « وهل تجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة الا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها ، وفضل مؤانستها لآخواتها ، وهل قالوا : لفظة متسكنة ومقبولة وفي خلافه قلقة ونائية ، ومستكرهة ، الا وغرضهم ان يعبروا بالتسكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها ، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم » (٢٤) .

وقد اعترضت عبدالقاهر الالفاظ التي يوردها انصار القول بفصاحة اللفظة المفردة ، أو القائلون بأن الخصائص الذاتية للفظة يمكن ان تؤدي الى

(٢٢) تنظر ص ١٢٨ ، ١٢٩ من هذه الرسالة .

(٢٣) دلائل الاعجاز : ٢٠ .

(٢٤) دلائل الاعجاز : ٣٦ .

جبالها أو قبحها . وهذه الالفاظ نوعان : الفاظ حسنت بما فيها من خصائص ذاتية تتعلق بتباعد مخارج حروفها ، والفاظ أخرى قبحت ، واتصفت بالمسر ، والثقل على اللسان ، لخصائص ذاتية أيضا ، نجمت عن تقارب مخارج حروفها . لقد اعترضت عبدالقاهر مثل هذه الالفاظ فاضطر ال ان يقول : « وهذه شبهة اخرى ضعيفة عسى ان يتعلق بها متعلق ، من يقدم على القول من غير روية وهي ان يدعي ان لا معنى للنصاحة سوى التلاؤم اللفظي ، وتعديل مزاج الحروف ، حتى لا يتلاقى في النطق حروف تثقل على اللسان كالذي انشده الجاحظ من قول الشاعر :

وقبر حرب بسكان قصر وليس قرب قبر حرب قبر

... والذي يبطل هذه الشبهة ، ان ذهب اليها ذاهب ، انا ان قصرنا نصحة النصاحة على كون اللفظ كذلك ، وجعناها المراد بها ، لزمتنا ان نخرج النصاحة من حيز البلاغة ، ومن ان تكون نظيرة لها ، واذا فعلنا ذلك نم نخل من أحد مرين : اما ان نجعله المدة في المناضلة بين العبارتين ولا نعرّج على غيره ، واما ان نجعله أحد ما تفاضل به ، ووجها من الوجوه التي تقتضي تقديم كلام على كلام ، فان اخذنا بالاول لزمتنا ان تقصر الفضيلة عليه حتى لا يكون الاعجاز الا به ، وفي ذلك ما لا يخفى من الشناعة ، لانه يؤدي ال ان لا يكون للمعاني التي ذكروها في حدود البلاغة من وضوح الدلالة وسواب الاشارة وتصحيح الاقسام وحسن الترتيب والنظام والابداع في طريقة التشبيه والتشليل والاجمال ثم التفصيل ووضع الفصل والوصل موضعها ... مدخل فيما له كان القرآن معجزا ... وان اخذنا بالثاني وهو ان يكون تلاؤم الحروف وجها من وجوه الفضيلة ، وداخلا في عداد ما يفاضل به بين كلام وكلام على الجملة لم يكن لهذا الغلاف ضرر علينا » (٢٥) .

فالجرجاني لا يرى أن تمت اللفظة المفردة بجمال او فصاحة ، وأن خنت على اللسان ، أو طاب وقعها في الاذن ، ولكنه يعترف بأن خنتها ، ورشاقة تأليفها ، وجه من وجوه فضيلتها ، وهو وجه لا يرقى بها الى الجمال ، أو الفصاحة ، لان الفصاحة عنده ليست نعتا للفظ ، بل هي نعت للتركيب .

وكانت نظرة الجرجاني للفظ نقطة ضعف في منهجه النقدي ، لم يرض عنها بعض النقاد المعاصرين ، ذلك لان لجرس اللفظة وخصائصها الصوتية الذاتية شأننا يجب الا يغفل عند البحث عن المقومات الفنية للعبارة ، كما ان التركيب ، او النظم كما سماه عبدالقاهر ، لا يستغني عن جرس الالفاظ وتكوينها الصوتي في نقل دقائق الشعور ، وخطايا التجربة ، مما يعجز التركيب ، أو علاقات النظم عن نقله او ابرازه . قال محمد مندور : « ينكر عبدالقاهر كما رأينا كل مزية في اللفظ ، وهو في ذلك يناقض آراء الجاحظ في الفصاحة ، ولكن هذا في الحق انكار مسرف لا تفره ، ونحن لا ندعي لرجلنا العصمة ، ولا نضرب دائما بعصاه ، والذي لا شك فيه ان لجرس الالفاظ كما قلنا وقدمنا ايجابيا كثيرا ما يعين الكاتب او الشاعر على استفاد احساسه » (٣٦) .

فن مقاييس الجودة في الكلمة : ان تكون متألفة الحروف ، سهلة الجري على اللسان ، عذبة الوقع في السمع . ومن المحدثين من يرى ان لا داعي لان يضع النقاد العرب هذا المقياس ، اذ ليس بين الفاظ العربية ما هو متافر الحروف ، أو غير متألّف الاصوات ، وان وجدت الفاظ هذه صفتها ، فهي قليلة ، مهجورة ، لا تذكر الا عند التثليل للفظ الرديء التاليف (٣٧) .

٢ - وزنها :

١ - الطول والقصر :

ذكر علماء اللغة ان الاسم لا يبنى على اقل من ثلاثة أحرف ، وهذا البناء هو الاكثر في الكلام ، مزيدا او غير مزيد ، وقد يجيء الاسم على اربعة

(٢٦) في الميزان الجديد : ١٥٥ .

(٢٧) أسس النقد الادبي عند العرب : ٤٢٧ .

أحرف وهو أقل في الكلام من البناء الثلاثي ، ويجيء على خمسة أحرف وهو أقل من البناء الرباعي ، ولا يجاوز الاسم هذا البناء الا مزيدا « وأقصى ما ينتهي اليه الاسم الثلاثي والرباعي بالزيادة سبعة أحرف ، واما الخماسي فلا يبلغ بالزيادة أكثر من ستة أحرف » (٢٨) . واما الافعال فأقل ما تبني عليه ثلاثة أحرف ، وقد تجيء على أربعة أحرف ، والافعال الرباعية أقل في الكلام من الافعال الثلاثية ، ولا يجاوز الفعل البناء الرباعي الا مزيدا « وأقصى ما ينتهي اليه الفعل بالزيادة ستة أحرف ثلاثيا كان او رباعيا » (٢٩) .

ومعنى ما ذكرناه ان الذوق العربي كان يستحلي اللفظ القليل الاحرف، خيديره في الكلام ، ويكثر منه في الاستعمال ، كما كان يستحل اللفظ الطويل، وينثر منه . واللفظة العربية لا تزيد في أقصى حالات طولها عن سبعة أحرف، اما المفردات التي تزيد حروفها عن ذلك فقد عدوها دخيلة ، أو مقحمة مصنوعة ، لم تنطق بها العرب .

وقد نظر النقاد الى وزن الكلمة ، واتخذوه مقياسا من مقياس المفاضلة بين الالفاظ ، فاشتراط ابن سنان ان تكون الكلمة الفصيحة : « معتدلة غير كثيرة الحروف ، فانها متى زادت على الامثلة المعتادة المعروفة ، قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة » (٣٠) . وقد عاب ابن سنان على المتبني قوله :

ان الكرام بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويداواتها

ذلك لانه استعمل كلمة (سويداواتها) وهي رديئة لطولها ، وكثيرة حروفها . قال ابن سنان : « فسويداواتها كلمة طويلة جدا ، فلذلك لا أختارها » (٣١) .

(٢٨) الاستدراك على سيبويه : ٢ .

(٢٩) نفسه : ٣ .

(٣٠) سر الفصاحة : ٧٨ .

(٣١) نفسه .

وأكثر ابن الأثير أن يكون السبب في قبج (سويداواتها) راجعا الى طولها ، ورأى أن جمعها سبب ثقلها وقبجها ، فقال : « كانت وهي مفردة حسنة ، فلما جمعت قبجت ، لا بسبب الطول » (٣٢) . وذهب الى أن الطول لا يوجب دائما قبج الكلمة ، واستدل على ذلك بأن في القرآن الكريم الفاظا طولالا ، وهي مع ذلك حسنة كقوله تعالى (فسيفيكمهم الله) وقونه (ليستخلفنهم في الارض) . وانتهى ابن الأثير بهذا الشأن الى مقياس آخر غير الذي ذكره ابن سنان . قال ابن الأثير : « ان الاصول من الالفاظ لانحسن الا في الثلاثي وفي بعض الرباعي كقولنا : عذب وعسجد ، فان هاتين اللفظتين مجراها ، وكان ينبغي على ما ذكره ابن سنان أن تكون هاتان اللفظتان حسنتين ، ولا يكاد يوجد منه شيء حسن كقولنا جحرش وصهلق ، وما جرى مجراها ، وكان ينبغي على ما ذكره ابن سنان أن تكون هاتان اللفظتان حسنتين ، واللفظتان الواردتان في القرآن قبيحتين لان تلك تسعة أحرف وعشرة ، وهاتان حسنة وخسة ، ونرى الأمر بالضد ما ذكره » (٣٣) .

ومعنى ذلك أن الطول الناجم من الزيادة على الاصول غير قبيح في بعض الاحيان ، اما الطول الناجم عن كثرة الحروف الاصول فهو قبيح . وعلى هذا الاساس استكر بن الأثير كلمه (جحرش) و (صهلق) وهما من الخاسي المجرد ، ولم يستقبح كلمة (فسيفيكمهم) وكلمة (ليستخلفنهم) لان الطول فيها ليس اصلا ، انا هو طارئ ، عليهما بسبب حروف وضائر لمحتت بها ، وهما اصلا من البناء الثلاثي .

على أن الطول - في رأي ابن الأثير - لا يؤدي وحده الى قبج اللفظة وثقلها ، فاذا اجتمع مع طول الكلمة تقارب مخارج حروفها ، قبجت وسبجت فكلمة (مستزرات) لا يرجع قبجها الى طولها ، ولكن الى تجاوز التاء والشين والزاي . ولو كان الطول سبب الثقل والقبح في هذه اللفظة لاستقلنا

(٣٢) المثل السائر : ١٨٨/١ .

(٣٣) نفسه : ١٨٨/١ ، ١٨٩ .

كلمة (متكررات) او (مستغرات) وهما على وزن (متشزرات) . ولو كان الطول سبب القبح في (متشزرات) لذهب قبحها ، بتقصيرها ، وحذفه الالف والتاء منها ، ولكن (متشزر) قبيحة ايضا ، وان كانت اقصر من (متشزرات) . ولكن اذا قلنا (متشرف) لم نشعر بثقل او قبح ، اذ ليس في احرف هذه الكلمة ما يعسر النطق به (٢٤) .

ب - الحركات :

وكما ذاق العرب الحروف ، فاستقلوا واستغنوا وألغوا تجاوزا معينا بينها وكرهوا اخر ، كذلك ذاقوا الحركات فارتضوا ورفضوا ، ومالوا الى تجاوز حركات مخصوصة ، ونفروا من توالي حركات أخرى . وعندهم ان السكون والفتحة أخف من الضمة والكسرة ، يدل على ذلك أن وزن (فَعَل) أكثر الابنية شيوعا في الاستعمال ، لانه أعدل الابنية ، والسبب في ذلك توالي الضمة والسكون ، وهما حركتان خفيفتان ، لا تشدد الالسن مشقة في الانطلاق بها ، ولا تلقى عنقا من تجاوزها . وما يدل على استئثارهم الضم والكسر ، انهم كانوا يهربون من كل منها احيانا الى السكون . قال ابن جني : « ومنه اسكانهم نحو رسل وعجز وعقد ... وكثف وكبد ... واستمرار ذلك في المضموم والمكسور دون المفتوح أول دليل - بفصلهم بين الفتحة واختيها - على ذوقهم الحركات ، واستئثارهم بعضها واستغنائهم الاخر » (٢٥) .

ونظر النقاد الى حركات الكلمة ، واتخذوا منها مقياسا آخر يرجعون اليه في تقديم لفظ على لفظ ، فابن الاثير يرى ان « من اوصاف الكلمة ان تكون مبنية من حركات خفيفة ليخف النطق بها » (٢٦) ويقول : « اذا توالى حركتان خفيفتان في كلمة واحدة لم تستقل ، وبخلاف ذلك الحركات

(٢٤) المثل السائر : ١٨٩/١ ، ١٩٠ .

(٢٥) الخصائص : ٧٥/١ .

(٢٦) المثل السائر : ١٩١/١ .

الثقيلة فانه اذا توالى منها حركتان في كلمة واحدة استثقلت . ومن أجل ذلك استثقلت الضمة على الواو ، والكسرة على الياء ، لان الضمة من جنس الواو ، والكسرة من جنس الياء ، فتكون عند ذلك كأنهما حركتان ثقيلتان » (٢٧) .

ولايضاح مقياس الحركات ، وما له من أثر في جمال المفردة أو قبحها ، مثل ابن الاثير بكلمة (جزع) فقال : « فاذا جعلنا الجيم مفتوحة فقلنا الجزع ، أو مكسورة فقلنا الجزع كان ذلك أحسن من أن لو جعلنا الجيم مضومة فقلنا الجزع ، وكذلك اذا والينا حركة الفتح فقلنا الجزع كان ذلك أحسن من موالاته حركة الضم عند قولنا جزع . ومن المعلوم ان هذه اللفظة لم يكن اختلاف حركاتها مغيرا لمخارج حروفها ، حتى ينسب ذلك الى اختلاف تأليف المخارج ، بل وجدناها تارة تكتسي حنا ، وتارة يسلب ذلك الحسن عنها ، فعلينا ان ذلك حادث عن اختلاف تأليف حركاتها » (٢٨) .

واذا كان ابن الاثير قد قرر ان توالي الضم في كلمة واحدة ، يسبب لها القبح ، فانه عاد ليبين أن هذا المقياس كغيره من المقاييس المتعلقة بحسن الكلمات وقبحها ، ليس قياسا ثابتا مطردا ، وانما شذ منه كثير من الكلمات التي توالى فيها الضم ، فلم تفقد حسنها ، ولم تكتس بالثقل . قال ابن الاثير : « واعلم انه قد توالى حركة الضم في بعض الالفاظ ، ولم يحدث فيها كراهة ولا ثقلا ، كقوله تعالى (ولقد انذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر) وكقوله تعالى (ان المجرمين في ضلال وسعر) وكقوله تعالى (وكل شيء فعلوه في الزبر) فحركة الضم في هذه الالفاظ متواليية ، وليس بها من ثقل ولا كراهة (٢٩) » . ثم قال : « وهذا لا يتقضى ما اشرنا اليه لان الغالب ان يكون توالي حركة الضم مستقلا ، فاذا شذ عن ذلك شيء يسير لا يتقضى الاصل للمقياس عليه (٣٠) » .

(٢٧) المثل السائر : ١٩١/١

(٢٨) نفسه .

(٢٩ ، ٣٠) نفسه : ١٩٢/١ .

ج - الخروج من وزن الى وزن :

أدرك النقاد أن الكلمة إذا حنت لم يكن كل ما يشتق منها حنا^(٤١) ، كما فطنوا الى ان العرب مالوا من بعض المواد اللغوية الى صيغ بعينها ، فاستعملوها ، وأداروها في كلامهم ، وتفرغوا من صيغ أخرى لتلك المواد ، فاستغنوا عنها ، واستعملوا بدلا منها الفاظا من مواد أخرى . فنحن نجدهم مثلا يستعملون المصدر ثم نجدهم لا يستعملون الفعل منه^(٤٢) . ونرى في اقوالهم صيغة اسم المفعول ، ثم لا نرى انهم استعملوا فعله^(٤٣) . وقد أشار ابن جني الى هذه الحقيقة بقوله : «واعلم ان العرب قد تستغني بالشيء عن الشيء حتى يصير المتغنى عنه مقظا من كلامهم البتة ، فمن ذلك استغناؤهم بـ (ترك) عن (ودع) و (وذر) ، فاما قراءة بعضهم (ما ودعك ربك وما قلى) وقول ابي الاسود (حتى ودعه) فلقنة شاذة^(٤٤) » وقوله « ومن ذلك استغناؤهم بلحمة عن ملحمة وعليها كسرت ملامح وبشبه عن مشبه وعليه جاء مشابه^(٤٥) » . وقوله : « ومن ذلك استغناؤهم بقولهم : ما أجود جوابه عن (هو أفعل منك) من الجواب ... ومنه ايضا استغناؤهم باشتد وافتر عن قولهم فقر وشدد وعليه جاء^(٤٦) » .

وبسبب هذا نصح النقاد للادباء بالألا يستعملوا الصيغ المتروكة ، او المتغنى عنها بغيرها ، وذلك لقبحها . قال العسكري : « ومن الالفاظ ما يستعمل رباعيه وخاسيه دون ثلاثيه ، ومنها ما هو بخلاف ذلك ، فينبغي الا تعدل عن جهة الاستعمال فيها ، ولا يفرك أن أصولها مستعملة ، فالخروج عن الطريقة المشهورة ، والنهج المملوك ، رديء على كل حال . الا ترى ان الناس يستعملون (التعاطلي) فيكون منهم مقبولا ولو استعملوا (العطو)

(٤١) دروس في البلاغة : ١٤٩ ، ١٥٣ .

(٤٢ ، ٤٣) نفسه .

(٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦) الخصائص : ٢٦٦/١ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ .

وهو أصل هذه الكلمة ، وهو ثلاثي ، والثلاثي أكثر استعمالا لما كان مقبولا ولا حسنا مرضيا ، فقس على هذا (٤٧) » .

وأخذ ابن الاثير بهذا الرأي ، فذهب الى ان بعض الالفاظ « اذا نقلت من هيئة الى هيئة ، كقولها مثلا من وزن من الاوزان الى وزن آخر ، وان كانت اللفظة واحدة ، او كقولها من صيغة الاسم الى صيغة الفعل او من صيغة الفعل الى صيغة الاسم او كقولها من الماضي الى المستقبل او من المستقبل الى الماضي او من الواحد الى الثنية او الى الجمع او الى النسب او الى غير ذلك انتقل قبها فصار حسنا ، وحسنا جار قبها (٤٨) » .

ثم عرض ابن الاثير لطائفة من الالفاظ حكم عليها بأنها قبيحة ، ولم يكن سبب قبحها الا العدول بها من صيغة الى صيغة ، او من وزن الى آخر من ذلك كلمة (يدع) بمعنى (يترك) وكلمة (دع) بمعنى (اترك) فان كلا منها حسن ، ودائر في الاستعمال ، الا ان الفعل الماضي من هذه المادة لم يستعمل الا على قلة ، واستعمل بدلا منه فعل آخر بمعناه ، ولكنه ليس من مادته وهو (ترك) . وعندما استعمل ابو العتاهية الفعل الماضي من مادة (يدع) فقال :

أثروا فلم يدخلوا قبورهم شيئا من الثروة التي جمعوا
وكان ما قدموا لأنفسهم أعظم نفعاً من الذي ودعوا

خلق ابن الاثير على قول ابي العتاهية هذا بقوله : « وهذا غير حسن في الاستعمال ولا عليه من الطلاوة شيء ، وهذه لفظة واحدة لم يتغير من حالها شيء سوى أنها نقلت من المستقبل الى الماضي (٤٩) » .

وكما رأينا الفعل الواحد تحسن منه صيغة ، ولا تحسن الاخرى ، كذلك الاسماء منها ما يحسن مفردا، فاذا جمعت أو ثنيتها قبح واستحق الاضراح .

(٤٧) الصناعتين : ١٤٩ .

(٤٨) المثل السائر : ٢٨١/١ .

(٤٩) نفسه : ٢٨٢/١ .

ومن الامثلة على ذلك كلمة (اُخِذِع) ، فانها وردت في بيتين ، فكانت في احدهما مستلحة رائقة ، وكانت في الاخر ثقيلة مستكرهة . قال الصمة بن عبدالله :

تلغت نحو الحيّ حتى وجدتني وجعت من الاصفاء ليتا وأخذعا
وقال ابو تمام :

يا دهر قوم من اخديعك فقد أضجبت هذا الانام من خرقك
فعلق ابن الاثير على البيتين بقوله : « الا ترى انه وجد لهذه اللفظة في بيت ابي تمام من الثقل على السمع والكراهية في النفس ، اضعاف ما وجد لها في بيت الصمة بن عبدالله من الروح والخفة والاياناس والبهجة ، وليس سبب ذلك الا انها جاءت موحدة في احدهما ، مشتاة في الاخر ، وكانت حسنة في حالة الافراد ، مستكرهة في حالة الثنية ، والا فاللفظة واحدة ، وانا اختلاف صيغتها فعل بها ما ترى (٥٠) » .

وكلمة (لبّ) بمعنى العقل ، لا تحسن - عند ابن الاثير - الا مجموعة او مضافة ، فاذا استعملت في حال الافراد ، عريت من كل حسن . واستدل على ذلك بأن القرآن الكريم لم يستعملها الا مجموعة كقوله تعالى (وليتذكر اولو الالباب) وقوله (ان في ذلك لذكرى لاولي الالباب) . وقد وردت مضافة في قول النبي (ص) : « ما رأيت ناقصات عقل ودين اذهب لب العازم من احداكن يا معشر النساء » . ووردت مضافا اليها في قوله جرير :

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن اضعف خلق الله اركاناً (٥١)

وقد فطن ابن الاثير الى ان بعض الكلمات من وزن واحد ، ومع ذلك فان منها ما يحسن ويخفف عند جمعه ، ومنها ما يثقل ويقبح ، مما يشير الى

(٥٠) المثل السائر : ٢٨٤/١ .

(٥١) نفسه : ٢٨٤/١ ، ٢٨٥ .

ان الامر يرجع الى الذوق لا الى قاعدة تطرد ، وقياس لا يختلف . فكلمة (ليف) لم تشمل الامفرده ، أما جمعها فقيح متروك ، ولكن كلمة (ضيف) وهي مثلها وزنا ، نراها حسنة رائقة في حال الجمع والافراد . وكلستا (عرجوب) و (جهور) نراها حسنتين في الجمع والافراد ، أما كلمة (عرجون) وهي مثلها وزنا ، وعدة حروف ، نراها تسج وتقبح اذا جمعناها وقلنا (عراجين) (٥٢) .

ونجد مثل هذا الامر في الافعال التي من باب (فعل) ، فبعضها يحسن منه اشتقاق ثلاثة أوزان هي (فاعل) و (فعل) و (فعلان) فنقول : حد فهو حامد وحد وحيدان . وبعضها لا يحسن منه الا اشتقاق وزن واحد ، اما الوزنان الاخران فتيجان وان كانا جائزين ، كالفعل (فرح) الذي لا يحسن منه الا (فرح) اما (فارح) و (فرحان) فغير حسنين ، وان كانا جائزين ، على ان (فرحان) أحسن من (فارح) . وما يدل على قبح (فارح) و (فرحان) عدم ورودها في القرآن الكريم ، ومجيء (فرح) بدلا منهما فيه كقوله تعالى (كل حزب بما لديهم فرحون) وقوله (ان الله لا يحب الفرحين) . وقد جاءت لفظه (فارح) في بيت لاحد شعراء الحسان :

فما أنا من حزن وان جليّ فازع ولا بسرور بعد موتك فارح

فعلق عليه ابن الاثير بقوله : « وهذا غير حسن وان جاز استعماله (٥٣) » . واذا كان وزن (فعلان) المشتق من (فرح) غير متحب فان هذا الوزن اذا اشتق من الفعل (غضب) كان حسنا وسائعا . بل ان (غضبان) أجل من (غاضب) (٥٤) .

فيناك اذن صيغ ثقيلة مسجوجة ، ينبو عنها الذوق وبأبائها ، وما على الاديب الا ان يتباعد عنها ، ويستعاض عنها بما يؤدي مؤاذاها من الصيغ

(٥٢) المثل السائر: ٢٨٧/١ ، ٢٩٠ .

(٥٣) نفسه : ٢٩١/١ .

(٥٤) نفسه .

والالفاظ التي درج الفصحاء من العرب على استعمالها . وللاذباء بهذا الصدد أسوة حنة بالقرآن الكريم الذي تحامى الصيغ المستكرهة ، وعدل عنها الى المتحجب المستلح من ذلك ان الحس العربي لا يالف جمع كلمة (ارض) ، وعلى هذا جاء التنزيل العزيز ، فلم ترد فيه كلمة (ارض) الا مفردة ، وقد تجيء فيه كلمة (السماء) مجسومة ، الا ان كلمة (ارض) تأتي معها في حال الافراد . قال تعالى : (له ما في السموات وما في الارض) وقال : (تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى) . وقد عبّر القرآن الكريم عن الارض مجسومة ، ولكن الجمع لم يكن جمعا صريحا ، قال تعالى : (الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن) (٥٥) .

٣ - الغرابة :

ان العربية لغة قديمة عريقة تستد جذورها بعيدا في أعماق الزمن ، وهذا يعني أنها تشتمل على ألفاظ كثيرة مائة ، جناها المتكلمون وهجروها تبعاً لتطور اللغة ونائها وحيويتها . ومن هنا برزت في النقد اللغوي مألة مهمة ، أولها النقاد ما تستحقه من العناية ، تلك هي مألة الغرابة في الالفاظ . ولم تبرز هذه المألة في النقد اللغوي ، الا لان بعض الاذباء تعسّدوا الاغراب ، وقصدوا الى الالفاظ النادرة والمهجورة ، تحدوهم على ذلك أسباب شتى ، منها « الاقتداء بالاوائل » (٥٦) ، والجري على أساليبهم ، ومنها الادلال بعرفتهم للغة ، واطلاعهم على شواردها ، ومنها ما ساد عند بعضهم من مفهوم خاطيء عن البلاغة ، فقد ظنوها في الاغراب ، وتوخي الوحشي من الالفاظ (٥٧) .

اما النقاد فقد فطنوا الى ان الغرابة في الالفاظ تحول بين الادييب والملمتي ، وتجعل استجابة الاخير صعبة او مستنعة ، فحاربوا الغرابة ، وعدوها مخلة بفصاحة الكلام .

(٥٥) المثل السائر : ٢٨٦/١ . وينظر : دروس في البلاغة : ١٥٩ .

(٥٦) الوساطة : ١٩ .

(٥٧) سر الفصاحة : ٦١ .

وإذا استنينا اللغويين الذين شجعوا الغريب^(٥٨) ، وحفلوا بانسحر المشتل عليه ، رغبة في جمع اللغة ، وبحثا عن الشاهد ، فإن أكثر النقاد قد انحازوا الى السهولة وظل ذلك ديدنهم^(٥٩) .

وكان عمر (رض) قد عدَّ الغرابة مخلة بالجودة ، وجعل السهولة في اللفظ مقياسا يرجع اليه في تقديم شاعر على شاعر ، فقال معللا تقديمه زهيراً على غيره من الشعراء : « انه كان لا يتبع حوشي الكلام^(٦٠) » .

ونقرأ في البيان والتبيين للجاحظ اقولا كثيرة ، تفرَّ من الوحشي ، وتحض الادباء على تركه ، من ذلك قول بشر بن المعتز (ت ٢١٠ هـ) في حقيقته : « واياك والتوعر ، فان التوعر يسلك الى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يتهلك معانيك ، ويشين الفاظك^(٦١) » .

ويذهب الجاحظ همه الى السهولة في الكتابة ، ويسيل الى مذهب الكتاب لانهم آثروا اللفظ الانيس على الوحشي النافر ، فيقول : « أما أنا فلم أر قط أمثلا طريقته في البلاغة من الكتاب : فانه قد التسوا من الالفاظ مالم يكن متوعرا وحشيا^(٦٢) » .

وذهب ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) الى مثل رأى الجاحظ ، فقال عن الكتاب : « ونستحب له ان يدع في كلامه التعمير والتعقيب ... »^(٦٣) .

وجاء تدامة (ت ٣٣٧ هـ) فعدّد عيوب الشعر ، وجعل منها « أن يركب الشاعر فيه ما ليس يستعمل الا في الفرط ، ولا يتكلم به الا شاذاً وذلك هو الحوشي الذي مدح عمر بن الخطاب زهيراً بجانبته له ، وتكّبه اياه ، فقال : كان لا يتبع حوشي الكلام^(٦٤) » .

(٥٨) الموازنة : ٢٨٦/١ .

(٥٩) النقد الادبي في العصر الملوكي : ٢٨٢ .

(٦٠) الموازنة : ٢٨٢/١ .

(٦١) البيان والتبيين : ١٢٦/١ .

(٦٢) نفسه : ١٢٧/١ .

(٦٣) ادب الكتاب : ١٢ .

(٦٤) نقد الشعر : ١٧٠ .

وظن قدامة لمسألة مهمة ، تبرز عند الكلام على الغريب وهي ان لكل عصر لغة ، وان ما يعد غريبا في عصر ، لا يعد كذلك في عصر سابق ، واذا استعمل القديماء الالفاظ الغريبة فان ذلك لا يقدر في لغتهم ، لان تلك الالفاظ لم تكن غريبة في عصرهم ، بل كانت مما يألونه ، ويتداولونه . قال قدامة : « وهذا الباب (اي الغريب) مجوز للقديماء ، ليس من أجل أنه حسن ، ولكن من شعرائهم من كان اعرايا قد غلبت عليه العجرفة ، ومست الحاجة الى الاستهاد باشعارهم في الغريب ، ولان من كان يأتي منهم بالحوشي لم يكن يأتي به على جهة التطلب والتكلف لما استعله منه ، لكن لعادته وعلى سجية لفظه . فاما اصحاب التكلف لذلك فهم يأتون منه بما ينافر الطبع ، وينبوعه السمع ، مثل شعر ابي حزام غالب بن الحارث العكلي وكان في زمن المهدي (٦٥) » .

وعرض القاضي الجرجاني (ت ٣٩٢ هـ) للوضوع نفسه ، فذكر ان العربية لغة صحراوية ، وأنها من أجل ذلك حافلة بمادة كبيرة تتعلق بالصحراء ، وتعبّر عما فيها من ضروب الحياة ، وان تلك المادة لم تخل من الفاظ كثيرة اتست بالثقل ، وحين هجر الناس الصحراء ، ونزعا الى الحواضر ، وأقاموا فيها ، اختاروا من المادة اللغوية التيها وأسهلها ، « وعدوا الى كل شيء ذي اسما كثيرة ، اختاروا أحسنها سمعا ، وألطفها من القلب موقعا ، والى ما للعرب فيه لغات فاقنصروا على اسانها وأشرفها ، كما رأيتم يختصرون اللفظ الطويل فانهم وجدوا للعرب فيه نحو من ستين لفظة اكثرها بشع شع كالعشنت والعتنظ والعشنت والجرب والشوقب والسلب والشوذب والطاط والطوط والتاق والتوق ، فنبذوا جميع ذلك وتركوه ، واكتفوا بالطويل لخصته على اللسان ، وقلة نبو السمع عنه » (٦٦) .

(٦٥) نقد الشعر : ١٧٠ ، ١٧١ .

(٦٦) الوساطة : ١٨ .

والجرجاني بذلك يشير الى قانون لغوي عام ، تعرض له كل لغة تطول
بها الحياة ، وهو قانون ينظر الى اللغة على انها شجرة ، اوراقها الالفاظ ، وان
هذه الالفاظ دائمة التجدد ، كلما سقط منها شيء ، نبت مكانه شيء آخر ،
وكما ان الشجرة لا تظل جميع اوراقها دائمة الخضرة ، وانما يسقط منها ما
يسقط ، فكذلك اللغة لا تبقى جميع الفاظها حية متعملة ، بل ان منها ما
يدركه الهرم وتاله الشيخوخة ، فيسقط ، ويحل محله لفظ آخر .

فالقاضي الجرجاني اذن يدعو الى أن تجنى الالفاظ الغريبة التي إن
صلحت للتعبير عن حاجات الاوائل فهي لا تصلح للتعبير عن اغراض قوم
تحضروا ، وغلب عليهم اللين .

واذا جئنا الى أبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) وجدناه يصرح بأن
« الاستعانة بالغريب عجز^(٦٧) » . ووجدناه كذلك لا يرضى عن الرواة الذين
أولعوا بالغريب ، ولم يرووا من الشعر الا ما كثر غريبه ، وقل تداول الرواة
له ، فيقول : « وكان المفضل يختار من الشعر ما يقل تداول الرواة له ، ويكثر
بالغريب فيه ، وهذا خطأ من الاختيار لان الغريب لم يكثر في كلام الا أفسده ،
وفيه دلالة الاستكراه والتكلف^(٦٨) » .

وكان للامدي (ت ٣٧٠ هـ) في الغريب رأى آخر ، يختلف قليلا عن
آراء من عرضنا لهم من النقاد السابقين ، فهو يوافقهم حينما فيعد الغريب
هجنة ، وينمى على ابي تمام تورطه فيه ، وطلبه الشديد له ، فيقول : « وأما
قول عمر رضي الله عنه في زهير : انه كان لا يتبع حوشي الكلام ، فان ابا
تمام كان لعمري يتبعه ويتطلبه ، ويتمل لادخاله في شعره^(٦٩) » . وهو
يخالفتهم حينما آخر ، فيهادن الغريب ، وينقل من حملته عليه ، ويسمح لقدر
معين منه بأن يتسرب الى الشعر ، ويأخذ مكانه من القصيد ، ولكن على شروط

(٦٧) الصناعتين : ٣ .

(٦٨) نفسه .

(٦٩) الوازنة : ٢٨٢/١ .

هي : الا يقع في ابتداء القصيدة ، والا يتجاوز ويتلاحق بل يأتي متفرقا ، قد انفصل بعضه عن بعض بالفاظ سهلة واضحة ، وان يكون دون الوحشي ، والوحشي عنده هو ما غرب على البدو أنفسهم ، وقلّ تداولهم اياه . ويتضح لنا موقف الامدى هذا من تعليقه على الالفاظ الغريبة التي ضحها أحد مطالع ابي تمام وهو :

قدك ائتب اربيت في الغلواء

قال الامدى : « وزاد هذه الالفاظ هجئة أنها ابتداء قصيدة » (٧٠) . وقال في موضع آخر : « وأما قوله (قدك ائتب اربيت في الغلواء) فانها الفاظ صحيحة فصيحة ، من الفاظ العرب ، مستعملة في نظهم وثرهم ، وليت من متعسف الفاضلهم ، ولا وحشي كلامهم ، ولكن العلماء بالشعر انكروا عليه ان جمعها في مصراع واحد ، وجعلها ابتداء قصيدة ، ولم يفرق بينها بفواصل » (٧١) . وقال في موضع آخر : « فمن شأن الشاعر الحضري ان يأتي في شعره بالالفاظ العربية المستعملة في كلام الحاضرة ، فان اختار ان يأتي بها لا يستعمله اهل الحضر ، فمن سبيله ان يجعله من المستعمل في كلام اهل البدو دون الوحشي الذي يقل استعمالهم اياه ، وان يجعله متفرقا في تضاعيف الفاظه ، ويضعه في مواضعه فيكون قد اتسع مجاله بالاستعانة به ، ودل على فصاحته وعلوه ، وتخلص من الهجئة » (٧٢) .

ولا ادري كيف جعل الامدى هنا استعمال الغريب دليلا على الفصاحة ، مع ان الفصاحة عند النقاد والبلاغيين تعني الظهور والوضوح . وقد رد ابن سنان الخناجي (٤٦٦ هـ) على من زعم ان الفصاحة باستعمال الالفاظ التي يتعذر فهمها فقال : « وجرى بين اصحابنا في بعض الايام ذكر شيخنا ابي العلاء بن سليمان المعري فوصفه واصف من الجماعة بالفصاحة ، واستدل على

(٧٠) الموازنة : ٢٨٢/١ .

(٧١) نفسه : ٤٤٢/١ .

(٧٢) نفسه : ٤٤٢/١ ، ٤٤٤ .

ذلك بأن كلامه غير مفهوم للكثير من الادباء ، فعجبنا من دليله ، وان كما لم نخالفه في المذهب ، وقلت له : ان كانت الفصاحة عندك بالالفاظ التي يتعذر فهمها فقد عدلت عن الاصل اولا في المقصود بالفصاحة التي هي البيان والظهور ، ووجب عندك ان يكون الاخرس افصح من المتكلم لان الفهم من اشاراته بعيد غير وانت تقول كلنا كان اغضض وأخفى كان أبلغ» (٧٢) .

وخلاصة موقف الامدي من الغريب انه نوعان : الاول وهو ما غرب على اهل الحضرة ، ولكن البدو يستعملونه ويتداولونه ، ولا بأس على الشاعر الحضري ان اودع شعره شيئا منه ، استعانة به ، واظهارا لثقافته اللغوية على الا يجعله في ابتداء التصيدة ، ولا يحشره او يراكمه . والثاني هو ما غرب على البدو انفسهم ، وقد ساء الامدي بالوحشي ، وهو قبيح يحسن بالشاعر الا يعرج عليه ، أو يأتي بشيء منه .

ولم يختلف موقف ابن سنان وعبدالقاهر الجرجاني عن موقف من سبقهما من النقاد ، فقد ذمنا الغريب وذهبنا الى انه هجئة ، تقدح في الكلام ، وتلبه هجة الفصاحة .

وكان لابن الاثير رأي خاص في الغريب . فقد افاض في الكلام عليه ، وأشبعه بحثا وبيانا ، وذهب الى انه لا يتبحر أبدا ، بل ان منه الحسن ومنه القبيح ، وذكر ان النقاد قد خفي عليهم امره ، فوصفوه بالقبح ، وفاتهم انه نوعان : غريب حسن ، وغريب قبيح . قال ابن الاثير : « وقد خفي الوحشي على جماعة من المتتبعين الى صناعة النظم والنثر ، وظنوه المستقبح من الالفاظ وليس كذلك ، بل الوحشي ينقسم قسمين : أحدهما غريب حسن ، والآخر غريب قبيح ، وذلك انه منسوب الى اسم الوحش الذي يسكن القفار ، وليس بأنيس ، وكذلك الالفاظ التي لم تكن مأنوسة الاستعمال ، وليس من شرط الوحش ان يكون مستقبحا ، بل أن يكون نافرا لا يألف الانس ، فتارة يكون حسنا ، وتارة يكون قبيحا ، وعلى هذا فان أحد قسي الوحشي ، وهو

الغريب الحسن ، يختلف باختلاف النسب والاضافات واما القسم الاخر من الوحشي الذي هو قبيح فان الناس في استباحه سواء ، ولا يختلف فيه عربي باد ، ولا قروي متحضر (٧٤) » .

وقد بنى ابن الاثير على هذا الاساس ان الالفاظ تنقسم على ثلاثة أقسام « قسان حسان ، وقسم قبيح . فالقسان الحسان احدها ما تداول استعماله الاول والاخر من الزمن القديم الى زماننا هذا ، ولا يطلق عليه انه وحشي ، والاخر ما تداول استعماله الاول دون الاخر ، ويختلف في استعماله بالنسبة الى الزمن وأهله ، وهذا هو الذي لا يعاب استعماله عند العرب لانه لم يكن عندهم وحشيا وهو عندنا وحشي ، وقد تضمن القرآن الكريم منه كلمات معدودة ، وهي التي يطلق عليها غريب القرآن . وكذلك تضمن الحديث النبوي منه شيئا ، وهو الذي يطلق عليه غريب الحديث . . . واما القبيح من الالفاظ الذي يعاب استعماله فلا يسمى وحشيا فقط ، بل يسمى الوحشي الغليظ (٧٥) » . ويوضح الوحشي الغليظ فيقول : « فلا تظن ان الوحشي من الالفاظ ما يكرهه سمك ، ويثقل عليك النطق به ، وانا هو الغريب الذي يقل استعماله ، فتارة يخف على سمك ولا تجد به كراهة ، وتارة يثقل على سمك وتجد منه الكراهة ، وذلك في اللفظ عيان : احدها انه غريب الاستعمال ، والاخر انه ثقيل على السمع ، كرهه على الذوق . واذا كان اللفظ بهذه الصفة فلا مزيد على فظاظته وغلاظته ، وهو الذي يسمى الوحشي الغليظ ، ويسمى ايضا المتوعر ، وليس وراءه في القبح درجة أخرى ولا يستعمله الا أجل الناس ممن لم يخطر بباله معرفة هذا الفن اصلا (٧٦) » .

ويستفاد من كلام ابن الاثير ان الغريب على درجتين : فنه ما اتسم بخفاء المعنى ، وغضوض الدلالة فقط ، وذلك بسبب غيابه عن الاستعمال ، وجفاء

(٧٤) الملل السائر : ١٥٥/١ ، ١٥٦ .

(٧٥) نفه : ١٥٦/١ ، ١٥٧ .

(٧٦) نفه : ١٦٣/١ .

«الادباء له ، وقد ساء ابن الاثير (الغريب الحسن) ، ومنه ما جمع الى خفاء الدلالة وغوض المعنى ، عيوباً حيةً أخرى كالثقل وتناثر الحروف ، وهذا هو ما ساء ابن الاثير (الغريب القبيح) أو (الوحشي الغليظ) ، وذهب الى انه قبيح تكرهه النفس ، وتسجه الاذن . ثم قال : ان العرب « لا تلام على استعمال الغريب الحسن من الالفاظ ، وأنا تلام على الغريب القبيح ، وأما الحضري فانه يلام على استعمال القسرين معا ، وهو في أحدهما أشد ملامة من الآخر » (٧٧) .

وساق ابن الاثير بعد ذلك أمثلة للغريب الحسن ، استقى بعضها من كتاب بعث به النبي (ص) الى بني نهد جاء فيه : « من محمد سول الله الى بني نهد ، السلام على من آمن بالله ورسوله ، لكم يا بني نهد في الوثيفة الفريضة (٧٨) ، ولكم الفارض والفريش (٧٩) ، وذو العنان الركوب ، والفلقو الضيبس (٨٠) ، لا يمتنع سرحكم (٨١) ، ولا يعضد طلحكم (٨٢) ، ولا يوحبس دركم ، ولا يؤكل أكلكم ، مالم تضروا الاماق (٨٣) ، وتأكلوا الرباق (٨٤) ، من أقرّب بيا في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمة ، ومن أبي فعليه (٨٥) الربوة (٨٦) » . ثم ساق امثلة للغريب القبيح منها قول ابي تمام :

- (٧٧) المثل السائر : ١/١٦٥ . وانظر الجامع الكبير : ٤١ ، ٤٢ ، ٤٦ .
 (٧٨) لكم في الفريضة الوظيفية : اي لكم في فريضة الزكاة الهرة المسنة . يريد انها تبقى لكم ولا تؤخذ منكم .
 (٧٩) الفريش والفاض : المسن من الابل . والفريش : الناقة الحديثة النواج كالنساء من النساء .
 (٨٠) الفلو الضيبس : المهر العسر الذي لم يرض .
 (٨١) السرح : الماشية . يريد انها لا تصرف عن مرعى تريده .
 (٨٢) يعضد طلحكم : يقطع شجركم .
 (٨٣) الاماق : مصدر اماق الرجل الذي صار ذا حمية وانفة وقيل صار ذا حدة وجراة . والمراد هنا مالم تضروا الفدر .
 (٨٤) الرباق : جمع ربة وهي عروة من حبل تجعل في عنق البهمة او في يدها تمسكها . وقد شبه مايلزم الاعناق من العهد بالرباق . واستعمار الاكل لنقض العهد .
 (٨٥) اي من امتنع عن الزكاة وجبت عليه لزيادة كعقوبة له .
 (٨٦) المثل السائر : ١/١٦١ ، ١٦٢ .

قد قلت لما اطلختم الامر وانبعث عشاء تالية غبنا دهاريساً (٨٧)

وقد علق عليه قائلا : « فلنظة اطلختم من الالفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين التيحين في انها غريبة وانها غليظة في السمع كربة على الذوق . وكذلك لنظة دهاريس ايضا (٨٨) » .

ومن الامثلة على الغريب التبيح قول المتبي :

جنخت وهم لا يجفخون بها بهم شيم على الحسب الاغر دلائل

وقد علق عليه ابن الاثير بقوله : « فان لفظة جنخ مرة الطعم ، واذا مرت على السمع اقتسر منها (٨٩) » ثم لام المتبي على استعماله اياها ، وقد كانت له عنها مندوحة ، لان معناها (فخرت) قال : « ولو استعمل عوضا عن (جنخت) فخرت لاستقام وزن البيت ، وحظي في استعماله بالاحسن (٩٠) » .

ولابن الاثير بشأن الغريب رأى آخر ، لم تقع عليه عند سابقه ، وهو أن « الغريب الحسن يسوغ استعماله في الشعر ولا يسوغ في الخلب والمكاتبات (٩١) » وأحسن ابن الاثير ان رأيه هذا قد يلقي معارضة فقال : « وهذا ينكره من يسعه حتى ينتهي الى ما أوردته من الامثلة ، ولربما انكره بعد ذلك أما عثادا واما جهلا لعدم الذوق اللين عنده (٩٢) » .

واما الامثلة التي أوردتها واستدل بها على ان الغريب الحسن يسوغ في الشعر دون الشرفي كثيرة منها قول الفرزدق :

ولولا حياء زدت رأسك شجة
اذا سبرت ظلت جوانبها تغلي
شر نبتة شطاء من يرتسي بها
تسبه ولو بين الخسائي والاعقل

(٨٧) اطلختم : اظلم . عشاء : مؤنث الاعشى وهو الذي لا يعبر ليلا . والغيبس : جمع غباء او اغيس وهي المظلمة . الدهاريس : الدواهي .

(٨٨) المثل السائر : ١٦٤/١ .

(٨٩) نفسه .

(٩٠) نفسه : ١٦٥/١ .

(٩١) نفسه :

(٩٢) نفسه .

وقد علق ابن الاثير عليه قائلاً : « فقولهُ شُرْبَةٌ من الالفاظ الغريبة التي يوغ استعمالها في الشعر وهي هنا غير مستكرهة ، الا انها لو وردت في كلام منشور من كتاب ، أو خطبة لعيت على استعمالها » (٩٣) .

وقول ابي تمام الذي جاءت فيه كلمة (الشدنية) :

يا موضعَ الشدنية الوجناء

فان الشدنية « لا تعاب شعراً ، وتعاب لو وردت في كتاب أو خطبة » (٩٤) .

ولم يكن ابن الاثير ليذهب هذا المذهب ، ويقرر ان الغريب يوغ أحياناً في الشعر ، ولا يوغ بحال في النثر ، لو لم يدرك ان للشعر وظيفة غير وظيفة النثر ، فاذا كان النثر في أكثر أمره يهدف إلى الاقيام ونقل المعاني ، ويقتضي ان تشف كلماته في يسر عن القصد (٩٥) ، فان الشعر لا يكتبني بهذا ، بل يسعى إلى التأثير والايحاء ، ولا يتم له ذلك الا اذا كانت الالفه من غير المألوف المتداول ، الذي لاكته اللسان ، حتى فقد كل قدرة على التأثير والايحاء . وقد التقى ابن الاثير برأيه هذا ومن يقول من النقاد المحدثين بان الفاظ الشعر « أميل إلى الاغراب والطرافة ، وأبعد عن الابتذال من الفاظ النثر » (٩٦) ذلك لان الفاظ الشعر من شأنها ان « تثير الخيال ، فبني أكثر ايحاء من الفاظ النثر ، فلنظرة (سجا) في قول شوقي :

سجا الليل حتى هاج بي الشعر والهوى

لنظرة شعرية لا تجارحاً لنظرة اخرى في هذا المقام » (٩٧) .

وقريب من رأي ابن الاثير ايضاً ما ذهب إليه تشارلتن من ان الشعراء أحياناً اذا ارادوا التعبير عن تجارب مرّت بهم ، أو خواطر طافت بأذهانهم ،

(٩٣) المثل السائر : ١٦٥/١ ، ١٦٦ .

(٩٤) نفسه : ١٦٧/١ ، ١٦٨ .

(٩٥) المدخل إلى النقد الادبي الحديث : ٢٤٦ .

(٩٦ ، ٩٧) النقد الجمالي : ١٠٠ .

اختاروا « للتعبير عما في قلوبهم الفاظا توحى بالمعاني ولا تحددها ، وذلك باستخدامهم كلمات لم يكثر دورانها على اللسان ، ولم تألفها الاسماع ، فتكون غرابتها وندرتها سببا في ابهامها وعدم تحديدها ، لانها عندئذ تكون كالوعاء المليء بسادة مجهولة ، فلا ندري ، على وجه التحديد والدقة ، على أي شيء يحتوي » (٩٨) .

ولكن الشعراء ، كما يرى تشارلتن ، لا يلجأون الى اللفظ الغريب ، الا حين تكون التجارب التي يريدون التعبير عنها « مسا لا يالفه الناس في الحياة الجارية ، فاذا رأيتهم يطلقون على الأشياء غير اسمائها ، فاعلم أنهم لا يضعون ذلك عبثا ، ولو ارادوا الاسماء المعروفة للأشياء لاطلقوها » (٩٩) .

وعلى هذا فإن طبيعة التجربة ، والشعور الذي يتأثر بالشاعر ، ويطلق لسانه بالتعبير ، هو الذي يلي استعمال هذا ، وترك ذلك من الالفاظ ، فاذا اراد الشاعر « شيئا مألونا ، فيطلق عليه اسمه المألوف ، اما ان اراد صورة فيها شيء من الغرابة لانه أحسها في نفسه غريبة ، فيجوز له ان يلجأ الى اللفظ الغريب المبهم » (١٠٠) .

وهكذا فإن ابن الاثير لم يجانب الصواب حين قرر ان الغريب أحيانا يحسن في الشعر ، ولا يصلح ان يحل محله ما يرادفه من الالفاظ الشائنة والمألوفة ، ولكن ابن الاثير لم يعلل ذلك ، ولم يسطر اسبابه ، على نحو ما فعل بعض المحدثين .

وقد يقال : ان الامدي أجاز أيضا للشاعر الحضري ان يصطنع الغريب، وبهذا فإن ابن الاثير لم ينفرد بدعوى ان الغريب يحسن في الشعر دون الشره فنقول : ان الامدي انما أجاز الغريب للشاعر ، لانه قصد بذلك ان يوسع عليه مجال اللغة ، ليتلافى ما يعترض طريقه من صعوبات الوزن والقافية ، كما

(٩٨) فنون الادب : ١٠ ، ١١ .

(٩٩) نفسه : ١١ .

(١٠٠) نفسه : ١٢ .

قصد ان يتيح للشاعر مجالا لاظهار ثقافته ، ومقدرته اللغوية ، اما ابن الاثير فقد صدر في رأيه عن فهم عميق لنظرة الشعر ، واحساس بما يتطلبه أحيانا من النفاذ تكون ندرتها وغرابتها عونا للشاعر على مزيد من الافصاح والتعمير ، والتحريك والايحاء . واذا كان ابن الاثير لم يفصح عن ذلك صراحة ، فقد جعلنا نحسه ، حين وازن الشعر بالنثر ، وجعل النثر ما لا يحسن فيه انثرب . وهذا يعني - دون شك - ان النثر في نظره يرمي الى النقل والايضاح ، اما الشعر فسا يرمي اليه أبعد من ذلك بكثير . واذا كان الغريب عند الامدي ينبغ أحيانا من حاجة شكلية ، هي اقامة الوزن ، وتصحيح القافية ، فإن الغريب عند ابن الاثير لا ينبغ الا من حاجة ملحة ، لانه عنصر مهم من عناصر التعبير عن نط من التجارب والخواطر ، لا يصلح اللفظ المألوف او الشائع للتعبير عنها .

والحقيقة ان ابن الاثير كان قد ذهب في كتابه (الجامع الكبير) الى قريب مما ذهب اليه الامدي بشأن الغريب ، ولكنه رجع عنه في كتاب (المثل النائر) وهو متأخر في زمن تأليفه عن كتاب (الجامع الكبير) كما يرجح بعض الباحثين (١٠١) . لقد ذهب ابن الاثير الى ان الشاعر يجوز له ان يتعمل الوحشي من الكلام اذا اضطرته اليه ضرورات الوزن او القافية ، اما النائر فلا يجوز له ذلك ، لان مجال القول امامه متسع وفسيح . قال : « واعلم ان الانكار على النائر في استعمال الوحشي من الكلام أكثر من الانكار على النافلم ، وذلك لان النائر واسع المجال ، مطلق العنان ، متصرف كيف شاء ، قادر على أن يقيم مكان اللفظة التي ذكرها لفظة أخرى ما هو في معناها . والنافلم قد لا يكتنه ذلك لان مجال التأليف عليه حرج ، ونطاقه ضيق . واذا أراد ان يقيم لفظة مكان لفظة لا يتأتى له ذلك في جميع الحالات ، لانقاذ الوزن عليه » (١٠٢) .

(١٠١) ضياء الدين بن الاثير وجبوده في النقد : ١١٠ .

(١٠٢) الجامع الكبير : ٤٨ .

وواضح ان الغريب هنا وليد حاجة شكلية ، يؤدي عدم تليتها الى الاخلاص بالوزن او التافية ، اما الغريب كما يشرح في قول ابن الاثير الثاني ، فهو نابع من حاجة ملحة ، لانه مرتبط بتجربة معينة ، لا يصلح للإبانة عنها الا اللفظ النادر او الغريب . وبعيد ما بين القولين .

ولكن ينبغي الا تنسى ان ابن الاثير كان كثيره من النقاد ، يجد في الغريب هجئة تقدر في الكلام ، شعرا او نثرا ، واذا كان قد رآد يسوغ أحيانا في الشعر دون النثر ، اذا اقتضته طبيعة التجربة ، ودفعت اليه ظروف القول ، فانه انكره ، وعده ما يسلب الكلام حفة الجمال والجودة ، اذا كان الدافع اليه تقليد الاوائل ، أو تكلف مناحيهم في التعبير . ولا شك في أن هذا يحدث في عصور ضعف الشعر ، كما يرى تشارلتن ، حيث يقل النوايح ، ويكثر المتكلفون الذين « يقصدون الى اشياء معروفة مألوفة ولكنهم يلفونها في لفظ غريب ، فيهبوا الصور ويطنسوها ، وعندئذ تكون غرابة اللفظ ضعفا لا قوة » (١٠٣) .

٤ - العامة :

وكما كان النقاد العرب يكرهون الكلمة الحوشية ، فقد كانوا كذلك يكرهون الكلمة العامة ، المتذلة ، وقد ساءها بعضهم بالسوقية . قال الجاحظ : « كما لا ينبغي ان يكون اللفظ عاميا ، ولا ساظا سوقيا . فكذلك لا ينبغي ان يكون وحشيا » (١٠٤) . وعاب الامدي على ابي تمام استعماله كلمة (تفرعن) في قوله :

جليت والموت مبدٍ حراً صفحته

وقد تفرعن في افعاله الأجل

وذلك لان (تفرعن) من الفاظ العامة (١٠٥) .

(١٠٣) فنون الادب : ١١ ، ١٢ .

(١٠٤) العمدة : ١٢٢/١ .

(١٠٥) الموازنة : ٢٢٧/١ .

وكان المكري يقول : « المختار من الكلام ما كان سهلا جزلا لا يشوبه شيء من كلام العامة ، والفاظ الحشوية ، وما لم يخالف فيه وجه الاستعمال ، الا ترى إلى قول المتنبى :

ابن البطريق والخلف الذي حكنفوا بشرق الملك والزم الذي زعموا

هذا قبيح جدا ، وانما سجع قول العامة : حلف برأسه ، فاراد ان يقول مثله فلم يستوله فقال : بشرق الملك ، ولو جاز هذا لجاز ان يقول : حلف بيافوخ ابيه وبقحدوة سيده » (١٠٦) .

وجاء ابن سنان فجعل من شروط فصاحة الكلمة ان تكون « غير ساقطة عامية » (١٠٧) وأخذ على ابن نباتة استعماله لفظة (فطير) في قوله :

اقام قوام الدين زيغ ننانه وانفج كي الجرح وهو فطير

قال ابن سنان : « فتأمل لفظة فطير تجدها عامية مبتذلة » (١٠٨) .

وانكر ابن سنان ايضا على المتنبى استعماله (غيب الثعلب) في قوله :

خلوقية في خلوقيتنا سويداء من غيب الثعلب

فعلق ابن سنان عليه قائلا : « فان غيب الثعلب مما اقول ان العامة

لو نظمت شعرا لترفعت عن ذكره » (١٠٩) .

ثم غاب ابن سنان الفاظ اخرى وردت عند بعض الشعراء ، بسبب كونها

من الفاظ العوام ، وهي (أوجعتنا) و (كيمياء) و (الجورب) ونعى على

الشعراء استخدامهم اياها ، وعجب من ابقائهم عليها ، وكان يرى ان الاولى

بهم ان يحذفوا الايات التي جاءت فيها تلك الكلمات ، ان لم يكونوا قادرين

على ابدالها بكلمات لم تمتحن ، أو تبتذل باستعمال العامة لها (١١٠) .

(١٠٦) الصناعتين : ١٤٩ . والقحدوة : مؤخر القدال .

(١٠٧) سر الفصاحة : ٦٣ .

(١٠٨) نفسه .

(١٠٩) نفسه : ٦٤ .

(١١٠) سر الفصاحة : ٦٥ .

أما ابن الأثير فقد اشترط أيضا لجودة الكلمة الا تكون مبتذلة بين العامة ، ثم جعل المبتذل العامي ، والساقط السوقي صنفين : الاول ما كان دالا على معنى ، ثم غيرته العامة وجعلته دالا على معنى آخر ، فاذا استخدمه الشاعر ، واراد به المعنى الذي تريده العامة ، غابه النقاد ، ورموه بالجهل بأصول اللغة ، وبالمعاني التي وضعت لها المتردات . ومن الامثلة على ذلك كلمة (ظريف) التي تطورت دلالتها على السنة العوام ، وصارت تطلق على الانسان « اذا كان دمث الاخلاق ، حسن الصورة او اللباس » على حين أن

« الظرف في اصل اللغة مختص بالنطق فقط » (١١١) جود السنه وريف
وقد غاب ابن الأثير ابا نواس لاستعماله كلمة (ظريف) بالمعنى الذي
اشتهر بين العوام ، فقال (١١٢) :

اختصم الجود والجمال	فيك نصارا الى جدال
فقال هذا : بينه لي	للعرف والبذل والنوال
وتال هذاك : وجهك لي	للظرف والحن والكسال
فاترقا فيك عن تراض	كلاهما صادق المتال
كما غاب ابا تمام لقوله :	

لك هضبة الحليم التي لو وازنت°
أجأ اذن ثقلت وكان خفيفا
وحلاوة الشيم التي لو مازجت°
خلق الزمان القدم عاد ظريفا

وقد علق ابن الأثير على هذين البيتين بقوله : « وابو تمام غلط في انه وصف الخلق بالظرف ، وهو من صنف النطق أيضا » (١١٣) . والذي أراه ان ابن الأثير قد وهم لان ابا تمام اراد بكلمة (ظريف) أصل معناها وهو

(١١١) الملل السائر : ١٨١/١ .

(١١٢) نفسه .

(١١٣) الملل السائر : ١٨١/١ ، ١٨٢ .

(الذرابة) و (جودة النطق) وذلك بقرينة (القدم) التي تعنى « العبي عن الكلام في ثقل ورخاوة » (١١٤) .

والقسم الثاني من المبذل العامي ، وهو ما لم تغيره العامة ، الا انها اختصت باستعماله ، فابتذل وامتن لكثرة دورانها على اللسان ، وكثرة طرقه للاسراع .

وقد فطن ابن الاثير الى أن ما كثر استعمال العوام له ، ليس كله من المبذل ، المنصوح بالتباعد عنه في اللغة الادبية ، بل ان من الالفاظ ما يتردد على السنة العوام دون ان يكون ذلك ما يفسده ، او يذهب بجماله ومزاجته ، كالفاظ الساء والارض والنار والماء والحجر والطين ، وأشباه ذلك . اما الالفاظ التي رآها ابن الاثير سجة وثقيلة ، بسبب تداول العامة لها ، فهي الالفاظ التي ساها ب « السخيفة الضعيفة » . وواضح ان مثل هذه الالفاظ لا يميز الا بالذوق فهو وحده المرجع في معرفتها . ومن الامثلة على هذا الضرب من الالفاظ كلمة (الشطار) التي وردت في قول البحري :

وملحة في العذل تحب اتي بالجهل اترك صحبة الشطار

وكلمة (اللقالق) التي جاءت في قول المتبي :

وملومه سيفية ربيعية يصيح الحصا فيها صياح اللقالق

ووصفها ابن الاثير بانها « مبتذلة بين العامة جدا » (١١٥) .

٥ - الجزالة والسهولة والرفقة :

وقسم النقاد العرب الالفاظ على ضروب خمسة : هي العوشي والسوقي والجزل والسهل والرقيق . وما ورد عندهم من صفات أخرى كالتين والفخم والسح والمذب لا يخرج عما ذكرناه ، ولا يضيف جديدا اليه . وقد تقدم

(١١٤) القاموس المحيط (قدم) .

(١١٥) المثل السائر : ١٨٢ / ١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ .

التول في الحوشي والسوقي ، ورأينا النقاد ينفرون منها ، وينصحون للإدباء بالتباعد عنها ، فما كان موقفهم من الجزالة والسهولة والركة ؟

إذا بحثنا عن (الجزل) في المعجم وجدناه يعني : « الحطب اليابس ، أو الغليظ منه » ووجدنا في المعجم أيضا « والجزل خلاف الركيك من الالفاظ » (١١٦) . فالكلمة في أصل وضعها اللغوي تعني القوة والمتانة ، ثم أخذ النقاد هذه الكلمة وصاروا ينعنون بها الالفاظ ، فاللفظ الجزل عندهم هو اللفظ القوي . ولما كان اللفظ الحوشي يتسم عادة بالجناء والقوة ، كما يتسم بخفاء الدلالة ، وغموض المعنى ، فقد احتاط غير ناقد ، واشترطوا مع (الجزالة) صفة أخرى هي (السهولة) .

و (السهولة) عندهم مزدوجة الدلالة فهي تعني سلاسة الكلمة ، وعذوبة وقتها في السمع ، كما تعني وضوح المعنى وظهوره . يقول بعض الباحثين : « تطلق السهولة ويراد بها خفة اللفظ ، كما تطلق ويراد بها وضوح المعنى » (١١٧) .

وواضح ان النقاد لم يشترطوا لجودة الكلمة ان تكون (جزلة) و (سهلة) الا ليعتمدوا بها عن ضربين من الالفاظ ، كانا موضع ازدرائهم ، وهما (الحوشي) أو (الوحشي) و (السامي) أو (السوقي) .

وهذا يعني ان الجيد من الالفاظ ما تحققت له منزلة بين منزلتين : فلا يكون وحشيا ، ثقيل الجرس ، مبهم الدلالة ، ولا يكون غاميا رخوا ، أو ضعيفا ركيكا . و لا تحقق لفظ هذه المنزلة الا اذا كان جزلا وسهلا ، لان الجزالة تكفل له بآينة الفاظ العامة وما إليها من الضعيف والرخيف كما ان السهولة بنهومها المزدوج تخلصه من غلظة البدوي ، وغموض دلالة .

غير ان ثعلبا والمسكري قد صرحا بوجود توافق هاتين الصفتين في اللفظ . قال ثعلب : « فاما جزالة اللفظ فما لم يكن بالمغرب المستعلق البدوي ،

(١١٦) القاموس المحيط : (جزل) .

(١١٧) النقد الادبي في العصر المملوكي : ٢٨٢ .

ولا السفاف العامي ، ولكن ما اشتد أسره وسهل لفظه ، ونأى واستصعب على غير المطبوعين مرامه ، وتوهم امكانه « (١١٨) . وقال العسكري « وأجود الكلام ما يكون جزلا سهلا ، لا يتعلق معناه ، ولا يستبهم مغزاه » (١١٩) . كما ان هناك من اكتفى بوصف اللفظ الجيد بالسهولة ، ورآها بضمومها المزدوج تحقق له المنزلة المطلوبة ، وهي التوسط بين الوحشي الغريب ، والعامي القريب ، كابن قتيبة الذي قال : « ونيسا ذكرت منه (أي الشعر) ، ما ذلك على ما أردت من اختيارك احسن الروى وأسهل الالفاظ ، وابعدها من التعقيد والاستكراء ، وأقربها من افهام العوام ، وكذلك اختار للخليب اذا خطب والكاتب اذا كتب ، فانه يقال : أسير الشعر والكلام المطع ، يراد الذي يطع في مثله من سسه ، وهو مكان النجم من يد المتناول » (١٢٠) . والقاضي الجرجاني الذي قال : « فلا تظنن أنني اريد بالسح البهل الضعيف الركيك . . . بل اريد النبط الاوسط ما ارتفع عن الساقط السوقي ، وانحط عن البدوي الوحشي » (١٢١) .

ومن النقاد كذلك من لم ينعث اللفظ الجيد باحدى هاتين الكلمتين أو بهما معا ، ولكنه اكتفى بوصف حاله ، وتحديد منزلته المثق عليها ، كالجاحظ الذي قال : « كما لا ينبغي ان يكون اللفظ عاميا ولا ساقطا سوتيا ، فكذلك لا ينبغي ان يكون وحشيا ، الا ان يكون المتكلم به بدويا اعرايا ، فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس ، كما يفهم السوقي رطانة السوقي » (١٢٢) . وابن رشيح الذي قال : « وليتجنب السوقي القريب ، والوحشي الغريب ، حتى يكون شعره حالا بين حالين » (١٢٣) .

(١١٨) قواعد الشعر : ٦٧ .

(١١٩) الصناعتين : ٦٧ .

(١٢٠) الشعر والشعراء : ١٠٣/١ .

(١٢١) الوساطة : ٢٤ .

(١٢٢) العمدة : ١٣٣/١ .

(١٢٣) نفسه : ١٩٩/١ .

أما ابن الأثير فقد اشترط في اللفظ الجيد التوسط أيضا ، واكي يحقق ذلك اشترط فيه الجزالة والمذوبة ، بدلا من السهولة التي جعلها بعض النقاد قبله شرطا ضروريا يجب توافره مع الجزالة . قال ابن الأثير : « ونت أعني بالجزل من الالفاظ أن يكون وحشيا متوعرا ، عليه عنجية البداوة ، بل أعني بالجزل أن يكون متينا على عذوبته في القم ولذاذته في السع » (١٢٤) . وقد قلنا ان السهولة مزدوجة الدلالة فهي صفة حسية للفظ تدل على عذوبة وقعه ، وخفة نطقه ، كما هي صفة معنوية تدل على قرب معناه ، وظهور مدلوله . وقد أكد ابن الأثير هنا على المدلول الحسي من السهولة ، وعبر عنه بالمذوبة ، وأما اشتراطه وضوح المعنى في اللفظ الجزل فقد فهم من اشتراطه الابتعاد باللفظ عن عنجية البداوة .

ولكن الالفاظ عند ابن الأثير حين تخرج من عداد الوحشي الغريب ، وترتفع عن السوقي العامي ، تكون على نوعين : جزلة ورقيقة . فأما الجزلة فقد بسطنا مفهومه لها ، وأما الرقيقة عنده فهي « اللطيفة الرقيقة العاشية الناعمة الملس » (١٢٥) . وذهب الى أن لكل من الجزل والرقيق مواضع يحسن استعمالها فيها . قال : « فالجزل منها يتعمل في وصف مواقف الحروب وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك ، وأما الرقيق منها فإنه يتعمل في وصف الاشواق وذكر أيام البعاد ، وفي استجلاب المودات ، وملاينات الاستعطاف واشباه ذلك » (١٢٦) .

فاللفظ الجيد ، إذن ، هو اللفظ المتوسط ، الذي ارتفع عن العامي ، وانحط عن الوحشي ، ولا يتحقق له ذلك - بعد استكمال صفات التأنيف الحسن - الا اذا توافرت فيه صفتان ، هما (الجزالة) و (السهولة) ، وقد رأينا انهم احبوا هذا العنق من الالفاظ ، وعدوه من المطع المونس ، أو

(١٢٤) المثل السائر : ١/١٦٨ .

(١٢٥) نفسه : ١/١٦٨ ، ١٦٩ .

(١٢٦) نفسه : ١/١٦٨ .

القرب البعيد ، الذي يصعب على غير المطبوعين ، وينأى عنهم . وقد رأوا أن الأدب الذي هذه صفات التافه هو الأدب المرضي : ترضى عنه العامة وتهمه ، وتقبله الخاصة وتعجب به . حتى ان البلاغة قد عرفت تعريفا مستبطا منه ، وقائما عليه ، فقل : « البلاغة ما فهمته العامة ، ورضيته الخاصة » (١٢٧) .

٦ - الإيحاء والتخييل :

اللفظة الموحية تعبير حديث أدرك النقاد العرب الاقدمون « حقيقته وان لم يحددوا للافصاح عنه عبارة كالتي نستخدمها في عصرنا الحاضر » (١٢٨) . ونعني باللفظة الموحية أنها تثير الى جانب معناها المعروف معاني جانبية يكون لها وقع كبير في نفس القارىء ، منفردة ، أو متألقة مع الالفاظ الأخرى . ومن اللغويين المحدثين من يرى ان كل كلمة « ايا كانت توقظ دائما في الذهن صورة ما ، ببيجة أو حزينة ، رضية أو كريمة ، كبيرة أو صغيرة ، معجبة أو مشحكة ، تفعل ذلك مستقلة عن المعنى الذي تعبر عنه ، وقبل ان يعرف هذا المعنى في غالب الاحيان . اذكر اسم انسان ما أمام شخص لم يره قط ، فانه يكون عنه فكرة في الحال ، فكرة زائفة على وجه السوم ، فاذا قدمت له هذا المجهول اجابك على الفور : أهو هذا ؟ ما كنت أظنه هكذا . مثل هذا الشيء ، نفسه يحصل بكلمات اللغة » (١٢٩) .

وقد يكون المعنى الإيحاءى للفظلة أمرا مشتركا بين أفراد الياة اللغوية كلهم ، يشتركون في الاحساس به ، وتنصرف اذهانهم اليه ، حال سماعهم الكلمة ، كما قد يكون المعنى الإيحاءى أمرا خاصا بفرد دون فرد ، أو طائفة دون أخرى من الناس ، بمعنى أن لفظلة ما قد تثير في نفس سامع معين ما لا تثيره من الظلال والإيحاءات في نفس سامع آخر ، ولا شك في أن هذه اللفظة قد اكتسبت معناها الإيحاءى من تجارب ذلك الفرد ، أو من طبيعة مزاجه ،

(١٢٧) نهاية الأرب : ١٠/٧ .

(١٢٨) اسس النقد الأدبى عند العرب : ٤٢٤ .

(١٢٩) اللغة : ٢٢٧ .

فصارت تعني عنده ، بجانب معناها الاصلي ، ما لا تعني عند غيره ، من لا يسلكون مع تلك اللفظة ما يملكه من تجارب (١٣٠) .

والمعنى الايحائي هو أحد المقاييس التي يرجع اليها في تقدير قيمة اللفظة ، وهو المسؤول عن روعتها وجودتها ، أو قبجها وردائها ، كما ان النقاد يسمون دائما الى الكشف عن ذلك المعنى الايحائي ، وبمقدار ما يكتشفون منه يتفاوتون في القدرة والمهارة ، فأذكاهم ، واشدهم فطنة ، هو ذلك الذي يتوعب ما توجه اللفظة ، ويتنبه لما تثيره حولها من الدلالات والمعاني .

وإذا كان المشيء يعدد الى لفظ دون لفظ ، ويؤثر كلمة ويصدف عن أخرى ترادفها ، وتؤدي مؤداها ، فانه بذلك يستغل « ما للاتفاظ من قوة تعبيرية ، بحيث يؤدي بها فضلا عن معانيها العقلية ، كل ما تحمل في احشائها من صور مدخرة ، ومشاعر كامنة ، لتتفحصها لفا حول ذلك المعنى العقلي » (١٣١) . أو بمعنى آخر ان المشيء حين يؤثر لفظا على لفظ يدرك « ان الاتفاظ كالتصاقم أغلقت سداداتها على شحنة من تجارب لا حصر لها ، اختزنها فيها الانسان على كرم المصور » (١٣٢) والمشيء البارع « هو الذي يعلم كيف يزيل عن تلك التصاقم سداداتها ليفرغ المكنون المدخّر فيها » (١٣٣) .

والناقد البارع كالمشيء البارع ، هو الذي يلتقط اصداء الاتفاظ ، وما تضمنته من دلالات ، اما الوقوف في نقد اللفظة عند معناها المعجمي ، أو معناها العقلي المصطلح عليه ، فهو قصور يبرأ منه الناقد الكبير ، البصير بأسرار الاتفاظ .

وقد تنبه غير واحد من نقادنا الى ما تثيره بعض الاتفاظ من ايحاءات وغلالات ، ومعان جانبية ، وحكموا لتلك الاتفاظ بالجودة .

(١٣٠) دلالة الاتفاظ : ١٠٢ .

(١٣١) فنون الادب : ٧٦ .

(١٣٢ ، ١٣٣) نفسه : ٧٦ ، ٧٧ .

فالزمخشري أبدى مهارة فائقة في استشفاف الفاظ القرآن ، واستخراج ما تضمنته من دلالات جانبية (١٣٤) . والامثلة على ذلك كثيرة يجدها الدارس مبثوثة في (الكشاف) ومنها وقوفه عند كلمة (يصنعون) في قوله تعالى (لبس ما كانوا يصنعون) تتحدث الآية عن صمت العلماء عن مرتكبي المناكير ، وتصنيفهم بأنهم - تركبهم النبي عن المنكر - آثم من مرتكبيه . واستدل الزمخشري على هذا بما توحىه كلمة (يصنعون) . قال الزمخشري : « كأنهم جعلوا آثم من مرتكبي المناكير ، لان كل عامل لا يسى مانعا ، ولا كل عمل يسى صناعة ، حتى يتمكن فيه ويتدرب ، وينب اليه ، وكان المعنى في ذلك ان مواقع المعصية معه الشهوة التي تدعوه اليها وتحمله على ارتكابها ، واما الذي ينهاه فلا شهوة معه في فعل غيره ، فاذا فرط في الانكار ، كان اشد حالا من المواقع » (١٣٥) . وعلى هذا فكلية (يصنعون) ابلغ من (يعملون) لما توحىه من دلالة الارتكاس في الاثم ، فكان الاثم صناعة لهم وحرفة .

وكان ابن الاثير قد اهتم بالايحاء ، وجعله مسؤولا عن روعة الكلمة وجودتها ، يتضح ذلك من تعليقه على لفظتي « كل حاجة » في قول الشاعر :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالاركان من هو ماسح

قال : « ان في قول هذا الشاعر : (كل حاجة) ما يستفيد منه أهل النسيب والركة والاهواء والمقة ما لا يستفده غيرهم ، ولا يشاركونهم فيه من ليس منهم الا ترى ان حوائج منى اشياء كثيرة ، فمنها التلاقي ومنها التشاكي ومنها التخلي للاجتماع ، الى غير ذلك ما هو تال له ، ومعقود الكون به » (١٣٦) .

(١٣٤) منهج الزمخشري في تفسير القرآن : ٢٢٢ وما بعدها .

(١٣٥) الكشاف : ٦٥٤/١ .

(١٣٦) الملل السائر : ٣٥٢/١ ، ٣٥٤ .

وواضح ان ابن الاثير هنا قد ادرك ما يقول به المحدثون من أن اللفظة قد تثير في بعض النفوس ما لاثيره في نفوس أخرى من ظلال وإيحاءات ، وذلك بحسب ما للفرد او الافراد من تجارب مع تلك اللفظة .

وقد بلغ من احتمال ابن الاثير باللفظ الموحى ، وتقديسه اياه على غيره ، أنه سقى هذا الضرب من الالفاظ بـ (جوامع الكلم) ، وقال عنها : انها « تتضمن من المعنى ما لا تتضمنه اخواتها ما يجوز ان يستعمل في مكانها » (١٣٧) . ومن هذه الالفاظ قول النبي (ص) : (بعثت في نفس الساعة) . قال ابن الاثير : « فقولُه نفس الساعة من العبارة العجيبة ، التي لا يقوم غيرها مقامها ، لان المراد بذلك انه بعث والساعة قريبة منه ، لكن قربها منه لا يدل على ما دل عليه النفس ، وذاك ان النفس يدل على ان الساعة منه بحيث يحس بها كما يحس الانسان بنفس من هو الى جانبه ... ولو قال : بعثت على قرب من الساعة ، أو والساعة قريبة مني ، لما دل ذلك على ما دل عليه نفس الساعة ، وهذا لا يحتاج الى الاطالة في بيانه ، لانه بَيِّن واضح » (١٣٨) .

وقد اعرب ابن الاثير عن أثر الالفاظ الموحية في نفسه فقال : « وكنت اذا مررت بنظري في ديوان من الدواوين ، ويلوح لي فيه مثل هذه الالفاظ أجد لها نشوة كشوة الخمر ، وطربا كطرب الالحان » (١٣٩) .

اما التخيل فهو مقياس اخر رجع اليه بعض النقاد في المناضلة بين الالفاظ بمعنى أنهم استجادوا اللفظ الذي يثير الخيال ويحركه ، ويحل سامعه على استحضار صورة معينة .

وفي ضوء هذا المقياس حكم الرماني بالجودة لكلمة (قدمنا) في قوله تعالى (و قدمنا الى ما علوا من عل فجعلناه هباء منسورا) . قال الرماني :

(١٣٧) المثل السائر : ٤٩/١ .

(١٣٨) المثل السائر : ٥٠/١ .

(١٣٩) نفسه .

« حقيقة (قدمنا) هنا : عدنا . وقدما ابلغ منه ، لانه يدل على انه عاملهم
معاملة القادم من سفر ، لانه من أجل اماله لهم كعامله الغائب عنهم ، ثم
قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم ، وفي هذا تحذير من الاغترار بالامهال ،
والمعنى الذي يجمعهما العدل ، لأن العد الى ابطال الفاسد عدل ، وانتقوم
أبلغ لا بيتنا » (٢٤٠) .

فالرماني فضل (قدمنا) على (عدنا) ، لانها اثارت في خياله صورة
معينة « وهي صورة المسافر الغائب الذي يأتي فيرى القوم على خلاف فيضرب
ليعدل ، ويصلح الفاسد » (١٤١) .

وفي ضوء هذا المقياس أيضا فضل ابن الاثير صيغة (المضارع) على
(الفعل الماضي) ، لان المضارع « أشد تخيلا ، لانه يتحضر صورة الفعل
حتى كأن السامع ينظر الى فاعلها في حال وجود الفعل منه » (١٤٢) . وأستدل
على ذلك بقول تأبط شرا :

بأني قد لقيتُ العولَ تهوي بهُتْ كالصِيفةِ صَحْمَحَانِ
فأضربها بلا وهن فخرت صرِعا لليدين وللجرانِ

« فانه قصد ان يصور لقومه الحال التي تشجع فيها على ضرب العول ،
كأنه يبصرهم اياها مشاهدة ، للتعجب من جرأته على ذلك الهول ، ولو قال
فضربتها عطفا على الاول لزال هذه الفائدة المذكورة » (١٤٣) . ثم قال :
« ألا ترى انه لما قال تأبط شرا (فأضربها) تخيل السامع انه مباشر للفعل
وأنة قائم بازاء العول ، وقد رفع سيفه ليضربها ، وهذا لا يوجد في الفعل
الماضي » (١٤٤) .

(١٤٠) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٧٦ ، ٨٠ .

(١٤١) اثر القرآن في تطور النقد العربي : ٢٤٠ .

(١٤٢) المثل السائر : ١٦/٢ ، ١٧ .

(١٤٣) نفسه : ١٦/٢ .

(١٤٤) نفسه : ١٧/٢ .

واستجاد ابن الاثير العنلة (فوقيم) في قوله تعالى (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم ، وانهم العذاب من حيث لا يشعرون) ، وذلك لانها تثير الخيال ، وتبعث عليه . قال ابن الاثير : « ولذكر لفظة (فوقيم) فائدة لا توجد مع استقالتها من هذا الكلام ، وانت تخص هذا من نفسك ، فانت اذا تلوت هذه الاية يخيل انك ان سقتا خرّ على أولئك من فوقهم ، وحصل في نفسك من الرعب ما لا يحصل مع اسقاط تلك اللفظة » (١٤٥) .

لقد قاس ابن الاثير الالفاظ ببدى ايائها ، واثارتها لخيال السامع ، ورأى ان الايحاء يتحقق للفظ الحثيثي ، كما يتحقق للفظ المجازي (١٤٦) ، الا ان استعمال الالفاظ في معان مجازية هو الذي يكسبها في الغالب تلك الايحاءات والظلال كما انه هو الذي يمنحها القدرة على تحريك خيال السامع ، واثارة الاحاسيس والاشعالات المختلفة عنده . قال : « وأعجب ما في العبارة المجازية انها تنقل السامع عن خلقه الطبيعي في بعض الاحوال حتى انها ليسح بها البخيل ، ويشجع بها الجبان ، ويحكم بها النفاث المتسرع ، ويجد المخاطب بها عند ساعها نشوة كشوة الخمر ، حتى اذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق ، وندم على ما كان منه من بذل مال ، أو ترك عقوبة أو اقدام على أمر مهول ، وهذا هو فحوى السحر الحلال » (١٤٧) .

وجلي ان النقاد العرب الذين قاسوا جودة الكلمة بما تثيره في ذهن السامع من صور وأخيلة واشعالات مختلفة ، قد التقوا بالنقاد المحدثين الذين جعلوا هذه الامور سبب الروعة في اللفظة الشعرية . قال كولردج : « ان صدق الشعور هو هيكل الملكة الشعرية ، والتخييل لباسها ، والحركة

(١٤٥) المثل السائر : ١٢١/٢ .

(١٤٦) نفسه : ٤٩/١ .

(١٤٧) نفسه : ٦٢/١ .

حياتها ، والخيال روحها الذي يربط أيضا كان كل شيء ويؤلف بينه جيما
في لطف وبراعة (١٤٨) » .

٧ - أسماء الثمار والمواضع والاعلام :

ان النقاد ، كما عرفنا ، يتجيدون من الالفاظ ما سلم من عيوب
التأليف ، وتحقت له الطرافة التي تصونه من الابتذال وما ابتعد عن الحوشي
وكان له ايحاء محبب . وهذا يعني أن للشعر عندهم الفاظا خاصة ليس
ليس للشاعر ان يعدوها ، ويأتي بها لم تألفه لغة الشعر ، أو بما لم يستعمله
المجيدون من الشعراء . وقد صرح ابن رشيح بذلك فقال : « وللشعراء
الفاظ معروفة ، وامثلة مالوفة ، لا ينبغي للشاعر أن يعدوها ، ولا ان يستعمل
غيرها ، كما ان الكتاب اصطالحوا على الفاظ بأعيانها ، سواها الكتابية ،
لا يتجاوزونها الى سواها (١٤٩) » .

ونظرة النقاد هذه للالفاظ دعتم الى ان يعيوا بعض الالفاظ ، ويعدوها
من الردى ، الذي لم يخرج من فم شاعر محسن . من ذلك تفريتهم من الفاظ
الفواكه وما لها من صنوف الثمار ، وتيجينهم الشعر الذي ترد فيه ، فقد
روي عن خلف الاحمر انه قال : « قال لي شيخ من أهل الكوفة : أما عجت
من الشاعر قال :

أنت قيصوما وجنجانا

فاحتل له ، وقلت أنا :

أنت اجاصا وتاحا

خلم يحتل لي . (١٥٠) » وأشد ابن الرومي تصيدته التي اولها :

أجنت لك الوجود اغصان وكثبان فيهن نوعان : تفاح ورمان

(١٤٨) عن محمد زغلول سلام في كتاب (ضياء الدين بن الاثير) : ح ١ ص ١٨٢ .

(١٤٩) العمدة : ١٢٨/١ .

(١٥٠) الشعر والشعراء : ٧٧/١ .

أمام عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فقال : « هي دار البليخ . فضحك الجاعة (١٥١) » .

وأخذ صاحب بن عباد على المتنبي استعماله كلمة (الكر) وبعض الانفاذ الدالة على بعض أنواع التور . قال المتنبي .

تقضم الجبر والحديد الاعادى دونه قضم سكر الاهواز
فقال صاحب : « وهذا الكر اذا جمع ال البرني والازاذ فيا تقدم من شعره تم الامر (١٥٢) » .

وأما نظرة النقاد لاسماء المواضع فلم تكن واحدة ، بل استجادوا بعضها ، وسحوا للشعراء بتداوله ، واستقبحوا بعضها ، وقدحوا في الشعر الذي وردت فيه : « ولعل السر في ذلك يعود الى ان مثل هذه الاماكن خاصة بالشاعر وحده ، وعلى العكس من ذلك نجد أسماء بعض الاماكن شعرية ، لانها تثير في النفس ذكريات لا تقف عند شاعر وحده كنجدة والرفافة (١٥٣) » .
قال الامدى : « ومن سبيل الشاعر ان لا يذكر الا ما حسن من أسماء المواضع ، وان يعتمد أسماء المواضع الغريبة المتكررة في اشعار الفحفاء ، الا ترى ان الفرزدق أنكر على مالك بن اسماء بن خارجة وقد أنشده :

حبذا ليلى بتل بوتنا

فقال : أفدت آياتك بذكر (بوتنا) . فقال له : فني (بوتنا) كان ذلك ، قال : وان كان (١٥٤) » .

وليت كل اسماء النساء التي ترد في الشعر باستجادة عند النقاد ، بل أنهم استحلوا بعضها ، وطربوا له ، كليلى وهند وسلمى ودعد ولبنى وعزة وبثينة وغيرها ، وقرؤوا من بعضها ، وعدوه من الرديء الذي لا يليق بلغة الشعر والسبب في استجادتهم ما استجادوه من اسماء النساء هو السبب الذي

(١٥١) الموشح : ٥٤٥ .

(١٥٢) الكشف عن ماويء المتنبي (مطبوع مع الابانة) : ٢٤٨ .

(١٥٣) اسس النقد الادبي عند العرب : ٤٢١ .

(١٥٤) الموازنة : ٢٢٦/٢ .

دعاهم الى استجادة بعض اساء المواضع ؛ ذلك هو تردد بعض تلك الاساء ،
وكثرة دورها في الشعر ، واقتران بعضها بقصة حب طاهر ، كان موضع
اعجاب الناس على اختلاف العصور .

وبسبب هذه النظرة لاساء النساء ، أنكر بعض ملوك بني أمية على

جرير لفظة (بوزع) وقد جاء بها علما لامرأة فقال :

وتقول بوزع قد دبت على العسا هلا هزئت بغيرنا يا بوزع (١٥٥)

ولعل جريرا معذور في ذكر (بوزع) لانه الاسم الحقيقي للمرأة التي عنانا ،
اما اليد الحيري الذي علم ثقل اللفظة ، ووقف على استتكار النقاد لها ،
فغير معذور لايرادها في شعره ، خاصة وسياق بيته يشعر بأن الاساء فيه
ليست اساء حقيقية لنساء معينات . قال اليد الحيري :

ولقد تكون بها أوانس كالدمى هند وعبدة والرباب وبوزع

فقال ابن رشيقي : انه « ثقل من اجل بوزع (١٥٦) » .

وعلى الرغم من اعتقاد ابن رشيقي بأن بعض اساء النساء مستبح ، يحسن
بالشاعر ان يصدف عنه ، ويستعيض منه باسم آخر يكون أشهى وأعذب ،
فقد أجاز للشاعر ان يذكر الاسم القبيح ، اذا قصد الحقيقة ، واذا لم يجد
عنه في الكنية مندوحة . قال ابن رشيقي : « وكلما كانت اللفظة أحلى ، كان
ذكرها في الشعر أشهى ، اللهم الا ان يكون الشاعر لم يزور الاسم ، وانما
قصد الحقيقة لا اقامة الوزن ، فحينئذ لا ملامة عليه ، ما لم يجد في الكنية
مندوحة (١٥٧) » .

ولم تتغير نظرة ابن سنان وابن الأثير بعده الى اساء النساء ، بل ظللا
يتجيدان من اساء النساء ، تلك الاساء التقليدية ، التي شاعت واشتهرت ،

(١٥٥) الصاعتهين : ١٥٢ .

(١٥٦) العمدة : ١٢٢/٢ .

(١٥٧) نفسه .

وكثر ترددها في الغزل . ومعنى ذلك ان قائمة الاسماء المستلحة لم تزد ، بل ظلت ثابتة الى عهد متأخر (١٥٨) .

وإذا كان ابن رشيقي قد أجاز ان يذكر الشاعر الاسم القبيح اذا كان علما حقيقيا لامرأة معينة ، فان ابن سنان وابن الاثير لم يجيزا ذلك ، وانا اجازا ذكر القبيح من اساء الاماكن فقط ، اذا اقتضى المعنى ذلك ، وكان المكان مسرحا لوقائع حقيقية يروم الشاعر وصفها ، والحديث عنها ، قال ابن سنان معلقا على قول البحرى :

وأنا الشجاع وقد رأيت موافقي بعقرقس والمشرية شهدي

« فله في ذكر عقرقس عذر واضح ، لانه الموضع الذي شاهد المدوح به قتاله وليس يحسن ان يذكر موضعا غيره ، ولم يحد فيه . وهذا ليس بسوجب حسن الثقله ، ولكنه يبسط عذر ناظمها حسب (١٥٩) » وقال ابن الاثير : « وقد استثنى من ذلك ما كان اسم موضع تضمن وقعة من الوقائع ، فان ذكره لا يكره ، وان كان في اسمه كراهة ، كما ذكر ابو تمام في شعره مواضع مكروهة الاسماء لضرورة ذكر الوقائع التي كانت بها كذكر الحشال وعقوقس وأمثالهما ، وكذلك ذكر أبو الطيب هنزيط وشيصاد ، وما جرى مجراهما ، وهذا لا عيب في ذكره لمكان الضرورة التي تدعو اليه (١٦٠) » .

ويبدو لي ان الاعلام التي تخص النساء والمواضع هي التي دار حولها النقد ، فعيب بعضها واستقبح ، واستجيد الاخر واستحسن ، أما اساء الرجال فلم تتعرض للنقد ، وان كان العرب يستحسنون بعض اساء الرجال لما توحيه من معاني الخير والجمال ، وينفرون من اساء اخرى لما تثيره ، او تدل عليه من معان مكروهة (١٦١) .

(١٥٨) سر الفصاحة : ٥٨ . والمثل السائر : ٢٤٠/٢ .

(١٥٩) سر الفصاحة : ٥٩ .

(١٦٠) المثل السائر : ٢٤٠/٢ .

(١٦١) دروس في البلاغة : ١٩٩-٢٠٥ .

فالنقاد ، اذن لم يحاسبوا الشعراء على ما أوردوا من اساء الرجال ، كما فعلوا مع اساء الناء والمواضع . ومن هنا استحسن النقاد ان تطرد اساء الاعلام الخاصة بالرجال ، وتتلاحق في البيت الواحد ، اذا اقتضاها المعنى ، وعدوا ذلك دليل حذق ومهارة . قال ابن رشيق : « ومن حسن الصنعة ان تطرد الاساء من غير كلفة ، ولا حشو فارغ ، فانها اذا اطردت دلت على قوة طبع الشاعر ، وقلة كلفته ، ومبالاته بالشعر ، وذلك نحو قول الاعشى :

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد وأنت امرؤ ترجو شبابك وائل
فأتى كالماء الجاري اطرادا وقلة كلفة ، وبين النسب حتى اخرجه عن مواضع اللبس والشبهة . ولما سمع عبدالملك بن مروان قول دريد بن الصمة :

قتلنا ببدالله خير لداته ذؤاب بن اساء بن زيد بن قارب
قال كالمتعجب : لولا القافية لبلغ به آدم (١٦٣) » .

غير ان صاحب بن عباد لم يتحسن جمع المتبني لطائفة من اساء الرجال في بعض شعره . قال صاحب : « ولم تنفك متحئين لجمع الاسامي في الشعر كقول الشاعر :

ان يقتلوك فقد ثلثت عروشهم بقتيبة بن الحارث بن شهاب
فاحتذى هذا الفاصل - يعني المتبني - على طريقهم فقال :

وانت أبو الهيجاب بن حمدان يا ابنه تشابه مولود كريم وواند
وحمدان حمدون وحمدون حارث وحارث لقمان ولقمان راشد (١٦٣)

ثم سخر صاحب من البيتين قائلاً « وهذا من الحكمة التي ذخرها ارسطو طالس وافلاطون لهذا الخلف الصالح (١٦٤) » . فرد ابن قورنجة على صاحب

(١٦٣) العمدة : ٨٢/٢ .

(١٦٣) الكشف عن ساويء المتبني : ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(١٦٤) شرح الواحدي : ٤٦٦ .

بقوله : « أما سبك اليت فأحسن سبك . يريد أنك تشبه أباك ، وأبوك يشبه أباه ، وأبوه أباه ، فانت أبوك ، اذ كان فيك اخلاقه ، وأبوك أبوه الى آخر الاباء . نليت شعري ما الذي استقبجه . وقد جاراني بعض أهل العلم فقال : استقبج قوله : وحدان حدون ، وحدون حارث ، وليس في حدان ما يتقبج من حيث اللفظ ولا المعنى ولنسلم له ان حدان وحدون لفظتان متهجتان فكيف نضع والرجل اسمه هذا ، فهل نستعير له ابا غير أبيه ، ام يسيه بلفظة حسنة يخترعها . ولقد كان الذنب في ذلك للاباء لا للتبني (١٦٥) » .

وكما اشترط النقاد على الشاعر ألا يذكر من اسماء النساء ما يوافق « بعض نساء المدوح من أمة أو قرابة أو غيرها (١٦٦) » ، كذلك اشترطوا عليه ألا يذكر من اسماء الرجال ما يتصل بالمدوح ، وذلك ليكون الشاعر حرا ، فيسوق الاسم المساق الذي يقتضيه المعنى ، ويقيم بينه وبين غيره من الالفاظ ما يشاء من العلاقات . ذكر ابن طباطبا ان « أرطاة بن سمية الشاعر دخل على عبدالملك بن مروان ، فقال له : ما بقي من شعرك ؟ فقال : ما أطرب ولا أحزن يا أمير المؤمنين ، وانا يقال الشعر لاحدها . ولكنني قد قلت :

رأيت الدهر يأكل كل حيّ كاكل الارض ساقطة الحديد
وما تبغي النية حين تمدو سوى نفس ابن آدم من مزيد
وأحسب انها ستكر يوما توفي نذرهما بأبي الوليد

فقال له عبدالملك : ما تقول تكلتك أمك ؟ فقال : انا أبو الوليد يا أمير المؤمنين . وكان عبدالملك يكنى أبا الوليد ايضا ، فلم يزل يعرف كراهة شعره في وجه عبدالملك الى ان مات ، فليجتنب الشاعر هذا وما شاكله ما سليله كليله (١٦٧) » .

- (١٦٥) الفتح على ابي الفتح : ١٠٢ .
(١٦٦) عيار الشعر : ١٢٢ .
(١٦٧) نفسه .

فالشاعر لم يكن حرا في تعامله مع الاسماء ، بل كان عليه ان يتقيد
 باسما معينة ألتيها النقاد ، وأحبوها ، وزعموا انها أجمل من غيرها ، واليق
 بلغة الشعر . كما كان عليه ان يتحاشى أسماء اخرى ، اما لقبها واما لموافقتها
 اسما تتصل بالمدوح . وفي موقف أكثر النقاد من الاسماء تحكّم وتعتن ،
 بعث عليهما عزلهم الالفاظ عن تجربة الشاعر ، وعن طبيعة المعنى المراد كشفه ،
 والاعراب عنه . فالشاعر لا يلام على ذكر الاسم ، وان كان قبيحا ، اذا كان
 جزءا من التجربة ، او من الموقف الشعري المراد التعبير عنه . والشاعر اذا
 استغرقه التجربة ، فانه ينسى جهوره ، ويسى الاشياء بأسمائها ، غير
 مكترث بما يكون لتلك الاسماء من وقع على قرائه . يقول محمد غنيمي
 هلال : « والشاعر يستغرق في تجربته ، والكشف عنها هو غايته ، ونظيره
 الى جهوره ثانوي^(١٦٨) » . وحتى لا نعدو الانصاف ينبغي ان نشير الى ان
 بعض النقاد ذهب الى ان التجربة الشعرية ، او المعنى المراد تقديمه ، هو الذي
 يحدد جودة الاسم او رداءته . وليس على الشاعر حرج اذا اضطره المعنى الى
 ايراد اسم متقبح .

٨ - التلاؤم بين اللفظ والمعنى :

يطلق النقاد كلمة (المعنى) ويريدون بها في الغالب (الغرض) او
 (المقصد) او ما يريد المتكلم ان يشته او يفهم من الكلام^(١٦٩) . و (المعنى)
 بهذا الاستخدام يرادف عندهم (الفكرة) العامة المجردة ، التي يتفنن المنشيء
 في صياغتها ، ثم يستخلصها المنتقى من مجموع ما قاله المنشيء^(١٧٠) .

وتبعا لفهم المعنى على هذا النحو ، وضعوا لجودة الكلمة مقياسا آخر هو
 ان تلائم (المعنى) الذي تكفلت هي وجاراتها بإيرازه ، والاعراب عنه .
 وكان بشر بن المعتز من اقدم من عرض لهذا المقياس ، فقال في سحيفته

(١٦٨) المدخل الى النقد الادبي الحديث : ٢٤٨ .

(١٦٩) الصورة الفنية : ٢٨١ .

(١٧٠) نفسه .

المشورة « ومن أراغ معنى كريما فليلتس له لفظا كريما ، فان حق انمضى الشريف اللفظ الشريف^(١٧١) » . وقرر الجاحظ ان المعاني ضروب ، ولكل ضرب منها النائه الخاصة به ، وقد أكد الجاحظ هذه الفكرة في اكثر من موضع ، فقال : « ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني نوع من الاسماء ، فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل^(١٧٢) » .

وقال : « ان سخيف الالفاظ مشاكل لسخيف المعاني ، وقد يحتاج الى السخيف في بعض المواضع ، وربما أمتع باكثر من امتاع الجزل النغم من الالفاظ والشريف الكريم من المعاني^(١٧٣) » .

وارضى ابن طباطبا هذا المقياس من مقاييس جودة اللفظ ، وقرره في قوله : « وللمعاني الفاظ تشاكلها ، فتحسن فيها ، وتبيح في غيرها ، فيسي لها كالمعرض للجارية الحناء ، التي تزداد حسنا في بعض المعارض دون بعض ، وكمن معنى حسن قد شين بعرضه الذي أبرز فيه ، وكمن معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح^(١٧٤) » .

ولم يخرج قدامة عما قرره سابقوه ، حين ذهب الى ان الالفاظ تتفاوت في الجزالة والركة ، والدماثة والخشونة ، كما ان المواقف تختلف ، والاغراض التي تدفع الى القول تتباين ، وما على الشاعر الا ان يلتص لكل غرض اللفظ الذي يلائمه ، ويكون أخص به ، وألزم له . يقول قدامة : « ولما كان المذهب في الغزل انما هو الرقة واللطافة ، والشكل والدماثة ، كان ما يحتاج فيه ان تكون الالفاظ لطيفة مستعذبة ، مقبولة غير مستكرهة ، فاذا كانت جاسية كان ذلك عيبا . الا انه لما لم يكن عيبا على الاطلاق امكن ان يكون

(١٧١) العمدة : ٢١٢/١ .

(١٧٢) الحيوان : ٣٩/٣ .

(١٧٣) البيان والتبيين : ١٤٥/١ .

(١٧٤) عيار الشعر : ٨ .

حسنا ، اذ كان قد يحتاج الى الخشونة في مواضع مثل ذكر البسالة والنجدة والباس والرهبة (١٧٥) » .

ثم جاء ابن سنان نذهب الى ان من اسرار جودة الكلمة ان تضعها في موضعها ، وتعبّر بها عن المعنى الذي جرى الادباء على التعبير بها عنه ، وهذا يعني ان على المثنى « الا يعبر عن المدح باللائظ المستعملة في الذم ، ولا في الذم باللائظ المعروفة للمدح ، بل يستعمل في جميع الاغراض اللائظ اللائقة بذلك الغرض ، في موضع الجدل النائظ ، وفي موضع الهزل اللائظ (١٧٦) » .

وذهب ابن الاثير الى مثل ما ذهب اليه هؤلاء النقاد فقال : « اللائظ تنقسم في الاستعمال الى جزلة ورقيقة ، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه . فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب ، وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك . وأما الرقيق منها فانه يستعمل في وصف الاشواق ، وذكر ايام البعاد ، وفي استجلاب المودات ، وملاينات الاستعطاف ، وأشباه ذلك (١٧٧) » .

وهكذا أجمع النقاد على ان من مقاييس جودة اللفظ ، هو التلاوم بينه وبين المعنى المراد تقديمه ، فاذا فقد اللفظ ملاءمته للمعنى ، كان ذلك سبب رداءته ، والقدرح فيه . واذا شئنا امثلة لللائظ التي فقدت هذا التلاوم ، فنال منها النقاد ، وعدوها من الردى ، فانها كثيرة . من ذلك لفظة (انطحال) التي استعملها الاعشى في الغزل ، فكانت لفظة نائية ، لم تنسجم والموضوع الذي سيقت له ، وقد روى ان يونس بن حبيب عابها ، ولم يسترح اليها . قال الاعشى :

فرميت غفلة عينه عن شاته فاصبت حبة قلبها وطحائها

(١٧٥) نقد الشعر : ١٩٢ ، ١٩٣ .

(١٧٦) سر الفصاحة : ١٥٣ .

(١٧٧) المثل السائر : ١٦٨/١ .

فقال يونس : « والطحال لا يدخل في شيء إلا أفسده (١٧٨) » .

وما عاب يونس لفظ (الطحال) إلا لان الشاعر وضعه في غير موضعه ، وجاء به في سياق يقتضي غير هذا اللفظ ، ذلك لان الشعراء درجوا - عند ذكر اشواتهم ، وما يكابدون من آلام الحب - على ان يوردوا الفاظا اخرى هي : القلب والفؤاد والكبد وقد أفصح المرزباني عن سبب رداءة (الطحال) في بيت الاعشى فقال : « وقد عابه - يعني الاعشى - قوم بذلك لانهم رأوا ذكر القلب والثؤاد والكبد يتردد كثيراً في الشعر عند ذكر الهوى والمحبة والشوق ، وما يجده المغمم في هذه الاعضاء من الحرارة والكرب ، ولم يجدوا الطحال يستعمل في هذه الحال ، اذ لا صنع له فيها ، ولا هو ما يكتب حرارة وحركة في حزن ولا عشق ولا يراد وسكونا في فرح او غم فاستهجنوا ذكره (١٧٩) » .

وروى ان بشارا لم يرتض كلمة (عصا) التي شبه بها كثيرٌ قد معشوقته لان (العصا) لفظ لم يعمد في احاديث الغزل والتشبيب . قال الشاعر :

الا انسا ليلي عصا خيزرانة اذا غزوها بالاكف تلين

فقال بشار : « والله لو جعلها عصا مخ او عصا زبد لما كان الا مخطئا مع ذكر العصا ، الا قال كما قلت :

اذا قامت لصحبتها تثنت كان عظامها من خيزران (١٧٩)»

وعاب النقاد الفاظا اخرى لانها نقلت من مجالها الذي تستعمل فيه وسيقت في مجال يستدعي الفاظا اخرى ، ألصق به ، وأكثر تألفا معه . فلنظا (يهذي) و (محموم) اللذان وردا في مدح ابي تمام :

ما زال يهذي بالمكارم دأبها حتى ظننا أنه محموم

(١٧٨) الموشع : ٧٥ .

(١٧٩) نفسه : ٧٦ .

(١٨٠) نفسه ، ط جمعية نشر الكتب العربية : ١٥٦ .

مجالها الذم ، ناذا استعمالها ابو تمام في معرض المدح ، ونعت بها من يمدحه ، فقد صدم بذلك الذوق العام ، وخرج عما ألف هذا الذوق من الفاظ كريمة تناسب المديح ، وتنسجم مع شعور المادح ، وهو شعور اعجاب واكبار في الغالب (١٨١) .

كما ان كلمة (شيطان) لا موضع لها بين الكلمات التي درج الشعراء على أن ينعثوا بها مدوحيهيم ، ناذا اترعها ابو تمام من المجال الذي هي الصق به ، واستعملها صفة لاحد مدوحيه ، فقال :

وتشنى الحرب منه حين تغلي مراجلها بشيطان رجيم

فانه يعاب بذلك ، ويمد مجازيا للفظ الجيد او المختار (١٨٢) .

٩ - الدقة :

وهذا مقياس آخر من مقاييس نقد الالفاظ . فاللفظ الدقيق عند النقاد هو اللفظ الذي يؤدي المعنى المراد ، ولا يصلح غيره لان يوضع موضعه ، ولا شك في ان الوقوع على اللفظ الدقيق ، الذي ينقل ما في نفس المشيء ، مهمة صعبة ، لا يقدر عليها الا من عرف اللغة معرفة واسعة ، ووقف على ما بين الالفاظ من فروق دقيقة .

وقد أحس اللغويون منذ وقت مبكر ، بصعوبة هذا الامر ، نندبوا ائسهم لتأليف الكتب الخاصة بالالفاظ ، وأودعوا تلك الكتب ما بين الالفاظ المتقاربة من فروق ، كالالفاظ الكتابية للمزداني ، والفروق اللغوية للعسكري وفقه اللغة للشعالبي ، وغير ذلك (١٨٣) .

(١٨١) سر الفصاحة : ١٥٣ .

(١٨٢) نفسه .

(١٨٣) الالفاظ اللغوية : ٧٤ ، ٧٥ .

ويكون اللفظ غير دقيق في الحالات الآتية :

١ - حين لا يستعمل في المعنى الذي وضع له في أصل اللغة ، وإنما يستعمل في معنى جديد لحق به ، ولمراً عليه ، خلال تداول الناس إياه على مرّ العصور . وقد مرّ بنا أن اللغويين ، ومعهم النقاد^(١٨٤) ، يعدون استعمال اللفظ بمعناه الجديد ، أو المولد ، ضرباً من اللحن أو الخطأ . وهو ليذا لا يدخل في موضوع (الجودة والرداءة) ، بل يدخل في موضوع (الخطأ والصواب) ، وقد عالجناه في الفصل الماضي .

٢ - حين يكون اللفظ مرادف ، ولكنه أدق منه في الدلالة على المعنى المقصود ، ثم لا يأتي المثنى ، بذلك المرادف . ولا شك في أن المثنى ، إذا اختار من المترادفين أدقهما دلالة ، واكشفهما عن المعنى المطلوب ، كان ما يختاره أجود ، وكان كلامه أبلغ وأدل على قدرته ، وسعة ثقافته اللغوية .

وقد فطن ابن الأثير إلى هذه الحقيقة فقال : « ومن عجب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد ، وكلاهما حسن في الاستعمال ، وهما على وزن واحد وعدة واحدة ، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه ، بل يفرق بينهما في مواضع السبك . وهذا لا يدركه إلا من دق فهمه وجلّ نظره^(١٨٥) » .

ومن الأمثلة على ذلك أن (الجوف) و (البطن) سواء في الدلالة ، إلا أن الله تعالى قال « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » وقال « ربي اني نذرت لك ما في بطني محرراً » « فاستعمل الجوف في الأولى ، والبطن في الثانية ، ولم يستعمل الجوف موضع البطن ولا البطن موضع الجوف^(١٨٦) » .

(١٨٤) تنظر ص ١٨٢ من هذه الرسالة .

(١٨٥) المثل السائر : ١٤٢/١ .

(١٨٦) نفسه : ١٤٢/١ .

ومنه ان (الثرى) لا يقال له (ثرى) « الا اذا كان نديًا والا فهو تراب» (١٨٧) وعلى ذلك فان ابا تمام لم يختر اللفظ الدقيق حين قال :

ديكة سحة القياد سكوب مستيث بيا الثرى المكروب

ذلك لان (الثرى) لا يستيث بالدية ولا يتلف الى مائيا ، الا اذا كان جافا يابسا ، واذا كان كذلك فهو ليس (ثرى) وانا هو (تراب) (١٨٨) .

ومن ذلك ايضا ان (المائدة) لا يقال لها (مائدة) حتى يكون عليها طعام ، لانها من (مادني سيدني) اذا اعطاني ، والا فاسمها (خوان) . وكذلك (الكأس) لا تكون كأسا حتى يكون فيها شراب ، والا فهي (قدح) أو (كوب) . واذا كان الامر كذلك فان بديع الزمان لم يختر اللفظ الدقيق الذي يعبر عن غرضه حين قال :

أذهب الكأس فعرف النجر قد كاد يلوح

« ذلك لان اذهاب الكأس هنا معناه تسويها بالذهب ، وهو يريد ملاها بالخمر التي تصير لون زجاجها كلون الذهب ، ولو ان البديع نظر الى ان الكأس لا تسمى كأسا حتى يكون فيها شراب ما قال هذا» (١٨٩) .

٣ - حين يستعمل اللفظ المجرد للدلالة على المعنى الكثير ، او القوى ، ويترك اللفظ المزيد الذي هو أدل على ما في المعنى من زيادة او قوة او مبالغة . وقد نبه ابن جني على ذلك في كتاب (الخصاص) ، وعقد له بابا ساء « باب في قوة اللفظ لقوة المعنى » جاء فيه « هذا فصل من العربية حسن ، منه قولهم : خشن واخشوشن ، فعنى خشن دون معنى اخشوشن ، لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو . ومنه قول عمر رضي الله عنه : اخشوشوا وتمعدوا اي اصلبوا وتناهوا في

(١٨٧) الزهر : ١/٥١ .

(١٨٨) مجلة مجمع اللغة العربية : ١/٢٢٠ .

(١٨٩) نفسه : ١/٢٢٨ ، ٢٢٩ .

الخسنة . وكذلك قولهم : أعشب المكان ، فاذا أرادوا كثرة العشب فيه قالوا : اعشوشب (١٩٠) .

ثم اشار ابن جنى الى ان القرآن الكريم قد راعى هذا الجانب ، فعبّر عن بعض المعاني بكلمات مزيدة ، للدلالة على ما في تلك المعاني من قوة ومبالغة لا يظهرها اللفظ المجرد . قال ابن جنى : « فاعتدرا اقوى معنى من قولهم : قدر . كذلك قال ابو العباس : وهو محض القياس . قال الله سبحانه (اخذ عزيز مقتدر) فاعتدرا هنا اوفق من قادر ، من حيث كان الموضع لتضخيم الامر وشدة الاخذ (١٩١) » .

وقد أخذ ابن الاثير بهذا المبدأ في اختيار اللفظ ، فاستجاد اللفظ المزيد ، اذا كان المعنى يقتضيه ، وعده ادق في الدلالة على المعنى الكثير من اللفظ المجرد ، فقال : « وما يجرى هذا المجرى قولنا فعل واقعل ، فان لفظة فعل لها موضع تستعمل فيه ، الا ترى انك تقول : تعدت الى فلان احدته ، ولا تقول : اتعدت اليه ، وكذلك تقول : اتعدت غارب الجبل ولا تقول : تعدت على غارب الجبل ، وان جاز ذلك لكن الاول احسن ، وهذا لا يحكم فيه غير الذوق السليم ، فانه لا يمكن ان يقام عليه دليل . وأما فعل وانعوعل فانا نقول : أعشب المكان ، فاذا كثر عشبنا قلنا : اعشوشب ، فلنظة انعوعل للتكثير (١٩٢) » .

وذهب ابن الاثير الى ان اللفظة اذا جاز حملها على التضعيف الذي هو طريق المبالغة ، وحملها على غيره ، وجب ان ينظر فيها ، فان اقتضى المعنى حملها على المبالغة فهو الوجه . وضرب على ذلك مثلا قول البحرى :

تألفتهم من بعد ما شرحت بهم حفائلك أخلاق بطيء رجوعها

(١٩٠) الخصائص : ٢٦٤/٢ .

(١٩١) نفه : ٢٦٤/٢ ، ٢٦٥ .

(١٩٢) الملل الائر : ٢٩١/١ ، ٢٩٢ .

« فقولهُ شردت بهم يجوز أن تخفف لفظهُ شردت ويجوز أن تثقل والتثقل هو الوجه لانه في مقام الاصلاح بين قوم تنازعوا واختلفوا وتباينت قلوبهم وآراؤهم » (١٩٣) وتثقل الكلمة هو الذي يصور تلك الحالة ، ويعبر عنها .

فمن أوجه دقة اللفظ ان يكون مزيدا اذا كان في المعنى فضل قوة وكثرة ، أو اثاره من مبالغة ، فكسب غير اكتب وجه غير اجتهد ، واخذ غير اتخذ وكسر غير كسر ، وهكذا ، وما على الشيء الا ان يلتصق المزيد من اللفظ للتعبير عن المبالغ فيه من المعاني .

٤ - ويكون اللفظ غير دقيق حين لا يكون المعنى مقتضيا له اصلا ، ويكون غيره أولى منه بالاستعمال . ومعنى ذلك ان بعض المشتق يخطيء اللفظ المطلوب ، ويأتي بغيره ، فيؤدي ذلك الى ان يشد المعنى الذي قصده ، أو يتجم بدلا منه معنى آخر لم يكن قد اراده .

ومن الامثلة على ذلك ان ابن أحمر لم يوفق الى الكلمة المناسبة ، وجاء بدلا منها بكلمة لا يقتضيا المعنى ، فقال :

غادرني سهه أعشى وغادره سيف ابن أحمر يشكو الرأس والكبدا
« أراد : غادرني سهه أعور فلم يمكنه ، فقال : اعشى » (١٩٤) ولم يوفق الاعشى الى الكلمة المطلوبة في قوله :

استأثر الله بالوفاء وبالعد ل وولى الملامنة الرجال
لان الذي يلام هو الانسان رجلا كان أو امرأة ، وليس الرجل وحده (١٩٥) .

(١٩٣) المثل السائر : ٦٣/٢ .

(١٩٤) الرشح : ١٣٦ .

(١٩٥) نفه : ٧١ .

واخطأ أبو تمام اللفظ الدقيق في قوله :

ضعفت جوانح من اذاقته النوى طعم التراق فذم طعم العلقم
قال الامدي : « قوله : ضعف دواء عليها ، أي أضعف الله جوانح من
اذاقته النوى طعم التراق ، فذم طعم العلقم . والجوانح هي الاضلاع انصغار
في الصدر ، التي تلي النؤاد ، الواحدة جانحة ، فكانه يدعو عليها بأن تضعف
عن حمل حرارة التشوق ، وحرق التراق ، ان كان حاجبها قد ذاق طعم
التراق ، وعلم مرارته ، فذم طعم العلقم . وضعت كلام ضعيف في هذا
الغرض جدا و (اضعف الله) لو كان استوى له ان يقولها ، احسن وابلغ من
(ضعفت) . وعلى انه كلام لا يشبه بعضه بعضا ، و (حواس) هنا احسن
وأليق ، واشبه من (جوانح) لانه ذكر الطعم ، فكانت الحواس مع الطعم لفظا
يشبه لفظا ومعنى يشبه معنى » (١٩٦) . ثم قال الامدي : « وانلته لو استوى
له ذكر الحواس في البيت لما عدل عنه » (١٩٧) .

ولم تكن الخد هي الكلمة الملائمة في قول ابي تمام :
لو صحح الدمع لي أو ناصح الكد قلنا صحباك الخد والكبد
وقد علق الامدي عليه قائلا : « وهذا بيت صالح وليس بالجيد ، ولم
يستو له ان يقول : العين والكبد ، لانها مؤنثتان فكان يقول صحباك ،
فجعل مكان (العين) (الخد) لانه مذكر ، ولان كثرة البكاء تؤثر فيه ،
وتذهب بلحمه ، وذباب العين بالبكاء أخص من ذهاب الخد . ولو قال :
صحباك العين والكبد ، لكان ذلك سائئا وان كاتنا مؤنثتين ، لان هذا يجوز
فيما ليس لتأنيته حقيقة » (١٩٨) .

ولم تكن (الفته) هي اللفظة الدقيقة في قول ابي تمام أيضا (١٩٩) :

ملكته العبا الوئوع فأل نته تعود البلى وسؤر الخطوب

(١٩٦) الموازنة : ٥٤/٢ .

(١٩٧) نفسه : ٥٥/٢ .

(١٩٨) ٦٦/٢ .

(١٩٩) أخذ الامدي على ابي تمام الفاظا اخرى لعدم دقتها .

قال الامدي : « وقوله (الفته) ليس هذا موضع (الفته) لان معنى (الفته) : صادفته ، واذا كانت الريح هي التي فعلت بالربع ، فوجه الكلام : جعلته لو استوى له ، لا (الفته) ، واذا لم يستقم له (جعلته) ، ولا ما هو في معناها تقض البيت بأسره ، وبناء بالناظ آخر ، وكأنه اراد ان يقول : تعود البلى ، وهدفا للخطوب ، أو غرضا للخطوب ، أي تقع به ابداء وتصيبه ، فلم ينتظم له الوزن » (٢٠٠) .

نخرج من ذلك بأن (الدقة) مقياس من مقاييس النقد اللغوي ، فاذا كان اللنظ دقيقا ، شديد الابانة عما في نفس المنشيء ، قبله النقاد ، ووضوه بالجودة .

١٠ - الافادة :

والافادة مقياس آخر من مقاييس نقد الالفاظ ، نرجع اليه لمعرفة جودة الكلمة أو رداءتها . ونعني بالافادة ان تفيد الكلمة معنى جديدا لم تنده الكلمات الاخرى ، فيكون لها تبعاً لذلك ، قيمة واضحة في السياق ، لا ان تكون مقحمة فيه ، لا تسهم في اغناؤه ، ولا تحل جديدا اليه . والكلمة المفيدة هي التي تكون مع ما يجاورها مادلا صحيحا لما في نفس المنشيء ، يطابته ، فلا يزيد عليه ، ولا يقصر عنه .

لقد فطن النقاد العرب الى ذلك ، ومن أجله عابوا الكلمة الزائدة ، أو المرادفة ، التي تأتي حشوا لاغناء فيه . كما عقد البلاغيون فصولا ضافية ، تعالج هذا الجانب ، فتكلموا في الايجاز والاطناب والمساواة ، وتحدثوا عن التكرير والترديد وغيرهما ، وأوضحوا مزايا كل نعت من هذه الالفاظ التعبيرية ، ووضعوا لها المقاييس التي تضبط الجيد منها والرديء .

لقد اشترطوا اذن لجودة الكلمة ان تكون مفيدة ، وبهذا المقياس كانوا يحكمون على بعض الالفاظ بأنها زائدة ، أو حشو يسكن اسقاطه من الكلام ،

(٢٠٠) الموازنة : ١ / ٤٦٦ .

دون ان يخل ذلك بمعناه ، ويبدو انهم فرقوا بين الكلمات المتحفة في الشعر، فسوّوا ما يقع منها في اثناء البيت (حشوا) ، وسوّوا ما يقع منها قافية (استدعاء) ، وهما من عيوب الشعر .

قال قدامة في تعريف (الحشو) : « وهو ان يحشى البيت بلفظ لا يحتاج اليه لاقامة الوزن » (٢٠١) . وقال عند كلامه على عيوب القافية : ان من هذه العيوب « ان تكون القافية مستدعاة ، قد تكلف في طلبها فاشتغل معنى سائر البيت بها » (٢٠٢) .

والى مثل هذا ذهب المكري (٢٠٣) ، اما ابن رشيق فلم يخرج عن ذلك في التفریق بين الكلمات التي تأتي زائدة ، لا فائدة منها في السياق ، سوى انه ذكر اصطلاحا آخر للحشو هو (الالتكاء) فقال عن الحشو : « وساه قوم الالتكاء وذلك ان يكون في داخل البيت من الشعر لفظ لا يفيد معنى ، وانما ادخله الشاعر لاقامة الوزن ، فان كان ذلك في القافية فهو (استدعاء) » (٢٠٤) .

ومن الامثلة على الكلمة التي تأتي (حشوا) قول الشاعر :

نحن الرؤوس وما الرؤوس اذا ست في المجد للاقوام كالأذنان

ف قوله « للاقوام حشو لا مشعة فيه » (٢٠٥) .

ومنها قول ابي تمام :

خذها ابنة الفكر المهذب في الدجى والليل اسود حالك الجلباب

ف قوله « الدجى حشو لان في التسم الثاني ما يدل عليه » (٢٠٦) .

٢٠١) نقد الشعر : ٢١٤ .

٢٠٢) نفسه : ٢١٨ .

٢٠٣) الصناعتين : ٤٥٠ .

٢٠٤) الصمدة : ٦٩/٢ .

٢٠٥) نقد الشعر : ٢١٤ .

٢٠٦) الصمدة : ٧٠/٢ .

وأما الامثلة على (الاستدعاء) فكثيرة منها قول ابي تمام :

كالظبية الأدماء صانت فارتمت زهر المرار الغض والجشائنا
وقد تقده العسكري فقال : « ليس في وصف الظبية انها ترتمي انجشاث
فائدة ، وسواء رعت الجشاث او القلام او غير ذلك من النبت ، واذا قصد
لعت الظبية بزيادة حسن قيل انها تعطو الشجر لانها حينئذ ترفع رأسها
فيطول جيدها وتظهر محاسنها » (٢٠٧) وكان قدامة قد عرض لهذا البيت
أيضا ، فعابه ، لورود كلمة الجشاث فيه زائدة ، استدعتها القافية (٢٠٨) .

والحشو عند ابن سنان ضروب ، منها ما يستجاد ، ومنها ما يلحق
بالردي ، فأما المتجاد فهو الذي يفيد - بجانب تصحيح الوزن - فائدة مختارة ،
كقول المتبي :

وتحتقر الدنيا احتقار مجرب يرى كل ما فيها وحاشاك فانيا
« لان حاشاك ها هنا لفظة لم تدخل الا لكمال الوزن ، لانك اذا قلت :
احتقار مجرب يرى كل ما فيها فانيا ، كان كلاما صحيحا مستقيا ، فقد
انادت مع اصلاح الوزن دعاء حنا للسدوح في موضعه » (٢٠٩) .

وأما الحشو المعيب فهو ضربان : ضرب « يؤثر في المعنى نقضا وفي
العرض فادا » (٢١٠) كقول المتبي :

فلا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شعوب
« فان الندى ها هنا حشو يفسد المعنى ، وذلك ان مقصوده ان الدنيا
لا فضل فيها للشجاعة والصبر لولا الموت ، لان الشجاع اذا علم انه يخلد
فأي فضل لشجاعته ؟ وكذلك الصابر ، فاما الندى فمخالف لذلك ، لان

(٢٠٧) الصناعتين : ٤٥٠ .

(٢٠٨) نقد الشعر : ٢١٨ ، ٢١٩ .

(٢٠٩) سر الفصاحة : ١٢٨ .

(٢١٠) نفسه : ١٤٠ .

الانسان اذا علم انه يموت هان عليه بذل ماله ... واما اذا كان الانسان خالدا في الدنيا ثم جاء بماله فلمعري ان كرمه يكون أفضل ، وبذله لماله أشد « (٢١١) » .

وقد حاول الشريف المرتضى ان يتاول كلمة (الندى) في بيت المتنبي ، لينفي عنها صفة الحشو ، فقال انها بمعنى بذل النفس ، لا بذل المال كما قال مسلم بن الوليد :

يجود بالنفس اذ صن البخيل بها والجود بالنفس اقصى غاية الجود

ثم قال المرتضى : « واذا جاز ان يسمى بذل النفس جودا جاز ان يسميه (ندى) أيضا ، وكرما وسخاء » (٢١٢) . ولكن ابن سنان رد على المرتضى بقوله : « ثم اذا سوغنا ما ذهب اليه على بعده ، كان لفظ (الندى) حشا لان الشجاعة قد أغنت عنه » (٢١٣) .

وأما الضرب الاخر من الحشو المعيب فهو الذي لا يؤثر في الكلام تقعا ، بل يكون دخوله فيه كخروجه منه ، كقول ابي تمام :

جذبت نداد غدوة البت جذبة فخر صريما بين ايدي انتصائد

« لان قوله (غدوة البت) حشو لا يحتاج اليه ، ولا تقع نائدة بذكره ، ومن ذا الذي يؤثر ان يعلم اليوم الذي اعطى المدوح فيه ابا تمام ؟ » (٢١٤) .

وهذا تجن من ابن سنان ، فاذا كان لا يسه اليوم الذي قابل فيه الشاعر المدوح ، فان ذلك اليوم بالقياس الى الشاعر ، قد يكون يوما مشهودا ، لا ينسأ ، لانه حظي فيه بقاء كان قد عقد عليه آمالا ، وحدث به النفس طويلا . واذا علمنا ان الشعراء كانوا يحجبون بابواب المدوحين أياما ،

(٢١١) سر الفصاحة : ١٤١ ، ١٤٢ .

(٢١٢) نفسه : ١٤٢ .

(٢١٣) نفسه .

(٢١٤) نفسه ١٤٣ .

يتعرضون فيها لآلام شتى (٢١٥) ، أدركنا مبلغ أهمية اليوم الذي يؤذن فيه للشاعر بلقاء مدوحه .

و شاء القاد ان يدلوا الشعراء على الكلمات التي لا تغني السياق ، ولا تضيف جديدا اليه ، وانما تكون حشوا يؤتى به لتصحيح الوزن فحسب .
فقدامة يعد اللفظ المرادف لما قبله ، او المساوى له في المعنى لفظا معيا من شأنه ان يخل با ينبغي للغة الشعر من ايجاز . فيقول : ان من عيوب اللفظ تكرير لفظين متاويين في المعنى ، مثل قول هذيل الاشجعي :
فما برحت تومي الي بطرفها وتومض احيانا اذا خصمها غفل
« لان تومض وتوميء بطرفها متاويان في المعنى » (٢١٦) . ومثل قوله
أمية بن ابي السلت :

لله نعمتنا تبارك ربنا رب الأنام ورب من يتأبد

ف (يتأبد) و (الانام) متاويان في المعنى وليس « يجوز أن يكون أمية اراد بقوله من (يتأبد) الوحش ، وذلك ان (من) لا تقع على الحيوان غير الناطق واذا كان الامر على هذا فن يتوحش داخل في الانام ، او يكون اراد بقوله (يتأبد) أي يتقوت من الابد وذلك داخل في الانام » (٢١٧) .

والتاضي الجرجاني يرى ان كلتي (وجرة) و (جاسم) يتكيء عليهما الشعراء ، ويأتون بهما لتصحيح الوزن ، فهما لذلك زائدتان حيشا وردتا ، يمكن الاستغناء عنهما ، ويستقيم الكلام بدونهما . وقد ساق الجرجاني رأيه هذا في تعليق له على بيتين ، الاول لامرئ القيس وهو :

تصد وتبدي عن أسيل وتنقي بناظرة من وحش وجرة مطغل

(٢١٥) ينظر في ذلك : طراز المجالس : ٧٨ وما بعدها .

(٢١٦) نقد الشعر : ١٩٢ .

(٢١٧) نفسه : ١٩٤ ، ١٩٥ .

والثاني لعدي بن الرقاع وهو :

وكأنها بين النساء أعارها عييه أحور من جآذر جاسم
قال الجرجاني : « هذا وقد تغلغل كل واحد منهما من حشو الكلام
ما لو حذف لاستغني عنه ، وما لا فائدة في ذكره ، لان امرأ التيس قال (من
وحش وجرة) ، وعديا قال (من جآذر جاسم) ولم يذكرها هذين الموضعين
الا استعانة بما في اتمام النظم واقامة الوزن . ولا تلتفتن الى ما يتولاه
المعنويون في (وجرة) و (جاسم) فانما يطلب به بعضهم الاغراب على بعض ،
وقد رأيت ظباء جاسم فلم ارها الا كغيرها من الظباء ، وسألت من لا احصي
من الاعراب عن وحش وجرة فلم يروا لها فضلا على وحش ضربة وغزلان
بسيطة » (٢١٨) .

والجرجاني في تقدمه هذا لم يتطع ان يدرك الايحاء الذي يدل عليه
المكان . وقد فاتته ان الشعراء الذين يذكرون (وجرة) و (جاسم) لا يريدون
الاخبار بفضل ما فيهما من وحش أو ظباء ، وانما يذكرون هذين الكائنين لما
كانوا يجدونه فيهما من اجواء خاصة ، وظلال مستعذبة ، ولانهم يشيرون
بها خيال السامع ، ويبعثونه على التحليق في مراتب وعوالم ترسبها هاتان
الكلمات . لقد كان الجرجاني منطقيا اكثر مما يجب حين كلف نفسه مؤونة
السؤال عن وحش وجرة وظباء جاسم ، وعاملها من خصائص جعلت الشعراء
يطلقون ذكرهما ، ويكثرون من ترديدها ، وما درى أن الشعراء لم يفعلوا
ذلك الا لان هاتين الكلمتين مستعذبتان ، شاعت حولهما ظلال ، وتعلقت بهما
ذكريات ، وأصبحتا اشبه بنغمة تشوف اليها الاذان ، وتجد في سماعها لذة
ونشوة . وقد أشار بعض المحدثين الى ان معنى اللفظة في الشعر لا يقتصر على
الموضوع المقابل لها في المعجم « بل يشل جميع الارتباطات التي تبعثها
اللفظة مفردة ومجموعة مع غيرها . فوظيفة اللغة في الشعر ليست مجرد الإشارة

(٢١٨) الوساطة : ٣١ ، ٣٢ .

الى الشيء ، وانما للغة في الشعر مكونات ثنائية وثلاثية ورباعية كما يقول كولردج « (٢١٩) » .

وذكر ابن رشيقي الفاظا اخرى ، وعددها من الحشو ، فقال « وما يكثر به حشو الكلام اضحى وبات وظل وغدا وقد ويوما واشباهها ، وكان ابو تمام كثيرا ما يأتي بها » (٢٢٠) . ثم قال « ووجدت الحدائق يعيرون قول ابن الحدادية ، وهي أمه ، واسه قيس بن منقذ :

ان النؤاد قد امسى هائما كلفنا قد شفته ذكر سلى اليوم فاتكنا
لحشوه بـ (قد) في موضعين من البيت ، ثم بـ (امسى) وبـ (اليوم)
على تناقضهما « (٢٢١) » .

وذهب ابن سنان الى ان (امسى واصبح واخواتها) منا يؤخذ على الشعراء استعماله ، ان لم يكن لذكرها فائدة (٢٢٢) .

اما ابن الاثير فقد اورد بعض هذه الالفاظ ، وازاف اليها اخرى ، وذهب الى انها ترد في الشعر « فتارة تجيء لفائدة ، وذلك قليل ، وتارة تجيء لغير فائدة ، وذلك كثير ، واكثر ما ترد في الاشعار ليوزن بها الاييات الشعرية ، وذلك نحو قولهم : ولمحرك ونحو اصبح وامسى وظل واضحى وبات واشباه ذلك ، ونحو يا صاحبي ويا خليلي وما يجري هذا المجرى » (٢٢٣) .

ثم ضرب ابن الاثير بعض الامثلة على ما جاء من الكلمات التي ذكرها حشوا ، لا تشع فيه الاقامة الوزن ، منها قول ابي تمام :

اقروا لعري لحكم اليوف وكانت أحق بفصل القضاء

(٢١٩) تضاييا النقد الادبي والبلاغة : ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(٢٢٠) العمدة : ٧١/٢ .

(٢٢١) نفسه .

(٢٢٢) سر الفصاحة : ١٤٣ .

(٢٢٣) المثل السائر : ٧٥/٢ .

وقد علق عليه ابن الاثير قائلا: « فان قوله لعمري زيادة لا حاجة للمعنى اليها ، وهي حشو في هذا البيت ، لا فائدة فيه الا اصلاح الوزن لا غير .
الا ترى انها من باب القسم ، وانما يرد القسم في موضع يؤكد به المعنى المراد ، اما لانه مما يشك فيه ، او مما يميز وجوده ، او ما جرى هذا المجرى ، وهذا البيت الشعري لا يفتقر معناه الى توكيد قسي ، اذ لا شك في ان السيوف حاكمة ، وان كل أحد يقر لحكمها ، ويدعن لطاعتها » (٢٢٤) .

غير ان ابن الاثير عاد فذكر ان الكلمة التي يؤتى بها لاقامة الوزن ، او تصحيحه لا تعاب ، ولا تؤخذ على الشاعر « لانا لو عيناها على الشعراء لحجرتنا عليهم ، وضيعنا ، والوزن يضطر في بعض الاحوال الى مثل ذلك ، لكن اذا وردت في الكلام المشور ، فانها ان وردت حشوا ، ولم تر لفائدة ، كانت عيبا » (٢٢٥) .

وهو بهذا يختلف عن سابقه الذين لم يروا ان الوزن يبيح للشاعر الحشو ، او الفضول ، بل رأوا ان من عيوب الشعر ان يضطر الشاعر فيه ، بسبب الوزن او القافية الى كلمات لا تفيد المعنى ، ولا تضيف جديدا اليه .
من هؤلاء الناقد قدامة الذي قال في باب ائتلاف اللفظ مع الوزن « ومن هذا الباب أيضا الا يكون الوزن قد اضطر الى ادخال معنى ليس الغرض في الشعر محتاجا اليه ، حتى اذا حذف لم تنقص الدلالة لحذفه ، أو استغاط معنى لا يتم الغرض المقصود الا به » (٢٢٦) .

على أن القول بزيادة لفظ في العبارة ، ينبغي ان يسبقه درس دقيق لها ، وتقدير طويل عن معاني كلماتها ، وما يمكن ان تؤديه من وظيفة في التركيب ، فقد نحكم على كلمة ما بأنها زائدة ، ولكن التدقيق في التركيب يثبت ان الكلام يحتاج اليها ، وان خروجها منه يخل بسعناه . واذا كان الناقد مطالباً

(٢٢٤) المثل السائر : ٧٦/٢ .

(٢٢٥) نفسه : ٧٦/٢ .

(٢٢٦) نقد الشعر : ١٦٤ ، ١٦٥ .

بالتدقيق في معاني التراكيب قبل اصدار الحكم على ما فيها من حشو او فضول ، فانه يكون ملزما بهذا التدقيق اذا كان الكلام الذي ينقده كلاما مشهورا له بالفصاحة والبلاغة . يقول ابن الاثير : « فائدة وضع الالفاظ ان تكون ادلة على المعاني فاذا وردت لفظة من الالفاظ في كلام مشهود له بالفصاحة والبلاغة ، فالاولى ان تحمل تلك اللفظة على معنى ، فان لم يوجد لها معنى بعد التنقيب والتنقيب ، والبحث الطويل ، قيل : هذه زائدة ، دخولها في الكلام كخروجها منه » (٢٢٧) .

غير ان النحاة لم يبنوا كثيرا من اقوالهم على درس دقيق لمعاني التراكيب ، ووظائف الكلم فيها ، بل تعجلوا الاحكام وابتسروها ، وقالوا بزيادة بعض الحروف ، ولو انهم درسوا التراكيب ، وفحصوا معاني تلك الحروف ، لرأوا ان الكلام بغيرها غير الكلام بها ، وان اسقاطها منه ، يؤدي الى تجريد من معان خاصة ، تحدثها تلك الحروف فيه .

قال ابن الاثير : « وجرت بيني وبين رجل من النحويين مفاوضة في هذه الاية - يعني قوله تعالى (فلما ان اراد ان يبطش) - فقال : ان (أن) الاولى زائدة ، ولو حذف فقل : فلما اراد ان يبطش ، لكان المعنى سواء ، الا ترى ان قوله تعالى (فلما ان جاء البشير القاه على وجهه) وقد اتفق النحاة على ان (أن) الواردة بعد (لما) وقبل الفعل زائدة . فقلت له : النحاة لا فتيا لهم في مواقع الفصاحة والبلاغة ، ولا عندهم معرفة باسرارها ، من حيث انهم نحاة ، ولا شك انهم وجدوا (أن) ترد بعد (لما) وقبل الفعل في القرآن الكريم وفي كلام فصحاء العرب فظنوا ان المعنى بوجودها كالمعنى اذا اسقطت فقالوا : هذه زائدة . وليس الامر كذلك ، بل اذا وردت (لما) وورد الفعل بعدها باسقاط (ان) دل ذلك على الفور ، واذا لم تسقط لم يدنا ذلك على أن الفعل كان على الفور وانما كان فيه تراخ وابطاء واذا كانت دالة على معنى ، فكيف يسوغ ان يقال انها زائدة » (٢٢٨) .

(٢٢٧) الملل السائر : ١٦٤/٢ .

(٢٢٨) الملل السائر : ١٦٤/٢ .

واستدل ابن الاثير على أن (ان) لا تذكر بعد (لما) الا اذا اريد الاشعار بما رافق حدوث الفعل بعدها من تراخ وابطاء بقوله تعالى في قصة يوسف : (فلما ان جاء البشير القاه على وجهه) فقال : « اذا نظر في قصة يوسف عليه السلام مع اخوته منذ القوه في الجب والى ان جاء البشير الى ابيه عليه السلام وجد انه كان ثم ابطاء بعيد ، وقد اختلف المفسرون في طول تلك المدة ، ولو لم يكن ثم مدة بعيدة ، وامتد متناول لما جرى بان بعد لما وقبل الفعل بل كانت تكون الاية : فلما جاء البشير القاه على وجهه . وهذه دقائق ورموز لا تؤخذ من النحاة ، لانها ليست من شأنهم (٢٢٩) » .

وعلى هذا فالافادة مقياس مهم ، رجع اليه النقاد اللغويون ، وقرروا في ضوئه جودة الكلمة أو رداءتها . وقد انتهوا الى ان الكلمة لا يبد ان تغني التركيب ، وتضيف جديدا اليه ، فان اقتصت عليه ، او لم تكن لها فائدة فيه ، سقطت وعدت من الردى . كما انهم لم يعدوا الكلمة التي تجيء لاتمام النظم ، واقامة الوزن ، كلمة مفيدة ، وشذ منهم ابن الاثير فعدها مفيدة .

١١ - الاشتراك :

نظر النقاد العرب الى المفردات في ضوء مقياس آخر ، فقرروا ان الكلمة المشتركة المعنى - اى التي تدل على عدة معان - لا تكون جيدة الا اذا صاحبها قرينة ، توضح المقصود بها . ذهب الى ذلك ابن رشيق (٢٣٠) . وعلق ابن الاثير على قوله تعالى (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون) : « الا ترى ان لفظه التمييز مشتركة تطلق على التعظيم والاكرام ، وعلى الضرب الذي هو دون الحد ، وذلك نوع من الهوان ، وهما معيان ضدان ، فحيث وردت في هذه الاية جاء معها قرائن من قبلها ومن بعدها ، فخضت معناها بالحسن ، وميزته عن القبيح ولو وردت مهملة بغير قرينة واريد بها المعنى الحسن ، لسبق الى الوهم ، ما اشتملت عليه

(٢٢٩) الملل السائر : ١٦٥/٢ .

(٢٣٠) العمدة : ٩٦/٢ .

من المعنى القبيح / مثال ذلك لو قال قائل : لقيت فلانا فعزرتة ، لسبق الى التهم انه ضربه واهانه ، ولو قال : لقيت فلانا فآكرته وعزرتة ، لزال ذلك اللبس (٢٣١) .

واستحسن ابن رشيقي استخدام كثير لكلمة (قصيرة) وهي مشتركة ، تعني المرأة المحجبة كما تعني المرأة القصيرة ، الا ان كثيرا نفي هذا الاشتراك عن الكلمة فأردفها بما حدد مراده منها ، قال :

لعمرى لقد حبت كل قصيرة الي وما تدري بذلك القضاير
عنت قصيرات الحجال ولم أرد قمار الخطاء شر النساء الجائر (٢٣٢)

وقول كثير ، عند ابن ابي الاصبع ، لم يبلغ مرتبة الجودة ، كما لم يهبط الى درك القبح ، وانما بقي في منزلة بين منزلتين ، لان كثيرا لم يحدد المراد بكلمة قصيرة الا في البيت الثاني . واحتياج البيت الى الذي يليه ، امر مذموم ، اصطالحوا عليه بـ (التضمين) . جاء في (تحرير التحبير) : « فان لفظة قصيرة مشتركة فلو اقتصر على البيت الاول كان الاشتراك معيبا ، لكنه لما اتى بالبيت الثاني زال العيب فبقي الاشتراك ليس بسعيب ولا بحسن ، والذي منعه ان يعد حسنا ما في البيتين من التضمين ، فان ذلك جعل له منزلة بين منزلتين (٢٣٣) » .

ولكلمة (عقل) معنيان : احدهما معروف ، والاخر الدية ، الا ان استعمالها بالمعنى الثاني قليل ، واليه قصد ابو تمام في قوله :

اعطيت لي دية القليل وليس لي عقل ولا حق عليك قديم
وقد عاب ابن الاثير على ابي تمام استعمال كلمة (عقل) دون قرينة

• (٢٣١) المثل السائر : ١٨٥/١

• (٢٣٢) الصمدة : ١٦٦/٢ ، ١٧٦

• (٢٣٣) تحرير التحبير : ٢٣٦

تحدد المراد بها . قال : « فقله ليس لي عقل يظن . انه من عقل الشيء اذا علمه ، ولو قال ليس لي عليك عقل لزال اللبس (٢٣٤) » .

غير ان اكثر الشعراء فطنوا الى ما توجهه الالفاظ المشتركة من قرائن ، فاستعملوا ما استعملوه من تلك الالفاظ مشفوعا بقرائن تبديد اللبس عنها ، وتحديد المقصود بها . فهذا جرير مثلا استعمل كلمة (الطرب) بمعنى (الحزن) ولكنه جاء بما يدل على انه لم يرد بها المعنى الاخر وهو (الفرح) فقال :
 (قد كنت في الاثر الانلعان ذا طرب - مروءعا عن حذار الين محزاناً)
 فالفاظ البيت « في جللتها تأخذ بذهن السامع الى الحزن ، وتقطع الصلة بينه وبين المعنى الاخر (٢٣٥) » .

وهناك ضرب آخر من الالفاظ المشتركة ، وهي التي اكتسبت مع مرور الزمن دلالات قبيحة ، واصبح النطق بتلك الالفاظ مشيراً لتلك الدلالات في حقوس سامعيها .

وقد عاب النقاد هذه الالفاظ ، ونصحوا بالتباعد عنها ، ومن الامثلة عليها (الغائط) التي وردت في قول عمرو بن معد يكرب :

وكم من غائط من دون سلمى قليل الانس ليس به كنيع
 ذلك لانها كانت تعني (البطن من الارض) ثم صارت تطلق على الحدث (٢٣٦) .
 وواضح ان عمرو بن معد يكرب غير ملوم على استعمال هذه اللفظة ، لانها لم تكن في عصره مستعملة بالمعنى المستقبح الذي ذكرناه .
 وكلمة (الادبار) التي جاءت في قول ابي تمام :

وعزائسا في الروع معتصية ميمونة الادبار والاقبال

- (٢٣٤) المثل السائر : ١٨٧/١ .
 (٢٣٥) دروس في البلاغة : ١٨٧ .
 (٢٣٦) سر الفصاحة : ٧٦ ، ٧٧ .

كلمة غير مرضية لأنها اقترنت بمعنى مكروه^(٢٣٧)، ومثلها كلمة (جنابة) التي وردت في قول الرضي:

سلام على الاطلال لا عن جنابة ولكن ياسا حين لم يبق مطمع

لأنها أصبحت مشتركة، واحد مدلولها هو المدلول العامي المعروف^(٢٣٨)، ومثل هذه الالفاظ كلمة (الصرم) التي جاءت في قول المتبي:

اذاق الفواني حسنه ما أذقني وعف فجازاهن عني بالصرم

وقد علق ابن الاثير عليها قائلا: «فإن لفظة الصرم في وضع اللغة هو القطع يقال: صرمه اذا قطعه، فغيرتها العامة، وجعلتها دالة على المحل المخصوص من الحيوان دون غيره، فابدلوا السين صادًا، ومن اجل ذلك استكره استعمال هذه اللفظة وما جرى مجراها، ولكن المكروه منها ما يشتمل على صيغة الاسمية، كما جاءت في هذه البيت، واما اذا استعملت على صيغة الفعل كقولنا: صرمه، وصرمته وصرمه فانها لا تكون كريمة لان استعمال العامة لا يدخل في ذلك^(٢٣٩)».

فالالفاظ المشتركة ضربان: الاول الالفاظ التي تدل على معنيين او اكثر ليس بينها معنى قبيح، وهذه لا عيب فيها، اذا قيد المراد منها بقرينة. والثاني الالفاظ التي تدل على معنيين او اكثر، بينها معنى قبيح، وهذه غير مرضية، ولا يجوز للاديب استعمالها، وان عرف مراده منها.

١٢ - التكرار:

التكرار في نظر النقاد المحدثين هو «الحاح على جهة مهمة في العبارة يعني بها الشاعر اكثر من عنايته بسواها^(٢٤٠)». فالتكرار على هذا «يسلط

(٢٣٧) سر الفصاحة: ٧٦، ٧٧.

(٢٣٨) نفسه.

(٢٣٩) المثل السائر: ١/١٨٠.

(٢٤٠) قضايا الشعر المعاصر: ٢٤٢.

الضوء على نقطة حساسة في العبارة ، ويكثف عن اهتمام المتكلم بها ، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسية قيمة ، تفيد الناقد الادبي الذي يدرس الاثر ، ويحلل نية كاتبه (٢٤١) .

هكذا فهم النقاد المحدثون التكرار ، وعدوه مفتاحا للفكرة المطلقة على المشى ، او أحد الاضواء التي تير لنا جانبا من اعماقه ، فعنوا به وصرفوا اليه اهتمامهم ، فخرجوا من درسه بنتائج مهمة ، يتعلق بعضها بالفن ، وبعضها بالمشى . ولعل السبب في عنايتهم به ، هو انه اسلوب شاع في هذا العصر ، وبرز بروزا استدعى النظر فيه ، والوقوف عنده .

اما النقاد القدامى فلم يولوه هذا الاهتمام ، ولم يقفوا عنده الا وقات عابرة ، ظهرت عند ابي هلال وابن رشيق وابن الاثير ، كما ظهرت عند بعض كتاب الاعجاز كالخطابي . وقد عدّه « أهل البديع فرعا ثانويا من فروع البديع لا يفتون عنده الا لاما (٢٤٢) » .

وللقدامى عذرهم في ذلك ، لان التكرار لم يشع آنذاك شيوعه في هذا العصر ، ولا كان نطا تعبيريا يتكرر منه الشعراء ، كما تكرر منه المحدثون ، وغالى بعضهم فيه فعده تجديدا في الاسلوب الشعري (٢٤٣) .

وواضح ان النقد يتبع الادب ، ويدور في فلكه ، فاذا برزت ظاهرة ادبية بروزا كبيرا ، استرعت نظر النقاد ، ودعتهم الى مراقبتها ، ووضع المقاييس لها ، وتفصيل القول في المقبول والمرذول من عناصرها . ولما لم تشع ظاهرة التكرار لدى القدامى ، قلت عناية النقاد بها ، وكان حديثهم عنها عابرا .

والواقع ان كلام النقاد العرب على التكرار يسكن ان يوصف بالقلّة والاقتراب اذا قيس بما للمحدثين من تفصيلات بشأنه ، واستنتاجات قيمة .

(٢٤١) قضايا الشعر المعاصر : ٢٤٣ .

(٢٤٢) نفسه : ٢٤١ .

(٢٤٣) نفسه : ٢٣٠ .

ويظهر ان المحدثين قد اتفقوا في درسه للتركاز ، وفي استنباطهم ما استبطوه منه ، بما توصل اليه علم النفس في هذا العصر .

لقد وقف النقاد العرب عند التكرار ، وأجمعوا على استقباح اللفظ المكرر ، اذا لم تكن وراء تكراره علة تسوغه ، وتجعله لفظا مقبولا ومفيدا . وقسوا التكرار على قسين : معيب وحسن . فالمعيب عند الخطابي « هو ما كان مستغنى عنه ، غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفدوه بالكلام الاول ، لانه حينئذ يكون فضلا من القول ولنوا ، وليس في القرآن شي ، من هذا النوع » (٢٤٤) . والحسن « ما كان بخلاف هذه الصفة ، فان ترك التكرار في الموضع الذي يقتضيه ، وتدعو الحاجة اليه فيه ، بازاء تكلف الزيادة في وقت الحاجة الى الحذف والاختصار ، وانما يحتاج اليه ، ويحسن استعماله في الامور المهمة التي قد تعظم العناية بها ، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها (٢٤٥) » .

وذهب ابن رشيقي الى قريب من ذلك فقال : « وللتكرار مواضع يحسن فيها ، ومواضع يقبح فيها ، فاكثر ما يقع التكرار في الالفاظ دون المعاني ، وهو في المعاني دون الالفاظ اقل ، فاذا تكرر اللفظ والمعنى جيما فذلك الخذلان بعينه (٢٤٦) » .

فهو هنا يحدد المقبول من اللفظ المكرر ، ويجعله ما افاد معنى لم يفده اللفظ الاول ، فاذا لم يفد معنى جديدا ، او لم يوح لنا تكراره بفكرة ما ، عد لغوا وفضولا .

واللفظ المكرر الجيد عند ابن رشيقي ما كان الباعث عليه واحد من امور سبعة هي (٢٤٧) :

- (٢٤٤) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٤٨ .
- نفسه . (٢٤٥)
- العمدة : ٧٣/٢ ، ٧٤ .
- نفسه : ٧٥/٢ ، ٧٦ .

٤ - التشويق والاستعذاب للنظ المكرر ، ولا يكون هذا الا في النزل كقول
قيس بن ذريح :

الا ليت لبني لم تكن لي خلة ولم تلقني لبني ولم أدر ما هيا

٥ - التنويه باللفظ المكرر ، واظهار الاهتمام به كقول الخنساء :

وان سخرا لمولانا وسيدنا وان سخرا اذا نشتو لنحار

٦ - التوبيخ والتقرير كقول بعضهم :

الى كم وكم اشياء منكم تربييني - اغمض عنها لست عنها بذني عسى

٧ - الوعيد والتهديد كقول الاعشى يزيد بن مهر الشيباني :

ابا ثابت لا تعلقنك رماخنا ابا ثابت أقصر وعرضك سالم

وذرتا وقوما ان هم عمدوا لنا ابا ثابت واقعد فانك طاعم

٨ - اظهار التوجع اذا كان الشاعر في موقف رثاء ، كما فعل مالك بن الربيع
حين كرر لفظ (الغضا) مظهرا بذلك جزعه على مفارقتها وكما فعل متمم
ابن نويرة حين كرر كلمة (قبر) في رثاء اخيه .

٩ - الاستغاثة ، ويظهر هذا اللون من التكرار في قصائد المديح ، كقول
الشاعر :

بني مسع لولا الاله واتم بني مسع لم ينكر الناس منكرا

والاستغاثة لا تكون في المديح فحسب ، كما زعم ابن رشيق ، بل قد
تظهر في مواقف اخرى غيره .

١٠ - الرغبة في الحظ من المهجو ، والوضع من قدره كما صنع جرير في
قصيدته (الدماغه) التي هجا بها راعي الابل فكرر بني نمير في كثير
من ابياتها .

ونلاحظ في انواع التكرار الحسن التي ذكرها ابن رشيق ، ومثل لها ،
ان الشاعر لا يكرر اللفظ إلا اذا قصد من تكراره معنى ، او احياء بشعور خاص ،

وابن رشيق هنا يلتقي بالمحدثين الذين وصفوا التكرار بأنه الحاح من المنشىء على جهة معينة من العبارة ، لانهار الاهتمام بها . وقد فصل لنا ابن رشيق بواعث الاهتمام باللفظ المكرر ، والدوافع الى الالاح عليه ، واعادته . وهي التفاتة طيبة ، تحسد للنقاد العرب ، وتجعل ضمن ما اهتموا اليه من اسرار التعبير الادبي ، وليس ما اهتموا اليه بقليل . غير ان ما كشفه ابن رشيق من اسرار التكرار ، وان كان مهسا ، يبقى دون ما للمحدثين في هذا الشأن .

ولم يخرج ابن الاثير ، عندما عرض للتكرار ، عن هذه القاعدة الاولية ، التي وضعها ابن رشيق وغيره للفظ المكرر، وهي ان يفيد معنى ، كان يأتي تأكيدا لما قبله ، وتشييدا من امره ، او مبالغة في ملحه او ذمه او غير ذلك (٢٤٨) .

اما اللفظ المكرر المعب فهو ما لم يفد معنى جديدا ، وما لم يكن وثيق الارتباط بحالة نفسية خاصة تسيطر على المنشىء . وقد سقط في هذا العيب بعض الشعراء ، ومن الامثلة عليه قول الشاعر :

فما للنوى جذء النوى قطع النوى كذاك النوى قطاعة لوصول

فلما سمعه الاصعبي قال : « لو سلف الله تعالى على هذا البيت شاة ، فأكلت هذا النوى كله (٢٤٩) » . وقول المتنبى :

عظمت فلما تكلم مهابة تواضعت وهو العظم عظما عن العظم
ولما وقف صاحب بن عباد على هذا البيت قال : « ما اكثر عظام هذا البيت (٢٥٠) » .

ولم يجز ابن الاثير للشاعر ان يكثر من ذكر اللفظ ، بحجة الاستعداد له وعد ذلك ضعفا ، ولفظية لا سبيل الى قبولها . قال مروان الاصغر :

سقى الله نجدا والسلام على نجد ويا حبذا نجد على النأى والبعد
نظرت الى نجد وبغداد دونها لعلي أرى نجدا وهيئات من نجد

(٢٤٨) المثل السائر : ١٥٨/٢ .

(٢٤٩) يتيمة الدهر : ١٨١/١ .

(٢٥٠) الصمدة : ٧٥/٢ .

فعلق ابن الاثير على هذين البيتين قائلا : « وهذا من العي الضيف ، فانه كرر ذكر نجد في البيت الاول ثلاثا ، وفي البيت الثاني ثلاثا ، ومراده في الاول الثناء على نجد ، وفي الثاني انه تلفت اليها ناظرا من بغداد ، وذلك مرمى بعيد ، وهذا المعنى لا يحتاج الى مثل هذا التكرير ، اما البيت الاول فيحمل على الجائر من التكرير ، لانه مقام تشويق وتحرق وموجدة بفراق نجد ، ولما كان كذلك أجز في التكرير ، على انه قد كان يمكنه ان يصوغ هذا المعنى الوارد في البيتين معا من غير ان يأتي بهذا التكرير المتتابع ست مرات (٢٥١) » .

ونبه ابن الاثير على نوع من التكرار الحسن ، قد خفي على بعض النقاد فظنوه من التكرار المعيب ، وهو ان يكرر المنشئ اللفظ بعد اضافته الى لفظ آخر ، وكان الاضافة تبعد عنه الرتبة من جهة وتمنحه قوة لم تكن له عند ذكره اول مرة . ومن الامثلة على هذا النوع من التكرار قول البحترى :

ويوم تثت للوداع وسلمت بعينين موصول بلحظنا السحر
توهتها السوى باجفانها الكرى كرى النوم او مالت بأعطانها الخمر

وقد علق ابن الاثير على هذين البيتين قائلا : « وربما أشكل هذا الموضع على كثير من متعاطي هذه الصناعة وظنوه ما لا فائدة فيه ، وليس كذلك ... واما بيت البحترى فانه اراد ان يشبه طرفها لتوره بالنائم ، فكرر المعنى فيه على طريق المضاف والمضاف اليه ، تأكيدا له ، وزيادة في بيانه (٢٥٢) » .

كما نبه ابن الاثير على ان النقاد ربما ادخلوا في التكرار ما ليس منه ، وهو ان يعيد المنشئ اللفظ اذا بعد عن معمولاته ومتعلقاته وما يرتبط به من الفاظ « لاسيما في ان واخواتها ، فاذا وردت (ان) وكان بين اسمها وخبرها

(٢٥١) المثل السائر : ١٧١/٢ .

(٢٥٢) نقه : ١٦٦/٢ .

فحة طويلة من الكلام ، فاعادة (ان) احسن في حكم البلاغة
والنصاحة (٢٥٢) . «

وعلى هذا ورد قول بعضهم :

وان امرأ دامت موثيق عهده على مثل هذا انه لكريم

« فانه لما طال الكلام بين اسم ان وخبرها اعيدت ان مرة ثانية ، لان تقدير الكلام : وان امرأ دامت موثيق عهده على مثل هذا لكريم ، لكن بين الاسم والخبر مدى طويل ، فاذا لم تعد (ان) مرة ثانية لم يأت على الكلام بهجة ولا روق ، وهذا لا يتنبه لاستعماله الا الفصحاء اما طبعا واما علما (٢٥٤) » .

وقد فطن ابو هلال العسكري الى ضرب من تكرار الالفاظ ساءه (المجاورة) ثم عرفها قائلا : « المجاورة تردد لفظتين في البيت ، ووقوع كل واحدة منهما بجانب الاخرى ، أو قريبا منها ، من غير ان تكون احدهما لغوا لا يحتاج اليها ، وذلك كقول علقمة :

ومطعم الغنم يوم الغنم مطمعه أتى توجهه والمحروم محروم
فقله (الغنم يوم الغنم) مجاورة و (المحروم محروم) مثله . وقول
الاخر : « وتندق منها في الصدور صدورها (٢٥٥) » .

وسى ابن رشيح هذا الضرب من التكرار بـ (الترديد) وهو مستحسن عنده ايضا ، قال في تعريفه : « هو ان يأتي الشاعر بلفظة متعلقة بمعنى ، ثم يرددها بعينها متعلقة بمعنى آخر في البيت نفسه ، او في قسيم منه ، وذلك نحو قول زهير :

من يلق يوما على عيلاته هَرَمًا يلق الساحة منه والندی خلقا

فعلق (يلق) بهرم ثم علقها بالساحة (٢٥٦) » .

(٢٥٢) المثل السائر : ١٦٧/٢ .

(٢٥٤) نفسه .

(٢٥٥) الصناعتين : ٤١٣ .

(٢٥٦) العمدة : ٣٢٣/١ .

ويبدو ان المتبني لم يوفق في استخدام (التريديد) في قوله :

أسد فرائها الاسود يقودها أسد تكون له الاسود ثابا

وقد عابه ابن رشيقي قائلا : « فما ادري كيف تخلص من هذه الغابة الملوءة اسودا ؟ ولا أقول انه بيت شعر (٢٥٧) » . الا ان عبدالرحمن شعيب دافع عن تكرار المتبني لكلمة (أسد) في هذا البيت ، فقال : « وبالرغم من ان المتبني كرر كلمة (الاسد) في هذا البيت تكريرا لم يرق القيرواني ، فانا نجد الكلمة في كل مرة من مرات ذكرها في البيت ، وفيت المعنى المسوقة له احسن توفية ، واختلف اطلاقها في كل مرة اختلافا يجعل لتكريرها سندا مقبولا ، وعلة متساعة ، وبذلك فانا لا نقر القيرواني في رده للبيت ، وعده ضمن الساقط من شعر المتبني للتكرير المقوت (٢٥٨) » .

وأرى ان ابن رشيقي على حق في ذمه (التريديد) في بيت المتبني ، ذلك لان الشعراء الذين نجحوا في هذا الضرب من التكرار ، لم يوغلوا فيه افعال المتبني ، ولم يتكلفوا له تكلفه ، ولم يكرروا اللفظة اكثر من مرة في البيت الواحد ، اما المتبني فيبدو انه وضع كلمة (أسد) نصب عينيه ، ثم صار يحتال لتكرارها ، ويخلق لها المتلزمات التي تسوغ هذا التكرار ، وهذا هو التعلل الذي يفسد الفن ، ويسلب رونقه .

ولا بد من الاشارة هنا الى ان بعض النقاد جهل دوافع التكرار في بعض العبارات ، ولم يفتن لما وراءه من حالات نفسية ، تسوغه ، وتجعله مقبولا ، ولم ينظر اليه بعين الناقد الذي يلتصق ما وراء اللفظ ، ويتسقط الاصداء التي تتناثر من الكلمة ، فوصف بعض الالفاظ المكررة بانها حشو او فضول ، لا غناء له ، ولا تمع فيه . ومن الامثلة على التكرار الذي جهل بعض النقاد حقيقته ، قول ابي سعد المخزومي ، الذي يبدو ان الشيب بكر اليه ، فراح

(٢٥٧) العمدة : ٢٢٥/١ .

(٢٥٨) المتبني بين ناقيه : ١٠٨ .

يكرّر لفظه (الشباب) كمن ينذر بفقد شيء، فيحرص عليه ، ويتشبث به .
قال المخزومي :

أشيب ولم أفض الشباب حقوقه ولم يرض من عهد الشباب قديم
الا ان الصولي لم يرقه تكرار لفظ (الشباب) ورأى ان الشاعر لو استعاض
من الثاني بضمير يعود على الاول لكان الكلام أشبه بكلام الحدائق . قال :
« وكان يجب ان يغير الاول أو الثاني ، وتغير الثاني أشبه لان قوله : ولم
يرض من عهد الشباب قول من لم يذكر الشباب في صدر بيته . ولم يتكلم
الحدائق في هذا الا برد ضمير عليه فيقال : ولم يرض منه اوله او عليه ، فلو
قال : من عهد عليه قديم كان أشبه (٢٥٩) » .

لقد جهل الصولي دوافع التكرار في هذا البيت ، واساء فهمه ، ونصح
للشاعر بالاستعاضة منه بضمير يعني عنه ، وكان الشاعر في نظر الصولي مجرد
مخبر ، همه النقل والايصال ، وان علاقته باللغة يحددها هذا الغرض القرب
الساذج ، بمعنى ان اى لفظ يجزئه ، ويبلغه مقصوده ، وفات الصولي ان
التكرار عنصر بياني ، لا يستغني الشاعر عنه ، وان اللفظ المكرر الناجح : يقوم
مقام كلام طويل .

ولم يظن المرزباني ايضا لحقيقة التكرار ودوافعه في قول البحرى :

حنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جيس

ورأى ان الضمير يعني عن كلمة (نفس) الثانية ، بمعنى ان البحرى لو قال
(حنت نفسي عما يدنسها) لكان ذلك احسن عند المرزباني (٢٦٠) . ولا حاجة
بي الى التعليق على ما في هذا الراى من خلل ، ومجانبة للفهم الصحيح لاسلوب
الشعر ، ووظيفة الالفاظ فيه ، فالالفاظ عند الشاعر الحاذق ليست رموزا
لما ن فحسب ، بل ان لها وظائف أخرى لا يدركها الا ناقد فطن ، والضمير

(٢٥٩) الموشح : ٥٢٠ .

(٢٦٠) نفسه .

الذي اشار اليه المرزباني قد يصلح لو قصد البحري الى مجرد الاخبار في كلام منشور .

١٣ - موقع الكلمة :

به ابن الاثير على مقياس آخر من المقاييس التي تعرض عليها المفردة ، وهو موقعها من العبارة . فبعض الكلمات - عند ابن الاثير - تحسن اذا اكتفتها الالفاظ ، واشتلت عليها العبارة ، وتقبح اذا وقعت طرفا ، ولم يتبعها شيء ، لان الكلام ينقطع عندها ، فتبدو كأنها مفردة ، لم يضمها سياق ، ولم تجاورها الفاظ . وبعض الكلمات لذلك لا تحسن اذا وقعت نهاية لصدر بيت ، او جاءت قافية فيه . وأشار ابن الاثير الى أن احدا لم يسبقه الى هذا الرأي ، ثم ضرب لذلك عدة امثلة منها كلمة (تؤذى) التي وردت في تركيبين فكانت في احدهما جيدة ، وكانت في الاخر رديئة ، اما الاول فقوله تعالى « فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذى النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق » .

والثاني قول المتنبى :

تلذ له المروءة وهي تؤذى ومن يعشق يلذ له الغرام

قال ابن الاثير معلقا على الآية والبيت : « وهذه اللفظة التي هي تؤذى اذا جاءت في الكلام فينبغي ان تكون مندرجة مع ما يأتي بعدها ، متعلقة به كقوله تعالى (ان ذلكم كان يؤذى النبي) وقد جاءت في قول المتنبى منقطعة ، الا ترى انه قال : (تلذ له المروءة وهي تؤذى) ثم قال (ومن يعشق يلذ له الغرام) فجاء بكلام مستأنف (٢٦١) » .

ومن ذلك كلمة (القتل) التي وردت في قوله تعالى « فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقتل والضفادع والدم آيات مفصلات » وجاءت في قول الفرزدق :

(٢٦١) المثل السائر : ١٤٦/١ .

من عزه احتجرت كليب عنده زربا كأنهم لديه القمئل^{٢٦٢} فحسنت في الآية ، وقبحت في البيت « لانها جاءت في الاية مندرجة في ضمن كلام ولم ينقطع الكلام عندها ، وجاءت في الشعر قافية ، اي آخرها انتقع الكلام عندها(٢٦٣) » .

ونبه ابن الاثير على ان في الآية الكريمة سرا آخر من أسرار الجبال ، وهو ان خسة الالفاظ التي فيها متفاوتة في الحن ، فجعلت « لفضة القمل والضفادع في الوسط ليطرق السمع اولا الحن من الالفاظ الخسة ، وينتهي اليه آخر ، ثم لفضة الدم احسن من لفظتي الطوفان والجراد وأخف في الاستعمال ، ومن أجل ذلك جرى بها آخر ، ومراعاة مثل هذه الاسرار والدقائق في استعمال الالفاظ ليس من القدرة البشرية(٢٦٤) » .

١٤ - أسماء الإشارة والموصول والضمائر :

وقد عاب النقاد الاكثار من هذه المفردات وكادوا يجعلونها ما يتوكأ عليه الشاعر لاقامة الوزن او تصحيحه . قال القاضي الجرجاني عن المتبي : « وهو اكثر الشعراء استعمالا لـ (ذا) التي هي للإشارة ، وهي ضعيفة في صنعة الشعر ، دالة على التكلف ، وربما وافقت موصفا يليق بها(٢٦٥) » . وعلى عادة النقاد العرب في الاحتكام الى الشعر الجاهلي ، واستمداد اكثر مقاييس الجودة والرداءة منه ، استدل القاضي الجرجاني على قبح اسماء الاشارة بأن الشعر الجاهلي يكاد يخلو منها ، فقال « وانت لا تجد منها في عدة دواوين جاهلية حرفا(٢٦٥) » . وعلى الرغم من ان اسماء الاشارة لم تظهر كثيرا الا في الشعر العباسي ، فان الشعراء استعملوها « في القرب والندرة او على سبيل الغلط والفتنة(٢٦٦) » . أما المتبي فقد اقرط في استخدامها ،

(٢٦٢) المثل السائر : ١٤٨/١ .

(٢٦٣) نفسه : ١٤٨/١ .

(٢٦٤) الوساطة : ٩٥ .

(٢٦٥) نفسه : ٩٧ .

(٢٦٦) نفسه .

فكان ذلك من العيوب التي أخذت عليه . قال ابن جني : « قلت لابي الطيب المتنبى : انك تكرر في شعرك (ذا) و (ذى) كثيرا ، ففكر ساعة ثم قال : ان هذا الشعر لم يعمل كله في وقت واحد ، فقلت : صدقت الا ان المادة واحدة : فأمسك (٢٦٧) » .

وقال ابن رشيح « ويكره لشاعر استعمال (ذا) و (ذى) و (الذي) و (هو) و (هذا) و (هذى) وكان ابو الطيب مولعا بها ، مكثرا منها في شعره ، حتى حمله جبه فيها على استعمال الشاذ وركوب الضرورة في قوله :

لو لم تكن من ذا الورى التذّ منكَ هوّ

عَقِمَتْ بِمَوْلِدِ نَسْلِهَا حَوَاءُ » (٢٦٨)

وان عدد النقاد اساء الاشارة خاصة « معية كآنها حشو واستعانة على الكلام » (٢٦٩) فقد فرقوا بين ما يأتي منها كذلك وما يأتي « شطارة وعبثا » (٢٧٠) كقول ابي نواس :

قال ابراهيم بالما ل كذا غربا وشرقا

أو ما يأتي منها « بيانا وثقيفا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبدالله بن عمرو بن العاص : « وكيف بك اذا بقيت في حثالة من الناس قد مرجت عهدهم وأماتتهم واختلفوا فكانوا هكذا وشبك بين اصابع يديه » ولا أحد أفصح من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبعد كلاما منه من الحشو والتكلف » (٢٧١) او كما قال احد الخطباء في حاضرة معاوية : « هذا أمير المؤمنين وأشار بيده الى معاوية فان مات فهذا ، وأشار الى يزيد ، فمن أبى فهذا ، وأشار الى السيف » (٢٧٢) .

. (٢٦٧) سر الفصاحة : ٩٦ .

. (٢٦٨) العمدة : ٧١/٢ .

. (٢٦٩) نفسه : ٣٠٩/١ .

. (٢٧٠) نفسه .

. (٢٧١) نفسه .

. (٢٧٢) العمدة : ٣١٠/١ .

فأساء الإشارة لا تحسن ابدا ، ولا تقبح دائما ، انما تحسن وتقبح .
ويتوقف ذلك على موقعها من التركيب ، وعلى حاجة المعنى اليها . وقد صدق
الجرجاني حين قال « وربما وافقت موضعا يليق بها » (٢٧٣) .

١٥ - كاف الخطاب :

ولهذا الضمير أيضا ، مواضع يحسن فيها ويجود ، وأخرى يقبح فيها
ويرد ، وقد عني النقاد به ، وأوضحوا مواقع حسنه ، وشروط استخدامه .
ووجد النقاد ان الشعراء يوردونه للتعبير عن معانٍ تكره مواجهة المخاطبين بها ،
وان كان الشعراء يخاطبون انفسهم بتلك المعاني . ولما كان المدح والرثاء
يشغلان الشعراء ، ويذهبان باكثر شعرهم ، فقد اتجهت عناية النقاد الى هذين
الغرضين ، ووضعوا لهما كثيرا من التقاليد التي تضمن للشاعر رضا واستحسان
من يتوجه اليه بمدح وتمزية ، ثم جعلوا الخروج على هذه التقاليد ، أو عدم
مراعاتها سببا في تأخر الشاعر وتعرضه للوم والعقاب أحيانا « (٢٧٤) .

وطبيعي ان تشمل تلك التقاليد الشكل والمضمون ، أو الالفاظ والمعاني ،
وما حديثهم عن الاستهلال وحسن التخلص والختام ، وكلامهم على كاف
الخطاب الا امثلة من تلك التقاليد الموضوعه لهذين الغرضين ، والمستبطن
أكثرها من احسن ما قيل فيهما من شعر . قال ابن طباطبا متحدثا عن الشاعر :
« واذا مرَّ له معنى يستبجح اللفظ به ، لطف في الكناية عنه ، وأجل المخاطب
عن استقباله بما يتكره منه ، وعدل اللفظ عن كاف المخاطبة الى ياء الاضافة
الى نفسه ، ان لم يشكر الشعر ، أو احتال في ذلك بما يحترز به مما ذمناه ،
ويوقف به على أرب نفسه ، ولطف فهمه كقول القائل :

ولا تحسن الحزن يبقى فانه شهاب حريق واقد ثم خامد
سألف فقدان الذي قد فقدته كالفك وجدان الذي انت واجد

(٢٧٣) الوساطة : ٩٥ .

(٢٧٤) الاسس الجمالية في النقد العربي : ١٩٦ .

وانما اراد الشاعر : ستألف فقدان الذي قد فقدته كالفك وجدان الذي قد وجدته ، أي تتعزى عن مصيبتك بالسوء ، فانظر اليه كيف لطف في اضافة ذكر المفقود الذي يتطير منه الى نفسه ، وما يتفاءل اليه من الوجدان الى الخطاب ، فجعل الموجود المألوف للتعزى ، والمفقود لنفسه « (٢٧٥) .
وكان ذو الرمة قد استخدم (كاف الخطاب) في مهمل قصيدته التي مدح بها عبدالمملك ، فاستقل الخليفة ان يوجه الخطاب اليه ، وغضب على ذي الرمة ونحاه ، قال ذو الرمة :

ما بال عينك منها الماء ينكب كانه من كلى مغرية سرب
« وكانت عينا عبدالمملك تسيلان ماء ، فقيل له : ويحك انما دهاك عنده قولك :

ما بال عينك منها الماء ينكب

فالقلب كلامك . قال : نصبر حتى دخل الثانية فقال له : أتند فأند :

ما بال عيني منها الماء ينكب

حتى أتى على آخرها فأجازته واكرمه « (٢٧٦) .

واستعمل جرير (كاف الخطاب) في قصيدته التي مدح بها عبدالمملك أيضا فقال :

أتصحو ام فؤادك غير صاح

فقال عبدالمملك : « بل فؤادك يا ابن الناعلة . كانه استقل هذه المواجهة ، والا فقد علم ان الشاعر انما خاطب نفسه « (٢٧٧) .
وعيب المتنبى أيضا لاستعماله الضمير المذكور في احدى مدائحه لكافور قال :

(٢٧٥) عيار الشعر : ١٢٣ ، ١٢٤ .
(٢٧٦) الوشح : ٢٧٤ .
(٢٧٧) العمدة : ٢٢٢/١ .

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا وحب النايا ان يكن امانيا
 فلم يرض النقاد عن ذلك ، وأخذه عليه ، ورأوا أنه لا يسج مع
 ما يلزم الشعراء من « التأدب للملوك وحن الياة » (٢٧٨) .

١٦ - حروف الصلات :

وتقصد بها الحروف التي تعلل بين الجمل : وتربط بعض المفردات ببعض ،
 أو توصل معنى الفعل او ما هو في حكه الى ما بعده من الكلمات . وقد
 وقف النقاد عند هذا النوع من المفردات ، يقتنون لها ، ويضعون القواعد
 لاستخدامها . ذلك لانهم وجدوا « ان من اهم وسائل التعبير الدقيق اتقان
 استعمال الحروف ، ولا سيما حروف الجر ، فان لها معاني يميز بعضها عن
 بعض بحيث تؤدي أدق المعاني لو جاء الحرف في موضعه » (٢٧٩) .

ولا شك في أن عبارة القرآن كانت المثل الالفت للنقاد في هذا الشأن ،
 اذ انهم وجدوا القرآن قد استخدم الحروف بدقة ، ووضع كلا منها الموضع
 الذي يلائمه ، فراعهم ذلك ، ونشدوا أن يحتديه المنشئون .

فحروف العطف مثلا يختص كل منها بمعنى معين ، ويؤتى به في موضع
 لا يصلح له غيره ، وقد نبه النحاة على ذلك ، الا أن قلة من المنشئين كانوا
 يراعونه ، ويضعون الحروف في مواضعها ، ومثل حرف العطف حروف الجر .
 قال ابن الاثير : « ان أكثر الناس يضعون هذه الحروف في غير مواضعها ،
 فيجعلون ما ينبغي ان يجر بعلى بنفي في حروف الجر » (٢٨٠) . وقد يحسب
 المنشيء الذي لم ترسخ قدمه في اللغة ان حرنا من حروف العطف يعني عن
 غيره ، فيأتي به ، فلا يكون كلامه سديدا .

ومن الامثلة على الاستخدام الدقيق لحروف العطف قوله تعالى : « والذي
 هو يطعني ويقيني واذا مرضت فهو يشفيني ، والذي يبيتنى ثم يحييني » .

(٢٧٨) العمدة : ٢٢٢/١ .

(٢٧٩) نحو القرآن : ٥٠ .

(٢٨٠) المثل السائر : ٥٠/٢ .

فحذف الاسقاء على الاطعام بالواو لان المقصود هنا مطلق الجمع ، وهو ما تقيده (الواو) ولكنه عطف الشفاء على المرض بالفاء ، لان الشفاء يعقب المرض بلا زمان خال من احدهما ، و (الفاء) تقيده الفور ، ثم عطف الاحياء على الموت بـ (ثم) لان الاحياء يكون بعد الموت بزمان و (ثم) تقيده التراخي (٢٨١) . قال ابن الاثير : ولو قال قائل في موضع هذه الاية : الذي يطعمني ويسقيني ويرضني ويشفيني ويبيتني ويحييني لكان للكلام معنى تام الا انه لا يكون كعنى الاية ، اذ كل شيء منها قد عطف بما يناسبه ، ويقع موقع السداد منه « (٢٨٢) .

وقد استعمل القرآن حروف الجر استعمالا دقيقا ، فاورد كلا منها في الموضع الذي يقتضيه . قال تعالى : « قل من يرزقكم من السماوات والارض قل الله وانا واياكم لعلى هدى او في ضلال مبين » . وقد علق ابن الاثير على هذه الاية الكريمة بقوله : « الا ترى الى بداعة هذا المعنى المقصود لمخالفة حرفي الجر ههنا ، فانه انما خولف بينهما ، في الدخول على الحق والباطل ، لان صاحب الحق كانه مستعل على فرس جواد يركض به حيث شاء ، وصاحب الباطل كانه منغمس في ظلام منخفض فيه ، لا يدري اين يتوجه ، وهذا معنى دقيق قلنا يراعى مثله في الكلام ، وكثيرا ما سمعت اذا كان الرجل بلوم اخاه او يعاتب صديقه على امر من الامور فيقول له : انت على ضلالك القديم كما اعهدك فيأتي بعلى في موضع في ، وان كان هذا جائزا الا ان استعمال في ههنا اولى لما أشرنا اليه ، الا ترى الى قوله تعالى في سورة يوسف : (قالوا تالله انك لفي ضلالك القديم) « (٢٨٣) .

فمن شروط الجودة في حروف الصلوات ان يراعى عند استخدامها المعنى الذي استعملها فيه العرب ، وايدته النصوص الالادية الرفيعة ، وعلى رأسها القرآن الكريم .

(٢٨١) المثل السائر : ٥٠ / ٢ .

(٢٨٢) نفسه : ٥٢ / ٢ .

(٢٨٣) نفسه : ٥٣ / ٢ ، ٥٤ .

(ولم يعجب النقاد أن تتوالى حروف الصلوات في العبارة) بحيث لا يفصل بينها فاصل ، لأن ذلك يؤدي الى التعقيد ، وتسمية المعنى المقصود . وفي ذلك قال العسكري : « وينبغي أن تتجنب إعادة حروف الصلوات والرباطات في موضع واحد اذا كتبت ، مثل قول التائل : منه له عليه ، أو عليه فيه ، أو به له منه . وأخنها : له عليه . فبيله أن تداويه حتى تزيله ، بأن تفصل ما بين الحرفين مثل أن تقول : اامت به شهيدا عليه » (٢٨٤) .

وكان هذا العيب أحد ما نعي على المتنبّي ، اذ كان يكثر من حروف الصلوات على نحو تفضّص العبارة معه ، ويخفي المراد منها . قال العسكري : « ولا اعرف أحدا كان يتتبع العيوب فيأتيها غير مكترث الا المتنبّي فانه ضمن شعره جميع عيوب الكلام ، ما أعدمه شيئا منها ، حتى تخطف الى هذا النوع فقال :

ويسعدني في غرة بعد غرة بوح له منها عليها شواهد

فأتمى من الاستكراه بما لا يطار غرابه » (٢٨٥) .

وما أنكره النقاد لهذا السبب قول المتنبّي أيضا :

ولكنك الدنيا الي حبيبة فما عنك لي الا اليك ذهاب

فان الثعالي يراه أشد بيت قاله تعقيدا والتواء (٢٨٦) .

والنقاد على حق في استهجان هذا البيت وأضرابه ، لان تتابع هذا العدد من حروف الجر : عنك لي اليك ، في شطر واحد ، من شأنه ان يعقد التركيب ، ويسمي معناه ، ويصرف التلقّي عن الاستمتاع به . والتلذذ بقراءته .

١٧ - التصغير :

وجمل ابن سنان من شروط جودة الكلمة ان تكون « مصفرة في موضع

(٢٨٤) الصناعتين : ١٦٠ .

(٢٨٥) نفسه .

(٢٨٦) بئيمة الدهر : ١٨٨/١ .

عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو ما يجري مجرى ذلك « (٢٨٧) .
 لأن تصغير الكلمة المعبرة عن أحد هذه الأمور وسيلة من وسائل الإيجاز .
 فإذا أراد الشاعر مثلا أن يصف لنا لطف نسة النجر ، ووهن هبوبها اكتفى
 بتصغيرها ، فقال :

يولع الظل يردينا وقد ست رويحة النجر بين الضال والسلم
 ولو لم يختر الشاعر وسيلة التصغير لاتبع (الريح) بكلمات تصف
 ضعفا ، وعذوبة مراها . وكانت كلمة (قير) في قول ابن أبي ربيعة :
 وغاب قير كنت أرجو طلوعه وروح رعيان ونوم ستر
 كلمة جبيلة ، بسبب انها دلت على أن القمر الذي غاب كان هلالا ،
 وهو لهذا صغرها . قال ابن سنان : « فانا جملة قيرا لانه كان هلالا غير
 كامل ، ويمكن الدلالة على ذلك بقوله : انه غاب في أول الليل ، وقت نوم
 السر . والقمر اذا كان هلالا غاب في ذلك الوقت بلا شك ، وهذا تصغير
 مختار في موضعه » (٢٨٨) .

وإذا كانت كلمة (قير) جبيلة عند ابن سنان بسبب تصغيرها ، فانها
 لم تزل اعجاب سعيد بن المسيب الذي سح رجلا يتشل بيت ابن أبي ربيعة
 السابق فقال : « ماله قاتله الله ، لقد صغر ما عظمه الله عز وجل ، قال
 (والقمر قد رناه منازل حتى عاد كالمرجون القديم) . . . وقال : كان يقال :
 لا تقولوا : مسجدا ولا مصيحا ، وما كان لله عز وجل فهو عظيم حسن
 جميل » (٢٨٩)

والتصغير عند النحاة يثيد التحقير والتلحيز والتعظيم (٢٩٠) ، إلا أن ابن
 سنان كان يرى التصغير لا يكون سببا في جودة الكلمة إلا إذا عبر بها عن

• (٢٨٧) سر الفصاحة : ٧٩ .

• (٢٨٨) نفه : ٨٠ .

• (٢٨٩) الموشح : ٣٢٢ .

• (٢٩٠) ينظر هامش ٢٩١ .

أمر فيه ضؤولة أو حقارة أو خفاء ، ولهذا لم يرتض للتبني ان يصغر كلمة (ليلة) مريدا تعظيمها ، والدلالة على طولها ، حين قال :

أحاد أم سداس في أحاد ليلتنا المنوطة بالتاد

قال ابن سنان : « فليس التصغير عندي وجها من وجوه النصيحة الا في الموضع الذي ذكرته دون ما يسونه تصغيرا في التعظيم ، وعلى هذا حصل قول المتبي : احاد ام سداس في أحاد ... اليت فلا اختار التصغير في - ليلتنا - لانه تصغير تعظيم » (٢٩١) .

ولم ير ابن الاثير ان تصغير الكلمة اذا اريد التعبير بها عن أمر لطيف أو خفي أو حقير ما يستحق ان ينبه عليه شاعر أو كاتب ، ذلك لان المعنى يقتضيه ويسوق اليه ، كما ذهب الى ان التعبير عن الحقارة والضؤولة والخفاء ، قد يتم بالتصغير وقد يتم بما يظهر هذه المعاني من الفاظ وعبارات ، الا ان الاسلوب الثاني ابلغ في الدلالة ، وأكشف عن مراد المشيء ، واستدل ابن الاثير على هذا الرأي بقول الشاعر :

لو كان يخفى على الرحمن خافية من خلقه خفيت عنه بنو لبند

ثم قال : « فهل كان يكن هذا الشاعر ان يصغر من هؤلاء القوم ويحقر

(٢٩١) واستدل من جعل التصغير يفيد التعظيم بقول الشاعر :

وكل اناس سوف يدخل بينهم دويبة تصغر منها الانامل

قال ابو سنان : « حكى ان ابا العباس البرد كان ينكره ويزعم ان التصغير في كلام العرب لم يدخل الا لثفي التعظيم ، ويتناول دويبة وما يجري مجراها بان يقول : اراد خفاءها في الدخول فصغرها لهذا الوجه وهو ضد التعظيم المذكور . ويقوي عندي ما ذهب اليه ابو العباس البرد انهم اذا وضعوا التصغير اشارة للتحقير والتعظيم معا ، فقد زالت الفائدة به ولم يكن دليلا على واحد منهما بل يرجع الى المقصود باللفظة ، ويتلمس بيان ذلك من جهة المعنى دون اللفظ ، فليس للتصغير تأثير » .
سر الفصاحة : ٨١ .

من شأنهم بالفاظ التصغير ، ويجيء هكذا كما جاء بيته هذا ؟ فالوصية به
- يعني التصغير - اذن ملغاة لا حاجة اليها « (٢٩٢) » .

وأرى ان وصية ابن سنان بالتصغير لم تكن عبثاً ، لانه قد رمى منها
الى ان يضع تحت يد المنشيء ما في اللغة من امكانات ليستغنيا ، ويصل منها
الى ما يريده . فاذا كانت اللفظة الواحدة تنيله قصده ، وتؤدي ما تؤديه
العبارة الطويلة ، فان اختيار اللفظة دليل على حذق المنشيء ، وفقهه بأسرار
اللغة التي يصوغ بها افكاره وعواطفه .

ولكن هذا الرأي لا ينع من قبول الرأي القائل بان العبارة احيانا
تؤدي ما تعجز عنه اللفظة الواحدة ، كما في البيت الذي ساقه ابن الاثير ،
والاديب هو الذي يحدد الاداة التي تكون ادق من غيرها نقلاً لما يريد ، وما
على الناقد الا ان يبصره بجميع الادوات التي يسكن ان يستغنيا ، وبزوايا كل
اداة .

١٨ - الاصطلاحات :

ونعني بها الالفاظ التي احطنمها اهل العلوم المختلفة للدلالة على
معانيهم ، وهي الفاظ جازوا بها معانيها المعروفة ، وصاروا يطلقونها على ما
استتبطوه من معان ، ووقفوا عليه من حقائق .

وعلى هذا فان (المصطلح) هو كلمة « لها معنى لغوي يفهمه الناس
عامة ، ومعنى آخر لا يفهمه الا اهل ذلك العلم » (٢٩٣) الذي استعملت فيه
الكلمة . فاذا قلنا مثلاً (فاعل) فان هذه الكلمة « تدل بمعناها اللغوي على
من قام بفعل من الافعال على حين هي في عرف النحويين الاسم المرفوع المسند
اليه فعل على طريقة فعل او شبهه ، ولفظة (الخير) معروفة بمعناها اللغوي

(٢٩٢) المثل السائر : ١٥٥/١ .

(٢٩٣) دروس في البلاغة : ٢٢٠ .

وهي في عرف النحويين الجزء المنتظم منه مع المبتدأ جملة ، وهكذا الامر في الفاظ العلوم الاخرى « (٢٩٤) .

وحين نشطت حركة العلوم في العصر العباسي ، ووضعت اعداد كبيرة من المصطلحات في مختلف العلوم ، تسربت بعض تلك المصطلحات الى لغة الادب ، وجرت على اقلام المنشئين وألسنة الخطباء ، فتصدى النقاد لهذه الظاهرة ، وعاثوا غزو الفاظ العلم للغة الادب .

وكان الجاحظ - على صلته بالمتكلمين ، واحاطته باوضاعهم ومصطلحهم - قد دعا الى استبعاد الفاظ العلم من لغة الادب ، ونعى على بعض الخطباء تورطهم في شيء منها ، فقال : « وقبيح بالخطيب ان يقوم بخطبة العيد او يوم الساطين او على منبر جماعة او في سدة دار الخلافة او في يوم جمع وحفل اما في اصلاح بين العشائر واحتمال دماء القبائل ، واستلال تلك الفضائل والسخائم فيقول كما قال بعض من خطب على منبر ضخم الشأن رفيع المكان: (ثم ان الله ، عز وجل ، بعد ان انشا الخلق وسواهم ومكن لهم ، لاشاهم قتلاشوا) . . . وخطب آخر في وسط دار الخلافة فقال في خطبته : (وأخرجه الله من باب اليبسية فأدخله في باب الايية) « (٢٩٥) وواضح ان (لاشاهم قتلاشوا) و (اليبية والايية) هي موضع نقد الجاحظ لانها من الفاظ المتكلمين والفلاسفة .

وشكا ابن قتيبة من غزو المصطلحات العلمية للغة الادب ، وطلب من المنشئين الابتعاد عنها ، لئلا تذهب بروق أدبهم (٢٩٦) .

والى مثل هذا ذهب ابو هلال العسكري فقال : « واعلم ان المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال ، فان كنت متكلماً ، أو احتجت الى عمل خطبة لبعض من تصلح له الخطب ، أو تعيده لبعض ما يراد له

(٢٩٤) دروس في البلاغة وتطورها : ٢٢٠ .

(٢٩٥) البيان والتبيين : ١٤٠/١ .

(٢٩٦) أدب الكتاب : ٤٤٣ .

القصيد فتخط الفاظ المتكلمين مثل الجسم والعرض والكون والتأليف والجوهر
فان ذلك هجئة « (٢٩٧) . ثم قال « وخطب بعضهم فقال : ان الله انشا الخلق
وسواهم ومكنهم ثم لا شامهم فضحكوا منه . وقال بعض المتأخرين :

نور تبين فيه لاهوتيه فيكاد يعلم علم ما لن يعلما

فاتى من الهجئة بما لا كفاء له « (٢٩٨) .

وتبع ابن سنان هؤلاء النقاد فقال : « ومن وضع الالفاظ موضعها الا
يستعمل في الشعر المنظوم والكلام المنشور من الرسائل والخطب الفاظ المتكلمين
والنحويين والمهندسين ومعانيهم والالفاظ التي تختص بها اهل المهن والعلوم ،
لان الانسان اذا خاض في علم ، وتكلم في صناعة ، وجب عليه ان يستعمل
الفاظ اهل ذلك العلم ، وكلام اصحاب تلك الصناعة ، وبهذا شرف كلام ابي
عثمان الجاحظ ، وذلك انه اذا كتب لم يعدل عن الفاظ الكتاب ، واذا صنف
في الكلام لم يخرج عن عبارات المتكلمين ، فكأنه في كل علم يخوض فيه
لا يعرف سواه ، ولا يحسن غيره « (٢٩٩) .

وهذا يعني ان لكل صناعة الفاظها الخاصة بها ، ولا يجوز للاديب
ان يعدوا الفاظ صناعته ، ويستعيب منها بالفاظ اهل العلوم والصنائع الاخرى ،
وقد كان من اسباب براعة الجاحظ - عند ابن سنان - انه على كثرة ما نهل من
العلوم ، وتبحر في مصطلحاتها ، لم يجعل تلك المصطلحات تغزو ادبه اذا
كتب او ترسل فاذا جادل وناظر ، او صنف في كلام او فلسفة ، ظهرت تلك
المصطلحات في كتابته ، حتى كأنه لا يحسن غيرها ، ولا يعرف سواها .

وكان حازم القرطاجني قد عرض لهذا الموضوع فانضم الى النقاد الذين
يدعون الى تنقية لغة الادب من المصطلحات العلمية ، فقال : « ان البصراء
بهذه الصناعة كابي الفرج قدامة وأضرابه قد نص جسيمهم على قبج ايراد

(٢٩٧) الصناعتين : ١٣٥ .

(٢٩٨) نفسه : ١٣٦ .

(٢٩٩) سر الفحاحة : ١٥٨ ، ١٥٩ .

المعاني العلمية والصناعية والعبارات المصطلح عليها في جميع ذلك ، ونهوا
عن ايراد جميع ذلك في الشعر « (٣٠٠) . وقال : « ان مستعمل هذه المعاني
العلمية في شعره يسيء الاختيار » (٣٠١) .

وأشار حازم الى ان عددا من الشعراء كانوا قد اودعوا شعرهم شيئا
من الفاظ العلوم ليدلوا على انهم شعراء وعلماء في آن واحد ، وفات هؤلاء
ان علمهم هذا لا يثبت لهم انهم من العلماء ، اذ ليس كل من لآك المصطلحات
بعالم ، كما أنه لا يسلكهم في عداد الشعراء ، الا عند من لا علم له بالشعر .
قال حازم : « وانما يورد المعاني العلمية في كلامه من يريد التويه بانه شاعر
عالم وقد بينا انه فعل تقيض ما يجب في الشعر ، فلم يثبت له انه قال
شعرا الا عند من لا علم له ، واما العلم فلا يثبت أيضا للشاعر بأن يودع شعره
معاني منه » (٣٠٢) .

ذلك هو موقف النقاد من الفاظ العلوم ، ولاجله عابوا الشعر الذي
ضم شيئا منها . فهذا ابن سنان مثلا يعيب ابا تمام لقوله :

مودة ذهب اثارها شبه وهمة جوهر معروفها عرض

« لان الجوهر والعرض من الفاظ اهل الكلام الخاصة بهم » (٣٠٣) .
ويعيب أيضا قوله - وفيه من الفاظ النحويين - :

خرقاء يلعب بالعقول خبايا كتلب الافعال بالاسماء (٣٠٤)

ويعيب قول المتنبي لما فيه من مصطلح النحاة أيضا (٣٠٥) :

اذا كان ما تنويه فعلا مضارعا مضى قبل ان تلقى عليه الجوازم

(٣٠٠) منهاج البغاء : ٢٥ .

(٣٠١) نفسه : ٣١ .

(٣٠٢) نفسه : ٣٠ .

(٣٠٣) سر الفصاحة : ١٥٩ .

(٣٠٤) نفسه .

(٣٠٥) نفسه .

غير ان ابن الاثير خالف النقاد القائلين باستبعاد الفاظ العلوم من لغة الادب ، وقبل ما رده ابن سنان وغيره من تلك الالفاظ ، قال رادا على ابن سنان : « شذ عنه ان صناعة المنظوم والمنثور مستمدة من كل علم وكل صناعة ، لانها موضوعة على الخوض في كل معنى ، وهذا لا ضابط له يضبطه ، ولا حاصر يحصره ، فاذا اخذ مؤلف الشعر او الكلام المنثور في صوغ معنى من المعاني ، واداه ذلك الى استعمال معنى فقهي او نحوي او حسابي او غير ذلك فليس له ان يتركه ويحيد عنه ، لانه من مقتضيات هذا المعنى الذي قصده ، الا ترى الى قول ابي تمام في الاعتذار :

فان يك جرم عن أو تك هفوة على خطأ مني فعذري على عمد

فان هذا من أحسن ما يجيء في باب الاعتذار من الذنب ، وكان ينبغي له على ما ذكره ابن سنان ان يترك ذلك ولا يتعمله ، حيث فيه لفظتا (الخطأ والعمد) اللتان هما من اخص الفاظ الفقهاء . وكذلك قول ابي الطيب المتبني :

ولقيت كل الناقلين كأنما رد الاله نفوسهم والاعصرا

نسقوا لنا نسق الحساب مقديما وأتى فذلك اذ آتيت مؤخرأ

وهذا من المعاني البديعة وما كان ينبغي لابي الطيب أن يأتي في مثل هذا الموضع بلفظة (فذلك) التي هي من الفاظ الحساب ، بل كان يترك هذا المعنى الشريف الذي لا يتم الا بتلك اللفظة موافقة لابن سنان فيما رآه وذهب اليه ، وهذا محض الخطأ وعين القلظ « (٣٠٦) .

ونحن نوافق ابن الاثير على أن الشاهدين اللذين ذكرهما ليسا من الشعر المرذود ولكننا لا نوافقته على أن فيهما شيئا مما حظره النقاد من الفاظ العلم ومصطلحاته ، وذلك لان الالفاظ التي ذكرها على انها من المصطلحات ليست الفاظا علمية بحتة ، اخص بها العلماء ، وانحدروا بتداولها ، وانما هي

من الالفاظ العامة التي يتوارد عليها العلماء وغيرهم ، ويحتاج اليها كل متكلم .
 خكلمة (الخطأ) و (العمد) وكلمة (فذلك) و (الحساب) وان اسمعتها
 هذه الفئة او تلك الطائفة من العلماء ، ليست من المصطلحات الصرف التي
 لا تتردد الا في الكتابات العلمية ، ولا تجري الا على السنة العلماء ، والنقاد
 لم يحظروا مثل هذه الالفاظ ، وانما عابوا ما هو أدخل منها في باب العلم ،
 ما لا يفهمه الا المتخصص كقول الشاعر :

عوامل رزق اعربت لغة الردي . فجسم له خفض ورأس له نصب

ففي هذا البيت أكثر من مصطلح نحوي هي (عوامل) و (الاعراب)
 و (الخفض) و (النصب) . وهذه الالفاظ لا يفهمها الا من ألم بالنحو ،
 وأحاط بطرف من معارفه وقول الاخر :

وفتي من مازن فاق أهل البصره
 أمه معرفة وأبوه نكره

وفيه من الفاظ النحاة كلمتا (معرفة) و (نكرة) . وكان ابن الاثير قد
 استحسنت البيتين ورأى أن سر جمالها ما فيها من الفاظ العلم ومصطلحاته (٣٠٧) .
 وليس ابن الاثير على حق فيما ذهب اليه ، لان التكلف باد عليهما وانما اثنبه
 بنظم العلماء منها بشعر الشعراء .

ويبدو ان شعراء العصور المتأخرة اخذوا يستغلون المصطلحات النحوية
 خاصة ليحقتوا بها ما أولعوا به من فنون البديع كالللباق والتورية وغيرها ،
 فعد بعض النقاد عليهم هذا « الغاية المثلى في ابلاغة » (٣٠٨) .

وهكذا تناوت نظرة النقاد الى استخدام المصطلحات . ففي عصور
 الازدهار الادبي عد ايرادها ما يقدر ، في الشعر ، ويذهب بجمالها ، وفي
 عصور الصناعة عدما بعض النقاد المثل الاعلى في البلاغة .

(٣٠٧) المثل السائر : ٢ / ٣٥٨

(٣٠٨) أسس النقد الادبي عند العرب : ٤٣٧ .

وإذا كان لنا من تعليق على ما قدمناه من آراء النقاد ، فإنا نرى ان المصطلحات كغيرها من الفاظ اللغة ، وان من حق الاديب ان يستعمل منها ما يحتاج اليه ليحدد الفكرة التي يريد التعبير عنها ، ويوضح التجربة التي اتعمل بها ، وإذا احتاج الاديب الى اللفظة لم يصرفه عنها ارتباطها بسجال معين ، أو اتساؤها لطائفة معينة وليس من حق الناقد ان يرد اللفظة لمجرد انها من الفاظ الفلاسفة او اوضاع العلماء ، وانما عليه ان ينظر لها في ضوء حاجة المنشيء اليها ، وعلاقتها بتجربته ، وصلتها بالفكرة المراد ايضاحها والتعبير عنها ، فاذا كان الباعث عليها الرغبة في الاغراب ، أو اظهار المعرفة بهذا العلم ، أو ذلك ، أو التلاعب بالانفاظ ، والجري وراء نكت البديع وأفانينه ، رفضها الناقد وزيفها ، وإذا كانت عنصرا تعبيريا لا غنى للاديب عنه قبلها وأقرها ، ولم يعبها عنده كونها من الفاظ الفلاسفة أو المتصوفة أو غيرهم من أهل العلوم .

(٢)

في التراكيب

١ - الانسياب :

ونعني به ان تكون الانفاظ منجمة غير متنافرة (٣٠٩) ، ينطلق بها اللسان في يسر وسهولة . وإذا كان النقاد قد اشترطوا في اللفظة ختوما وسلاستها ، وعدم تنافر حروفها ، فانهم اشترطوا في العبارة ان تنساب كلماتها بسهولة ، فلا يشعر اللسان بثقل ، وهو ينتقل من لفظ الى لفظ ، وذموا التركيب الذي تتنافر الفاظه ، ويتعثر اللسان بنطقها ، وسعوا ثقل العبارة ، وصعوبة التلنظ بها (المعاطلة اللفظية) ، لان المعاطلة عندهم « تراكب الانفاظ وتداخلها » (٣١٠) . ووجدوا ان مبعث الثقل في العبارة ما يأتي :

(٣٠٩) ينظر النقد الجمالي : ١٢٢ .

(٣١٠) المثل السائر : ٢٩٢/١ وما بعدها .

أ - اجتماع الكلمات التي يتكرر فيها حرف معين ، كقول اسحاق

الموصلي :

يا سرحة الماء قد سدّت موارده اما اليك طريق غير ممدود
لعائم حام حتى لا حيام له مُحَلًا عن طريق الماء مطرود
الذي سمعه الاصمعي فقال : « ان هذه الحاءات لو اجتمعت في آية
الكرسي لعابتها » (٢١١) . وقول ابي تمام :

فالمجد لا يرضى بان ترضى بان يرضى المؤمل منك الا بالرضا
فتكرر (الضاد) في أكثر كلمات البيت ، سلبه الانياب السهل ، وجعله يثقل
على اللسان . وحين سمع اسحاق الموصلي هذا البيت قال : « لقد ثققت على
نفسك يا ابا تمام ، والشعر أسهل من هذا » (٢١٢) .
وقول الاخر :

مللت مظال مولود مندى مليح مانع مني مرادي
فهذه « الميات كأنها عقد متصلة بعضها ببعض » (٢١٣) .

ب - اجتماع الكلمات التي تتقارب بعض حروفها في المخارج ، كقول

ابن يبر :

لم يضرها - والحمد لله - شيء واثنت نحو عِزف نفس ذُحول
الذي علق عليه الجاحظ بقوله : « فتتقد النصف الاخير من هذا البيت
فانك ستجد بعض الناطه تتبرأ من بعض » (٢١٤) . وعلق عليه ابن رشيق أيضا

(٢١١) الموشح : ٤٦٠ .

(٢١٢) سر الفصاحة : ٨٧ .

(٢١٣) المثل السائر : ٢٦٨/١ .

(٢١٤) دلائل الإعجاز : ٤٦ .

فقال : « فان القسيم الاخر من هذا البيت ثقيل ، لقرب الحاء من العين ،

وقرب الزاي من السين » (٢١٥) .

وذهب مصطفى مندور الى « ان جزءا كبيرا مما يعاب على البيت الاخير

يتبدد مع حسن القراءة ، فلو تلبّث النفس قليلا بعد قول الشاعر : واثنت نحو

عزف ، ثم نتأنف القراءة : نفس ذهول ، اهان الثقل الصوتي ، وبان لطف

مطمور في موج الخيب » (٢١٦) .

ج - ان تتوالى في العبارة أو البيت افعال متحدة في الزمن أو مختلفة ،

فمن امثلة اجتماع الافعال المتحدة الزمن قول ابي الطيب :

اقل اقل اقطع أحل عل سل أعد زد هس بش تفعل أدن سر صل

« فهذه الفاظ جاءت على صيغة واحدة ، وهي صيغة الامر ، كأنه قال :

افعل افعل ، هكذا الى آخر البيت ، وهذا تكرير للصيغة وان لم يكن تكريرا

للحرف ، الا انه أخوه ، ولا أقول ابن عمه ، وهذه الفاظ متراكبة متداخلة ،

ولو عطفها بالواو لكانت أقرب حالا » (٢١٧) .

ومن امثلة اجتماع الافعال المختلفة في الزمن قول الارجاني على لسان

الشمع :

بالنار فرقت الحوادث بيننا وبها نذرت أعود اقل روحي

« فقوله : نذرت أعود اقل من المعاملة المشار اليها » (٢١٨) .

د - أن تتابع الالفاظ المضافة في العبارة كقول الشاعر (٢١٩) :

حامة جرجا حومة الجنادل اسجمي فانت برأى من سعاد ومسح

(٢١٥) الممددة : ٢٦١/١ .

(٢١٦) اللفظة والحضارة : ٥٨ .

(٢١٧) المثل السائر : ٢٠٠/١ .

(٢١٨) نفسه : ٢٩٩/١ .

(٢١٩) نفسه : ٣٠١/١ .

هـ - ان تابع الصفات في العبارة كقول ابي تمام :

اليك عن سيل عارض خضل الثؤبوب يأتي الحمام من نضده
منغه ثرة محسحه وابله مستهكه جرده

الذي علق ابن الاثير عليه قائلا : « ولو لم يكن لابي تمام من القبيح
الشيخ الا هذه الايات لحطت من قدره » (٣٢٠) . وليس من شك في أن اليت
الثاني ما يعبر التلفظ به ، لتراكب الصفات فيه ، وتواليها .

ويبدو ان هذا العيب ، أعني ثقل العبارة وتراكب كلماتها ، من العيوب
النادرة ، بمعنى ان « من النادر ان يكون اجتماع الكلمات مسييا للثقل » (٣٢١) .
ولذا قلت الشواهد على هذا العيب ، وكادت تنحصر في ايات قليلة تكررت
عند اكثر النقاد والبلاغيين .

٢ - الموسيقى والإيقاع :

شغف العرب بموسيقى الالفاظ وجمال وقعها ، وما الاعلال والابدال
والادغام وعدم جواز الابتداء بالساكن الا مظاهر لاهتمام العرب المفرط
بجعل الكلمة وحدة منسجمة ، تخف على اللسان ، ويعذب وقعها في
السمع (٣٢٢) .

وكما شغفوا بموسيقى اللفظة ، واجتهدوا في تخليصها ما يفقدها التلاؤم،
أو التكافؤ بين حروفها وحركاتها ، كذلك حرصوا على موسيقى العبارات ،
واهتموا بأن تسجم الكلمات في داخلها من الناحية الصوتية ، بحيث تؤلف
بمجوعها نغما تطرب له الاذن ، وتقبل عليه النفس . وقد اتبعوا لتحقيق
هذه الغاية وسائل شتى ، وسلكوا سبلا مختلفة .

وكان البيان القرآني قد اهتم بموسيقى العبارة ، وحرص أشد الحرص
على تحقيقها ، فوافق ذلك هوى في نفوس العرب ، وهم المولعون بسحر

(٣٢٠) المثل السائر : ٢٠٢/١ .

(٣٢١) أسس النقد الادبي عند العرب : ٤٢٩ .

(٣٢٢) النقد الجمالي : ١٣٢ .

الكلمة ، الناشدون لختها وعذوبة وقعها . وحين مرثوا على صناعة النشر ، ورسخت اقدامهم فيها ، كان أحب شيء الى نفوسهم ان تصدر عنهم العبارات المتناغة التي تعادل وحداتها الصوتية وتتوافق من حيث الاوزان .

وكما تأثر المنشئون بالقرآن ، وعلوا على محاكاته في تحقيق التوازن والانسجام الصوتي ، بين اللفظة واختها ، والعبارة وجارتها ، كذلك تأثر النقاد بهذا النمط من الابداء ، واعجبوا به ايا اعجاب ، فنصحوا للابداء ، كتابا وشعراء ، بأن يراعوا التوافق الصوتي بين وحدات العبارة نفسها ، وبين العبارات المتجاورة ايضا .

وقد بحث النقاد موسيقى العبارة في أبواب عدة ، وتحت عناوين مختلفة كالازدواج والتوازن والسجع والترصيع . وما جاءوا به في هذه الابواب يشهد بانهم اولعوا بموسيقى التركيب ، وعدوها - في الكلام المنشور خاصة - مقياسا مقدما على سائر ما يقاس به الكلام المنشور من مقاييس (٣٢٣) .

ورأى النقاد ان الشيء يستطيع تحقيق الموسيقى لتراكيبه وعباراته اذا اعتمد على (الازدواج) ، وهو « ان يراعي الوزن في جميع كلمات القريتين او في أكثرها وهو احسنها واعلاها كقوله تعالى (وآتيناهما الكتاب المتين ، وهديناهما الصراط المستقيم) » (٣٢٤) . فكل كلمة في الجزء الاول توافق من حيث الوزن الكلمة المقابلة لها في الجزء الثاني .

لقد فضل النقاد هذا النمط من التراكيب ، حتى قال العسكري : « لا يحسن منشور الكلام ولا يخلو حتى يكون مزدوجا ، ولا تكاد تجد لبيخ كلاما يخلو من الازدواج ، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن ، لانه في نقله خارج من كلام الخلق ، وقد كثر الازدواج فيه » (٣٢٥) .

(٣٢٣) ابو هلال العسكري : ١٤٣ .

(٣٢٤) صبح لاعشى : ٢٨٢/٢ . وينظر تطور الاساليب الشعرية : ١٤٣ .

(٣٢٥) الصناعتين : ٢٦٠ .

واشترط ابو هلال الازدواج في الرسائل والخطب ، ولم ير السجع لازما فيها ، وان كان يرى السجع غير المستكره او المعقد ما يزيدا جبالا . قال : « واعلم ان الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخطب هو ان تجعلها مزدوجة فقط ، ولا يلزمك فيها السجع ، فان جعلتها مسجوعة كان احسن ، ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد . » (٣٢٦) .

واذا لم يستطع المشيء ان يحقق التوافق الصوتي أو الوزني بين مفردات العبارات المتوالية ، فلا أقل من ان يحققه في النواصل ، وهي الكلمات الاخيرة من العبارات . وقد سوا هذا النمط من الاداء بـ (التوازن) أو (الموازنة) قال ابن الاثير في تعريف الموازنة : « وهي ان تكون الناطق النواصل في الكلام المنشور متساوية في الوزن » (٣٢٧) . ثم قال : « وللكلام بذلك طلاوة ورواق وسببه الاعتدال لانه مطلوب في جميع الاشياء ، واذا كانت مقاطع الكلام معتدلة ، وقعت من النفس موقع الاستحسان » (٣٢٨) . ومن الامثلة على (الموازنة) كما عرفها ابن الاثير ، قوله تعالى (ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة) حيث تقابلت الفاصلتان (مصفوفة) و (مبثوثة) وتعادلتا من حيث الوزن .

ويبدو ان (الموازنة) لا تحقق أحسن صورة للتوافق الصوتي المنشود في العبارات ، ولهذا ذهب ابو هلال الى ان هناك صورة احسن واكمل للموازنة ، وهي التي تتحد فيها النواصل في الوزن وفي الحرف الاخير ، ولا يتحقق ذلك الا في الاسلوب المسجوع . وقد أورد العسكري قول بعض الكتاب « اذا كنت لا تؤتى من نقص كرم ، وكنت لا أوتى من ضعف سبب ، فكيف اخاف منك خيبة أمل ... » ثم قال « فهذا الكلام جيد التوازن ولو كان بدل (ضعف سبب) كلمة آخرها (ميم) ليكون مضاهيا لقوله (نقص كرم) .

(٣٢٦) الصناعتين : ١٥٩ .

(٣٢٧) المثل السائر : ٢٧٨/١ .

(٣٢٨) نفسه : ٢٧٨/١ ، ٢٧٩ .

لكان أجود^(٣٢٩) » . فالصورة المكتملة للموازنة أو التوازن هي السجع ، لان الفواصل فيه تكون على زنة واحدة ، وحرف واحد .

وقد اوضح العسكري ما يجلبه (التوازن) للكلام من حسن ، وما يفضيه عليه من روتق ، وذلك بأن عد الى عبارة : « اصبر على حر اللقاء ومضض النزال ، وشدة المصاع ، ومداومة المراس » فغير فواصل هذه العبارات وجعل (الحرب) بدل (اللقاء) و (المنازلة) بدل (النزال) ، فاصبحت العبارة : « اصبر على حر الحرب ، ومضض المنازلة ، ومداومة المراس » وهي في صورتها هذه تقتقر الى ما في صورتها الاولى من عذوبة الجرس ، وتوافق النغم ، وحسن التعادل^(٣٣٠) .

واستدل العسكري على شغف البلغاء بالتوازن او الموازنة ، بأن النبي (ص) « ربما غيرَ الكلمة عن وجهها للموازنة بين الالفاظ ، واتباع الكلمة اخواتها كقوله (ص) : (اعيذه من الهامة والسامة وكل عين لامة) وانا اراد (ملسة) وقوله عليه السلام (ارجعن مازورات غير ماجورات) ، وانا اراد (موزورات) من (الوزر) ، فقال : مازورات لمكان ماجورات ، تصدا للموازن وصحة التسجيع^(٣٣١) » .

وقد يسلك المنسئ لتحقيق الموسيقى لعباراته سبيلا أخرى ، ساءها النقاد (الترصيع) ، وهو يحدث في الشعر ، كما يحدث في النثر . قال قدامة في تعريفه : « وهو ان يتوخى فيه تصوير مقاطع الاجزاء في البيت على سجع او شبه به ، او جنس واحد في التصرف كما يوجد ذلك في اشعار كثير من القدماء المجيدين من الفحول وغيرهم ، وفي اشعار المحدثين المحسنين منهم^(٣٣٢) » ومن الامثلة عليه في الشعر قول بعضهم :

فكارم اوليتها متبرعا وجرائم الفيتها متورعا

(٣٢٩) الصناعتين : ٢٦٣ .

(٣٣٠) نفيه : ٢٦٤ .

(٣٣١) نفيه : ٢٦١ .

(٣٣٢) نقد الشعر : ٣٢ .

« فكارم بازاء جرائم ، وأوليتها بازاء النيتها ، ومتبرعا بازاء متورعا (٣٣٢) » .
 ومن الامثلة عليه في النشر قول الحريري : « فهو يطبع الاسجاع بجواهر لفظه ،
 ويقرع الاساع بزواجر وعظه » فجعل « الفاظ الفصل الاول مساوية لالفاظ
 الفصل الثاني وزنا وقافية ، فجعل يطبع بازاء يقرع ، والاسجاع بازاء
 الاساع ، وجواهر بازاء زواجر ، ولفظه بازاء وعظه (٣٣٢) »

و (الترصيع) قرب من (الازدواج) ، والفرق بينهما أن الاول يحدث
 في الشعر والنثر ، اما الثاني فلا يحدث الا في النثر . والترصيع يشترط فيه
 التزام تاوى الكلمات في جزأى العبارة ، او البيت ، من حيث الوزن
 والقافية ، اما الازدواج فيشترط فيه التوافق الوزني فقط في كل الكلمات
 او في اكثرها . ومعنى ذلك ان الترصيع تجليل مبالغ فيه ، وتقيد صارم
 بنظام (السيتمرية) ، وهو لذلك يعوق من يقصد اليه عن التدفق والانسياب
 في تصوير التجربة ، والاعراب عن الافعال .

ووجه الخطر في مثل هذا الاداء ، فوق ما ينزل بالمنشئ من عنت ومشقة
 هو ان اللغة تكون فيه سببا للتجربة ، وليست التجربة سببا للغة ، وتعبير
 آخر ، ان التعامل مع اللغة ، في اسلوب الترصيع ، لا يتم على اساس التجربة ،
 وطبيعة المعنى المراد تقديمه بقدر ما يتم على اساس الحاجة الى التلوين الصوتي ،
 او القيم الموسيقية التي يرغب المنشئ في تحقيقها لكلامه ، او اضافتها على
 عبارته . وتحت تأثير هذا الدافع في اختيار الالفاظ ، كثيرا ما يضطر المنشئ
 الى ان يعاف لفظا تقتضيه التجربة ، لان المجيء به يحدث نشازا في التوافق
 النحوي المنشود بين المفردات .

ونستطيع ان نعد اعجاب النقاد بالترصيع ، دليلا على تعلق شديد
 بالصنعة ، وحب ظاهر للعمل . وعلى الرغم من استحسان النقاد اياه ، فان
 المنشئين لم يكثروا منه ، وما قاله تدامة من ان الترصيع كثير في شعر القدماء ،

(٣٣٢) المثل السائر : ٢٦٤/١ .

(٣٣٤) نفسه : ٢٦٤/١ ، ٢٦٥ .

ليس بصحيح ، لان ابن الاثير قال : « ولم أجده في أشعار العرب (٣٣٥) » .
 وقال : « ثم اني عثرت عليه في شعر المحدثين ، ولكنه قليل (٣٣٦) » . ولا شك
 في ان قلة الشواهد عليه دليل على وعورته وعلى ما فيه « من تعمق الصنعة ،
 وتعمف الكلفة (٣٣٧) » .

٣ - الوضوح والقموض :

وتعني بالوضوح ان يكون المراد من الكلام واضحا . وقد جعل النقاد
 الوضوح شرطا لجودة العبارة ، وذلك لان الكلام اذا وضع استطاع ان يصل
 الى المتلقي ، ويحدث الاثر المطلوب فيه . قال ابن الاثير : « المقصود من انكلام
 انما هو الايضاح والابانة وانهام المعنى ، فاذا ذهب هذا الوصف المقصود من
 الكلام ذهب المراد به ، ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسية
 والرومية وغيرها (٣٣٨) » .

واذا كان النقاد قد اشترطوا لجودة العبارة ان تدل على معناها بوضوح ،
 فانهم عدوا العبارة المعقدة ، التي لا تفصح عن معناها ، عبارة نازلة وريثة .
 غير ان النقاد فرقوا بين نوعين من القموض : الاول وهو ما كان راجعا
 الى الالفاظ ، والثاني وهو ما كان راجعا الى المعاني ، وقد ذهبوا الى ذم الاول
 وكرهته ، وتابعوا على ايصاء رجال الادب بتحاميه ، وتبرئة كلامهم منه .
 وتكون الالفاظ سببا للقموض ، اذا كانت من الغريب الذي بعد العهد
 به ، وقل تداوله ، وقد مثل انتاضي الجرجاني لهذا اللون من الالفاظ بقول
 الشاعر :

يا دار سلسى خلاء لا أكلثها الا المرانة حتى تعرف الدينا

(٣٣٥) المثل السائر : ١/ ٢٦٤ .

(٣٣٦) نفسه ..

(٣٣٧) نفسه .

(٣٣٨) نفسه : ٢/ ٤٦ .

ثم علق عليه قائلاً : « فان الذي خالف بين اتاويلهم فيها هو انهم لم يعرفوا
المراة ، فقال قائل : هي ناقته ، وقال آخر : هي موضع دار صاحبه وقاله
آخر : انا اراد الدوام والمرونة (٣٣١) » .

كما تكون الالفاظ سببا للفسوخ اذا اخل بترتيبها ، ولم توضع في
المكان الصحيح الذي يجب ان توضع فيه كان ينأى الخبر عن مبتداه ، ويتأخر
الفاعل عن فعله ، ويفصل بين المضاف والمضاف اليه ، ويفرق بين الصفة
وموصوفها ، ويتأخر جواب ان شرط فلا يلزم فعله ، او لا يكون تريبا منه .
ولا شك في ان عدم ترتيب المفردات الترتيب الذي ترضى عنه قواعد النحو ،
يؤدى الى خفاء المعنى واستتار مرمى العبارة . وقد سسى ابن الاثير الاختلال
في ترتيب المفردات بـ (المعاملة المعنوية) (٣٤٠) .

لم يعجب النقاد اذن ان تكره الكلمة على النزول في غير مكانها ، لان
ذلك يفسد العبارة ، ويطنس معناها . وفي كتب النقد شواهد كثيرة تؤيد
مبدأهم هذا ، فقد عيب الاعشى لتقديم المفعول به في قوله :

اي الطوف خفت علي الردى وكم من رد اهله لم يرم

أراد : لم يرم اهله (٣٤١) . وانكروا على الشاخر الفصل بين الصفة وموصوفها
في قوله :

تخامض عن برد الوشاح اذا مشت تخامض حافي الخيل في الامعز الوجي

« يريد : تخامض حافي الخيل الوجي في الامعز ، فقدم وأخر (٣٤٢) » . وعندما
قال الفرزدق بيته المشهور في مدح ابراهيم بن هشام خال هشام بن عبدالمك :
وما مثله في الناس الا ملكا ابو امه حي ابوه يقاربه

(٣٣٩) الوساطة : ٤١٧ .

(٣٤٠) المثل السائر : ٤٤/٢ .

(٣٤١) الموشح : ٧٠ .

(٣٤٢) نفسه : ٩٩ .

وإراد : وما مثله في الناس حي يقاربه الا ملك ابو امه - ام الملك - أبوه - ابو ابراهيم - ، ظل بيته هذا غرضاً لهام النقاد في مختلف العصور ، لما فيه من غموض سببه التقديم والتأخير (٣٤٣) .

وظلل النقاد يحاربون الكلام المعقد ، الذي يؤلف التأليف الواضح ، ويوصون بأن توضع اللفظة « مع أختها المشاكلة لها ، التي تقتضي ان تجاورها لمعناها (٣٤٤) .

فأبو تمام كان قد أفرد تأليف بعض عباراته ، وذهب فيها الى « نحو من التركيب لا يتندي النحو الى اصلاحه (٣٤٥) » فجرّ ذلك عليه النقد . كما أدخل المتبني ايضاً بترتيب المفردات في بعض شعره ، فتعقد كلامه ، وخفي المراد منه ، فعاب النقاد ذلك عليه ، وجعلوه « أحد مراكمه الخشنة التي يتسها ، ويأخذ عليها في الطرق الوعرة ، فيضل ويضل ، ويتعب ويتعب ، ولا ينجح (٣٤٦) » .

وينجم الغموض عن الالتفاف في حال تداخلها ، واتصال بعضها ببعض اتصالاً يعسّي الفكرة ، ويحول دون فهمها ، وكان أبو تمام قد سقط في هذا العيب ، فأخذه الامدي عليه ، قال أبو تمام :

خان الصفاء أخ خان الزمان أخا عنه فلم يتخون جسمه الكمد

فقال الامدي : « فانظر الى اكثر الفاظ هذا البيت ، وهي سبع كلمات ، آخرها قوله (عنه) ، ما أشد تثبث بعضها ببعض ، وما أقبح ما اعتمده من ادخال الفاظ في البيت من أجل ما يشبهها ، وهي قوله : (خان) و (خان) . (يتخون) وقوله (أخ) و (أخا) » (٣٤٧) .

(٣٤٣) الموشح : ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٣٤٤) الموازنة : ٢٨٠/١ .

(٣٤٥) اسرار البلاغة : ١٣٠ .

(٣٤٦) يتيمة الدهر : ١٦٩/١ .

(٣٤٧) الموازنة : ٢٧٨/١ .

وينجم الغموض عن الالفاظ ايضا ، اذا حذف المشيء منها ما كان الكلام محتاجا اليه . وقد وقع في هذا العيب ابو تمام ايضا ، عندما قال :

هن عوادى يوسف وصواجه فمزما فقدمنا أدرك النأى طالبه

وكان هذا البيت سببا في نقد كثير توجه اليه ، كما كان سببا في السؤال المشهور الذي جبهه به ابو العيثل وابو سعيد الضرير حين قالوا له : « لم لا تقول ما يفهم » فقال : « ولم لا تتهمان ما يقال (٢٤٨) » . وقد عرض الامدى لهذا البيت فقال : « وانما جعله ردثيا قوله (هن) فابتدأ بالكناية عن النساء ولم يجز لهن ذكر بعد ، ثم قال (عوادى يوسف) ومعناه : صوارف . يقال : عداني عنك كذا اى صرفني . أراد : هن صوارف يوسف وصوارف ههنا لفظة ليست قائمة بنفسها لانه يحتاج ان يعلم صوارفه عن ماذا ، واللفظة القائمة بنفسها ان لو قال : فواتن يوسف ، او شواغف يوسف ، او نحو ذلك . وكأنه أراد : صوارف يوسف عن تقاه ، او عن هداه ، او عن صحيح عزمه ، حتى هم بالمعصية ، وانما يتم معنى الكلمة بثل هذه الالفاظ (٢٤٩) » . وقد لا يعود الغموض الناجم عن الالفاظ الى التقديم والتأخير ، او تداخل الكلام وشدة اتصال بعض النافذه ببعض ، او حذف ما بالكلام حاجة اليه ، وانما يعود الى استعمال النافذ لا تدل على المعنى المراد خاصة « بل تشترك معه فيها معان أخر ، فلا يعرف السامع ايها اراد ، وربما استبهم الكلام في نوع من هذا الجنس ، حتى لا يوقف على معناه الا بالتوهم (٢٥٠) » . ومن الامثلة على هذا قول جرير :

لو كنت أعلم ان آخر عهدكم يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

وقد علق عليه العسكري قائلا : « ان السامع لا يدري الى اى شيء اشار من افعاله في قوله : فعلت ما لم أفعل . اراد ان يبكي اذا رحلوا ، او يصيح على

(٢٤٨) الموازنة : ١٩/٢ .

(٢٤٩) نفسه : ١٧/٢ ، ١٨ .

(٢٥٠) الصناعتين : ٣٢ ، ٣٣ .

وجهه من الغم الذي لحقه ، او يتبعهم اذا ساروا ، او ينعمهم من المضي على عزمة الرحيل ، أو يأخذ منهم شيئا يتذكرهم به ، أو يدفع اليهم شيئا يتذكرونه به ، او غير ذلك ، مما يجوز ان يفعله العاشق عند فراق أحبته ، فلم يبين غرضه ، وأخرج السامع الى ان يسأله عما اراد فعله عند رحيلهم . وليس هذا كقولهم : لو رأيت عليا بين الصفيين ، لان دليل البسالة والنكايه في هذا الكلام بين ، وأمارة النقصان في بيت جرير واضحة ، فمن يسمعه ، وان لم يكن من أهل البلاغة ، يتبرده ويتغته (٣٥١) .

والنقاد وان ذهبوا الى ذم التعقيد ، او الغموض الناجم عن غرابة الالفاظ ، وسوء تأليفها ، فان عددا منهم صرحوا باحتمال الكلام المعقد ، وامكان الرضا عنه ، اذا انطوى على معنى شريف يكافئ التعب المبذول في استخراجها ، والوصول اليه . قال الامدي في تعليق له على قول ابني تمام المعقد :

خان الصفاء اخ خان الزمان اخا عنه فلم يتخون جسه الكد

« واذا تأملت المعنى مع ما أفسده من اللفظ ، لم تجد له حلاوة ، ولا فيه كبير فائدة . لانه يريد : خان الصفاء اخ الزمان اخا من اجله ، اذ لم يتخون جسه الكد (٣٥٢) » .

وقال صاحب الوساطة عن المتنبى : « كيف يحتل له اللفظ المعقد ، والترتيب المتعسف لغير معنى بديع ، يفي شرفه وغرابته بالتعب في استخراجها ، وتقوم فائدة الانتفاع بازاء التأذى باستماعه ، كقوله :

وفاؤكما كالربيع اشجاء طاسه بان تسعدا والدمع أشفاه ساجبه

ومن يرى هذه الالفاظ الهائلة ، والتعقيد المفرط ، فيشك ان وراءها كنزا من الحكمة ، وان في طيها الغنية الباردة ، حتى اذا قشها ، وكشف عن

(٣٥١) الصناعتين : ٢٢ .

(٣٥٢) الموازنة : ٢٧٨/١ .

سترها ، وسهر ليلي متوالية فيها ، حصل على ان : وفاء كما يا عاذلي بأن
تعداني ، اذا درس شجاي ، وكلما ازداد تدارسا ازددت له شجوا ، كما ان
الربع أشجاه دراهه . فما هذا من المعاني التي يضيع لها حلاوة اللفظ وبهاء
الطبع ورونق الاستهلال ، ويشح عليها حتى يلهل لاجلها النج ويفسد
النظم ، ويفصل بين الباء ومتعلقها بخبر الابتداء قبل تمامه ، ويقدم ويؤخر ،
ويسمى ويعوّس (٢٥٢) » .

وتكررت هذه النظرة عند عبدالقاهر ايضا ، فقد ذهب الى ان الكلام
المعقد أصناف ، وأن أحق هذه الاصناف بالذم « ما يتبعك ثم لا يجدي عليك ،
ويؤرقك ثم لا يورق لك (٢٥١) » . وشبهه قارىء هذا اللون من الكلام
بـ « العائس في البحر ، يحتل المشقة العظيمة ، ويخاطر بالروح ثم يخرج
الخرز (٢٥٥) » . ومعنى ذلك ان عبدالقاهر ، كالامدى والقاضي الجرجاني ،
يحتل الكلام المعقد ، ويفضي عنه اذا انطوى على مضمون جيد .

وليس هؤلاء النقاد على صواب في هذا الرأي ، لان عبق الفكرة ، او
جلال المعنى ، لا يفخر للنشء ان يعقد التأليف ، ويعوّس الاسلوب .
والاسلوب المعقد معيب ، ولا يقلل من عيه ما وراءه من فكر مشرق ، او
رأى عيق . ذلك لان الغاية من الادب التأثير ، ولا يتم التأثير الا بعد النهم ،
فاذا أشاك الاديب الطريق الى معناه ، وأحال الكلام متا يحوج قارئه الى من
يشرحه له ويقتنه على معناه ، هبطت قية العمل الادبي ، وقعد به غوضه
عن الاثارة والتأثير ، وعقد في جملة الرديء النازل ، ولم ينظر عندئذ الى ما
حوى من فكر ، او ضمه من معنى .

لم يعجب النقاد ، اذن ، الغموض الذي يرجع الى الالفاظ ، ولكنهم
اعجبوا بالمعاني الدقيقة ، التي تحتاج الى الريث في فهمها ، وتتطسي بعض

(٢٥٢) الوساطة : ٦٨ .

(٢٥٤) اسرار البلاغة : ١٣٠ .

(٢٥٥) نفسه .

الجهد للوصول اليها . ومعنى ذلك انهم ذموا الغموض الذي يحدث بسبب غرابة بعض الالفاظ ، او بسبب التواء العبارة وسوء تأليفيها ، وعدم وضوح العلاقات القائمة بين اجزائها . ولكنهم لم يذموا صعوبة المعاني ، وطرائقها ، وتحريكها الذهن من اجل استباطها ، والوقوف عليها . وهم بذلك على حق لانهم لا يريدون ان يجعلوا القارئ مشغولاً بشكلتين ، او متحدى من وجهين : من العبارة ومضونها . فالمفروض في العبارة ان تكون سليمة ، لا عيب يشوب تأليفيها ، ولا تعقيد يباعد بين اجزائها ، والمفروض في المعنى ان يكون من الحقائق الانسانية العامة التي تحرك الذهن ، وتثير في المتلقي « غريزة السيطرة في حل المضلات »^(٣٥٦) . ولكن ليس معنى هذا ان يكون المعنى من الصعوبة بحيث يدق عن الفهم ، ولا يوصل اليه الا بالكد والكبح .

ادرك النقاد العرب هذه الحقيقة ، فضاقوا بالادب الذي لا يتدعي جيذاً ، ولا يتطلب فهمه وذوقه شيئاً من معاناة . قال العسكري : « ما كان لفظه سهلاً ومعناه مكشوفاً بنا فهو من جملة الرديء المردود »^(٣٥٧) . وكان الصابي قد جعل الغموض ميزة الشعر الاولى عندما قال : « الترسل هو ما وضح معناه ، واعطاك سماعه في اول وهلة ما تضتته الفاظه وافخر الشعر ما غمض فلم يعطك غرضه الا بعد مساطلة »^(٣٥٨) . وقال عبدالقاهر : « ومن المركوز في الطبع ان الشيء اذا نيل بعد الطلب له ، او الاشتياق اليه ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله احلى ، وبالمرزية اولى ، فكان موقعه من النفس اجمل والطف ، وكانت به أضن وأشغف . وكذلك ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الفأس . . . فان قلت : فيجب على هذا ان يكون التعقيد والتعمية ، وتسد ما يكسب المعنى غموضاً مشرفاً له ، وزائداً في فضله ، وهذا خلاف ما عليه الناس ، الا تراهم قالوا : ان خير الكلام ما كان معناه الى قلبك اسبق

(٣٥٦) من الوجبة النفسية : ٤٠ .
 (٣٥٧) الصناعتين : ٦٤ .
 (٣٥٨) المثل السائر ٢/ ٤١٤ .

من لفظه الى سمك ، فالجواب أني لم ارد هذا الحد من الفكر والتعب ، وانا اردت القدر الذي يحتاج اليه في نحو قوله :

فان المسك بعض دم الغزال

وقول النابغة :

فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت ان المتأني عنك واسع (٢٥٩) «
وقارىء القولين اللذين استشهد بها عبدالقاهر ، يجد اللغة واضحة ،
غير ان المعاني التي وراءها تحتاج منه الى الريث ، لكي ينالها ، ويستوعق
بها .

ومما يؤيد استحقاقهم الصعوبة والعموض ، انهم استجادوا الكلام
المستل على المجاز والتشبيه والكناية ، وفضلوه على الكلام العارى من هذه
النون ، وصرحوا بأن المجاز أقوى من الحقيقة لغفائه ووضوحها . وكان
النخري الرازي من ذهب الى ذلك ، ورأى ان التكلم بالمجاز من شأنه
« تلطيف الكلام » ثم شرح ذلك قائلاً : « واما تلطيف الكلام فهو ان النفس
اذا وقتت على تمام المتعود لم يبق لها شوق اليه اصلاً ، لان تحصيل الحاصل
محال . وان لم تقف على شيء منه اصلاً لم يحصل لها شوق اليه . فاما اذا
عرفته من بعض الوجوه دون البعض فان القدر المعلوم يشوقها الى تحصيل
العلم بما ليس بعلوم ، فيحصل لها - بسبب علمها بالقدر الذي علمته -
لذة ، وبسبب حرمانها من الباقي الم . فتحصل هناك لذات والام متعاقبة .
واللذة اذا حصلت عقيب الالم كانت أقوى ، وشعور النفس بها أتم ، واذا
عرفت هذا ، فنقول : اذا عبر عن الشيء باللفظ الدال عليه على سبيل الحقيقة ،
حصل كمال العلم به ، فلا تحصل اللذة القوية ، اما اذا عبر عنه بلوازمه
الخارجية عرف لا على سبيل الكمال ، فتحصل الحالة المذكورة التي هي

(٢٥٩) اسرار البلاغة : ١٢٦ ، ١٢٧ .

كالدغدغة النسانية ، فالجل هذا كان التعبير عن المعاني بالعبارات المجازية
الذ من التعبير عنها بالالفاظ الحقيقية « (٣٠) » .

وفهم من كلام الرازي ان العبارات المجازية لا تنصح للمتلقى عن
المعنى بسهولة ، كما تعمل العبارات الحقيقية ، وانا تبرز له جانبا من المعنى ،
وتخفي جانبا آخر ، فتبعث بذلك فضوله ، وتثير شوقه ، فيقبل المتلقي على
العبارة : يتأملها ، ويتبسط منها ، فتسبح له هذه العملية نوعا من اللذة سماها
الفخر الرازي « الدغدغة النسانية » .

وعلق ابن ابي الاصبع المصري على قول الاصمعي : « خير اشعر
ما اعطاك معناه بعد مطاولة » قائلا : « وقد غلط بعض الناس في تفسير هذا
الكلام ، وغلط الاصمعي فيه لسوء تفسيره ، لانه توهم ان الاصمعي اراد
الشعر الذي ركب من وحشي الالفاظ ، أو وقع فيه من تعقيد التركيب ما أوجب
له غموض معناه ولو كان كذلك كان ذلك شرا للشعر ، وانا اراد الاصمعي
الشعر القوي الذي يحتل مع فصاحته ، وكثرة استعمال الفاظه ، وسهولة
تركيبه ، وجودة سبكه ، معاني شتى يحتاج الناظر فيه الى تأويلات عدة ،
وترجيح ما يترجح منها بالدليل » (٣١) .

وعبارة ابن ابي الاصبع السابقة : تثل اتجاه النقاد العرب في لغة
الادب ومضونه ، فهم - كما قلنا - يكرهون الغموض الذي سببه غرابة
اللفظ ، وتعقيد التركيب ويستيلهم الغموض الذي سببه قدرة الشاعر ،
وتكنه من فنه تسكنا يجعله لا يقنع من اللغة بتلك القوالب التي تقابلها معان
معروفة ومحددة : لا تحوج الناظر فيها الى فضل تأمل ، وترداد نظر ، بل
يأتي من الالفاظ والتعابير بما لا ينقضي ابحاؤه ، ويتعدد ما يستخرج منه من

(٣٠) تنظر الصورة الفنية : ٢٩٦ .

(٣١) تحرير التحبير : ٥٥ .

معان وافكار ، فتكون العبارة امام ناظرها « كالنسيج الجيد يكون له أكثر من لون ويمكن ان يتعمل على أي وجه » (٢٦٢) .

وما باب (الاتعاع) الذي نجد في بعض كتب النقد والبلاغة الا دليل على احتفاء النقاد العرب بالتركيب الغامض الموحى ، الذي يحترمه قارئه ، ويتوجه اليه بما يستحقه من يقظة وأناة ، ولا يقنع منه بما يتراءى له من المعاني الظاهرة المكشوفة ، بل يظن ينتب فيه عما استكن وراءه من معان أخرى . وكلما زاده نظرا وقع منه على معنى لم يكن قد فطن اليه في النظرة الاولى ، أو القراءة السابقة . قال ابن رشيقي في باب (الاتعاع) : « وذلك ان يقول الشاعر يتا يتع فيه التأويل ، فيأتي كل واحد بمعنى ، وانما يقع ذلك لاحتمال اللفظ ، وقوته ، واتعاع المعنى » (٢٦٣) . وقال ابن ابي الاصبع في باب (الاتعاع) أيضا : « وهو ان يأتي الشاعر بيت يتسع فيه التأويل على قدرة قوى الناظر فيه ، وبحسب ما تحتل القائله » (٢٦٤) .

ومن الامثلة على هذا الضرب من الشعر قول الفرزدق الذي اتشدته المنفل بين يدي الرشيد :

أخذنا بأفاق الساء عليكم لنا قراها والنجوم الطوالح

قال الرشيد الامين والمأمون فقالا : اراد بـ (قراها) الشمس والقمر ، من باب تغليب المستعمل عندهم لان القمر أكثر استعمالا عند العرب من الشمس ، فقال المنفل : « بل مراده بالقمرين جدك ابراهيم ومحمد صلى الله عليهما ، وبالنجوم الطوالح انت وآباؤك الطيبون . فاعجب الرشيد بذلك ووصله » (٢٦٥) قال ابن رشيقي : « والفرزدق ما قصد الى شيء من ذلك ولا اراده ، ولا علم ان الرشيد بعمده يكون أمير المؤمنين ، وانما اراد ان كل

(٢٦٢) لنقد الادبي في العصر المملوكي : ٢٢١ .

(٢٦٣) العمدة : ٩٢/٢ .

(٢٦٤) تحرير التحبير : ٤٥٤ .

(٢٦٥) العمدة : ٩٤/٢ .

مشهور فاضل فهو لنا عليكم ، ومنا لا منكم ، فنحن أشرف بيتا ، وأظهر فضلا ، وأبعد صوتا » (٣٦٦) .

وقول أمريء القيس :

إذا قامتا تزوع المسك منهما نسيم الصبا جاءت برىا القرظل

الذي اتسع النقاد في تأويله ، فمن قائل : تزوع مثل المسك نسيم الصبا منها . ومن قائل : تزوع المسك منها تزوع نسيم الصبا . ومن قائل : تزوع المسك منها - بفتح الميم يعني الجلد - بنسيم الصبا . قال ابن أبي الاصبع : « هذا ولم تخطر هذه المعاني بخاطر الشاعر في وقت العمل ، وإنما الكلام إذا كان قويا من مثل هذا النحل احتل لتوته وجوها من التأويل بحسب ما تحتل الفأله ، وعلى مقدار قوى المتكلمين فيه » (٣٦٧) .

وتبني الاشارة هنا الى ان العرب قد اتفقوا في استحسان الغموض مع النقدة المحدثين الذين يرون ان « الايحاء ميزة الفنون جيما ، وانها تثير الحلم ، وتترك لمتذوقها مجال التفكير والاستنتاج » (٣٦٨) . وإذا كان النقاد العرب قد اشترطوا في الشعر الاثارة ، وتحريك الذهن ، فمعنى ذلك انهم ادركوا طبيعة الادب ، ووظنوا الى أن أشد عيوبه ان يسي الاشياء بأسمائها ، ويقدم لك ما يجب ان تستتجه بنفسك . ولا شك في ان المتعة التي يجدها متلقي الفنون عامة ، والادب خاصة ، مبعثها ما فيها من خفاء يجعل المتلقي يشعر بأنه يشارك في عملية الخلق الفني عن طريق حل المعضل ، ومعالجة الخفي ، والاهتداء للتفصيلات ، التي يتركها الفنان ، ويدع للمتلقي مجال التفكير فيها ، واستنتاجها . ولعل الذي يجعل الناس يستحبون الشعر التعليلي هو انه يفتح لهم عن كل شيء ، ويحرمهم لذة الاضافة اليه ، والاستنتاج منه .

(٣٦٦) العمدة : ١٤/٢ ، ٩٥ .

(٣٦٧) تحرير التحرير : ٥٤ ، ٥٥ .

(٣٦٨) النقد الجمالي : ٩٧ .

٤ - وحدة النسخ :

وهذا مقياس آخر من مقاييس جودة العبارة ، ونعني به ان تتآخي الالفاظ في التركيب وتنسجم وتأتي على صفة واحدة ، فلا تتفاوت بين الرقة والجزالة ، والوعورة والسهولة ، والابتذال والطرافة . قال ابن طباطبا : « وكذلك الشاعر اذا اسس شعره على أن يأتي فيه بالكلام البدوي الفصيح لم يخلط به الحضري المولد ، واذا أتى بلفظة غريبة اتبعها اخواتها ، وكذلك اذا سهل الفاظه لم يخلط بها الالفاظ الوحشية النافرة ؛ الصعبة القيادة » (٣٦٩) .

واذا فعل الشاعر هذا كان « كناظم الجواهر الذي يؤلف بين النفيس منها والشين الرائق ، ولا يشين عقوده بان يفاوت بين جواهرها في نظنها وتنسيقها » (٣٧٠) .

لقد اعجب النقاد ، اذن ، بأن يختار المشيء لمعناه الفاظا متجانسة ، ويدع من الكلم ما لا تنسجم مع ما قبلها وما بعدها . ولا شك في ان العربية تسعف بذلك وتعين عليه ، لكثرة مفرداتها ، ولوجود ظاهرة الترادف فيها ، فاذا كان المشيء في معرض فخر عمد الى الجزل القوي ، وترك ما يرادفه من الالفاظ السهلة الرقيقة ، فاختر (الحيزوم) وترك (الصدر) وأخذ (الصصام) وعاف (السيف) واذا كان في موقف غزل وجد امامه للتعبير عن بعض المعاني ، عددا من الالفاظ المترادفة بعضها اللمث الشاف ، وبعضها الضخم القوي ، فاذا اخطأ الاختيار وجاء باللفظ الجزل يضعه بجوار الرقيق ، فقدت العبارة انسجامها ، واضاعت حسن جرمها ، وروعة تأثيرها (٣٧١) .

وظلت الملاءمة بين الفاظ العبارة شرطا مهما من شروط جودتها ، وبقي للنقاد في مختلف العصور يوصون المنشئين بأن « تكون الفاظ المعنى المراد

(٣٦٩) عيار الشعر : ٦ .

(٣٧٠) نفسه .

(٣٧١) مجلة مجمع اللغة العربية : ٣١١ ، ٣١٢ .

يلائم بعضها بعضا ، ليس فيها لفظة نافرة عن اخواتها ، غير لائقة بمكانها ،
كلها موصوف بحسن الجوار « (٢٧٢) » .

وكانت العبارة القرآنية معينا ثرا يدهم بالشواهد الرفيعة على هذا
المبدأ ، ومن الشواهد على تلاؤم الفاظ العبارة ، وتجانسها قوله تعالى « قالوا
تالله لئن لم نذكر يوسف حتى نكون حرضا » . وقد علق ابن ابي الاصبح على
هذه الاية بقوله : « فانه سبحانه لما أتى باغرب الفاظ القسم بالنسبة الى اخواتها ،
فان التاء اقل استعمالا وابعد من افهام العامة والباء والواو اعرف عند الكافة ،
وهي أكثر دورانا على الالسنه ، واستعمالا في الكلام ، اتى سبحانه بأغرب
صيغ الافعال التي ترفع الاسماء وتنصب الاخبار بالنسبة الى أخواتها ، فان
(كان) وما قاربها اعرف عند الكافة من (فتا) وهم لـ (كان) وما قاربها
أكثر استعمالا منها ، وكذلك لفظ (حرضا) اغرب من جميع اخواتها من
الفاظ الهلاك ، فاقضى حسن الوضع في النظم ان تجاور كل لفظة بلنظرة من
جنسها ، في الغرابة او الاستعمال ، توخيا لحسن الجوار ، ولتتبادل
الالفاظ في الوضع ، وتتناسب في النظم ، الا ترى انه عز وجل قال في غير
هذا المكان (وأقسوا بالله جهد ايمانهم) لما كانت جميع الفاظ هذا الكلام
المجاورة لهذا القسم كلها متعملة متداولة ، لم تأت فيها لفظة غريبة تقتقر
الى مجاورة ما يشاكلها في الغرابة ويلائمها « (٢٧٣) » .

وكان النقاد قد ذهبوا الى انه كما ينبغي للنشئي، ان يوائم بين مفردات
التركيب ، من حيث السهولة والوعورة ، والرقه والجزالة ، فكذلك ينبغي له
ان يجانس بينها من حيث الافراد والجمع ليكون النسيج واحدا . وقد عابوا
بعض التراكيب لافتقارها الى هذا الضرب من التجانس بين المفردات من ذلك
قول الاعشى :

تقول بنتي وقد قربت مرتحلا يا رب جتّب أبي الأتلاف والوجما

. (٢٧٢) بديع القرآن : ٧٧ .

. (٢٧٣) نفسه : ٧٧ ، ٧٨ .

قالوا فيه : « والذي يوجهه نسج الشعر ان يقول : يا رب جنبّ أبي
«الألحاف والاولجاع او التلف والوجع » (٢٧٤) .

وجاء ابن الاثير فتابع سابقه اولا ، وعاب عددا من التراكيب لم يراع
قائلوها هذا المقياس . منها قول مسلم بن الوليد :

فاذهب كما ذهبت غواذي مزنة يثني عليها السهل والأوعار

الذي علق عليه ابن الاثير قائلا : « والاحسن ان يقال : السهل والوعر ،
او السهول والاولعار ، ليكون البناء اللفظي واحدا ، أي أن يكون اللفظان
واردين على صيغة الجمع او الافراد ، ولا يكون احدهما مجسوما ، والآخر
مفردا » (٢٧٥) . وذهب ابن الاثير الى ان النائر مطالب بمرعاة هذا اللون

من التاسب بين الالفاظ أكثر من الشاعر ، لحرية النائر ، وسعة مجال القول
أمامه (٢٧٦) ، ثم عاد ابن الاثير فقرر ان التاسب بين المفردات من حيث
الجمع والافراد ليس واجبا في الاستعمال شعرا كان ام نثرا ، لانه وجد ان
القرآن لا يلتزمه ، ولو كان الاخذ به هو الاحسن ، لما حاد عنه الاسلوب
القرآني . قال : « وقد كنت ارى هذا الضرب من الكلام واجبا في الاستعمال ،
وانه لا يحسن المحيد عنه ، حتى مر بي في القرآن الكريم ما يخالفه كقوله
تعالى في سورة النحل : « أو لم يروا الى ما خلق الله من شيء يتفأ ظلاله عن
اليين والشائل » ولو كان الاحسن لزوم البناء اللفظي على سنن واحد
لجمع اليين كما جمع الشائل او افرد الشائل كما افرد اليين » (٢٧٧) .
ثم قال : « ولو كان هذا معتبرا في الاستعمال لورد في كلام الله تعالى الذي
هو افصح من كل كلام ، والاخذ في مقام الفصاحة انما يكون منه ، والمعول
عليه » (٢٧٨) . وما فعله ابن الاثير هنا يؤيد ما ذهبنا اليه من ان النقاد

(٢٧٤) الموشح : ٦٩ .

(٢٧٥) المثل السائر : ٢٩٥/٢ .

(٢٧٦) نفسه ٢٩٧/٢ .

(٢٧٧) نفسه .

(٢٧٨) نفسه .

اتخذوا من اسلوب القرآن نموذجاً للفصاحة والبلاغة ، واستدوا منه أكثر مقاييسهم البيانية ، وجعلوه مرجعهم الاخير اذا أشكل عليهم الامر .

ولم يكتف النقاد باشتراط وحدة النسيج في العبارة الواحدة ، بل اشترطوه في القطعة كلها ، ولم يرتضوا ان يتفاوت الاسلوب في القصيدة الواحدة ، كأن يعلو في بعض أجزاءها وينحط في بعضها ، او يلس في موضع ، ويخشوشن في غيره . قال الجرجاني : « ان احدهم بينا هو مستمرل في طريقتة ، وجار على عادته ، يخلجه الطبع الحضري ، فيعدل به متسهلاً ، ويرمي بالبيت الخنث ، فاذا انشد في خلال القصيدة ، وجد قلقاً بينها ، نافراً عنها ، واذا اضيف الى ما وراءه وامامه ، تضاعفت سهولته ، فصارت ركافة ، وربما افتتح الكلمة وهو يجري مع طبعه فينظم احسن عقد ، ويختال في مثل الروضة الانيقة ، حتى تعارضه تلك العادة السيئة ، فيتسم اوعر بطريق ، ويتعسف أخشن مركب ، فيطس تلك المحاسن ، ويحو طلاوة ما قدم ، كما فعل ابو تمام في كثير من شعره » (٢٧٩) .

واختلاف النسيج أحد ما نعي على المتنبي ، فقد وصفه صاحب بأنه « ربما يأتي بالفقرة الغراء مشفوعة بالكلمة العوراء » (٢٨٠) . واورد الثعالبي للمتنبي اربع قصائد قال عنها : ان المتنبي لم يتطع ان يخرجها متحدة النسيج ، متجانسة السبك ، ووصف احدها بأن المتنبي « جمع فيها انشذرة والبرعة ، والدررة والآجرة » (٢٨١) .

والحقيقة ان اختلاف النسيج عند الشاعر يكون احياناً دليل اقتدار وأمارة حذق ، ذلك لان القصيدة العربية غالباً ما تكون مؤلفة من مقاطع نفسية وفكرية يتلو بعضها بعضاً ، والشاعر البارع هو الذي يعطي كل مقطع الصفة الفنية التي تناسبه ، ويأتي له بالاسلوب الذي يجانسه ويوائمه ، فاذا استفتح بالغزل

(٢٧٩) الوساطة : ٢٢ .

(٢٨٠) الكشف عن مساوي المتنبي : ٢٢٢ .

(٢٨١) بتيمة الدهر : ١/١٦٥ .

دقق اللغة ، والان التراكيب ، واذا انتقل الى وصف الحرب او تصوير المعارك ، ترك الرقة والسهولة ، وعاد الى الجزالة والصرامة . والشاعر الذي يتنوع نجه بتنوع مشاعره ، واختلاف الافكار المسيطرة عليه ، هو شاعر بارع يعطي كل اشغال اللغة التي تناسبه . فاختلاف النسخ في القصيدة انواحدة لا يعد عيبا اذا كان الداعي اليه تنوع المقاطع ، وتعدد الاغراض داخل القصيدة .

ولكن اختلاف النسخ في القصيدة انما يكون معيبا اذا نجم عن كلال خاطر وفتور طبع ، بمعنى أن الشاعر يبدأها وهو في ذروة اشغاله ، وأوج اقباله على التعبير ، فيجود نظمه ، ويعلمو اسلوبه ، ثم ما يلبث ان يفتر نبعه ، وتزايله الرغبة في الاستمرار على النظم ، فلا يستجيب لطبعه ، بل يعنف به ، ويحصل عليه ، فتبهي عبارته ، ويف اسلوبه . وقد فطن الجرجاني الى هذا السبب في تفاوت نسخ بعض القصائد فقال : « ولا بد لكل صانع من فترة ، والخاطر لا تستر به الاوقات على حال ، ولا يدوم في الاحوال على نهج » (٢٨٢) .

ويكون اختلاف النسخ في القصيدة الواحدة معيبا ايضا اذا كان الذي يدفع اليه ، ويورط الشاعر فيه ، ميله الى الخروج عن طبعه ، ومفارقة ما ادرج عليه من طريقة في النسخ والتعبير ، وذلك بتقليد شاعر آخر ، او احتذاء طريقة أخرى يصعب عليه تقليدها (٢٨٢) .

وقد نصح بعض النقاد للادباء بأن يعيدوا النظر في اتاجهم ، ليهذبوه ، ويستبعدوا منه ما كان ثمرة لتلك اللحظات التي ضعفت فيها دوافع القول عندهم ، او غلبت عليهم فيها شهوة التقليد ، ليخرج اتاجهم سويا ، متحد النسخ . وقد كان بعض الادباء يعمل بهذه النصيحة ، كأبي نواس والبحري « لذا كثر في ديوانيهما الجياد والقصار » (٢٨٤) . وكان بعضهم يفتن بنتاجه

(٢٨٢) الوساطة : ٤١٥ .

(٢٨٣) نفسه : ٥٢ .

(٢٨٤) اسس النقد الادبي عند العرب : ٤٥٩ .

فلا يحذف شيئا منه ، كما بي تمام الذي عرف بتفاوت النسخ ، والجمع بين الفث والسين (٢٨٥) .

وعد بعض النقاد اختلاف النسخ في شعر الشاعر كله عيبا ، فقد روى عن الفرزدق انه غاب النابتة الجمدي بذلك فقال : « مثله مثل صاحب الخلقان : يرى عنده ثوب عصب وثوب خز والى جنبه سبل كساء » (٢٨٦) .

وكان استواء النسخ وتشابهه في جميع شعر البحرى أحد الاسباب التي فضله بها بعض النقاد على ابي تمام ، قال المبرد (٢٨٧) : « وشعر البحرى احسن استواء ، وابو تمام يقول النادر والبارد ، وهو المذهب الذي اعجب الى الاصمعي ، وما اشبه ابا تمام الا بنائص يخرج الدر والمخلبة » .

ويعلل الجرجاني ظاهرة اختلاف النسخ في اتاج الشاعر كله ، فيردها الى تفاضل القرائح ، واختلاف الافكار والهواجس (٢٨٨) . بمعنى ان القرائح تختلف : « فنما ما يجيد فنا دون آخر ، فاذا نظم الشاعر في فن لم يوهب النظم فيه بدا فيه التصور والضعف » (٢٨٩) ، كما ان الافكار تتفاوت : « فنها القوي يملأ القلب ويملك النفس فيتدقق الشعر على اللسان في قوة آخذة ، ومنها الضعيف لا ييس شفاف قلب الشاعر ولا يملك عليه نفسه ، فيخرج قريضة فاترا لا يؤثر في نفس سامعه ، ومن الافكار ما هو غزير يجد الشاعر فيه مجال القول واسما ، ويزودنا كذلك باحاساس متنوعة ، وخواطر كثيرة ، تملك علينا الشاعر ، وقد تكون الافكار قليلة او ضيقة محدودة لا يجد فيها الشاعر مجالا للقول ولا وسيلة للإبداع فيأتي شعره لذلك ضعيفا مقصرا » (٢٩٠) .

- (٢٨٥) الموشح : ٤٩٣ .
 (٢٨٦) طبقات فحول الشعراء : ١٠٥ .
 (٢٨٧) اخبار ابي تمام : ٩٧ .
 (٢٨٨) الوساطة : ١٦٢ .
 (٢٨٩) أسس النقد الادبي عند العرب : ٤٥٩ .
 (٢٩٠) نفسه .

ويرى بعض الباحثين المعاصرين ان اختلاف النسيج في شعر الشاعر كله أمر متوقع ، ولا يمكن ان يسلم منه شاعر ، ذلك ان « معالم الجمال ومقومات الحسن أكثر من ان يحصوها شاعر ، واذا صح لشاعر ان يعيها كلها فن المسير عليه ان يلتزمها كلها وينفي بها جميعها في كل ما انتج من شعر على مدى الحياة وعلى اختلاف الاغراض والظروف والاحوال والمقامات » (٢٦١) .

الباب الثالث

فوائد

النقد اللغوي وعيوبه

الفصل الاول

فوائد النقد اللغوي

١ - حماية اللغة :

حين اتسع النقد اللغوي في العصر الاموي ، بعد أن ظهرت بوادر اللحن ، كان الباعث الاول عليه ، هو درء الخطر عن اللغة ، وحمايتها من التحريف والفساد . وظل هذا الهدف ملازماً له ، وباعثاً لرجاله على أن يلاحقوا المنشئين ، ويحصوا عليهم زلاتهم ، ليعودوا بها الى اللفظ الصحيح ، والتركيب الذي ترضى عنه قواعد اللغة ، وقوانينها .

أحب العرب لغتهم ، وأخلصوا لها ، وتفتشوا في ابتغاء الوسائل الى اعزازها ، وكان النقد اللغوي احدى تلك الوسائل . وما كثرة الكتب المؤلفة في بعض قضايا النقد اللغوي الا دليل على ما كان يخالج القوم من حب عبق للغتهم ، ورغبة راسخة في حمايتها ، وذود عوامل الفساد عنها . وكان كل جيل قد عاهد نفسه على أن يدفع باللغة الى الجيل الذي يتلوها ، كما ورثها ، صحيحة ونقية .

لقد وقر في نفوس المتقدمين من النقاد بوجه خاص ان العربية لغة استوفت حنانياً من النضج ، وبلغت اعلى مراتب الكمال ، فلم يبق من واجب على أهلها ، والمتكلمين بها ، الا حمايتها والدفاع عنها ، وتخليصها من كل ما يندس فيها ، أو يطرأ عليها . وعلى الرغم مما في هذا الانتاج من تأثير سيء في اللغة احياناً (١) ، فانه كان عاملاً ميسراً من عوامل ثبات العربية ، في وجه ما تعرضت له من موجات اللحن ذلك لان النقاد اللغويين رسوا للناس السبل القوية ،

(١) تنظر ص ٢٨٦ وما بعدها من هذه الرسالة .

ودعوهم الى سلوكها ، ونبهوهم على ما اكتف تلك السبل من مزائق واخطار ،
ليتحاموها ، ويتباعدوا منها .

لم يكن النقاد اللغويون ، ولم يهادنوا ، ولم يخدعهم ما كان يتظاهر
به بعض المنشئين من مراعاة العصر ، أو الاخذ بأسباب التطور ، بل راحوا
يزيفون كل مظهر من مظاهر البعد من العربية النسيحة ، ويصنون بالخطأ
كل خروج عن سنتها الذي ورثوه عن عصور النقاء والسلامة اللغوية .

ولولا النقد اللغوي ، لما كان للعربية ان تنجو مما حاق بها من ظروف ،
تضافت على اضماها ، وطس معالمها ، ولما بقيت محافظة على أخص ميزاتنا ،
وأهم سائتها . ولو أن النقاد اللغويين تركوا المنشئين وهوامهم ، ولم
يحاسبوهم على ما فرط منهم . أو ندد عن اقلامهم من اوهام وهنوات لارت
تلك الاخطاء وعست وورثها الخالف عن السالف ، وفي ذلك ما فيه من تغيير
لوجه اللغة الاصيل ، وازهاق لحقائقتها الثابتة . ولو حدث هذا لانتهد الينا
اللغة ، وهي امشاج من لغات متافرة متدايرة ، ينكر بعضها بعضا : « ولم
تكن الموجة التي سورها بشيوع الحن في صدر الاسلام الا واحدة من هذه
الموجات التي التقى العرب فيها بالمتكلمين بلغات اجبية ، وأغلب الظن أن
هذه الموجة لو لم تدفع العرب الى دراسة اللغة في ذلك العصر ، لكانت اللغة
العربية التي ندرسها الآن على صورة أخرى أحدث عهدا في التاريخ » (٢) .

وإذا علمنا ان النشاط اللغوي محكوم بقوتين : « تدفع احداها الى
احترام القاعدة ، وتدفع الاخرى لنكرانها . والخروج عليها » (٣) ، ادركنا
أهمية النقد اللغوي ، كما ادركنا ما قدمه النقاد في هذا المجال من خدمة
كبرى للغة ، اذ انهم كانوا الرصد الذي ذاد عن قواعدها ، وحسى أصولها
من أن تتد اليها نزع التغيير .

(٢) اللغة بين المعيارية والوصفية : ٧٢ .

(٣) اللغة بين الفرد والمجتمع : ١٢٧ .

ولا نعدم من ينكر على النقاد اللغويين ما سعوا اليه من المحافظة على استقرار اللغة ، ويرى في عملهم هذا ضربا من عرقلة تطورها والحيلولة بينها وبين النمو لان نزعة المحافظة على اللغة قد طغت على عدد من نقادنا ، حتى أركبتهم متن الشطط ، وجاوزت بهم الحد المعقول الذي كان يحسن بهم ان يتقوا عنده ، وينتهوا اليه ، وحتى لم يفرقوا بين ما هو خطأ وانحراف ، وما هو تطور تسح به طبيعة اللغة ، وترضى عنه روحها ونظامها ، ولكن هذا لا يعني ان نزعة المحافظة كانت شرا ، وأنهم بسببها يستحقون اللوم والتجريح ، واننا الذي يؤخذ عليهم هو تطرفهم ، ورفضهم كل ما طرأ على اللغة من مظاهر ، كان بعضها ، دون شك ، مما ينفع اللغة ، ولا يضرها أن تأخذ به ، وتصير اليه . أما ما اضطلعوا به من محافظة على اللغة ، وما نصبوا أنفسهم له من دفاع عنها ، ففيه الخير كل الخير ، فكسا يذم الجود فكذلك تكره الفوضى ، ويرفض الاجتهاد في غير موضعه .

ان في استقرار اللغة ، وثبات صيغتها ، قيمة عظيمة ، وشعنا محسودا ، وذلك في أكثر من وجه . فبعض الصيغ الموروثة ، والتراكيب المتداولة ، تؤدي المراد منها بدقة لانها اكتسبت دلالة خاصة تعارف عليها الناس ، واصبح من العسير ان تقوم مقامها ، او تؤدي مؤداها عبارات اخرى ، قد يتدعى اهل اللغة ، ويحلونها محل تلك العبارات .

وفي ادبنا القديم عبارات استراح المنشئون اليها ، والساأنا الى تأديتها عنهم ما يريدون ، فتابعوا على استعمالها ، ولم يروا ان عليهم من ذلك بأسا ، ولم يرمهم احد بجسود أو عجز (٤) .

ففي اللغة ، وفي كل عصر من عصورها ، تبرز عبارات ثم تظل ثابتة تتعاقب الاجيال على استخدامها ، وهذه ظاهرة لغوية تتفق مع طبيعة اللغة ، وبليغة الحياة العامة : « لان اللغة تقوم على الاخذ والمحاكاة » (٥) . فاذا

(٤) ينظر : من قضايا اللغة والنحو : ٥٢ وما بعدها .

(٥) نفسه : ٥٤ .

وجد أهلها في عبارة ، أو تركيب ما فضلا من شأن ، أو إثارة من امتياز استحيوه ، وغلبوه ، ولم يجشوا نفوسهم بشقة ابتكار غيره ، أو ابتداع سواه .

ثم ان الابتكار لا يتوافر عند الناس جميعا ، بل هو ما يتاح لافراد تلائم منهم ، وعلى هذا فان السواد الاعظم من ابناء الجعاعة اللغوية ، يجدون في ثبات اللغة ، واستقرار بعض صيغها ، ما يساعدهم على تأدية المعاني ، والتعبير عما يجول في نفوسهم ، ويعنيهم من بذل الجهود في ابتكار الصيغ التي تؤدي عنهم ما يريدون . وفي هذا يرى بعض اللغويين المحدثين : « ان الغالبية العظمى منهم - يعني افراد الجعاعة اللغوية - ليسوا من ذوي الابتكار والتجديد ، ولا يمدون نشاطهم اللغوي ان يكون اعادة وتكرارا لنشاط غيرهم » (٦) .

واللغة بعد هذا شركة بين الفرد وابناء جعاعته اللغوية ، وهو لذلك ملزم بان يأخذها عنهم كما هي ، ويتبادلها واياهم على علاقتها ، وليس له معها عدا فمه وارتفعت مداركه ان يخل بنظامها ، او يفرد عنهم بوجوه من الاستخدام لا يتقبلونها ، ولا يتجيبون لها ، وهو ان فعل ذلك ، وركب هواه في الاستعمال اللغوي ، لم يتحقق له الاتصال بجعاعته ، ولم يجد لما يحدثه ، ويخاطبهم به ، صدى او استجابة .

وأهم من هذا كله ، وأولى منه بالتقدمة ، عندما نريد احصاء وجود الخير في ثبات اللغة ، واستقرار اعرافها ، ان اللغة وعاء التراث ، وسجل لنكر الجعاعة اللغوية في مختلف عصورها ، فاذا لم يتح لها قدر كبير من الاستقرار والثبات ، تبدد ما في الوعاء من فكر ، ولم نستطع الاجيال الخالفة ان تراث شيئا من فكر السابقين . وهناك من يرى ان « الابداع والابتكار اذا تميز

(٦) اللغة بين الفرد والمجتمع : ١٤١ .

بالطرافة والجدة ، فان في الاحتفاظ بالتراث الثقافي الانساني الميزة الهامة التي
تعلو بالانسان على مرتبة العجاوات » (٧) .

لم يغفل أهل اللغة عن هذه الحقائق ، أو عن بعضها في الاقل ، فهبوا
يسعون اللغة ، منذ ان شعروا بتصدعها ، وديب الوهن في صوغها وتركيبها ،
وذلك حين خرجت من الجزيرة ، وزحفت مع الاف من اهليها الذين ندبوا
شوسهم لشر الدين الخيف ، واقامة دولة الاسلام ، فخالطت اللغى ، وصارعت
الالسن ، ثم خرجت من الصراع وعليها آثار وندوب ، اقلقت النقاد ، فندا
كل وكدهم ان يعيدوا اليها صفاءها وسلامتها .

وكان وراء النقاد اللغويين سند عظيم ، فقد حسى القرآن الكريم اللغة ،
وحافظ عليها وخلدها في العالمين . كما كان العرب قد ادركوا ان لا سبيل
الى فيه ، والوصول الى المراد منه ، الا اذا بقيت العربية محتفظة بجوهرها
الاصيل ، ومعدنها الصافي ، وتفي عنها ما بدأ ينلهر عليها من أعراض التخلخل
والتحلل .

فلعناية العرب بعقيدتهم ، ولتثنتهم لما لثبات اللغة من أثر في حياة الجباعة
وفكرها وتراثها : « هبوا يحاولون ان يحفظوا على العربية تماسكها ،
ويوتقوها التخلخل والتحلل ... ورأوا ان التماسك ذلك لا يكون الا عند من
بقي من اهليها بوطنتها ، فلا سبيل الى شيء من هذه السلامة عند من ديف
بالمعجة ، وذووب في الاختلاط الا ان يكون شيء يسير لا يقاس بها عند
الخاص الذين على فطرتهم » (٨) . فخرجوا الى البادية ، حيث البقية انبائية
من العرب الخالص ، وجمعوا ما استطاعوا جمعه من اللغة ، او وفد عليهم
من البادية من وفد ، فاخذوا عنهم ، وبعد ان امسكوا من اللغة بما امسكوا
وند عنهم منها ما ند ، وعادوا ليستخلصوا ما جمعه ، ووقتوا عليه ، صيغه
اساسية للغة ، ثم اتبها الى تلك الصيغة ، فالزموا المنشئين بها ، واتخذوها

(٧) اللغة بين الفرد والمجتمع : ١٤١ .

(٨) مشكلات حياتنا اللغوية : ١١ ، ١٢ .

اساسا للكثير من النقد اللغوي الذي صدر عنهم . لقد اصبح من اول واجبات هذا النقد وفوائده : « محافظته على وضعية اللغة ، وثبته لاصولها ، واخذه الشعراء بها ... ولم يقتصر هذا الاتجاه على فترة من الفترات او عصر من العصور ^(٩) » ، بل « امتد الى ما بعد ارساء قواعد العربية واصولها بكثير » ^(١٠) .

٢ - تهذيب اللغة :

وهذه فائدة اخرى من فوائد النقد اللغوي ، فهو يعمل على تهذيب اللغة ، وتصفية متنها مما يشوبه ، أو يفسده من اخطاء وأوهام ، تجعل ذلك المتن غير صالح لان يبنى عليه ، او يتبطن منه شيء من الحقائق اللغوية . واذا علمنا ان المادة اللغوية قد خالطها الخلل والفساد عبر العصور ، واندرس فيها ما لم تقله العرب ، ادركنا مبلغ أهمية النقد اللغوي في تهذيبها ، وتشخيص ما انتقلها من تشويه ، لتحيته ، وتخليصها منه .

وقد اوضحنا عند الكلام على الرواية ما قام به النقد اللغوي من اصلاح المحرف ، وتصحيح المصحف ، والتنبيه على المخلوق او المشكوك فيه ^(١١) . على أن تهذيب اللغة لا يقتصر على اصلاح متنها واستبعاد ما يشوبه ، ويندس فيه من أوهام واطفاء ، بل يتعدى ذلك الى غربلتها ، وثني ما اصبح قليل الفائدة من الفاظها ، أو ما ليس بالحي ولا المتعمل من لهجاتها .

واذا استئينا الزواة واللغويين المتقدمين ، الذين نشدوا الغريب ولم يرووا من الشعر الا ما اشتل عليه ، فان النقاد من غير هؤلاء ، ومنذ اوائل العصر العباسي ، ادركوا تغير وجه الحياة ، وانتقال الناس من طور حضاري الى آخر ، فالحوا على ضرورة تهذيب اللغة ما كان اللغويون الأوائل قد جمعوه من الفاظ ، انعدمت الحاجة اليها ، واصبح التثبث بها ، والابقاء

(٩) الاسس الجمالية في النقد العربي : ٢٢٨ .

(١٠) نفسه .

(١١) تنظر ص ٥٥ و ص ٦٦ وما يعادلها من هذه الرسالة .

عليها في لغة الادب ، أمرا يباير نواميس اللغات ، وقد مرت بنا في غير هذا الموضوع (١٢) ، أقوال النقاد التي تدم الغريب ، وتحض المنشئين على تحاشيه ، والتباعد منه .

أما اللغويون وأصحاب المعجمات فيبدو انهم لم ينظنوا الى هذه الحقيقة ، الا في القرن الرابع ، حيث مالوا الى تخليص معجماتهم من كثير من الالفاظ التي اصبت بعيدة من الاستعمال ، ومن الالفاظ التي لم تثبت صحتها ، والتي ضمتها المعجمات المبكرة ، التي كانت تهدف الى الجمع ، أكثر ما تهدف الى الاختيار ، والدليل على ذلك ما جاء من معجمات في القرن الرابع : « اتخذت اسما توحى بالحرص على تنقية اللغة من الغريب والحوشي مثل تهذيب اللغة للازهري ، والصحاح للجوهري » (١٣) .

وهكذا فان الغريب قبل القرن الرابع كان مختلفا فيه ، فاللغويون يميلون اليه ، ويحرصون على روايته ، والنقاد من الادباء يعينونه ، ويوصون رجال الادب ، بتبرئة كلامهم منه ، أما في القرن الرابع فقد اجتمعت كل لغة النقاد واللغويين على نبذة ، وتخليص متن اللغة منه .

ان اشتداد الحملة على استعمال الغريب في القرن الرابع شيء طبيعي ، دفع اليه افعال المجتمع في الحضارة ، وانسلاخه من حياة البداوة ، وما يشلها . ويعبر عنها من الفاظ .

ولم يشأ بعض نقدة القرن الرابع ان يثقف الادباء شيئا من الغريب ، فضلا عن ان يستخدموه فيما صدر عنهم من تاج . يتضح لنا ذلك من رد ابي حيان التوحيدي على الصحاب بن عباد ، وكان هذا الاخير قد ذهب الى ان معرفة غريب اللغة امر لا مناص منه للشاعر (١٤) ، فقال ابو حيان :

(١٢) تنظر ص ٢٠١٢ و ص ٢١٣ من هذه الرسالة .

(١٣) المعجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة : ٢٢ .

(١٤) اخلاق الوزيرين : ٢٨٢ .

« فما بين الشاعر وبين هذا الضرب ؟ الشاعر يطلب لفظا حرا ، ومعنى بديعا ،
ونظما حلوا ، وكلسة رشيقة ، ومثالا سهلا ، ووزنا مقبولا » (١٥) .

وكما استنكر النقاد الغريب ، وعلوا على ابعاده ، وتخليص متن اللغة
منه ، فكذلك لم يرتضوا للمنشئين ان يستعملوا اللغات الرديئة والمذمومة ،
التي جناها الذوق العربي العام ، وخلا منها الادب الرفيع .

وحرص النقاد وبعض اللغويين على أن يسود الفصح المليح ، ويندثر
المتبع والمستقبح من الالفاظ والصيغ ، هو الذي جعلهم يشعرون العننة
والكشكشة والكسكة والططانية والمعججة وما الى ذلك من السوان
اللہجات باللغات المذمومة (١٦) .

فمن نوائد النقد اللغوي تطويع اللغة للعصر بحدود روحها وتقائدها
العامه ، وجعلها ملائمة لما يجد من ظروف ، وينشأ من احوال ، وهو بهذا
يخدمها ، ويعمل على تزيينها ، واستبعاد ما قشت الحياة بموته من الفاظها
ولہجاتها . ولولا استنكار النقاد هذا اللون من الالفاظ واللہجات ، وتشديدهم
النكير على متعاطيه من المنشئين ، لظلت العربية تنوء بما ليس حيا من مادتها ،
وفي هذا ما فيه من اضرار باللغة ، واعتات لاهلها .

وقد يقال : ان بذ الغريب ، والمستقبح من اللہجات ، شيء طبيعي ،
تصير اللغة اليه ، من غير حاجة الى تنبيه الناقد ، فنقول : ان هذا صحيح ،
ولكن تنبيه الناقد مطلوب ، لكي تخفي اللغة في سبيلها الطبيعية ، دون ان
يحرفها تقعر منشيء ، أو اغراب متحدثي .

٣ - تنمية اللغة :

وتقصد بها ان تكون اللغة اوفر مادة ، وان تقبل الجديد الجيد الذي
يأتي به المتكلمون . والحقيقة ان اكثر علماء اللغة قد احاطوا العربية بياج ،

(١٥) اخلاق الوزيرين : (٨٧) .

(١٦) الشعر والشعراء ١/١ ، ١.٢ والصاجي : ٥٢ والزهر : ٢٢١/١ وما بعدها .

أرداوا منه أن يصد عنها كل جديد . فهم وصفوا بالفصاحة عربية الجاهليين ، وشطرا من عربية العصر الاسلامي . أو بعبارة أخرى لم يقبلوا ما جدّ من ضروب الاستعمال التي نشأت بعد نهاية القرن الثاني . ومن هنا نشأ عندهم ما يسمى بـ (المولد) أو (المحدث) ويريدون به الصيغ والاستعمالات التي لم ترد بها النصوص القديمة ، الموثوق بفصاحة قائلها من عرب الجاهلية ، أو عرب القرنين الاول والثاني (١٧) . وقد فرضت هذه النظرة الضيقة على بعضهم أن يجعل (المولد) شيئا آخر غير (العربي) ، حتى أنه ليقرر : « هذه عربية وهذه مولدة » (١٨) ، وكان المولد غير عربي ، ومن شأنه أن يشخص ويشار اليه كما يشار الى الاعجمي الوافد ، أو الاجنبي الدخيل . ولو أنهم رموا من تشخيصه ، وفرزه من العربي ، الى تاريخ ظهور اللغظة ، أو تحديد الزمن التي استعملت فيه اول مرة ، لكان امرا محمودا ، ولكنهم رموا من ذلك الى توهين (المولد) ، وصدّ الناس عن استعماله .

وطبيعي أن تؤدي مثل هذه النظرة أحيانا الى أن تجمد اللغة ، وتتوقف عن مسايرة الزمن ، وتعجز عن التعبير عما يجد من ظروف ، ومتطلبات حضارية مختلفة .

وقد آمن بكمال اللغة كثير من اللغويين ، إلا أن ذلك تجلّى عند ابن فارس الذي قرر أن البرية قد استوفت حظها من النضج والنساء ولم تعد بها حاجة الى أن يزداد فيها ، أو يضاف اليها . قال : « ولعل ظانا يظن أن اللغة التي دللنا على أنها توقيف انا جاءت جيلة واحدة وفي زمان واحد ، وليس الامر كذا ، بل وقف الله جل وعزّ آدم عليه السلام على ما شاء أن يملكه اياه ما اتاح الى عمله في زمانه ، وانتشر من ذلك ما شاء الله ثم علم بعد آدم عليه السلام من عرب الانبياء صلوات الله عليهم نيا نبيا ما شاء الله أن يملكه حتى انتهى الامر الى نبينا محمد (صلعم) فاتاه الله جل وعز من ذلك ما ثم يؤته

(١٧) الزهر : ٢٠٤/١ .

(١٨) نفسه .

أحدًا قبله ، تماما على ما أحسنه من اللغة المتقدمة ، ثم قرأ الأمر قراره ، فلا نعلم لغة من بعده حدثت ، فإن تصل اليوم لذلك متمم ، وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده » (١٩) . وواضح ان نظرية (التوقيف) التي آمن بها ابن فارس هي التي قادته الى انكار كل جديد .

اما اللغويون الآخرون الذين دانوا بانكار الجديد ، ووقفوا بوجهه المستحدث ، فلم يكن الباعث لهم على ذلك نظرية التوقيف ، وانما دعتهم اليه عوامل عدة ، لعل اهمها غيرتهم على اللغة ، ومحاولتهم الابقاء عليها كما ورثوها ، نقية وصحيحة .

الا ان هذه النظرة لم تحل بين ذلك الجديد ، وبين أن يستقر احيانا في الاستعمال ، وتجري به الالسن والاقلام (٢٠) . وقد مكن لهذا الجديد ، وأتاح له ان يستقر في النصوص الادبية طائفة من اللغويين والنقاد لم يكونوا على ما كان عليه غيرهم من ضيق النظرة ، والتعصب للتقديم ، وما الفاضل العلماء ومصطلحاتهم التي عبروا بها عما نقلوه ، أو توصلوا اليه من العلوم ، الا دليل على ان العربية لم تقف عند الحدود التي رسها لها علماء القرنين الثاني والثالث ، ومن تبعهم من علماء القرون التالية كابن فارس وغيره .

وليس من هدي هنا ان اخوض فيما تم وضعه في اللغة من مصطلحات وما جد في فيها من صيغ واستعمالات ، وانما اريد ان اتبين اثر النقد اللغوي في تنسية اللغة ، واغنائها ، والسبل التي سلكها الى تحقيق ذلك .

فقد تميز بعض اللغويين ، ومعهم بعض النقاد ، برأي متحرر وميل الى توسيع نطاق الفصيح ، وفتح الابواب التي سدها غيرهم أمام كثير من الكلمات . وكان من نتائج ذلك ان غيت العربية ، وزادت سعة على سعتها . اما السبل التي اتبعوها لاغناء اللغة فتسلت في الامور التالية :

(١٩) الصحابي : ٢٣ .

(٢٠) البيان والتبيين : ١٣٩/١ ، ١٤٠ .

القياس : « استنباط مجهول من معلوم ، فاذا اشتق اللغوي صيغة من مادة من مواد اللغة على نسق صيغة مألوفة في مادة اخرى سمي عمله هذا قياسا » (٢١) . وعلى هذا فالقياس : « هو مقارنة كلمات بكلمات ، أو صيغ بصيغ ، أو استعمال باستعمال رغبة في التوسع اللغوي » (٢٢) . ولهذا عد اللغويون المحدثون القياس أحد : « المنايع او الروايد التي تمد اللغة بكل جديد متحدث من الكلمات والاساليب » (٢٣) .

فالذي عليه اللغويون المحدثون ان اللغة ، مهما بلغت من الثراء ، لا تكفي لمواجهة مواقف الاستعمال المتجددة على الدوام ، ما لم يرفدها المتكلمون بها ، بالصيغ الجديدة ، والجميل المستحدثة التي لم تعرفها اللغة من قبل : « وهذه الصيغ والجميل لا تأتي كيفما اتفق بل تأتي مقيبة على ما اخترته المتكلم في ذاكرته من نظم البيأة اللغوية في صيغها وجميلها » (٢٤) .

غير ان اللغويين العرب كانوا فريقين : الاول « حاول قصر الناس على السماع ، والتزامه والجمود عليه » (٢٥) ، بمعنى انه لم يجز لاحد ان يتغل القياس ، فينج صيغة على صيغة ، أو ينطق بما لم يرد قياسا على ما ورد . وواضح ان هذا الرأي لا يخدم مبدأ (تنمية اللغة) ، والاخذ به يحرم العربية من مواد كثيرة وقيم حولها سورا ، ينزع تدفق الجديد عليها .

وكان ابن قتيبة والامدي وابن فارس ممن اخذوا بهذا الرأي ، فقد ذهب الاول الى انه ليس لمتأخر الشعراء : « ان يقيس على اشتقاقهم فيطلق ما لم يطلقوا » (٢٦) . وقال الثاني « وانما ينبغي ان ينتهي في اللغة الى حيث

(٢١) من اسرار اللغة : ٩ .

(٢٢) نفسه .

(٢٣) نفسه : ٧ .

(٢٤) اصول النحو العربي : ١٠٨ .

(٢٥) في اصول النحو : ٧٩ .

(٢٦) الشعر والشعراء : ٧٧/١ .

اتتهوا ، ولا يتعدى الى غيره ، فان اللغة لا يقاس عليها » (٢٧) . وقال الاخير :
« ليس لنا اليوم ان نخترع ، ولا ان نقول غير ما قالوه ، ولا ان نقيس قياسا
لم يقسوه ، لان في ذلك فساد اللغة ، وطلان حقائقها » (٢٨) .

وبتتضى رأي هذا الفريق ، من الخطأ أن نقول مثلا (حاب) من
الفعل (حب) لانها لم تسمع عن العرب ، فلا يجوز ان ننطق بها قياسا على
تظائر لها كثيرة كتولهم (سب) من (سب) و (عاد) من (عد)
و (راد) من (رد) ، الى غير ذلك من التكلسات التي تبيح لنا كثرتها ان
نحتذيها ، ونشتق ما يانها . وبتتضى هذا الرأي ايضا ليس لنا ان نقول
(منفع) من الفعل (نفع) ، لان العرب لم تنطق باسم المفعول من هذا
الفعل .

ويبدو ان هذا المذهب لم يكتب له البقاء : « لمخالفته طبائع الاشياء ،
ولان من غير المعتول ان يكون كلانا كله ببنفرداته وتراكيبه واردا عن
العرب » (٢٩) .

اما الفريق الثاني فيستلمهم ابو علي الفارسي وتلميذه ابن جني الذي
كان يقول : « ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب ، الا ترى انك
لم تسمع انت ولا غيرك اسم كل فاعل ولا مفعول ، وانما سمعت البعض
فقت عليه غيره » (٣٠) .

والى هذا الفريق يرجع الفضل في ناء اللغة ، واستمرار الحياة فيها ،
فقد امدوها بالجديد الذي يلائم نظامها ، ويوافق روحها وقوانينها ، واثاحوا
لها ان تسير الحياة وتتسع لمطالبها المتجددة .

لقد اجاز أصحاب هذا الرأي النطق ببنفردات لم ترد عن العرب ،
قياسا على نظائرها ، فاذا وردت المادة اشتقوا منها ما تسع طبيعة اللغة

(٢٧) الموازنة : ٢١٦/١ .

(٢٨) الصاحبى : ٦٧ .

(٢٩) في اسول النحو : ٧٩ .

(٣٠) الخصائص : ٢٥٧/١ .

باشتقاقه ، ولم ينعمهم من استعمال الصيغ التي يجيزها القياس انها لم ترد عن العرب . قال ابن جنبي : « وحكى ابو زيد رجل مدرهم ، قال : ولم يقولوا منه درهم ، الا انه اذا جاء اسم المفعول فالفعل نفسه حاصل في الكف . ولهذا أشباه » (٢١) . فابن جنبي هنا يعترف بصيغة على الرغم من انها لم تؤثر عن العرب ، لان القياس يحتسبها ، ويبيح الاخذ بها .

ومما جعل (القياسيين) أو الذين يقولون بفتح باب القياس يطشنون الى مذهبهم امران : الاول سعة العربية واتسارها ، وعجز العلماء والرواة عن الاحاطة بها ، والوقوف على كل ما ورد عن العرب منها . والدليل على ذلك قول ابي عمرو بن العلاء المشهور « ما انتهى اليكم ما قالت العرب الا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » (٢٢) . واذا كان الامر كذلك فمن الجائز ان يكون الذي يبيحه القياس قد نطقت به العرب فعلا ، الا انه لم يصل الينا . ومما يقوى هذا الرأي ان سيويه تعجل فزعم ان العرب لم تتكلم ببعض الابنية او الصيغ ، ثم اثبت البحث بعده ان العرب تكلمت بها (٢٣) . الثاني : ان العرب الاوائل اتشبهم كانوا قد تصرفوا في اللغة ، وتوسعوا في طرد قياسها وتصرفها واشتقاقها ، وجاء بعضهم بما لم يسبق اليه ، فقبله العلماء ، ودونوه (٢٤) . وفي هذا يقول ابن جنبي : « فان الاعرابي اذا قويت فصاحته ، وست طبيعته تصرف وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله به ، فقد حكى عن رؤبة وأبيه انها كانا يرتجلان النافلا لم يسماها ، ولا سبقا اليها » (٢٥) . ويقول أيضا عن رؤبة والعجاج : « انها قاسا اللفظة وتصرفا فيها ، وأقدا على ما لم يأت به من قبلها » (٢٦) .

(٢١) الخصائص : ٢٥٨/١ .

(٢٢) طبقات نحول الشعراء : ٢٢ .

(٢٣) ابو بكر الزبيدي الاتدلسي : ٣١٨ .

(٢٤) الخصائص : ٤٢/٢ .

(٢٥) نفسه : ٢٥/٢ .

(٢٦) الخصائص : ٣٦٩/١ .

ومها تكن الحججة التي استند اليها القياسيون في فتح باب القياس ،
 والتوسع في تطبيقه ، فانهم أعطوا الحق للعربي المتأخر في ان يتكر من
 المفردات ما يسح به الاشتقاق ، وتجزئه طبيعة العربية ، ويتلاءم مع روحها
 ونظامها . وفي هذا يقول ابن جني : « للانسان ان يرتجل من المذاهب ما يدعو
 اليه القياس ، ما لم يلو بنص ، او ينتهك حرمة شرع (٢٧) » . وكان ابن جني
 في رأيه هذا متابعا لشيخه ابي علي الفارسي الذي كان يقول : « لو شاء
 شاعر او ساجع او متع ان يني بالحاق اللام اسا وفعلا وصفة لجاز له ،
 ولكان ذلك من كلام العرب ، وذلك نحو قولك : خرج اكرم من دخل ،
 وضرب زيدا وعرا ، ومررت برجل ضرب وكرم ونحو ذلك (٢٨) » . وحين
 سأله ابن جني قائلا : « افترجل اللغة ارتجالا ؟ » قال : « ليس بارتيال ،
 ولكنه مقيس على كلامهم فهو اذن من كلامهم (٢٩) » .

ومعنى ما ذكره ابو علي الفارسي ان من حق العربي ان يتكر ويجدد
 كما يشاء ، شريطة ان يكون الذي يتكره على هيئة النصحي وقياسها .
 وبسئل هذا التجديد والابتكار تنو اللغة ، وترتقي ، وتكون وافية بطالب
 الحياة .

وقد اعترض اصحاب النزعة المحافظة على (القياسيين) ، او الذين
 يقولون بفتح باب القياس ، بان الخليل قال : « انشدنا رجل :

ترافع العز بنا فارفعنا

فقلت : هذا لا يكون . فقال : كيف جاز للعجاج أن يقول :

تقاس العز بنا فاقننسا (٤٠) »

(٢٧) الخصائص : ١٨٩/١ .

(٢٨) نفسه : ٣٥٨/١ ، ٣٥٩ .

(٢٩) نفسه : ٣٥٩/١ .

(٤٠) نفسه : ٣٦٠/١ ، ٣٦١ .

لقد فهم هؤلاء من كلام الخليل انه منع ان نقيس على كلام العرب ما لم يقيسوه ، او لم ينتظوا به ، فرد عليهم ابن جني بان الخليل « انما انكر ذلك لانه بناه ما لامه حرف حلقي ، والعرب لم تبين هذا المثال مما لامه أحد حروف الحلق ، انما هو مما لامه حرف فسوى وذلك نحو اقنسس واسحكك واكندد واغنجج . فلما قال الرجل للخليل (فارفعما) انكر ذلك من حيث أرينا^(٤١) » ثم قال ابن جني : « اذا تركت العرب امرا من الامور لعله داعية الى تركه وجب اتباعها عليه ، ولم يسع أحدا بعد ذلك العدول عنه^(٤٢) » .

فالخليل لم ينكر القياس ، وانما انكر الكلمة المقيسة ، لانها لم تجر على سنن العربية ، ولم تثنى مع طريقة العرب في بناء المفردات ، والتأليف بين الحروف .

وكما أساء بعض القدماء في رأي الخليل فعل بعض المحدثين ، وفهم منه أنه ، كغيره من الاقدمين ، يفض النظر عن العيب اذا ظهر عند قديم ، فاذا ظهر عند محدث حاسبه عليه ، وأخذ به^(٤٣) .

وبتقتضى التوسع في القياس ، سحح بعض النقاد ببعض الصيغ والمفردات التي تاسيا بعض الشعراء ، ولم تكن ما ورد عن العرب ، فكان قبولهم لها ما يؤدي الى نساء اللغة ، وزيادة مادتها . من ذلك ان القاضي الجرجاني قبل كلمة (جائد) التي اشتقها المتنبى من (جاد) فقال :

فدى من على النبراء أوليس أنا ليزا الأبي الماجد الجائد القرم

في حين ان بعض اللغويين انكرها ، لانها لم تحك عن العرب ، وانما حكي عنهم : رجل جواد وفرس جواد .

لقد كان الجرجاني ممن يميل الى اعطاء الشاعر الحق في ان يستغل القياس للتوصل الى ما يشاء من صيغ ومفردات ، وقد رد على من انكر كلمة

(٤١) الخصائص : ٢٦٢/١ .

(٤٢) نفسه .

(٤٣) الاسس الجمالية في النقد العربي : ١٩٠ .

(جائذ) بقوله : « هذا الباب يستغنى فيه بالقياس عن السماع لاطراده ، واتاق امره على الاعتدال فكل فعل في الكلام يقتضي التصريف الى فاعل ، ومفعول ، وكل فعل فله مفعل ومفعول ولنا نحتاج في مثل هذا الى التوقف ، واتباع المسوع ، وهذا أشبه بنذاهب القياس ، والاصل الذي عليه اهل اللغة (٤٤) » .

فلا وجه لرفض كلمة (جائذ) ، كما يرى الجرجاني ، وحرمان اللغة منها ، لانها اسم فاعل من فعل ثلاثي هو (جاد يجود) من باب (قال يقول) ، واسم الفاعل من الثلاثي المجرد يأتي بكثرة على (فاعل) ، ولما كانت (عين) الفعل (واوا) انقلبت في الماضي الى الالف لتحركها وانشاح ما قبلها ، وانقلبت في اسم الفاعل الى (هزة) ، نحو (قائل) و (بائع) . وعلى ذلك فكلية (جائذ) اسم فاعل قياسي ، وقد خضعت لكل ما يتطلبه القياس في امثالها من حيث التصريف والابدال . ولا شك ان من اغناء اللغة ان تقبل كلمة سندها القياس ، وان لم ترد عن العرب ، لعدم توقف قبول امثالها على السماع .

وكان القزاز القيرواني يعترف ايضا بما يعطيه القياس من صيغ ومفردات ، من ذلك انه اعترف بكلمة (سداس) التي جاءت في قول المتنبي :

أحاد أم سداس في احاد ليلتا المنومة بالتاد

في حين ان اللغويين انكروها ، لانهم ادعوا ان العرب لم تجاوز (رباع) في العدد . قال القزاز : « وأما قولهم ان العرب لم تجاوز في العدد رباع ، ادعاء منهم ، لان القياس لا يسنعه ، وانما جاء في القرآن الى (رباع) (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) فأما في الكلام فلا أرى مانعا يسنعه على انه قد أتى في الشعر (عشار) وهو قول الكمي :

فلم يترشوك حتى جمعت فوق الرجال خصالا عشارا

فإذا كان القياس يظلمه ، وقد جاء في الشعر ما يجاوز (رباع) دل على ان قوله
(سداس) جائز (٤٥) » .

لقد ظهر في النقد اللغوي نزعتان : الاولى متحررة ، تؤمن بالقياس رافدا
من روافد اللغة ، يفتيها بالجديد ، ويدها بالمتحدث من الصيغ والاساليب ،
فتوسعت في تطبيقه والاستفادة منه والثانية نزعة محافظة كانت تقف عند
المسوع ، ولا تحاول ان تزيد عليه . فاذا ابتكر المثنى كلمة خاضعة لما
خضعت له امثالها من شروط الاشتقاق والتصريف ، أبوها وحاسبوا المثنى
عليها . من ذلك انهم رفضوا قول المتنبى :

«العارض الهتن بن العارض الهتن بن العارض الهتن بن العارض الهتن
فقال المكبري : « قال ابن القطاع : غلط المتنبى في هذا البيت وكرر غلظه
أربع مرات وقد اجمع العلماء ان اسم الفاعل من هتن : هاتن ، ولا جاء عن
أحد من العلماء (الهتن) ولم يذكره أحد من جميع الرواة ، حتى نبهت
عليه (٤٦) » .

والحقيقة ان المتنبى لم يخطئ ، فان (الهتن) التي كررها أربع مرات ،
لم يأت بها على خلاف ما تسمع به مقاييس اللغة ، بل انه صاغها صوغاً قياسياً
موافقاً لاشهر اوزان اللغة ، واشيعها ذكراً ، الطنظ (هتن) بوزن (فعل) ،
وهو أحد اوزان المبالغة المعروفة ، التي يؤتى بها للدلالة على ان الموصوف
مكثّر من فعل مدلولها . وما دامت المادة موجودة في اللغة ، والصيغة مقررة
في استعمالها ، فان الشاعر لم يخطئ ، فيا قاله .

يتضح مما قدمناه ان بإمكان النقد اللغوي ان يستغل امكانات اللغة ،
ويستفيد من خصائصها ، والروح التي تحكمها ، وتصرف شؤونها فيعود
ذلك علينا بالخير والنساء ، كما ان العكس قد يحدث ، اى يستع النقد من

(٤٥) ضرائر الشعر : ٣٧ ، ٢٨ .

(٤٦) شرح المكبري : ٢١٧/٤ .

استغلال طواعية اللغة ومرونتها ، ويسد المنافذ أمام الجديد الموافق لطبيعتها ،
والجاري على سننها ، فيؤدي ذلك الى جمودها ، وضور مادتها .

ب - توسيع المقياس عليه :

اختلف اللغويون في الكلام الذي ينون عليه قواعد العربية ويستنبطون
منه أحكامها وقوانينها ، فتشدد فريق منهم ، وهم البصريون ، فقصروا اتقياس
على طائفة من كلام العرب ، وهو كلام القبائل التي وثقوا بفصاحتها ،
لسكناها كبد الجزيرة ، ونأياها عن التخوم ، والاقاليم المجاورة للاسم الاخرى .
وتسّح الكوفيون ، فكانوا أسلس خطة ، وابتعد من التشدد ، فقبلوا كلام
القبائل التي قدح البصريون في فصاحتها ، وأباحوا احتذائه ، والنسج على
منواله . فالبصريون ضيقوا المادة التي يصح التقياس عليها ، اما الكوفيون
فوسعوها ، وفتح مذهبهم للعربية طرقا تزداد بها مادتها واساليها سعة على
سعتها .

فالبصريون ، اذن كانوا ينظرون الى القبائل على انها ليست على حظ واحد
من الفصاحة ، بل ان بعضها أفصح وأجمل بيانا . وفاتهم ان تأخر القبيلة في
مراتب الفصاحة عن قبيلة أخرى لا يقدح في عروبة القبيلة المتأخرة او المنفضولة ،
ولا يعني ان كلامها محظور ، ومجاراته محرمة . ثم ان الفصاحة او جمال
البيان مسألة نسبية ، فما تتجافى عنه قبيلة ، وتمده قبيحا ، قد يكون مليحا
مقبولا عند قبيلة أخرى ، بل الامر كذلك على وجه التحقيق ، والا لما استعملته
هذه القبيلة ، واطمأنت اليه .

وقد فطن بعض اللغويين ، ومعهم بعض النقاد الى ذلك ، ففاوضوا بين
القبائل في صحة القول ، وسلامة اللغة ، ورأوا ان ليس من المقبول تفضيل
لهجة على لهجة ، والحكم على النظر بالتخلف عن نظيره . وكانوا كذلك قد
اغتوا اللغة ، وزادوها ثروة على ثرواتها في المفردات والاساليب . وكان ابن
جني في مقدمة التائلين ببدا تساوى اللغات ، فقد عقد لذلك بابا في الخصائص
جعل عنوانه (اختلاف اللغات وكلها حجة) قال فيه : « اعلم ان سعة التقياس

تبيح لهم ذلك ، ولا تحظره عليهم ، الا ترى ان لغة التميميين في ترك اعمال (ما) يقبلها القياس ، ولغة الحجازيين في اعمالها كذلك ، لان لكل واحد من القومين ضربا من القياس يؤخذ به ، ويخذل الى مثله . وليس لك ان ترد احدى اللغتين بصاحبها ، لانها ليست أحق بذلك من رسلتها ، لكن غاية مالك في ذلك ان تتخير احدها ، فتقويها على اختها ، وتعتقد ان اقوى القياسين اقبل لها ، وأشد انسابها . فاما رد احدها بالآخرى فلا . او لا ترى الى قول النبي صلى الله عليه وسلم : نزل القرآن بسبع لغات كلها كاف شاف . هذا حكم اللغتين اذا كانتا في الاستعمال والقياس متدائيتين متراسلتين او كالتراسلتين ، فاما ان تقل احدها جدا ، وتكثر الاخرى جدا ، فانك تأخذ باوسعهما رواية ، وأقواهما قياسا ، الا تراك لا تقول : مررت بك ، ولا المال لك ، قياسا على قول قضاة : المال له ، ومررت له ، ولا تقول : اكرمتك ، ولا اكرمتكس ، قياسا على لغة من قال مررت بكس ، وعجبت منكس . . . (٤٧) » . وسرد امثلة لبعض اللهجات العربية ثم قال : « فاذا كان الامر في اللغة المعول عليها هكذا ، وعلى هذا ، فيجب ان يقل استعمالها ، وان يتخير ما هو اقوى واثيق منيا ، الا ان انسانا لو استعملها لم يكن مخطئا لكلام العرب ، لكنه كان يكون مخطئا لاجود اللغتين . فاما ان احتاج الى ذلك في شعر أو سجع فانه مقبول منه ، غير منعي عليه . وكذلك ان قال : يقول على قياس من لغته كذا وكذا ، ويقول على مذهب من قال كذا كذا . وكيف تصرفت الحال فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطيء ، وان كان غير ما جاء به خيرا منه (٤٨) » .

ودخل هذا الرأي ميدان النقد ، فأخذ به بعض النقاد ، كالتاضي الجوجاني الذي كان يأخذ بمبدأ التوسيع على المنشئ ، ويبيح له مجازاة ما يشاء من لغات ، اذا رواها اللغات ، دون ان يخجل باستضعاف النحاة لها .

(٤٧) الخصائص : ١٠/٢ .

(٤٨) الخصائص : ١٢/٢ .

وما فعله الجرجاني من شأنه ان يزيد في ثروة اللغة ، ويوسع مادتها ، ويجعل مضطرب التعبير بها فيسحا .

وقد أفصح القاضي الجرجاني عن هذا الرأي في اكثر من موضع من كتابه فقال مرة : « وأنا ارى الا يطالب الشاعر اكثر من اسناد قوله الى شعر عربي منقول عن ثقة^(٤٩) » . وقال اخرى : « ليس على الشاعر عيب في اتباع اللفظة النادرة ، اذا رواها الثقات ، ومتى وجدت الرواية عن ثقة لم يحظر على الشاعر قبولها والعمل بها لاجل اختلاف النحويين^(٥٠) » .

وكنا قد عرضنا لابن السيد البليوسي ، وابن هشام اللخمي وقررا انهما كانا يحترمان لغات القبائل ، ولا يردان شيئا منها^(٥١) .

وكما تنو اللغة ، وتعدد اساليب التعبير بها ، اذا احترمنا لغات القبائل ، وابعدنا مجاراتها ، والطلع على قوالها ، فكذلك تنزر اذا قبلنا ما ينفرد به العربي النصيح ، فلا يسح من غيره ، وهو مبدأ قال به اللغويون ، على ما ذكره ابن جنبي ، كما تقدم^(٥٢) ، ومال اليه القاضي الجرجاني ايضا . وكان الجرجاني قد أفصح عن ميله الى احترام كل ما ورد عن العرب دون الالتفات الى درجته من الشيوع ، وحظه من الانتشار ، وذلك لانه جعل ما يقوله الفرد العربي بمنزلة ما تقوله القبيلة ، وما تقوله القبيلة بمنزلة ما تقوله الامة ، وهذا مبدأ محمود ، لا يفرط في شيء ، مسا وعته اللغة ، ولا يجضو عن نمط من انما لها التعبيرية ، بحجة قلته ، او شذوذه او انفراد قائله به . على ان القاضي الجرجاني لا يقبل مثل هذه القوالب والمفردات فحسب ، بل يبيح للشاعر مجاراتها ، والطلع على غرارها ، وكأنه اذا قبل صيغة او تعبيراً قبل مجاراته ايضا . قال : « فاما الالفاظ التي زعم ان الشعراء تفردوا بها ، فانها موجودة عن ائمة اللغة ، وعن ينتهي السند اليهم ، ويعتمد في اللسان عليهم .

(٤٩) الوساطة : ٥٧ .

(٥٠) نفسه : ٦٣ .

(٥١) ص ٧٨ من هذه الرسالة .

(٥٢) ص ٢٢١ من هذه الرسالة .

وانا تكلم بما تكلما به ، وواحد كالجميع ، والنفر كالقيلة ، والفيلة كالامة ، فاذا سمنا من العربي الفصيح الذي يعتد حجة كلمة ، اتبعناه فيها ، ثم ان لم تبلغنا عن غيره ، ولم نسمع بها الا في كلامه لم نزعم انه اخترعها^(٥٢) . وهذا كلام ثيس ، تفيد اللغة منه ، وتزداد ناء وسعة .

ج - قبول العرب والدخيل :

وهذه سبيل اخرى من سبل تسمية اللغة . فن الثابت : « أن اللغات منذ القدم يستعين بعضها بالفاظ بعض ، حدث هذا بين اللغات القديمة ، وما يزال يحدث بين اللغات الحديثة^(٥٤) » . واستعانة اللغة بالفاظ لغة اخرى تكون في بعض حالاتها وليدة الحاجة ، وتكون احيانا بسبب الاعجاب بتلك الالفاظ . والفرد في كلتا الحالتين ، ينظر الى لغته « على أنها شيء ملك له ، ومن حقه ان يزيد عليها ما يشاء من الفاظ اللغات الاخرى^(٥٥) » .

والمرء حين يقبس لفظا اجنبيا يحرس على ان يجعل ذلك اللفظ مشاكلا لالفاظ لغته ، من ناحية الاصوات ومن ناحية الاوزان ، بمعنى أنه يغير من اصوات الكلمة الاجنبية ما لا يسهل عليه النطق به ، ويحذف منها او يزيد عليها لتوافق في بنيتها ووزنها الناط لغته : « وياعد مثل هذا الصنيع على شيوع اللفظ الاجنبي بين افراد الياة لسهولة تناوله حينئذ والنطق به^(٥٦) » . وقد يحدث في حالات قليلة ان يبقى اللفظ المستعار على حاله من غير تغيير في اصواته او صيغته . ومهما يكن فان اقتباس اللغة الناط لغة اخرى ، من شأنه ان يزيد في ثروتها ، ويجعلها قادرة على الوفاء بالتعبير عما يجد من مواقف استعمالية ، ليس فيها ما يصلح للتعبير عنها .

(٥٢) الوساطة : ٥٤ ، ٤٥٥ .

(٥٤) من اسرار اللغة : ١٠٢ .

(٥٥) نفسه : ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٥٦) نفسه : ١٠٣ .

ولم تكن العربية بدعا من غيرها من اللغات ، فقد اقتبست قبل الاسلام وبعده الفاظا اجنبية كثرة ، ولم يجد اهلبا في هذا غشاضة او ضيرا على لتتيم . وسلك العرب في اقتباسهم الفاظ الاسم الاخرى السيلين المثار اليهما ، بمعنى انهم غيروا طائفة من تلك الالفاظ ، وجعلوها على صور شبيهة بالكلمات العربية ، وابقوا طائفة اخرى على ما كانت عليه في لغاتها الاصلية ، وسوا النوع الأول من الالفاظ الاجنبية بالمعرب ، كما سوا النوع الثاني بالدخيل^(٥٧) . ووردت تلك الالفاظ الاجنبية في شعر الجاهلين وشعر الاسلاميين ، ثم زادت نسبة شيوعها في شعر العباسيين .

غير ان اللغويين المتزمتين وقفوا بالتعريب عند عصور الاحتجاج ، بمعنى أنهم قبلوا ما دخل اللغة من الاجنبي في العصر الجاهلي وصدر الاسلام وعصر بني امية ، ثم أصدروا الباب بوجه فلم يقبلوا ما دخل اللغة منه في العصر العباسي^(٥٨) . وواضح ان هذا المنطق لا يخدم مبدأ تنمية اللغة ، ولا يتيح للغة ان تباير الحياة ، وتفي بالتعبير عن مطالبها المتجددة . وواضح ايضا ان فتح الباب امام السيول المنهمرة على اللغة من اللغات الاخرى أمر يودي باللغة ، ويتضي عليها . ومعنى هذا أن كلا السيلين بعيدة من الصواب ، وان المعقول ان يقبل النقاد واللغويون من الفاظ الاسم الاخرى ما تدفع اليه الحاجة ، وما لا يوجد له مقابل في العربية وبهذا تنمو اللغة ، وتساير مواقف الاستعمال المتجددة على الدوام .

وقد وجد هذا الرأي طريقتة في نقدنا للغوي ، فكان احدى وسائله في تنسية العربية ، وجعل مادتها اوفى وأوفر . وأخذ به عدد من النقاد واللغويين فسا « لم يجدوا له مرادفا بالعربية اقتادوه بلفظه الاعجمي عن اللغات التي نقلوا

(٥٧) من اسرار اللغة : ١١٠ . ولعلمي عبدالواحد وافي رأي اخر مفاده ان الدخيل نوعان : معرب وهو ما استعمله فصحاء العرب في عصور الاحتجاج ، والاعجمي المولد وهو ما استعمله المولدون ، فقه اللغة : ١٧٢ ، ١٧٥ .

(٥٨) فصول في فقه العربية : ٢٢٠ ، ٢٢١ وينظر : فقه اللغة : ١٨١ .

عنها ، وربما استعاروا للمعنى الواحد لفظين من لغتين اعجميتين ، لا يأتون من ذلك ، ولا يجدون فيه نكيرا^(٥٩) » .

وكان القاضي الجرجاني من قبل العرب ، وأباح للشاعر المتأخر ان يقتبس ما يحتاج اليه من الفاظ اجنبية ، لا يوجد في العربية ما يقوم مقامها ، او يعني عنها . وقد صرح برأيه هذا عندما ذكر اعتراض اللغويين على انتبسي بسبب استعماله كلمة (مخشلب) في قوله :

بياض وجه يريك الشمس حالكة . ودرّ لفظ يريك الدر مخشلبا .
فذهب الجرجاني الى ان العرب استعملت من الفاظ العجم ما كانت تحتاج اليه لعدم مقابل له في الفانها ، وما لم تحتج اليه لوجود ما يقابله عندها ، واذا كان الامر كذلك : « فليس يحظر على الشاعر الاقتداء بهم في امثال ذلك اذا احتاج اليه^(٦٠) » . ثم قال : « فان كانت اللفظة - يعني مخشلب - مسوغة عن العرب على ما حكاه ابو الطيب فقد زالت الكفلة ، وان لم تكن محفوظلة فما رويناها من امثاليها عن العرب والمحدثين يعتذر عنه ، ويقوم بحجته^(٦١) » .

ونظرة الجرجاني هذه ذات شأن ، وفائدة كبيرة ، لانه رمى منها الى تنمية اللغة ، وامدادها بما تفتقر اليه من الفاظ .

فمن اوجه اهمية النقد اللغوي ، وما أسداه الى العربية من فوائد ، انه اشتغل على نظريات نقدية صائبة ، توخت تنمية العربية ، وسعت الى جعلها مآيرة للحضارة ، وواقية بسطاب الحياة المتجددة ، بما اقرته تلك النظرات من توسيع القياس ، واحترام لغات القبائل جميعا ، واقتباس ما لا غنى للعربية عنه من الفاظ الامم الاخرى .

(٥٩) اللغة العربية في ماضيها وحاضرها : ٩٢ .

(٦٠) الوساطة : ٦٢ .

(٦١) نفسه .

ولولا هذه النظرات لما اتسعت العربية ولمعزت عن مسأرة الحياة ،
بفعل المواقف النقدية الأخرى التي كانت حربا على كل تسمية وتجديد ، والتي
سنعرض لها في فصل قابل ، عندما نتحدث عن النظرات الضارة التي انطوى
عليها نقدنا اللغوي أيضا .

٤ - رصد بعض الظواهر اللغوية :

ومن فوائد النقد اللغوي رصد بعض الظواهر اللغوية ، ونعني بالظواهر
ما يبرز في اللغة من خصائص واتجاهات تلت نظر الناقد ، وتسترعي انتباهه .
فالمعروف مثلا ان لكل لفظ معنى محددًا تواضع الناس عليه ، واستعملوا ذلك
اللفظ فيه ، فإذا عثر الناقد اللغوي على لفظ لم يعرف له معنى ، او لم يعرف
له اشتقاقا ، عد ذلك اللفظ من الغريب ، او المجهول الذي يستحق ان يذكر .
وإذا صادف الناقد لفظا لحقه بعض التغيير ، أو أريد به معنى غير معناه ،
استرعى ذلك انتباهه ، ووقف عنده .

وهذا يعني ان من فوائد النقد اللغوي رصد ما يعرض لمسيرة اللغة ،
أو يطرأ عليها ، ويبرز فيها ، ليشير اليه ، ويقدمه لمن يريد ان يدرس اللغة ،
ويبحث عن خصائصها والسمات المميزة لها ، فالناقد ليس دارسا للغة ،
ولا هو معني بالبحث عن طبيعة الظواهر التي تبرز فيها ، والاسباب التي
أدت الى بروزها ، لان ذلك من شأن عالم اللغة ، ولكنه مطالب بالوقوف
عند كل ما يرى من ظواهر تند عن المألوف ، ليلفت اليها ، ويدل عليها . وهو
مطالب أيضا ، في بعض الحالات ، بأن يبدى الرأي في بعض الظواهر ،
فيقبلها ، او ينهى عنها ، مستندا في ذلك الى ما تلح به من ثقافة لغوية ،
وخبرة واسعة باللغة واساليبها وتاريخها .

وقد فعل النقاد العرب ذلك ، واولوه عنايتهم ، وسجلوا لنا كل ما وقفوا
عليه من ظواهر واتجاهات ، استرعت انظارهم ، واثارت انتباههم . فكان
صحيحهم هذا من أجل فوائد النقد اللغوي ، اذ عليه قامت قواعد فقه اللغة ،
وبه استطاع العلماء ان يرسوا لنا ما دق وجل من سمات العربية وملاحمها .

ومن الظواهر التي رصدها النقد اللغوي ما يلي :

١ - الغريب :

قدمنا ان الغريب هو الغامض من المفردات ، وقد استرعى هذا اللون في مرحلة جمع اللغة وتدوينها ، نظر الناقد اللغوي ، فعني به ، وحرص على تسجيله ، فكان عمله هذا خدمة جليلة للغة ، لانه حفظ عليها شطرا منها من مادتها ، التي اوشكت في تلك الحقبة ان تضيع ، لقلّة تداولها ، وتجاوفي الالسن عنها .

وقد بلغ من حرص النقاد على الغريب ، انهم افردوا له الكتب ، وصنفوا فيه المؤلفات (٦٢) . وعنوا بنسب خاص من الالفاظ يمكن ان نعهده لاحقا بالغريب ، هو الذي ائفرد باستعماله شاعر معين ، ولم يسع من غيره . ومن الامثلة عليه قولهم : « وقد أتى ابن احسر في شعره باربعة الفاظ لا تعرف في كلام العرب ، سى النار (ماموسة) ولا يعرف ذلك ، قال :

تطايح اللل عن اعظافها صعدا كما تطايح عن ماموسة الشرر

وسى حوار الناقة (بابوسا) ولا يعرف ذلك ، فقال :

حنت قلوصي الى بابوسا جزئا فما حينك ، ام ما أنت والذكر

وفي بيت آخر يذكر فيه البقرة :

طلّ وبنس عنها فرقد " خصر "

أي تأخر . ولا يعرف التبئس . وقال :

وتقتنع العرباء اُرثتة متشاوسا لوريده نقر "

قال : الأرة : ما لف على الرأس . ولا يعرف ذلك في غير شعره (٦٣) .

وقولهم عن امية بي ابي الصلت انه كان « يأتي بالفاظ كثيرة لا تعرفها العرب ، يأخذها من الكتب المتقدمة ، وبأحاديث من احاديث اهل

(٦٢) رواية اللغة : ٩٠ وما بعدها .

(٦٣) الشعر والشعراء : ٣٥٧/١ ، ٣٥٨ .

الكتاب^(٦٤) » . ومن تلك الالفاظ تسيته الساء بـ (صاقورة) و (حاقورة)
و (برقع) ومنها لفظه (الساهور) في قوله :

قمر وساهور يسلّ ويفسد

« والساهور فيما يذكر اهل الكتاب غلاف القمر يدخل فيه اذا
كسف^(٦٥) » .

وقالوا عن الاخطل : « جاء الاخطل بكلمة لم يتكلم بها عربي سسى
الذئب (تيانا) ، ولم يسمع الا في شعره^(٦٦) » .

فلعناية النقد اللغوي ، في مرحلة مبكرة من مراحلها ، بهذا اللون من
المفردات ، تهيأ لنا ان نقرر : ان من أجل فوائده انه حفظ على اللغة جزءا
كبيرا من مادتها التاريخية .

ولا يغض من اهتمام النقاد بالغريب ، في مرحلة جمع اللغة وتدوينها ، ما
دخل العربية من المخلتق ، الذي لم تتكلم به العرب ، بل صنعه الرواة ، حين
كانت رواية الغريب ، مجدا يتسابقون الى احرازه . قال ابن سلام عن يونس :
« قال لي رؤبة : حتى متى تسألني عن هذه الاباطيل وازوتها لك . اما ترى
الشيب قد بلغ في رأسك ولحيتك^(٦٧) » . اقول : لا يغض هذا من الاهتمام
بالغريب ، لان اللغويين المحققين جهدوا في تمحيص الغريب ، ونشروا عنه
المخلتق ، والشكوك فيه .

ولا يغض من اهتمام النقاد بالغريب ، في مرحلة الجمع والتدوين ، ان
عددا من الشعراء تعدوه واستكثروا منه ، ارضاء لاولئك النقاد ، فالمسؤول
عن ذلك الشعراء لا النقاد .

(٦٤) الشعر والشعراء : ١/٥٩ .

(٦٥) نفسه : ١/٦٠ .

(٦٦) التنبيه على حدوث التصحيف : ١٧٠ .

(٦٧) الشعر والشعراء : ٢/٥٩٥ .

كما لا يتناقض اهتمام النقاد الاوائل بالغريب ، مع ما كان عليه النقاد المتأخرون من كراهة له ، وحرص على تهذيب اللغة منه ، ذلك لان الاهتمام به في مرحلة الجمع كان حاجة حضارية ، لم يسع النقاد الاوائل اغفالها .

ب - النوادر :

النوادر جمع نادر ونادرة . قال صاحب اللسان : « ندر الشيء يندر ندورا سقط وشذ ... ونوادر الكلام ما شذ وخرج من الجمهور (٦٨) » . فالنادر اذن مصطلح يتردد كثيرا في كتب اللغة ومعانيها ، ويراد به خلاف الفصح المألوف ، على الاغلب .

واذا كان الغريب يعني عندهم اللفظ الذي غضت دلالاته ، وخفي معناه ، فإن النادر أعم من ذلك ، اى انه يشمل اللفظ الغريب ، والتعريف الغريب ، كما يشمل المفردات التي لا ترجع ندرتها الى غوض معانيها ، ولكن الى خروجها عن المألوف من حيث الحياة والبيئة .

وقد وضع ابن هشام ، نيا نقله السيوطي عنه ، قاعدة لتسييز النادر ، وتعيين مرتبته من الفصاحة فقال : « اعلم انهم يستعملون غالبا وكثيرا ونادرا وقليلًا ومطرذا . فالطرذ لا يتخلف . والغالب أكثر الاشياء ، ولكنه يتخلف ، والكثير دونه . والقليل دون الكثير . والنادر اقل من القليل . فالمشرون بالنسبة الى ثلاثة وعشرين غالبا ، والخسة عشر بالنسبة اليها كثير لا غالب ، والثلاثة قليل ، والواحد نادر . فعرف بهذا مراتب ما يقال فيه ذلك (٦٩) » .

وجاء في نوادر ابي مسحل : « ذهب ذهابا وذموبا وكسد كسادا وكؤودا وفد فادا وقؤودا .. وصلح صلاحا وصلوحا (٧٠) » . فانشهور

(٦٨) اللسان (ندر) .

(٦٩) الزهر : ٢٢٤/١ .

(٧٠) كتاب النوادر : ٢٢٦/١ .

ومَقْرَبٍ وَمَسْتَقِطٍ وَمَسْكِنٍ ؛ وقد يقال مَسْكَنٌ وَمَنْبِتٌ وَمَحْضِرٌ
وقد يقال مَحْضَرٌ وَمَسْجِدٌ وَمَنْشِكٌ وَمَجْزَرٌ ؛ فان هذه جاءت على غير
القياس ومنها ما يقال بالفتح ومنها ما لا يفتح (٧٥) .

غير ان تعريف النادر بانه اللفظ المخالف للقياس ، وان اكدته الامثلة
الكثيرة المبثوثة في كتب اللغة ؛ لا يحل لنا مشكلة النواذر ، ولا يعرفها تعريفا
تاما : « لاننا نجد كثيرا من الالفاظ جاءت مخالفة للقياس وهي مع ذلك
فصيحة مشهورة ؛ لا تعد من النواذر في حان من الاحوال » (٧٦) .

ولذا لا بد لنا من جعل الاستعمال هو الفيصل بشأن النادر وغيره ،
فما كثر استعماله ، وتداوله الالسن فهو الفصح المشهور ، وما هجرته
العرب ؛ ولم تعرفه الا قلة منهم فهو النادر ، سواء اختلف القياس ام وافقه .
فالنواذر اذن مادة لغوية ؛ خالفت الست العام للغة فاسترعت نظر النقاد ،
فتبعوها ؛ وجهدوا في جمعها ؛ فحفظوا في علمهم هذا مادة لغوية مهمة ،
كانت مهددة بالضياع ؛ لشذوذها ، وندرتها ، وقلة من يعرفها من الناس .
فاذا استعمل الكسيت لفظ (خجل) بمعنى (البطر الاشر) ؛ استرعى
استعماله هذا نظر الناقد اللغوي . قال الكسيت :

ولم يدقَعُوا عندما نابَيْتُمْ لصرْفِي زمان ولم يَخْجَلُوا

« ورجل خَجَلٍ : اذا كان بَطِيراً اَشِيراً . ورجل دَقَع اذا كان مستكينا

خاشعا . . . وحكى الاموي عبدالله بن سعيد في حديث رواه قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : (النساءُ دَقِعَاتٌ خَجَلَاتٌ يَسْكُنُ عِنْدَ
الشدة ؛ وَيَبْطِرُنَ عِنْدَ الرخاء) « (٧٧) .

(٧٥) اصلاح المنطق : ٢١٩ ، ٢٢٠ .

(٧٦) كتاب النواذر (مقدمة المحقق) : ٢٠ .

(٧٧) كتاب النواذر : ٥٥/١ ، ٥٦ .

والخيال مذكر ، فاذا استعمله الشاعر مؤنثا ، لت ذلك نظر الناقد . قال
الشاعر : (٧٨)

الاطرقت خيالة أم كرز واصحابي بعيتهم من تباله
وجمع شابة وقبة ولعة وحلبة وحاجة على شباب وقباب ولصائس
وحلاب وحوائج : جمع نادر غير مألوف (٧٩) ، يتوقف نظر الناقد . قال
الشاعر : (٨٠)

عجائز يذكرن شيئا ذاهبا
يخضب بالحناء شيئا شائبا
يقلن : كنا مرة شبائبا

وظل النقاد يتحرون اللفظ النادر الذي يقل تداوله ، ويمز وقوعه في
شعر أو نثر ، الا ان مفهوم اللفظ النادر قد تغير عند بعض النقاد المتأخرين ،
فصار يعني ذلك اللفظ الذي يغير الاديب مجال استعماله ، ويضمه موضعا
خاصا ، يلت اليه الانتظار . فابن ابي الاصب يجعل مثل هذا اللفظ نظما من
أنماط (البديع) ، ويسيه (الترائد) فيقول : « هذا باب مختص بالفصاحة
دون البلاغة ، لان مفهومه اتيان المتكلم بلفظة تنزل من كلامه منزلة التريدة
من حبّ العقد ، تدل على عظم فصاحته ، وقوة عارضته ، وشدة عربيته ،
حتى ان هذه اللفظة لو سقطت من الكلام لغزّ على النصحاء غرامتها وهي
كقول ابي نواس :

وكان سعدى إذ تودعنا وقد اشرب الدمع أن يكنا
لفظة (اشرب من الترائد التي لا نظير لها في فصيح الكلام ، ولا
يقع مثلها الا على سبيل الدور ... وكذلك قول ابي تمام :
وقدما كنت معسول الاماني ومأدوم القوافي بالسداد

(٧٨) كتاب النوادر : ٢٢٤/١ .

(٧٩) نفه : ٢٣٩/١ .

(٨٠) نفه : ٢٤٠/١ .

فلفظة (مادوم) من التراثد التي لا يقدر على نظيرها ، ولا يعثر على شبيها . وكقول البحري في المعتر بالله :

لابس " حلة الوفاء ومن أبهة السيف ان يكون مُحَلَّى
ف قوله (أبهة) من التراثد العربية في مكانها التي يعجز النصحاء عن الاتيان بها . وقد جاء في الكتاب العزيز من ذلك غرائب يعز حصرها منها قوله سبحانه وتعالى (فلما استأسوا منه خلكوا نجياً) فالفاظ هذه انجلى كلها فرائد معدومة النظائر » (٨١) .

ان تنقيب النقاد في لغة الادب ، وجعلهم اياها محور علمهم التقدي ، قد أدى الى ان يقتوا على جملة سالحة من الالفاظ والتراكيب : كان بعضها نادر الوقوع في الكلام ، وجمع بعضها الى ذلك مخالفة الشائع والمألوف من قواعد الاستعمال ، فنصوا عليها ، وأودعها بعضهم في كتب خاصة ، فقدموا بذلك مادة لا يستغنى عنها الباحث في اللغة ، أو من يريد ان ينظر اليها نظرة تاريخية .

ج - التطور اللغوي للمفردات :

يرى الدارسون المحدثون ان اللغة كائن حي ، تخضع لما يخضع له الكائن الحي في نشأته ونسوه وتطوره (٨٢) . وهي كاية فاهرة اجتماعية : « عرصة للتطور المطرد في مختلف عناصرها : اصواتها وقواعدها ومتنها ودلالاتها . وان تطورها هذا لا يجري تبعا للاهواء والمصادفات ، أو وفقا لارادة الافراد ، وانا يخضع في سيره لقوانين جبرية ثابتة ، مطردة النتائج ، واضحة المعالم ، محققة الآثار ، لا يد لاحد على وقف عليها ، أو تغيير ما تؤدي اليه . فليس في قدرة الافراد ان يقتوا تطور لغة ما ، أو يجعلوها

(٨١) تحرير التحرير : ٥٧٦ ، ٥٧٧ .

(٨٢) لحن العامة والتطور اللغوي : ٣٠ .

تجدد على وضع خاص او يسيروا بها في سبيل غير السبيل التي رسمتها لها
سنن التطور الطبيعي « (٨٢) » .

وليت العربية في هذا الشأن بدئا من غيرها من اللغات ، ولذا عرض
لها التطور ، فتناول مفرداتها وتراكيبها . ولم تكن لغة الحياة اليومية وحدها
هي التي تطورت ، وابتعدت قليلا أو كثيرا عن الفصحى ، وانا ادرك التطور
لغة الادب أيضا . ولا بد من الاشارة هنا الى ان التطور الذي احاب لغة
الحياة العامة كان كبيرا ولاننا للنظر ، فعني به النقاد اللغويون ، وبذلوا جهودا
جبارة في سبيل وقته ، ومنع فسوه ، والنوا العديد من الكتب التي عرفت
بكتب (لحن العامة) ، والتي توخت اصلاح اللغة الدارجة ، والعودة باللسن
الى الاستعمالات الصحيحة والماثورة . اما لغة الادب فقد ظيرت عليها اعراض
التطور ، الا انها لم تبلغ ما بلغته العامية من بعد عن الفصحى ، واخلال تام
بقواعد الاستعمال . ولكن النقاد اللغويين لم يتركوا هذا القدر اليسير من
التطور يترب الى لغة الادب دون تنبيه عليه ، أو تصحيح له .

ومن يتأمل ملاحظات النقاد ، ويرجع الى كتب (لحن العامة والخاصة)
يجد ان التطور الذي لحق بعض المفردات لا يبدو ان يكون تغيرا في بعض
حروفها ، أو تغيرا في صيغها وأوزانها ، أو تغيرا في دلالاتها . وقد استوقفت
الكلمات المتطورة نظر النقاد ، فاهتموا بها ، ونهبوا عليها ، وارشدوا الى
اصولها التي تطورت عنها ، لانهم عدوا استعمالها على الوجه الذي آلت اليه
لحنا ، أو تجافيا عن الفصحى المليح .

فمن الامثلة على الالفاظ التي عرض التطور لبعض اصواتها ما ورد في
اصلاح المنطق : « ويقال هم الأسد أسدُ شسوءة ، وهي افسح من
الازد » (٨٤) . نرى ان الاصل في هذه الكلمة هو النطق الاول ثم تغير
(السين) فيها الى (زاي) .

(٨٢) اللغة والمجتمع : ٩١ .

(٨٤) اصلاح المنطق : ١٨٥ .

ومن ذلك ما جاء في (أدب الكاتب) في باب (ما جاء بالصاد وهم يقولونه بالسين) : « ونيذ قارص ولبن قارص ، أي يقرص اللسان ، وانبرد قارس والقَرَس البرد ، وسك قريس ... وهي صنجة الميزان ولا يقال (صنجة) وهي اعجية معربة ، وهو الصاخ ولا يقال (الساخ) وهو الصندوق بالصاد ... ولا يقال بسق الا في الطول ، وقد أصاخ فهو مصيخ اذا استمع ولا يقال : أصاخ » (٨٥) .

وسجل الزبيدي في كتابه (لحن العامة) ما سمعه على النة معاصره من الفاظ تطورت بعض أصواتها ، نعد ذلك من اللحن الذي يؤخذ عليه المنشيء . فكلمة (الجُخْدُب) وهي دويبة تآلف المياه ، كان العوام في عصر الزبيدي ، وتبعهم في ذلك بعض الادباء ، ينطقونها (جخطب) بإبدال (الدال) (طاء) . قال الزبيدي : « ورد كتاب من بعض الكتاب كتب فيه الجخطب بالناء ، فانكرت ذلك فلم يصح الي حتى عدوت اليه ببعض كتب اللغة فأريته الحرف مقيدا فيه » (٨٦) .

وعني الحريري بهذا النقط من التطور الذي عرض لبعض المفردات فسجل ما كان دائرا على الالسة والاقلام في عصره من كلمات تطورت بعض حروفها . من ذلك قوله : « ويقولون لما يجسد من فرط البرد قريس بالصاد . فيوهسون فيه كما وهم بعض المحدثين فيسا كتب الي صديق له يدعوه :

عندنا قبج مصوص ولنا جدى قريس

والصواب ان يقال فيه قريس لاشتقاقه من القرس وهو البرد » (٨٧) .

(٨٥) ادب الكاتب : ٣٠٠ .

(٨٦) لحن العوام : ٨ وتنظر ص ٥٩ .

(٨٧) درة الفواص : ١١٢ ، ١١٣ . والتبج بقاف مفتوحة وباء موحدة ساكنة نوع من الطير ومصوص طعام من لحم يطبخ وينقع في الخل (شرح الدرّة : ٢٣٠) .

وكما عني النقاد اللغويون بالانفاظ التي تطورت بعض اصواتها فسجلوها، كذلك استوقفتهم الانفاظ التي تطورت صيغها واوزانها ، فنبهوا عليها ، وأزشدوا الى المأثور من لفظها . والامثلة على هذا النمط من الانفاظ المتطورة كثيرة يجدها الدارس مبثوثة في كتب النقد اللغوي أو في كتب النقد العامة ، كقول ابن السكيت : « وهذا شيء مصون ولا يقال مضان . وهذا شيء معيب ولا يقال معاب » (٨٨) . وقوله « تقول ما له دار ولا عقار ولا تفل عقار ... وتقول : هو جفن السيف وجفن العين ولا تفل : جنن . وهو الرصاص ولا تفل الرصاص (بالكسر) (١٨٨) » .

وقول ابن قتيبة : « واعجت الكتاب ولا يقال : عجته . وأجبت الفرس في سبل الله ولا يقال : جسته . وأغلقت الباب وأقلته ولا يقال : غلته ولا قلته » (٨٩) .

وعني الزبيدي بهذا الضرب من المثرذات المتطورة ، فسجل في كتابه (لحن العامة) ما وجده منها في شعر وثر معاصره ، من ذلك قوله : « ورأيت لبعض متقدمي الكتاب (ايكاف) بالياء ؛ يعني (أكافا) وذلك ما ذكرناه من ولوعهم بالحق الياء في هذا المثال » (٩١) . ويعني ما كان على وزن (فعال) كطحال وطراز وشار ، قد تطور الى (فيعال) على السنة معاصره . وقوله : « ويقولون للحديدة التي يقطع بها ويحلق (موسى) ويعودون فيجمعونها (أمواسا) حتى قال بعض شعرائهم :

بريت من نجم ومن فلوسه وحلقت لحيته بوسه

قال محمد : والصواب (موسى) تقول : « هذه موسى حديدة » (٩١) .

(٨٨) اصلاح المنطق : ٣١٩ .

(٨٨) نفسه : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٨٩) ادب الكتاب : ٢٨٦ .

(٩٠) لحن العوام : ٧٨ وتنظر ص : ٧٦ .

(٩١) نفسه : ٧٨ ، ٧٩ .

ولم يغفل الحريري النص على ما كان دائرا على السنة معاصره من الفاظ تطورت أوزانها ، من ذلك قوله : « ويقولون : مطرد ومبرد ومبضع ومنجل كما يقولون : مقرعة ومقنعة ومنطقة ومطرقة ، فيفتحون الميم من جميع هذه الاسماء ، وهو من أقبح الاوهام ، وأشنع معايب الكلام ، لان كل ما جاء على (منعل) و (منغلة) من الالات المتعملة المتداوله فهو بكر الميم ، كالاسماء المذكورة ونظائرها » (٩٢) .

واستوقف النقاد ضرب آخر من الالفاظ المتطورة ، وهي الالفاظ التي تغيرت دلالاتها ، فاستعملت لغير ما وضعت له من معان . وقد مرت بنا في فصل (الخطأ والحواب) امثلة من هذه الالفاظ ، وفي الفصل القابل امثلة اخرى .

فن فوائد النقد اللغوي انه سجل المفردات المتطورة ، ونبه على نوع التطور الذي حدث فيها ، فسدد بذلك نقصا موجودا في المعجمات العربية التي لم تكن بها احاب المفردات على مرور الزمن من تطور صوتي او دلالي ، وانا سجلت الفاظ اللغة ومعانيها كما استعملها العرب الاوائل ، وظلت هذه المعجمات : « يعتمد المتأخر منها على المتقدم ، ويحاول ان يفسر اللفظ بانعاني التي كان يستعملها الجاهليون والاسلاميون الاول وحدهم » (٩٣) .

وعلى هذا فكتب (النقد اللغوي) ومباحثه ، ذات فائدة جلية لمن اراد ان ينظر في العربية نظرة تاريخية ، ويسجل مراحل تطورها ، ويقف على ما اعتور مفرداتها من تغير في الصيغة والمدلول . اما المعجمات وكتب اللغة فلا تنفي عن كتب النقد اللغوي ومباحثه في هذا الوجه من وجوه البحث لان « كتب اللغة لا تشير الى اللفظة المفردة وطرائق استعمالها عبر العصور » (٩٤) .

(٩٢) درة الغواص : ٩٧ .

(٩٣) المعجم العربي : ١١٢/١ .

(٩٤) مباحث لغوية : ٩١ .

ولكن ، ان كان النقاد اللغويون قد أفادوا البحث اللغوي التاريخي بتسجيلهم المفردات المتطورة ، فانهم قد كدّروا هذا الصنيع بحكمهم على تلك الكلمات بالخطأ ، دون مراعاة لسبب التطور ونوعه ، ودون تفریق بين ما كان منه خطأ وانحرافا عن قوانين اللغة وطبيعتها ، وبين ما كان جاريا على تلك الطبيعة ، وموافقا لتلك القوانين (٩٥) .

د - المعرب والدخيل :

ومن الظواهر اللغوية التي يرجع الى النقد اللغوي فضل تشخيصها والتنبية عليها ، ظاهرة المعرب والدخيل . وقد مرّ بنا فرق ما بينهما (٩٦) . ناذ يقوم الناقد اللغوي بنحص الاساليب ، وترداد النظر في لغة النصوص ، تلفته الكلمات الدخيلة او المعربة ، فيقف عندها ، وينبه عليها . وذلك من فوائد النقد اللغوي ، لانه يقدم للباحث في تاريخ اللغة مادة مهمة ، وعونا أكيدا .

لقد قام النقاد واللغويون ، منذ وقت مبكر ، بتشخيص الدخيل ، وميزه من الاصيل ، وظلوا يقومون بذلك في مختلف العصور ، بحكم صلتهم بالادب وعلاقتهم الوثيقة بما يدع منه . والشواهد على اهتمامهم بالدخيل وغنايتهم بحصره وتميزه ، كثيرة حفلت بها كتب النقد واللغة .

هـ - المولد :

وهو ظاهرة لغوية أخرى ، كان للنقد اللغوي فضل كشفها ، والتنبية عليها . والمولد : « هو ما أحدثه المولدون الذين لا يحتج بالناظم » (٩٧) . وقد دأب النقاد واللغويون على تسجيل المولد ، والنص عليه . من ذلك أن الاصمي كان يقول : « التحرير ليس من كلام العرب ، وهي كلمة

(٩٥) تنظر ص ٣٩٤ من هذه الرسالة .

(٩٦) تنظر ص ٢٢٠ من هذه الرسالة .

(٩٧) المزهر : ٢٠٤/١ .

مولدة» (٩٨) . وقال ابن دريد : « تسيتم الاثى من الترودمثة مولد» (٩٩)
وقال القاضي الجرجاني معقبا على قول ابي تمام :

رقت حواشي الدهر فهي ترمم وغدا الثرى في حليه يتكسر

« على أن لفظه يتكسر حصرية مولدة » (١٠٠) .

ولنص النقاد واللغويين على المولد قية كبيرة لانهم حفظوا لنا بسلام هذا جانباً مهسا من جوانب التطور التاريخي للغة : « فلولا هذا الاهتمام بتسجيل المولد ، والنص على الفاظه لشاع تحديد معالم هذا التطور في خضم المفردات اللغوية الكثيرة ، ولاصبحت هذه المولدات جزءاً من اللغة القدية ، وخر الباحث في التطور اللغوي معالم مهسة في هذا الميدان » (١٠١) .

٥ - تصحيح الخطأ :

اهتم النقد اللغوي بأخطاء المشين ، وهدف الى تصحيحها ، فكان ذلك من الفوائد الجليلة التي أسداها للعربية من جانب ، وللناطقين بها من جانب آخر . فالمنشيء ، لهذا العامل او ذلك ، قد يقع في الخطأ وقد يخرج بتعبيره عن الصيغة المقبولة ، فاذا لم يجد من يصحح خطأه ، ويرشده الى الصواب ، تكرر منه ذلك ، وربما قلده فيه غيره . وكلما كان المنشيء عظيماً ، او ذا منزلة مرموقة في عصره ، كانت مراقبة لفته ألزم ، لان أخطاءه المنطوقة او المكتوبة ، قد تنتقل الى غيره ، من لا علم له باللغة ، او من يعتقد في ذلك المنشيء الاحاطة باللغة ، والوقوف على ما لم يقف عليه غيره من وجوه الاستعمال فيها . وليس الاديب الكبير وحده هو الذي يخشى ان تنتقل اخطاؤه ، وتسير ، ويقع فيها المعجبون به ، بل ان اصحاب النفوذ السياسي والاجتماعي أيضا ، تنتقل اخطاؤهم اللغوية ، الى جماهيرهم ، ومؤيدي

(٩٨) المزهري : ٣٠٤/١ .

(٩٩) نفسه : ٣٠٥/١ .

(١٠٠) الوسائط : ٣٦ .

(١٠١) الاندلس في اللغة : ٣٩ .

مواقفهم ، فسير تلك الاخطاء ، وربما تؤثر في اللغة ، ان لم تجد من ينبه عليها ، ويسنح تشيها .

وقد فطن الدرس اللغوي الحديث الى هذه الحقيقة ، فدعا الى ضرورة تنقية لغة المشهورين واصحاب النفوذ من كل خطأ او انحراف ، لئلا تنتقل اخطاؤهم الى الاخرين . قال تمام حسان : « ان اللغة ما يتعلمه الناس بالمحاكاة ، والناس مولعون بالتقليد ، ولا سيما تقليد ذي النفوذ او الهبة او السلطان . واذا علمنا ان الاجنبي الفاتح قد يترك شيئا من عاداته النطقية في لغة البلد المفتوح ، كما فعل الاتراك في (الظاء) العربية ، استطعنا ان نقدر خطر العيب النطقي الذي يوجد في صاحب النفوذ على تطور اللغة » (١٠٢) .

واذا قلنا ، ان مراقبة لغة المشهورين ضرورة ، لمكانهم من الحياة الادبية ، ولكثرة قرائهم ، فاننا لا نعي ان يترك الناقد اللغوي لغة غير المشهورين ، او لغة المبتدئين ، لان تقويم هؤلاء ، وتبصيرهم بمواقف زللهم ، يدفعهم الى استكمال اداتهم اللغوية ، ويجملهم بتحيون النشر السريع لاعمالهم .

فنقد لغة المبتدئي ، والتنبية على ما فيها من اوهام ، قد يدفعه الى ان يعيد النظر في ثقافته اللغوية ، ويسعى الى ان ينال اوفى نصيب منها . وليس يعيد عنا ما حدث للكائني الذي كان سبب تخصصه في اللغة ، ذلك الخطأ اللغوي الذي أخذه عليه بعض جلائه . روى القراء ان الكائني انا تعلم النحو على الكبر : « وكان سبب تعلمه انه جاء يوما وقد مشى حتى اعشى ، فجلس الى قوم فيهم فضل ، وكان يجالسهم كثيرا فقال : قد عييت ، فقالوا له : اتجالسنا وانت تلحن . فقال : كيف لحت ! فقالوا له : ان كنت اردت من التعب فقل : أعييت . وان كنت اردت من انقطاع الحيلة والتحير في الامر فقل : عييت مخففة . فانف من هذه الكلمة وقام من فورده فآل عن يعلم النحو » (١٠٢) .

(١٠٢) ينظر : اللغة بين المعيارية والوصفية : ٨٥ ، ٨٦ .

(١٠٣) نزهة الالباء : ٥٩ .

فالنقد يحمل المتديء على اعادة النظر في بناءه الثقافي ويجعله يتصعب من الامر ما استهل ، ويلقى في روعه ان الطريق مأخوذة عليه ، مخوفة بمن يراقب خطوه ، ويحصي أخطاءه . فلتصحيح الخطأ ، ومنع سيرورته فائدة كبيرة ، لا يمكن تجاهلها عند الكلام على فوائد النقد اللغوي .

لقد شغل النقاد العرب باخطاء المنشئين ، وهدفوا الى تقويضها ، والارشاد الى وجه الصواب فيها . ولكن ماذا كان موقف المنشئين من هذا التصحيح ؟ أكانوا راضين عنه ، آخذين به ؟ ام كانوا كارهين له ، ساخطين عليه ؟

لم يكن المنشئون سواء من حيث قبول التصحيح ، والاستجابة للتبئيه على الخطأ . فبعضهم كان يأخذ بالتصحيح ، ويقر النقاد عليه ، ويغير كلامه فيجعله متفقا مع قواعد اللغة ، وقوانين استعمالها ، بل ان من هذا الفريق من كان لا ينتج شعره ، ولا يعيد النظر فيه ، اعتسادا على تنقيح النقاد له ، وتهذيبهم اياه من الخطأ . قال ابن مقبل : « اني لارسل البيوت عوجا فتأتي الرواة بها قد أقامتھا » (١٠٤) . وبعضهم كان يتأبى على النقاد ، ويأنف من ان يأخذ بملاحظاتهم . والفردق وبشار اوضح مثال لهذا الفريق من المنشئين . فالفردق كان يأبى الاخذ بتصحيح ابن ابي اسحاق الحضرمي ، ويطلبه بان يجد لخطائه تأويلا او تخريجا . وبشار - كالفردق - كان يتسو على ناقديه ، ويقع في اعراضهم ، فحين بلغه ان سيويه يستضعف لفته ، ويتنعم من الاحتجاج بشعره ، هجاه قائلا (١٠٥) :

اسيوه يا ابن الفارسية ما الذي تحدثت من شتتي وما كنت تبئذ
أظلت تغنى سادرا بساءتي وامنك بالمصرين تعطي وتأخذ

وإذا كنا نستطيع ان نلتبس للفردق وبشار ، ومن كان في نبتئتها أو في منزلئتها ، بعض العذر في التأبى على النقاد ، وعدم الاخذ بتصويباتهم ،

(١٠٤) مجالس نعلب : (٨١) .

(١٠٥) الموشح : ٣٨٥ .

لما كانوا يتشعرونه من احاطة باللغة ، وعلم تام بوجود استعمالها ، فاننا لا نعذر الشعراء المتأخرين الذين لم يكن لهم من العلم باللغة ما يسح لهم بالاستهانة بتصويبات النقاد ، او الترفع عن الاخذ بها . وقد شكنا ابن رشيق من امثال هؤلاء الشعراء ، وقال : ان احدهم اذا : « عورض في شعره بسؤال عن معنى فاسد او متهم ، او طوب بحجة في لحن او شاذ ، او توظر في كلمة من الفاظ العرب مصحفة او نادرة قال : هكذا اعرف ، وكاننا أعطي جوامع الكلم ، حاش لله ، واستغفر الله ، بل هو العسى الأكبر ، والموت الاصفر ، وبأي امام يرشى ، او الى أي كتاب يرجع ، وعنده ان الناس اجمعين بضعة منه ، بل فضلة عنه . . . » (١٠٦) .

وكان جزاء هذا الفريق المغرور من الادباء ان يضرب ابن رشيق عن قراءتهم وتقدمهم ، والتنبية على اخطائهم وزلاتهم ، حرصا منه على الا يخلد لهم ذكر في كتابه . قال : « وكم في بلدنا هذا من الحفاث (١٠٧) قد صاروا شمابين ، ومن البغاث قد صاروا شواهين ، ان البغاث بأرضنا يستسر ، ولولا ان يعرفوا بمد اليوم بتخليد ذكرهم في هذا الكتاب ، ويدخلوا في جملة من يعد خطله ، ويحصى زلله ، لذكرت من لحن كل واحد منهم وتصحيفه ، ونساذ معانيه ، وركاكة لفظه ، ما يدلك على مرتبته من هذه الصناعة ، التي ادعوها باملا ، واتسبوا اليها اتحالا » (١٠٨) .

وواضح من الموقف الذي اتخذه ابن رشيق من هؤلاء الادباء المغرورين فيه افعال وقسوة لا تنفق ومهمة الناقد ، وهي مهمة تلي عليه ان يقول كلسته في النصوص الادبية ، ولا يهمه بمد ذلك ما يترتب على تلك الكلمة من اعراض عنها ، وقصور منها ، او اذعان لها ، وتسلم بها .

وبعد ان شكنا ابن رشيق من عدد من شعراء عصره ، لعدم استجابتهم للنقد ، وعزوفهم عن الاخذ بالتصحيح ، عاد فدعا المنشئين الى ان يضعوا في

(١٠٦) العمدة : ٢٣٩/٢ .

(١٠٧) حية تنفخ ولا تؤذي .

(١٠٨) العمدة : ٢٣٩/٢ .

توسهم ان العصمة من الخطأ منتنة ، وان المنشيء ، مها بلغ من العلم باللغة ، عرضة لان يزل فيها ، وما عليه الا ان يرجع عن الخطأ ، وياخذ بالتصحيح . . . قال ابن رشيء : « ولا بد ان يؤتمى على الشاعر المفلق ، والعالم المتقن ، لما بني عليه الانسان من النقص والتقصير ، وخير ما في ذلك ان يرجع المرء الى الحق اذا سمعه ، ولا يتسدى على الباطل لجاجة ، وأهنة من الخطأ ، فان تساديه زيادة في الخطأ الذي أنف منه » (١٠٩) .

واذا كان غرور بعض المنشئين ، أو حسن ظنهم بثقافتهم اللغوية ، هو الذي منعهم من الاخذ بملاحظات النقاد ، فان الخجل كان يسنع بعضهم من الاسترشاد بالنقاد ، أو سؤالهم عما يشكل عليه من مسائل اللغة . قال علي ابن محمد العلوي الكوفي ، وهو شاعر عباسي : « ربما جاءني المعنى المليح في اللفظ الخشن فأشك في لغته ، وفي اعرابه ، فأعدل عنه ، ولا أسأل عن ذلك من يعلمه كراهة ان أسأل بعد ما كبرت ، وتركي لي علم ذلك حدثا » (١١٠) . فلمنع الخطأ ، أو التبيه عليه ، فائدة كبرى ، لان الخطأ اذا ترك قد يعم ويفشو ، ثم يؤثر في حياة اللغة . كما ان المحاسبة على الخطأ ، تحفز المنشيء الى استكمال اداته اللغوية ، وتجعله يحرص على تهذيب عمله ، وتنقيته ، قبل نشره واذاعته .

٦ - الارشاد الى الحسن والاحسن :

بعد ان يطمئن الناقد اللغوي الى سلامة التركيب ، وموافقته لقوانين اللغة ، وقواعد استعمالها ، يأخذ في النظر الى النص مرة ثانية ، وعلى هدي آخر ، فيستعين بذوقه ، وخبرته الواسعة بالاساليب ، بعد ان كان قد اعتمد على ما عرفه من قواعد اللغة ، ووعاه من اصولها واحكامها . واذا كانت النظرة الاولى للنص تسفر عن الحكم بالخطأ والصواب ، فان النظرة الثانية تؤدي الى الحكم بالجودة او الرداءة ، والاستحسان او الاستهجان . وكما ان الناقد

(١٠٩) العمدة : ٢٤٥/٢ .

(١١٠) الموشع : ٥٢٩ .

اللغوي ، لا يكتفي بالحكم بالخطا ، بل يرشد الى الصحيح الذي يجب أن يجري عليه الاستعمال ، فانه لا يقتصر احيانا على بيان الرديء او المستهجن ، بل قد يضع امام المشيء ما هو احسن وارفع ، وأقطع لالسنة العائين .

وقد مرّ بنا في الباب السابق (١١١) كيف ان المشيء قد يستعمل احيانا اللفظ المعيب لغرابته وشذوذه ، أو لتبح ابحاثه أو عدم موافقته ما يجاوره من الفاظ ، أو ما يعبر عنه من موضوع ، أو لغير هذه العوامل ، كما فصلناه ، فياتي الناقد ليحصر برداءة لفظه ، والوجه الذي يعاب منه ذلك اللفظ وقد يكتفي بهذا ، تاركا للمشيء أمر تبديل اللفظ ، والبحث عن غيره ، وقد يرشده الى اللفظ الامثل . وكما يقف الناقد اللغوي عند اللفظ المعيب ، كذلك يقف عند التركيب المستهجن ، فيحصر المشيء بسبب استهجانه ، ثم يكتفي بذلك ، أو يقترح عليه ما هو أولى بالاستعمال ، فيشارك في الخلق الادبي ويسهم في انتاج العمل الفني ، ويجعله مستكملا ابعاده ، ومصيا ما اراد المشيء اصابته فلم يصبه ، أو رغب في الظفر به ، فحام حوله ، ولم يقع عليه . وأنصح ابو نواس عما يعرض للمشيء احيانا من ذهاب عن الاحسن وعدم بصر باللائم أو الموافق حين انشد قصيدته في الخصب ، أمام الرشيد ، فلما بلغ قوله :

فان يك باقي افك فرعون فيكم فان عصا موسى بكف خصب

قال الرشيد : « الا قلت : فباقي عصا موسى بكف خصب . فقال له :

هذا احسن ، ولم يقع لي » (١١٢) .

ومن التكرار الذي لا غناء فيه ان نضرب الامثلة على الجهد الكبير الذي قام به النقاد اللغويون في تمقب الفاظ المشئين وتراكيبهم ، وبيان ما فيها من جيد مستلح ، وارشادهم احيانا الى اللفظ الموافق ، أو التعبير الحسن .

(١١١) تنظر ص ١٩٢ من هذه الرسالة .

(١١٢) الموشح : ٢٢٦ .

٧ - الدفاع عن المنشيء :

وقد يظلم المنشيء فيرمى بالخطأ ، أو يوصف كلامه بالرداءة ، فكان الناقد اللغوي يتف معه ، لينفي عنه الخطأ ، أو يثبت لكلامه صفة الجودة . ولا بد من الاشارة الى أن هناك ضربا من الدفاع لم يرد به احقاق حق ، أو أزهاق باطل ، وانا اريد به اسناد الباطل ، وتسويغ الخطأ الصريح ، وهذا الضرب من الدفاع لا يعنينا هنا ، ونحن نتحدث عن اهية انتقد اللغوي وفوائده ، وسنخصه بوقفة اخرى عند الكلام على عيوب التقيد اللغوي واضرارها . وبروز ظاهرة الدفاع عن المنشين يعود الى أمور :

١ - التعجل في الحكم بالخطأ او الرداءة :

من أظهر خصائص العربية سعتها ، أي تعدد لهجاتها ، وتووع اساليب التعبير بها ، الامر الذي جعل اللغويين يعجزون عن الاحاطة : « بكل الكثر اللغوي الحي الذي كان متعملا اذ ذاك في عالم البادية » (١١٣) . فأبو عبيدة مثلا جهل الكلمات التي وصفت بها ام الهيم الاعرابية مرضها فآلتها عما اذا كان للناس لغتان يتفاهمون بهما (١١٤) . وابن الاعرابي « اكدى بصورة مزرية حينما طلب اليه ان يشرح كلمات غريبة في شعر الطرماح » (١١٥) .

واذا كانت العربية على هذه الحال من السعة ، وصعوبة الاحاطة بالمستعمل من مفرداتها وتراكيبها ، فقد كان المفروض في التقاد اللغويين ان يشتبوا من (شرعية) الاستعمال ، ووروده ، قبل ان يحكموا عليه بالخطأ او الرداءة . ولكن الذي حدث غير هذا ، فقد كان بعض التقاد يتعجلون ، فيرمون هذا المنشيء ، أو ذلك بالخطأ ، ويصنون هذا الاستعمال او ذلك بالرداءة . ولو انهم انعموا النظر ، وأمعنوا في الاستقصاء ، لوجدوا في كلام العرب ، وفي الرفيع منه احيانا ، ما يسند الاستعمال الذي خطأوه ، أو استهجنوه . وقد أشار الجرجاني الى سعة العربية ، ودعا الى ضرورة التريث في الحكم على

(١١٣) العربية : ٨٨ .

(١١٤) ذيل الامالي : ٦٦ .

(١١٥) العربية : ٨٨ .

الشيء بمخالفة اللغة ، فقال : « ولم استحسن ما يتسرع اليه اصحابنا من التصريح بمخالفة اللغة » (١١٦) .

وازاء تعجل النقاد ، واحداهم احكاما سريعة ، كان لا بد من اندفاع عن المنشئين ، وقد تولى المنشئون انفسهم هذا الدفاع احيانا ، كما تولاه عنهم غيرهم احيانا .

ومن الامثلة على تخطئة بعض الاستعمالات ، من غير تتبع لكلام العرب ، واستقصاء للرفيع من اساليبهم ، ما ذهب اليه البصريون - على ما رواه ابو حاتم عنهم - من ان (الاخوان) تطلق على الاصدقاء ، و (الاخوة) تقال لمن كانوا لاب واحد . لم يحمل البصريين على هذا القول الا تعجلهم في الحكم ، وتقصيرهم الشديد في الاستقصاء ، وقد احتاج هذا الحكم الى من ينتقسه ، ويدافع عن المنشئين الذين يتعملون (الاخوة) او (الاخوان) على غير الوجه الذي قرره البصريون . وكان ذلك المدافع هو ابو حاتم السجستاني نفسه ، فقال : « وهذا غلط ، يقال للاصدقاء وغير الاصدقاء اخوة واخوان . قال الله عز وجل (انما المؤمنون اخوة) ولم يعم السب . وقال (او بيوت اخوانكم) وهذا في السب ، وقال (فاخوانكم في الدين ومواليكم) » (١١٧) .

ومن ذلك ان ابن عمار وغيره لحنوا البحري في كلمة (الاغراض) التي وردت في قوله :

بُدلت عبرة من الاياض يوم شدوا الرجال بالاغراض

قالوا : الاغراض جمع غرض وقَعْل لا يجمع على افعال » (١١٨) ، خرد عليهم الامدي قائلا « افما سمعوا بقولهم : فرخ وافرأخ وفرد وافرأد وشكّل وأشكال وجفّن وأجنان وععّر واعصار وزند وازناد » (١١٩) .

(١١٦) الوساطة : ٨١ .

(١١٧) اللسان : (اخ) .

(١١٨) الموازنة : ٧/٢ والاغراض : جمع غرض وهو للبعير مثل الحزام للفرس .

(١١٩) الموازنة : ٧/٢ .

ومن ذلك انكارهم قول القائل :

فالغيث ابخل من سمي

لانهم ذهبوا الى ان (من) لا تقع الا على عاقل ، والغيث ليس من العقلاء . فاستحق الشاعر ان يدافع عنه ، وكان القاضي الجرجاني ذلك المدافع ، قال : « وهذا الاعتراض يدل على تقصير شديد في العلم بكلام العرب ، لان العرب اذا وصفت الشيء بصفة غيره ، استعارت له الفاظه ، واجرته في العبارة مجراه ، وان كان لو اتفرد ، اتفرد عنه بصفته ، وتميز دونه بعبارته . فمن ذلك قول الله تعالى : (والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) لما وصفهما بالسجود جمعهما بالياء والنون ، ولا يجمع بهما الا جنس من يعتل او ما خرج عن بابه لعل مذكورة في مواضعها ، لكنه لما اجرى على الكواكب صفة من يعتل ألحقها في العبارة بهم . . . فاذا جعل الغيث بخيلا او جوادا ، ووجد العرب قد اجازت وتكلمت به ، جاز له الحاقه بالبخلاء والاجواد في استعمال العبارة ، فكأنه قال : الغيث ابخل السعاة ، ولو قال ذلك لم ينكره منكر ، وان كان هذا السمي ابتداء المعالي لا السمي على الاقدام . وقد اتشدني بعض من اتق به لبعض العرب :

متى نوهت في الهيجاء باسي اناك السيف أول من يجيب

لما جعل السيف مجيبا له الحق بن تصح منه الاجابة من العقلاء» (١٢٠) .
وكما تعجل بعض النقاد فحكوا بالخطأ ، تعجل آخرون فحكوا بالرداءة ، ولو انهم استقصوا اساليب العرب ، لظهر لهم ان ما عابوه ، جاء موافقا لاساليب واستعمالات رفيعة ، لامطعن فيها لطاعن . ولم يدع انتقاد اللغويون ، والمنشئون انفسهم في بعض الحالات ، تلك الاستعمالات موصومة بالرداءة ، بل دافعوا عنها ، واثبتوا لها ما نفي عنها من حسن او جودة ، وذلك

(١٢٠) الوساطة : ٤٢٩ ، ٤٤٠ .

بتذكير عائيبها بما يشبهها من اساليب ، وردت في القرآن الكريم ، وفي كلام العرب الفصحاء .

ومن الامثلة على ذلك ما رواه عبدالصمد بن المذلل ، فقال : « قدم علينا ذو الرمة الكوفة ، فوقف راحته بالكناسة ، ينشدنا قصيدته الحائية ، فلما بلغ الى هذا البيت :

اذا غير الناي المحيين لم يكد رسيس الهوى من حب مية يريح
فقال له ابن شبرمة : ياذا الرمة اراه قد برح . ففكر ساعة ثم قال :

اذا غير الناي المحيين لم أجد رسيس الهوى من حب مية يريح
قال : فرجعت الى ابي الحكم بن البخترى بن المختار فأخبرته الخبر ، فقال : أخطأ ابن شبرمة حيث انكر عليه ، وأخطأ ذو الرمة حيث رجع الى قوله : انا هذا كتول الله عز وجل (أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا اخرج يده لم يكد يراها) أي لم يرها ولم يكد » (١٢١) .

وسع ابو عمرو بن العلاء رجلا من أهل المدينة ينشد قول ابن قيس الرقيات :

ان الحوادث بالمدينة قد أوجعني وقرعن مروتيه

« فاتبرزه ابو عمرو ، فقال : مالنا ولهذا الشعر الرخو ! ان هذه الهاء لم توجد في شيء من الكلام الا ارخته . فقال له المدني : قاتلك الله ! ما أجملك بكلام العرب ! قال الله عز وجل في كتابه : (ما أغنى عني ما ليه . هلك عني سلطانيه) وقال : (يا ليتني لم أوت كتابيه . ولم ادر ما حاييه) فانكر ابو عمرو انكسارا شديدا » (١٢٢) .

(١٢١) الموشح : ٢٨٢ .

(١٢٢) الخصائص : ٢٩٢/٢ .

وروى أيضا ان الرقيات نسه أنشد عبدالملك هذا الشعر ، فقال له عبدالملك « احنت لولا انك خشت في قوافيه . فقال : ما عدوت كتاب الله : (ما أغنى عني ماله . هلك عني سلطانيه) » (١٢٣) . فقال له عبدالملك : « انت في هذه أشعر منك في شرك » (١٢٤) .

ب - اختلاف النظرة الى لغات القبائل :

كانت بعض القبائل مقدمة على بعض في سلم الفصاحة عند عدد من النقاد واللغويين ، فحكوا بالخطأ على بعض الاستعمالات ، مع علمهم بأنها ما تكلمت به بعض العرب ، وذلك لاستيحاشهم منها ، وعدم ثقتهم بفصاحة من تكلم بها ، فضيق هؤلاء النقاد من دائرة الفصاحة ، وجعلوها مقصورة على عدد من القبائل لا تعدو الست ، واما القبائل الاخرى التي كانت تسوج بها شبه الجزيرة ، فلم تحظ بأن يدخل لغة الادب شيء من اساليبها واستعمالاتها . لقد دهش كثير يوما وهو في مجلس عبدالعزيز بن مروان ، حين قال له بعض جلسائه : لحت . فقال كثير : في أي شيء ؟ قال : في قولك :

لا أنزر النائل الخليل اذا ما اعتل نزر الظنور لم ترم

وانا هو ترام . فقال له : اسكت ، هكذا كلام قومي (١٢٤) .

وازاء هذه النظرة المتشددة ، كان لابد ان ينهض بعض النقاد ، ليدافعوا عن المنشئين ، الذين كانوا يجارون في اقاويلهم قبائلهم ، أو غيرها من القبائل التي اريد لها ان تبقى خارج دائرة الفصاحة . وقد كثرت امثلة هذا الدفاع في كتب النقد واللغة . وحظي المتبني بشيء كثير منه ، لان خصومه حكوا على كثير من استعمالاته بالخطأ ، لا لشيء الا لانها تسير استعمالات القبائل

(١٢٣) الشعر والشعراء : ٥٤٠/١ .

(١٢٤) الخصائص : ٢٩٢/٢ .

(١٢٥) الموشح : ١٤٦ ط . جمعية نشر الكتب العربية .

التي ارتاب البصريون بفصاحتها ، ولم يروا ان يجارى لها كلام . وقد مر بنا
دفاع القاضي الجرجاني عن المتبي (١٢٦) .

ج - التصحيف والتحريف :

وما اخرج النقاد الى الدفاع عن المنشئين ظاهرة التصحيف والتحريف ،
التي لحقت بكثير من النصوص ، فافسدت مواضع منها . وكانت هذه الظاهرة
سببا في كثير من الاحكام الجائرة التي نزلت بالمنشئين . غير ان النقاد لم
يتركوا تلك النصوص موصومة بالخطأ أو الرداءة ، بل علوا على تنقيتها
من التصحيف والتحريف ، والعودة بها الى الصورة التي تركها اصحابها عليها ،
وهي صورة مشرقة ، لا سبيل الى القدح فيها ، أو الطعن عليها .

والامثلة على ذلك كثيرة ، وقد مر بنا بعضها في فصل (الرواية) (١٢٧) ،
ومنها قول الشاعر :

زوجك يا ذات الثايا المرَّ الربلات والجين الحزَّ

الذي : « يرويه المصحفون والاخذون عن الدفاتر (الربلات) ، وما
الربلات من الثايا والجين ؟ وهي أصول الفخذين . يقال : رجل أربل اذا
كان عظيم الربلتين اي عظيم الفخذين . وانما هي الربلات بالياء ، يقال : ثمر
وتل اذا كان مفلجا » (١٢٨) . ولو ان البيت ترك مصححاً ، لشاهد الحقيقة
الادبية ، وللحق المشيء ، حيف ورمي بخطأ لم تكن له يد فيه .

ومن الامثلة على التحريف قول الحريري : « ولم يسع في كلام بليغ
ولا شعر فصيح تعدية (عيرته) بالياء ، فاما من روى بيت المقنع الكندي :

يعيرني بالدين قومي وانما تدينت في اشياء تكسبهم حدا

(١٢٦) تنظر ص ١٠٨ ، ١١٩ من هذه الرسالة .

(١٢٧) تنظر ص ٣٥ من هذه الرسالة .

(١٢٨) الشعر والشعراء : ٨٢/١ .

فهر تحريف من الراوي في الرواية الصحيحة : يما تبني في الدين
 قومي « (١٢٩) .

د - جهل بعض النقاد بمراد الشاعر :

وقد يجهل الناقد أحيانا ما قصد اليه الشاعر ، فيحكم عليه بالخطأ ،
 ويرميه بمخالفة اللغة ، فيكون حكمه جائرا ، وتكون بالشاعر حاجة أني من
 يتصف له ، ويدفع الظلم عنه ، وقد يتولى الشاعر نفسه الدفاع عن استعماله ،
 وياضاح ما رمى اليه ، وقد يتصدى لذلك ناقد آخر ، يكون ابصر بمرامي
 الشعر ، واعرف بدلائل الالفاظ . فحين سمع ابن ابي اسحاق قول الفرزدق :

وعينان قال الله كونا فكاتنا فعولان بالالباب ما تعمل الخمر

قال للفرزدق : « ما كان عليك لو قلت : فعولين . فقال الفرزدق :
 لو شئت ان تسبح لبحت ونفض فلم يعرف أحد في المجلس ما أراد بقوله :
 لو شئت ان تسبح لبحت ، أي لو نسب لأخبر ان الله خلقهما ، وأمرهما
 ان تعمل ذلك ، وانما اراد انهما تعملان بالالباب ما تعمل الخمر . قال ابو الفتح :
 (كان) هنا تامة ، غير محتاجة الى الخبر ، فكأنه قال : وعينان قال الله احدنا
 فحدثنا ، او اخرجنا الى الوجود فخرجنا » (١٣٠) . وقال ابو تمام :

مها الوحش الا ان هاتا أوانس قنا الخط الا ان تلك ذوابل

فجهل الامدي مراد ابي تمام . وزعم انه : « نهي عن النساء لين
 القدود » (١٣١) . وما جعل الامدي يسيء فهم قول الشاعر اعتقاده ان الرماح
 سميت ذوابل لئنها وتثنيها . وقد رد بعض النقاد على الامدي ، وانصنوا ابا
 تمام منه . قال ابن رشيق - فيما نقله عن شيخه عبدالكريم - : « اما ابو تمام
 فقوله الصواب ، لانهم يقولون : رمح ذابل ، اذا كان شديد الكموب صلبا ،
 وهو الذي تعرف العرب ، ومنه قوله ذبلت شفتاه اذا يبتا من الكرب ،

(١٢٩) درة الفواص : ٧٧ .

(١٣٠) الخصائص : ٣٠٢/٢ .

(١٣١) تحرير التحبير : ٣٦٩ .

والعطش او نحوها» (١٣٢) . وقال ابن ابي الاصبغ : « وقد غلط الامدي في تفليط ابي تام في هذا البيت ، حيث زعم انه نفى عن الساء لين التقدود ، معتقدا ان الرماح سبت ذوابل للينها ، والمعروف عند أهل اللسان ضد ذلك ، لان العرب تقول : رمح ذابل اذا كان صلب الكعوب ، ومن ذلك قولهم : ذبلت شفتاه اذا يبسا ، ولا تعرف العرب الذابل الا اليايس الذي جفت رطوبته ، ومن ذلك قولهم : نواره ذابله اذا جف ماؤها واخذت في اليايس . و ابو تام لا يشك احد انه ابصر من الامدي باللغة ، واقهر منه بعرقة اللسان العربي » (١٣٣) .

وقال المتبي :

كانك ناظر في كل قلب فما يخفى عليك محل غاش

ومعنى البيت ان المدوح ذكي ، يعرف قلوب الناس ، ولا يخفى عليه شأن من يقصده ويعشاه . ولكن الصاحب بن عباد اساء فهم كلمة (غاش) وظننها من (الغش) فقال : « ومن مجازاته التي خلقها متناوتا ، تخفيفه (الغاش) ، وهذا ما لا أعلم سامعا باسم الادب يسوغه ، او ينسج فيه ، ويجوزه ... فان جاز هذا جاز ان يقال : عباس بن عبدالمطلب ، وشاخ ابن خرار ، فلا تشدد الميم ولا الباء . على ان ما آورده اشع من هذا الذي مثنا به ، اذ كان لفظ فاعل بني على فاعل مشددا » (١٣٤) .

وقد دافع ابن فورجة عن المتبي ، ورد على الصاحب بن عباد ، موضحا الوم الذي وقع فيه ، فقال معلقا على بيت المتبي السابق : « هذا البيت فضح الصاحب ابو التاسم به نفسه ، في رسالته التي ذم بها ابا الطيب » (١٣٥) . ثم اورد قول ابن عباد السابق وقال : « هذا كلامه : فاذا لم يفهم الكلام اعترض عليه بما يفضح . وكأنه تصور انه يريد (غاشا) من الغش ، ولم يرد

(١٣٢) العمدة : ٢٤٧/٢ .

(١٣٣) تحرير التحبير : ٣٦٩ ، ٣٧٠ .

(١٣٤) الكشف عن مساوي المتبي (مطبوع مع الابانة) : ٢٤٨ .

(١٣٥) الفتح على ابي الفتح : ١٦٣ .

ابو الغيب شيئا من ذلك ، وانا اراد محل من يفشاك من صنوف الناس ،
يقال : غشيته أغشاه اذا قصدته « (١٢٦) .

ه - جهل بعض النقاد بالاعراب :

وبسبب جهل بعض النقاد بالاعراب ، حكوا على بعض التراكيب بالخطأ ،
فاحتاجت احكامهم هذه الى من يبطلها . وكان ابو نواس من حكم على بعض
شعره بالخطأ ، وما كان في نظر ابن قتيبة « الا على حجة من الشعر المنتدم ،
وعلى علة بيته من علل النحو » (١٢٧) . ولكن مخطئيه جهلوا تلك العلة ،
وعر عليهم توجيه كلامه في ضوئها . وما أخذ عليه قوله :

فليت ما انت واط من الثرى لي رما

الذي دافع عنه ابن قتيبة قائلا : « اما تركه الهز في (واطىء) فحجته
فيه أن أكثر العرب ترك الهز . وان قرشا تركه وتبدل منه . واما نصبه
(رما) فعلى التمييز ، والبغداديون يسونه (التشير) : الا تراهم قال
(فليت ما انت واط من الثرى لي) فتم الكلام ، وصار جواب (ليت) في
(لي) ، ثم بين من أي وجه يكون ذلك ، فقال (رما) أي قبرا (كما تقول
في الكلام : ليت ثوبك هذا لي ، ثم تقول : ازارا ، لان جواب (ليت)
صار في قوله (لي) ، وصار الازار تمييزا » (١٢٨) .

وكان نقاد المتبني على ما ذهب اليه القاضي الجرجاني - أحد
رجلين : « اما نحوي لغوي لا بصر له بصناعة الشعر ... أو معنوي مدقق
لا علم له بالاعراب ، ولا اتعاع له في اللغة ، فهو ينكر الشيء الظاهر ، وينقم
الامر البين » (١٢٩) . ومعنى قول الجرجاني ان كثيرا من استعمال المتبني

(١٢٦) الفتح على ابي الفتح : ١٦٢ .

(١٢٧) الشعر والشعراء : ٨١٨/٢ .

(١٢٨) نفسه .

(١٢٩) الوساطة : ٤٢٤ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

وصت بالخطأ ، لجعل بعض نقاده يعلم النحو ، وكان ذلك ما دفع الجرجاني الى ان يدافع عن الشاعر ويثبت الصواب لكثير ما ورد من اقواله .

و - الخصومة :

وسا أحوج الى الدفاع عن بعض المنشئين ظاهرة (الخصومة) ، وما استتبع من عيب أمور لا عيب فيها ، واختلاق بعض الاستعمالات ، ودسا على المنشئين ، بقصد النيل منهم ، ورميهم بالتصور أو الخطأ .

يتضح مما تقدم ان الدفاع عن المنشئين كان لا بد منه حين يرمون باحكام لا نصيب لها من الصحة ، ولا باعث عليها الا تعجل الناقد ، او ضيق نظرته ، او جله ، او ما خالطه من هوى متسد للحكم ، او مضل عن الحق . واذا كان لا بد من ذلك الدفاع ، فقد تولاه المنصفون من النقاد اللغويين ، وقاموا به خير قيام فكان ما صنعوه من اظهر فوائد النقد اللغوي .

٨ - الكشف عن اسرار التعبير الادبي وخصوصيته :

وهذه فائدة تكاد - عند المحدثين خاصة - تفضل فوائد النقد اللغوي السابقة ، فهم عندما يتحدثون عن النقد اللغوي ، لا يرون له من فائدة ، الا البحث عن الاسرار الفنية الكامنة في لغة النص ، والتقاط ما تنبض به الالفاظ والتراكيب من قيم تسمية وشعورية .

وقد مر بنا في التمهيد (١٤٠) ان المعنيين بالنقد اللغوي من المحدثين ، والقائلين بتقديسه على سائر فنون النقد ، والوانه المختلفة ، لم يحصلهم على ذلك ، الا نظرتهم للادب على انه (فن لغوي) ، وان اللغة هي المادة الاولية له ، ولذا لا محيد لمن يريد فهم النص الادبي ، والناذ الى ذخائره وكنوزه ، من ان يتجه الى هذه المادة الاولية ، يفحصها ، ويمكف عليها ، ويستخلص منها كل ما اودع فيها من قيم واسرار .

(١٤٠) تنظر ص ١١ وما بعدها من هذه الرسالة .

وانا تحتل اللغة هذه المنزلة من الفن الادبي ، لانها ليست فيه ، كما هي في الحديث العادي ، وسيلة اتصال وافهام ، وانما هي غاية بنفسها . يعمل الاديب على تشكيلها تشكيلا يرفمها عما جرى عليه الناس في محاوراتهم ومخاطباتهم . وبهذا التشكيل الجديد للغة ، يتفاوت الادباء ويتفاضلون ، وتتجلى مواهبهم واصالتهم .

ان الناس جميعا يشتركون في عملية التعبير عما يعتلج في قوسهم ، ولكن المشيء البليغ يفرد عن الاخرين بما يتلكه من موهبة ، أو قدرة ذهنية خاصة ، فاذا كان الناس يعبرون عن افكارهم تعبيراً مباشراً ، يرمون منه الى الافهام ، فان المشيء البليغ يعبر عن افكاره تعبيراً متسيزاً ، ينح اللغة خلاله خصوصية تجعلها تتجاوز مرتبة الافهام الى مرتبة التأثير .

وقد فطن نقادنا العرب الى اهمية الصياغة في العمل الادبي ، وجعلوها معقد اهتمام الاديب الحق ، ومجلى نبوغه واصالته . حتى لقد قال الجاحظ قولته المشهورة : « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ، والبدوي والقروي والمدني ، وانما الشأن في اقامة الوزن ، وتخفيف اللغز ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك » (١٤١) . والجاحظ في هذا النص يفصح عن أن طريقة تقديم المعاني ، لا المعاني نفسها ، هي مدار التفاوت بين نص ونص ، وأديب وأديب . وتبع الجاحظ في هذا عدد كبير من النقاد ، فالامدى يرى ان الشعر غير الفلثة ، وان المعاني الدقيقة او العميقة لا ترفع قائلها الى مرتبة الشعراء ، حتى يحسن صياغتها ، ويبيد التعبير عنها . فالمنى اللطيف الذي لا تحسن صياغته يكون : « مثل الطراز الجيد على الثوب الخلق ، او نقش العبير على خد الجارية القبيحة الوجه » (١٤٢) . وهو يرى : « ان حسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاء وحناء ورونقا حتى كأنه قد أحدث فيه غرابة لم تكن ، وزيادة

(١٤١) الحيوان : ١٣١/٢ ، ١٣٢ .

(١٤٢) الموازنة : ٤٠٢/١ .

لم تعهد « (١٤٣) . كما يرى : « ان صحة التأليف في الشعر هي اقوى دعائه » (١٤٤) ويقول : « فكل من كان اصح تأليفا كان اقوم بتلك الصناعة من اضطرب تأليفه » (١٤٥) .

وكان عبدالقاهر يرى ان الاديب كالصانع والنجار ، فكما ان الخاتم يخرج من يد هذا الصانع وهو اجمل مرأى ، واغرب صنعة من الخاتم الذي يخرج من يد صانع آخر ، في حين ان المادة التي توخض في يد كل منهما واحدة ، فكذلك الاديبان يقعان على معنى واحد ، ثم يخرج المبدع منهما ذلك المعنى اخراجا فيه جمال وروعة ، ويمجز الثاني عن ذلك ، وتقعده به موهبته فلا يلحق بشأو الاول ، ولا يبلغ مبلغه في جمال التعبير ، ودقة الصياغة . وهكذا فان التفاوت بين صانع وصانع ، واديب واديب ، لم يكن في مادة العمل ، وهي الخشب او المعدن او المعاني ، وانا في اخراج هذه المادة ، واطلوب صوغها وتشكيلها . يقول عبدالقاهر في ذلك : « تنظر الى قول الناس : الطبع لا يتغير ، ولست تستطيع ان تخرج الانسان عما جبل عليه ، فترى معنى غفلا عاما معروفا في كل جيل وامة ، ثم تنظر اليه في قول المتنبي :

يراد من القلب نياتكم وتأبى الطباع على الناقل

فتجده قد خرج في احسن صورة ، وتراه قد تحول جوهرة ، بعد ان كان خرزة وصار أعجب شيء ، بعد ان لم يكن شيئا ، واذ قد عرفت ذلك فان العتلاء الى هذا قصدوا حين قالوا انه يصح ان يعبر عن المعنى الواحد بلفظين ، ثم يكون احدهما فصحا ، والاخر غير فصيح ، كأنهم قالوا انه يصح ان تكون ههنا عبارتان اصل المعنى فيها واحد ، ثم يكون لاحدهما في تحسين ذلك المعنى وتزيينه واحداث خصوصية فيه ، تأثير لا يكون للاخرى » (١٤٦) .

(١٤٣) الموازنة : ٤٠٢/١ .

(١٤٤) الصورة الفنية : ٢٨٥ .

(١٤٥) الموازنة : ٤٠٥/١ .

(١٤٦) دلائل الاعجاز : ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

ولا تختلف نظرة النقاد العرب القدامى لاهمية الصياغة في العمل الادبي، عما يقرره بعض النقاد المحدثين ، الذين : « يرون ان امر المعاني في الشعر ثانوي بالنسبة الى الصياغة » (١٤٧) ، والذين لا يتطلبون من النثيء : « ان يزودنا بادة جديدة ، أو أن يعالج مشاكلنا الاجتماعية والنفسية ، تماما كما يفعل العلم » (١٤٨) وانا يتغنون منه : « اثاره احساس معين في نفس القاريء » (١٤٩) ، ولا يتحقق للاديب ذلك - في نظر هؤلاء النقاد - « عن طريق موضوع قصيدته ، بل هو يصل اليه عن طريق استخدامه لالفاظ والصور وغيرها من عناصر القصيدة استخداما معينا في اطار او شكل معين » (١٥٠) .

فالظاهرة الادبية اذن : « لغوية في جوهرها ، لا سبيل الى التأتي اليها الا من جهة اللغة ، التي تتسل فيها عبقرية الانسان » (١٥١) . ومعنى ذلك ان النقد اللغوي ، دون سواه من فنون النقد الاخرى ، هو الذي يستطيع ان يتغلغل الى اسرار العمل الادبي ، وينفض بهمة الكشف عما في لفته من (خصوصية) ، أو عما يعوزها ، ويقعد بها عن أن تسو بالنص الى مراتب الاعمال الفذة الخالدة .

ولكي يحدث النثيء البليغ في اللغة (خصوصية) معينة ، تجعلها تتجاوز مرتبة الافهام الى مرتبة التأثير ، يتوسل بوسائل مختلفة كالتوكيد والتقديم والتأخير والتعريف والتكثير والوصل والفصل ، والحذف والذكر ، والمدول عن لفظ الى لفظ ، وما الى ذلك من وسائل يعمد اليها البليغ لجعل اللغة في العمل الادبي قادرة على اثاره المتلقي وامتاحه .

(١٤٧) النقد المنهجي عند العرب : ١١٧ .

(١٤٨) النقد والنقد الادبي : ٣٥ .

(١٤٩) نفسه : ٣٧ .

(١٥٠) نفسه : ٤٠ .

(١٥١) التركيب اللغوي للادب : المقدمة : هـ .

وإذا كانت (الخصوصية) في اللغة هي مناط الجمال في العمل الأدبي ، فإن من أهم فوائد النقد اللغوي ، استكشاف تلك (الخصوصية) وبيان نوعها . وبغير هذا الاستكشاف يظل العمل الأدبي منطويا على أسراره ، فلا يستطيع المتلقي فتح مناقته ، والوقوف على شيء من دقائقه ولطائفه .

وقد بذل النقاد العرب في هذا الشأن جهودا محسودة ، وعنوا بلغة الأدب عناية كبيرة ، حتى كان أغلب ما صدر عنهم من نقد ، يهدف الى استكشاف خصائص هذه اللغة ، ويرمي الى تشخيص عللها ، ثم تخليصها من تلك العلل .

ولم يكن أكثرهم يرون الجمال الا في الشكل والصيغة ، ولم يجدوا في العمل الأدبي ما هو أحق بالعناية والابراز من جمال الفاظه ، وتناغم تراكيبه ، ودقة اختيار مفرداته ، فاهتموا بهذا الجمال الظاهري ، وراحوا يكشفون عن عناصره ومواطنه ، وقلة منهم هم : « الذين كلفوا أنفسهم البحث والتفتيش عما وراء الاشكال الظاهرة » (١٥٢) .

فن فوائد النقد اللغوي دراسة الشكل دراسة مستفيضة ، وتحليل ظواهره المختلفة ، وبيان ما يستجد ويتقبح من تلك الظواهر . فبفضل (النقد اللغوي) درست لغة الأدب ، ووصلت اليها ثروة كبيرة من الآراء التي دارت حولها ، في المجالين النظري والتطبيقي .

ففي المجال النظري درس النقاد حروف الكلمات وما لها من خصائص وما يتألف منها وما يتنافر ، كما درسوا الكلمات ووضعوا قواعد يرجع اليها لمعرفة الفصح الجيد ، والردىء المستهجن ، ثم درسوا التراكيب ، ووضعوا المقاييس التي تميز بها التركيب الجيد من الرديء . وقد اوضحنا ذلك في الفصل الثاني من الباب السابق .

وفي المجال التطبيقي ابدى النقاد مهارة فائقة في تحليل لغة طائفة كبيرة من النصوص ، واستجلوا ما كمن في مفرداتها وتراكيبها من لطائف وأسرار .

(١٥٢) الاسس الجمالية في النقد العربي ١٧١ .

ولابد من الاشارة هنا الى ان الباحثين في الاعجاز وضعوا ايديهم على كثير من اسرار اللفظ القرآني ، والعبارة القرآنية . ولعلمهم في هذا المجال ناقوا النقاد جميعا ، واطهروا من القطننة والنفاذ الى دقائق البيان ما لم يظهره سواهم ممن عالجوا النصوص ، وندبوا شوسهم لاستكشاف الاسرار الكامنة في مفرداتها وتراكيبها . ولا شك في أن اكتشاف اللفظ القرآني والعبارة القرآنية بالدقائق واللطائف ، هو الذي ألهم الباحثين في الاعجاز ما ألهمهم ، وقادهم الى ما توصلوا اليه من نتائج جيدة في الكشف عن خصائص اللفظ ، وسات العبارة .

والامثلة على ما تكشف عنه النقد اللغوي من نتائج باهرة في مجال تحليل لغة النصوص عامة ، والنص القرآني خاصة ، كثيرة ، حفلت بها كتب الاعجاز والنقد الادبي ، وهي نتائج ، كما قدمنا ، تشهد باهمية هذا الضرب من النقد ، وتقوم دليلا على ان مناهج النقد الاخرى ، لا تعني عنه ، ولا تسد مسده في هذا الشأن ، لانها لا تولي اداة الادب الاولي ، ومادته الخام ، وهي اللغة ، ما تستحقه من عناية ، ولا تحاول استكشاف دقائقها وخصائصها ، فتبقى تلك الخصائص محجوبة مطلوية .

ولابد لنا ازاء كثرة الامثلة من الاجتزاء ببعضها . فقد يكون الجمال في المفردات ، كما قلنا ، راجعا الى تنكيرها او تعريفها ، او حذفها او ذكرها او اضمارها او اظهارها ، أو تكرارها ، أو ايجائها ، او ملاءمتها للمعنى المراد التعبير عنه ، أو لما يجاورها من الفاظ ، او الى غير ذلك من الامور التي لا يدركها الا البصير بأسرار الكلام البليغ .

ومن الامثلة على (التكرير) الذي يكب المفردة جمالا لا يكون في تعريفها قوله تعالى (وتعيها اذن واعية) . قال الزمخشري : « فان قلت لم قيل اذن واعية على التوحيد والتكثير ؟ قلت : للايدان بان الوعاة فيهم قلة ، ولتوييح الناس بقله من يعي منهم ، وللدلالة على ان الاذن الواحدة اذا

وعت وعقلت عن الله نبي السواد الاعظم عند الله ، وان ما سواها لا يبالي بهم ، وان ملأوا ما بين الخافقين « (١٥٣) .

ويكون للحذف سر جمالي يكشف عنه عبدالقاهر فيقول : « هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ ، عجيب الامر ، شبيه بالسر ، فأنتك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الافادة ازيد للافادة ، ونجدك انطلق ما تكون اذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا اذا لم تبين » (١٥٤) . ثم يورد طائفة من الايات حذف منها قائلوها بعض المفردات ، فراقت وحسنت بسبب ذلك الحذف . من ذلك قول بكر بن النطاح في جارية كان يحبها ، ثم سمي به الى اهليها ، فسموها منه :

غضبي ولا والله يا أهليها لا أطعم البارد او ترضى

قال عبدالقاهر معلقا على هذا البيت : « التقدير : (هي غضبي) أو (غضبي هي) لا محالة . الا انك ترى النفس كيف تتفادى من اظهار هذا المحذوف ، وكيف تأنس الى اضرارها ، وترى الملاحظة كيف تذهب ان انت رمت التكلم به » (١٥٥) .

ولاضرار المفردة سر جمالي في الاية (قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبه باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين) . قال الزمخشري : « الضير في (نزله) للقرآن ، ونحو هذا الاضرار ، اعني اضرار ما لم يسبق ذكره ، فغامة لسان صاحبه ، حيث يجعل لفرد شعرتة ، كأنه يدل على نفسه ، ويكتفى عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته » (١٥٦) .

ويكون لاعادة الكلمة احيانا جمال لا يتأني اذا حذفها المنشي ، أو اضرها . وقد فطن الى هذا الصاحب بن عباد فقال « كان الاستاذ ابو الفتح

(١٥٣) الكشاف : ٦٠٠/٤ .

(١٥٤) دلائل الاعجاز : ١١١ .

(١٥٥) نفسه : ١١٧ .

(١٥٦) الكشاف : ١٦٩/١ .

يختار من شعر ابن الرومي وينقط عليه ، قال : فدفع الى القصيدة التي اولها ،
(أتحت ظلوعي جرة تترقد) ، وقال : تأملها ، فتأملتها ، فكان قد ترك
خير بيت فيها ، وهو :

بجبل كجبل اليف واليف منتضى وحلم كحلم السيف واليد مفند
فقلت : لم ترك الاستاذ هذا البيت ، فقال : لعل العلم تجاوزه ، قال :
ثم رأني من بعد فاعتذر بعذر كان شرا من تركه ، قال : انما تركته لانه اعاد
اليف أربع مرات . قال صاحب : لو لم يعمده أربع مرات فقال : بجبل
كجبل اليف وهو منتضى ، وحلم كحلم السيف وهو مفند ، لفسد
البيت « (١٥٧) .

وذهب عبدالقاهر الى مثل هذا الرأي ، واحتج له بشواهد رفيعة من
القرآن الكريم ، ومن الشعر ، من ذلك قوله تعالى : (وبالحق انزلناه وبالحق
نزل) وقوله : (قل هو الله أحد ، الله الصمد) وقول النابغة :

نفس عصام سودت عماما وعلته الكر والاقداما

وقد علق عبدالقاهر على هذا البيت بقوله : « لا يخفى على من له ذوق
حسن هذا الانتيار ، وان له موقفا في النفس وباعثا للاريجية لا يكون اذا قيل :
(نفس عصام سودته) شيء منه البتة » (١٥٨) .

وما عني به النقاد اللغويون استيحاء الاناظ ، واستشفاقها ، واستبطا
ما اراده المشيء منها . وهذا الاتجاه في النقد ما يتفاوت فيه النقاد ، لان
مردّه الى هبات في النفس يرزقها فرد ، ويحرم منها آخر : فكلية (المطير)
التي جاءت في بيت المنخل ، وهو من ابيات الحناسة :

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في اليوم المطير

(١٥٧) دلائل الاعجاز : ٢٩٥ ط مطبعة الفتوح الادبية بمصر .

(١٥٨) نفسه : ٢٩٧ .

لم يرد بها الشاعر معناها الظاهر ، المتبادر منها الى الذهن ، وهو اليوم الذي ينزل فيه المطر ، وقد خاب وخسر - في رأي ابن الاثير - من يفهم منها هذا المعنى وحده ، وذلك لان الشاعر - في رأي ابن الاثير - : « قد وصف نفسه بالشجاعة وقوة الجنان » (١٥٩) وأراد : « انه دخل على هذه المرأة وزوجها شاهد أي حاضر في البيت ، ولم تمنعه المراقبة ولا الخوف من دخوله عليها . الا ترى ان العادة في الاكثر والاغلب انه اذا جاء المطر ، يتمتع المسافر من السفر ، والزائر عن الزيارة ، وصاحب الشغل عن السعي في شغله . وقد يسافر عند مجيء المطر ويزار ويسعى في الشغل ، لكن يقع ذلك نادرا ، والحكم انما يكون على الاكثر والاغلب . فالمنخل يريد بقوله (في اليوم المطير) انه دخل على هذه المرأة وزوجها حاضر في البيت ، ولم يرد انه دخل برأى منه ، بل دخله وهو حاضر فيه ، ولم يصده عن ذلك خوف ولا مراقبة » (١٦٠) .

لقد استوحى ابن الاثير من كلمة (المطير) ما اراده الشاعر بها ، وعجز عن هذا الاستيعاء غيره . وقد يكون ابن الاثير مصيبا في استيحائه ، وقد يكون غير مصيب ، ولكن المهم أنه لم يقف عند المعنى الظاهر للفظلة ، بل حاول ان يرهف سمعه ، ويلتقط ما يتجاوب فيها من اصداء تسمية وشعورية وهنا تكمن قيمة النقد اللغوي . وكلما غمضت مواضع من لغة النص ، أو دقت مراميها ، ولطفت اسرارها ، تجلت لنا اهمية (النقد اللغوي) : لانه سيجلو الغامض ، وينير المعتم ، وبغير ذلك الجلاء وهذه الانارة ، يتعطل النص ، ولا يحدث الاثر المطلوب في قارئه .

وقد تتقارب بعض المفردات في المدلول ، ويجمع بينها معنى عام ، الا ان لكل منها معنى خاصا يختلف عن الكلمة الاخرى ، فيظن لهذا المعنى الخاص ناقد ، ويفضل عنه ناقد آخر ، ولا شك في أن ابراز المعنى الدقيق

(١٥٩) ، (١٦٠) الاستدراك : ٢٢ وما بعدها .

للنفردة ، يرفع من قيمة النص ، ويزيد من استتاع القارئ به ، فالبحتري حين قال :

فجدل ومرمّل وموسد ومضرج ومضخ ومخضب

عابه بعض النقاد فقال : « مضرج ومضخ ومخضب بمعنى واحد » (١٦١) ثم قال : « لو اراد رجلا واحدا انه مضرج ومضخ ومخضب جاز لان كل لفظة تكون مؤكدة للاخرى ، ولكنه اراد فنبهم مضرج ومنهم مضخ ومخضب كما قسم في صدر البيت » (١٦٢) . اما الامدي فقد رد على هذا الناقد ، وأوضح ان هذه الالفاظ ليست مترادفة ، وان كان يجمع بينها معنى عام مشترك ، وان التقسيم الذي اراده البحتري صحيح . قال الامدي : « المضرج من التضريج وهي الحرة المشرقة التي ليست بقافية ، والمضخ يريد به غلظ الدم ، وانه قد صار في مائة الطيب الذي يتضخ به . والمخضب اراد ان الدم قد خضب كما يخضب بالحناء ففي كل لفظة ما ليس في الاخرى ، وان كانت الحرة قد شلت الجميع ، لان المضرج يجوز ان يكون اراد به طراوة الدم ، أي منهم حديث عهد بالقتل ، والمضخ من قد خثر عليه الدم ، كان قتله قد تقدم قبل قتل الاخر ، والمخضب يجوز ان يكون مضى لقتله يوم وأكثر ، فقد اسود عليه الدم ، وهذه معان كلها محتمل . وقد يجوز ان يريد بقوله (مضرج) سائر جسده ، وبالمضخ ان السيف اخذ عوارضه وتحت لحيته ، وذلك موضع من مواضع التضخ بالطيب ، و اراد بالمخضب ان السيف اخذ في رأسه وفي يديه ورجليه وذلك مواضع الخضاب . وقد يكون المضرج المقطع ، يقال : ضرجه اذا قطعه . وهذه معان لطيفة ويجوز ان يعتد بها ، والوجه القوي هو الاول » (١٦٣) .

(١٦١) الموازنة : ٢٧٩/١ .

(١٦٢) نفسه .

(١٦٣) الموازنة : ٢٧٩/١ ، ٢٨٠ .

وهكذا استطاع الامدي ، بفضل حسه اللغوي الدقيق ، ان يتشف من كل كلمة من الكلمات التي بدت لغيره مترادفة معنى يختلف عن معنى الاخرى . ولو ان الامدي لم يتعمق لغة البيت ، لفلت كلمات الشطر الثاني تلوح مترادفة ، ولظل الجع بينها يبدو ضربا من الهذر والتطويل .

ومن الامثلة على ابراز الفروق الدقيقة بين المفردات المتقاربة المعاني ، قول الزمخشري معلقا على الاية : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) : « فان قلت لم خص الخير بالكسب والشر بالاكْتساب ؟ قلت : في الاكْتساب اعتال ، فلما كان الشر مما تشتهي النفس ، وهي منجذبة اليه ، وأما رة به ، كانت في تحصيله أعمل وأجد ، فجعلت لذلك مكتبة فيه ، ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بسالا دلالة فيه على الاعتال » (١٦٤) .

ومما عني التقاد اللغويون بالكشف عنه من أوجه الجبال في المفردات ما يكون من تلاؤم وانسجام بين اللفظ والمعنى العام المراد بياته ، او التعبير عنه ، أو بين اللفظ وما يجاوره من الفاظ .

فمن الامثلة على النوع الاول قوله تعالى : (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) فقد : « عدل سبحانه عن الطين الذي اخبر في كثير من مواضع الكتاب العزيز انه خلق آدم منه ، منها قوله تعالى : (اني خالق بشرا من طين) ، وقوله سبحانه حكاية عن ابليس : (خلقتني من نار وخلقته من طين) ، فعدل عز وجل ، وهو أعلم ، عن ذكر الطين الذي هو مجسوع التراب والماء الى ذكر مجرد التراب لانه ادنى العنصرين ، واكثفهما ، لما كان المقصود مقابلة من ادعى في المسيح الالهية بما يصغر امر خلقه ، عند من ادعى ذلك ، فلهدا كان الاتيان بلفظة التراب امتن بالمعنى من غيرها من العناصر ، ولو كان موضعه غيره لكان اللفظ غير مؤلف بالمعنى المقصود » (١٦٥) . وقوله تعالى : (ولا تركنوا الى الذين ظللوا فتسكم النار) الذي علق عليه ابن ابي الاصبع

(١٦٤) الكشاف : ٢٢٢/١ .

(١٦٥) تحرير التحبير : ١٩٤ .

قائلا : « فانه سبحانه لما نهى عن الركون للظالمين وهو الميل اليهم والاعتماد عليهم ، كان ذلك دون مشاركتهم في الظلم أخير ان العقاب على ذلك دون العقاب على الظلم وهو مس النار دون الاحراق والاصطلاء » (١٦٦) .

ومثال اللفظ الملائم لما يجاوره قوله تعالى : « كلما اضاء لهم مشوا فيه واذا اظلم عليهم قاموا) الذي علق عليه الزمخشري بقوله : « فان قلت : كيف قيل مع الاضاءة (كلما) ومع الانطلام (اذا) ؟ قلت : لانهم حراس على وجود ما هم به معقود من امكان المشي وتأتيه ، فكلمنا صادفوا منه فرصة اتتهزوها ، وليس كذلك التوقف والتجسس » (١٦٧) .

وقوله تعالى (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين) قال الزمخشري : « فان قلت لم قرن الناس بالحجارة ، وجعلت الحجارة معهم وقودا . قلت : لانهم قرنوا بها أثمهم في الدنيا حيث نحتوها اصناما ، وجعلوها لله اندادا او عبودها من دونه » (١٦٨) .

وكما جهد النقاد اللغويون في استجلاء الاسرار الجالية الكامنة في المفردات ، فكذلك فعلوا في التراكيب فأبانوا عما فيها من دقائق ولطائف ، وليبان ذلك نجتري ، ببعض الامثلة .

قال تعالى : (وجعلوا لله شركاء الجن) ، فملق عبدالقاهر الجرجاني على هذه الآية ، ويين ما في تركيبها من (خصوصية) أكسبه فضلا ، وأوجبت له مزية ، وما هذه الخصوصية الا تقديم كلمة (شركاء) ، فلو تأخرت هذه الكلمة عن موضعها ، لفقد التركيب جماله وعري من المزية التي وجبت له . قال : « ليس بخاف ان لتقديم (الشركاء) حسنا وروعة ، ومأخذا من القلوب ، انت لا تجد شيئا منه ان انت أخرت قلت : وجعلوا الجن شركاء

(١٦٦) تحرير التحرير : ١٩٦ .

(١٦٧) الكشاف : ٨٦/١ .

(١٦٨) نفسه : ١٠٢/١ .

الله ، وانت ترى حالك حال من نقل عن الصورة المبهجة ، والنظر الرائق ، والحن الباهر ، الى الشيء الغفل الذي لا تعلى منه بكثير طائل ، ولا تصير النفس به الى حاصل ، والسبب في ان كان ذلك كذلك ، هو ان للتقديم فائدة شريفة ، ومعنى جليلا ، لا سيل اليه مع التأخير ، بيانه أنا وان كنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء ، وعبدوهم مع الله تعالى ، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم ، فان تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى ، ويفيد معه معنى آخر وهو انه ما كان ينبغي ان يكون لله شريك لا من الجن ولا من غير الجن ، واذا تأخر فليل : جعلوا الجن شركاء لله ، ثم يفيد ذلك ، ولم يكن فيه شيء اكثر من الاخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى ، فاما انكار ان يعبد مع الله غيره ، وان يكون له شريك من الجن وغير الجن فلا يكون في اللفظ مع تأخير الشركاء دليل عليه (١٦٩) .

ومعنى ما ذكره الجرجاني ان تقديم (شركاء) جعل معنى العبارة يتسع ، ولو تأخرت لضاقت معناها ، ولم يحصل له من الزيادة ما حصل له في حال تقديمها ، فلو قيل (جعلوا الجن شركاء لله) لم تفهم من العبارة اكثر من انهم عبدوا الجن مع الله ، على حين اننا فهمنا من الآية هذا ، وفهمنا أمرا آخر ، وهو انكار ان يكون لله شريك ، من الجن او غيره . ثم قال الجرجاني : « فانظر الان الى شرف ما حصل من المعنى بان قدم الشركاء ، واعتبره فانه ينهك لكثير من الامور ، ويدلك على عظم شأن النظم ، وتعلم به كيف يكون الايجاز به وما صورته ، وكيف يزداد في المعنى من غير ان يزداد في اللفظ ، اذ قد ترى ان ليس الا تقديم وتأخير وانه قد حصل لك بذلك من زيادة المعنى ما ان حاولته مع تركه لم يحصل لك ، واحتجت الى ان تتأفف له كلاما : نحو ان تقول : وجعلوا الجن شركاء لله وما ينبغي ان يكون لله شريك لا من الجن ولا من غيرهم ، ثم لا يكون له اذا عقل من كلامين من الشرف والنخامة ومن كرم الموقع في النفس ما تجده له الان وقد عقل من هذا الكلام الواحد (١٧٠) » .

(١٦٩) دلائل الاعجاز : ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(١٧٠) نفسه : ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

وقال ابن المعتز :

واني على اشفاق عيني من العدى لتجح مني نظرة ثم أطرق

فما عبد القاهر ما في هذا البيت من جمال الى تنسيق الشاعر للكلمات هذا التنسيق ، وتعليق بعضها ببعض على هذا النحو دون غيره ، قال : « فترى ان هذه الطلاوة وهذا الطرف انما هو لان جعل النظر يجح ، وليس هو لذلك ، بل لان قال في اول البيت (واني) حتى دخل اللام في قوله (نتجح) ثم قوله (مني) ، ثم لان قال (نظرة) ولم يقل (النظر) مثلا ، ثم لمكان (ثم) في قوله ثم أطرق ، وللطيفة اخرى نصرت هذه اللطائف ، وهي اعتراضه بين اسم ان وخبرها بقوله (على اشفاق عيني من العدى) (١٧١) » .

وفي قوله تعالى (واشتعل الرأس شيبا) خصوصية ، أثارها عبد القاهر ، ونبه عليها ، وهذه الخصوصية هي اسناد الاشتعال الى الرأس دون الشيب ، فلو قيل (اشتعل الشيب في الرأس) أو (اشتعل شيب الرأس) لما وجدنا للكلام من الحسن والمزية ما نجده له وهو على صورته الاولى ، والسبب في ذلك ان الكلام في صورته الاولى « يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى ، الشمول وأنه قد شاع فيه ، وأخذه من نواحيه ، وأنه قد استقر به وعم جلته حتى لم يبق من السواد شيء أو لم يبق منه الا مالا يتد به ، وهذا ما لا يكون اذا قيل اشتعل شيب الرأس ، أو الشيب في الرأس ، بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة ، ووزان هذا انك تقول : اشتعل البيت نارا فيكون المعنى ان النار قد وقعت فيه وقوع الشمول ، وانها قد استولت عليه ، وأخذت في طرفيه ووسطه ، وتقول اشتعلت النار في البيت فلا يفيد ذلك ، بل لا يقتضي أكثر من وقوعها فيه ، واصابتها جانبا منه ، فاما الشمول ، وان تكون قد استولت على البيت وابتزته فلا يعقل من اللفظ البتة (١٧٢) » .

(١٧١) دلائل الإعجاز : ٧٨ .

(١٧٢) نغمة : ٨٠ .

يتضح مما سبق ان للتعبير الادبي اسراراً منها ما يرجع الى المفردات ، ومنها ما يعود الى التراكيب ، او ما بين الالفاظ من علاقات ، وان من مهمة الناقد اللغوي ان يستكشف تلك الاسرار ، ويعمل على فتح مغالقتها ، ليصل التعبير الى ما ينشده مبدعه من تأثير وامتع . وبغير هذا الاستكشاف يبقى التعبير مغلقة ، لا يصل منه الى المتلقي شيء ، ذو بال . بمعنى ان من اكبر فوائد النقد اللغوي اثارة مواطن الحس في التعبير الادبي ، ليؤدي الغرض منه ، وهو الاثارة والامتع . وقد رأينا في الامثلة التي اوردناها كيف ان الناقد اللغوي كان يضع ايدينا على ما في العبارة الادبية من ميزات ، فيزداد اعجابنا بها ، ويتضاعف ما نجده لها من تأثير في قوسنا .

فاذا كان المنشىء بعقله الخالق يستخدم اللغة استخداماً خاصاً ، ويستخرج منها كل امكاناتها ، فان الناقد اللغوي كان يجلو سمات ذلك الاستخدام اللغوي الخاص ، ويجعل المتلقي احسن فهماً له ، واشد انبساطاً به .

الفصل الثاني عيوب النقد اللغوي

حاولنا في الفصل الماضي ان نتلّس ما كان للنقد اللغوي من أثر محمود في اللغة والادب ، وقد اتضح لنا ان هذا الضرب من النقد أسفر عن مجموعة كبيرة من الفوائد خدمت اللغة والادب ، غير ان الذي يدرس ما ضفته كتب النقد من قيم وأحكام ، لا يصعب عليه ان يتبين ان هناك نظرات ومواقف ، من شأنها ان تضر باللغة ، وتسيء الى الادب . وسنحاول في هذا الفصل ان نعرض لتلك المواقف والنظرات ، ونوضح ما فيها من مفاجاة للحق ، وعدول عن الصواب (١) .

اولا - التزمت والجمود :

اشد قسم من النقاد في المحافظة على اللغة ، وغلوا في ذلك غلوا كبيرا ، ورأوا ان حياية اللغة لا تتم الا بشيوت صينها ومفرداتها عند الحدود التي رسمها عرب الجاهلية ، وعرب الحقبة المبكرة من العصور الاسلامية ، وهي الحقبة التي اتهمت بالنصف الاول من القرن الثاني .

ونظير في كل عصر من اراد ان يحمي اللغة ، فرأى ان الطريق الى ذلك هو اقامة سياج كثيف ، يصد عنها كل جديد ، حتى ان الناظرين : « في تاريخ اللغة لا يصعب عليهم ادراك اللحظات التي كادت اللغة تختق فيها بسبب الجود الذي أرادته القائلون عليها (٢) » .

(١) لابد من الاشارة هنا الى اننا قد اوردنا في مواضع متعددة من هذه الرسالة شيئا من هذه العيوب كالاختلاق والتعجل في الحكم والحدة ، ولهذا نمسك هنا عن اعادتها خوف التكرار .

(٢) اللغة والحضارة : { .

وقد فات هؤلاء النقاد ان اللغة يجب ان « تقع على الجادة الوسطى بين الجسود المانع من الحركة والتجديد والحياة النامية ، والتوضي او الاباحية اللغوية الثالثة لخصائص اللغة والمشوهة لها (٢) » .

لم يصدر النقاد المترمتون في موقتهم من اللغة عن : « فقه صحيح للعربية ، ولا فهم واع لحياتها ، وقواعد نحوها (٣) » ، فأخذوا بتلايت النشئين ، ووقفوا لهم بالمرصاد ، يحصون عليهم أفساسهم ، ويحاولون ان يخنقوا كل نامة تجديد ، او حركة تغيير ، تحدث بين الحين والحين على سطح اللغة الراكد ، فتحركة وتنث في الحياة .

وهكذا تحولت الحياية التي هدف اليها قسم من النقاد ، الى قيد مدمر ، كاد يتعمد باللغة ، ويودي با فيها من حيوية ومرونة ، وقدرة على مايرة الحياة والاستجابة لتطلبات التطور الفكري والحضاري .

الا ان الذي حال بين النقاد المترمتين وما أرادوه من جسود اللغة ، وصد مقومات الحياة عنها ، ما ظهر من مفاهيم نقدية ولغوية مضادة ، عملت على اغناء اللغة ، والذود عما يحدث فيها من جديد ينسجم مع روحها ، وينساق مع فطرتها وخصائصها . وكنا قد عرضنا لهذه المفاهيم في الفصل الماضي ، الذي عقدناه لاهية النقد اللغوي وفوائده .

اما النظرات والمواقف النقدية التي اتسمت بالتزمت والجسود ، فتشل فيما يلي :

١ - الاحتكام الى القديم والتقييد بالعرف اللغوي :

ولا نريد هنا ان ننض من مبدأ الاحتكام الى القديم في النقد ، ذلك لان وعي الناقد بالتقاليد الادبية التي سبقته وعاصرته ، أمر محمود ، ومبدأ ضروري ، يعين الناقد على تقويم الجديد ، وميز عناصره . غير ان الذي يخشى

(٢) خصائص العربية : ٦٧ .

(٣) نفسه .

منه هو ان يسرف الناقد في تطبيق هذا المبدأ ، الى الحد الذي : « يحول بين الفنان وبين التطور الذي ينشده» (٥) .

كانت عودة بعض النقاد الى القديم ، واستشارتهم اياه في أمر الجديد موقفا لا مفر منه للناقد الحصيف ، ليستطيع ان يقف على ما حققه المجددون ، ويفصل فيه ، فيقبل الاصيل ، ويرفض الزائف . فالجديد لا يعرف الا بعرضه على القديم ، وموازته به . وهذا مبدأ سليم . ولكن الذي تورط فيه النقاد المحافظون ، هو انهم لم يرجعوا الى القديم ، لتعرف العناصر الجديدة ، وتقدير قيمتها ، بل رجعوا اليه ليتخذوا منه مقياسا ، فيقبلوا ما وافقه ، وسار على منهجه ، ويرفضوا ما خرج عنه ، ولم يلتزم امثله او المعروف المتداول من قيه وأساليه .

ومما سوغ لهم هذا الموقف ، وصرفهم عما ينشأ عنه من ضرر باللغة والأدب ، ايمانهم بأن : « الشعر والنثر نوعان من الكلام البليغ لا شكلان متسايزان من التعبير» (٦) . وقد ذهبوا - نتيجة لذلك - الى ان دور الكائنات في الشعر لا يتسايز عن دورها في النثر ، وان طبيعة استخدامها في كلا النوعين واحدة . واذا فهموا الامر على هذا النحو ، لم ينحوا الشاعر حرية التعامل مع اللغة ، ولم يجيزوا له أن يتعدى أطرها الثابتة ، أو يحطم نسقها المتعارف عليه . وكل الذي أباحوه له هو ان يتخطى بعض القواعد اللغوية الهينة ، كان يمد المقصور ، او يقصر المدود ، او يصرف ما لا ينصرف ، او يحذف ما لا يجوز حذفه في النثر ، الى غير ذلك مما عرف بالفرائر الشعرية . على ان هذه الحرية لم تمنح له ، الا لانها منحت لاسلافه من الشعراء ، الموثوق بنقائهم اللغوي ، وهي بعد ذلك حرية مقيدة ، اذ ليس من حق الشاعر ان يلجأ الى ضرورة لم تبج للقدماء .

(٥) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٤١٦ .

(٦) الصورة الفنية : ١٤٢ .

فالضرورة الشعرية : « أشبه ما تكون بعملية قياس ، لا يسبح للشاعر المتأخر بالمضي فيه ، الا اذا استند على شواهد ومقدمات متواترة في الشعر القديم^(٧) » .

وهذا الرأي في الضرورة لم ينبع من فقه صحيح للنثر الشعري ، وما تفرضه التجربة احيانا من تصرف باللغة ، واستخدامها استخداما خاصا ، يخرج بحدود ، ولاسباب معينة ، عن المألوف الثابت من أطرها وصيغها ، وانما نبعت من نظرة شكلية للشعر ، قوامها ان قواعد الوزن والقافية فيه ، وقد تحل الشاعر على تنكب بعض القواعد ، والاخلال ببعض القوانين .

ومعنى ذلك ان المترتبن من النقاد نظروا الى الشعر نظرة بعيدة من طبيعته ، بوصفه نشاطا تخيليا من حقه ان يستخدم اللغة على الوجه الذي يتطلبه هذا الضرب من النشاط ، وحاولوا ان يفرضوا عليه نظاما لغويا صارما ، لا يسبح بأى تجديد او تغيير . وهذا يعني انهم تغافلوا عن ان اللغة في الشعر : « لغة اشغال مرنة ، بل أميز ما فيها هو هذه المرونة التي تجعلها متجددة دائما بتجديد الاشغالات . فالاشغالات الجديدة تستخدم الالفاظ دائما استخداما جديدا^(٨) » .

فالمترمتون - في نظرتهم هذه - فرضوا على الشعراء اللغة التقليدية بالفاظها وبطرائق استخدامها المعبودة ، وجعلوها الميدان الذي يجب على الشعراء ان يتحركوا خلاله ، وشددوا النكير على كل محاولة للخروج عنه ، او الافلات منه .

ومما زاد من صرامة هذه النظرة اللغوية الى الشعر ، ان جل اللغويين الذين تصدوا للحكم على الشعراء كانوا من المدرسة البصرية ، وهي مدرسة لا تحترم الا الشائع المطرد ، ولا تقيم وزنا للمحاولات اللغوية الفردية ، لانها تحاول ان تقيم للغة نظاما شاملا ، ونسقا صلبا ، لا يمكن تجاوزه ، او الخروج

(٧) الصورة الفنية : ١٤٣ .

(٨) الاسس الجمالية في النقد العربي : ٢٤٠ .

عنه . لقد سمت هذه المدرسة الى ان ترد كل النصوص المختلفة والمتبايزة الى أصل لغوي ثابت ، وان تدخلها في قالب عقلي منطقي . فما دخل من هذه النصوص في ذلك القالب طواعية ، قبلته ، وما أبى ذلك تأولته ، ورأت ان لشذوذه اسبابا عقلية . وما استعصى على التأويل رفضته ، وخطاته .

ولا شك في ان اللغة الحية : « لا تحتل مثل هذه ال (ثيلولوجيا) ، الجامدة نظرا لتشعبها واتساعها ، اذ ينبغي الالتباه الى وجود الشذوذ في الاشياء نفسها (٩) » .

وقد تجدى الطريقة البحرية : « في تيسير التعليم ، والتصنيف السهل ، ولكننا من الزاوية الثنية معيبة ، لان اللغة الشعرية - في ضوء هذا التهم - لن ينظر اليها الا من خلال امر ثابتة جامدة (١٠) » .

وما دام هذا النظام اللغوي الصارم الذي اقامته مدرسة البصرة ، قد انبنى على أساس من لغة الشعراء القدامى ، فان هذه اللغة اصبحت المعيار الاساس الذي يرجع اليه في تقويم شعر المحدثين . ومثل هذا المعيار يحول بين الناقد وبين رؤية الجديد في اللغة والصياغة ، بل ويحتجم على الناقد ان يسم بالخطأ : « كل من يخرج في اللغة على ما عرفه الاولون ، واتهوا اليه (١١) » .

وتبعاً لهذا المعيار ، أي التقييد بلغة القدامى ، او ما يسمى طريقة العرب الاوائل ، رفض المحافظون كثيرا من الصيغ والعبارات ، واخذوا على انشعراء ان يتعدوا عن الامر اللغوية المألوفة . فهذا اسحاق الموصلي يعيب أبا تمام ، ويقول له : « يا فتى ما أشد ما تتكىء على نفسك ، يعني انه لا يسلك ملك الشعراء قبله ، وانا يتقي من نفسه (١٢) » .

(٩) الصورة الغنية : ١٤٧ .

(١٠) نفسه .

(١١) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٤١٧ .

(١٢) الموشح : ٥٠٢ .

وإذا أردنا ناقدا تمثلت في نقده نظرة المحافظين الضيقة الى اللغة ، فهو الامدى . لقد هدف هذا الناقد الى تجييد اللغة ، وأراد الشعراء على السير داخل الاطر اللغوية الحاضرة ، وقد جاء حكمه المشهور : « اللغة لا يقاس عليها » دليلا على شدة محافظته . وواضح ان : « مثل هذا الحكم العام يتنافى مع الفهم الصحيح للفن ، وحركة تطوره المستمرة التي لا تنتهي عند حد ، كما انه يؤثر بالضرورة في منهج الناقد ، الذي قد يهمل في حدود هذه النظرة المحافظة الكثير من الجديد الذي قد يحققه الفنان (١٣) » ويحكم الامدى على ابي تمام بالخطأ كلما خرج عن تقاليد اللغة والادب (١٤) . من ذلك انه غاب أبا تمام لقوله (لا أنت أنت ولا الزمان زمان) ورأى في قوله (لا أنت انت) تعبيراً شعبياً ، وأنكر ان يقيسه على قول من قال من العرب القدامى : (ولا العتيق عتيق) (١٥) . « وفي هذا ما فيه من تأثير بالاحتكام الى التقليد وحده وبنظرة الى اللغة القديمة نظرة تقديس (١٦) » .

وفي نقد الامدى امثلة أخرى على ما تورط فيه من تعنت وجنود ، نتيجة لتسكه بأن (اللغة لا يقاس عليها) ، ولا ينبغي التجديد فيها . من ذلك انه نقد قول ابي تمام :

فانزع الى ذخر الشؤون وعذبه فالدمع يذهب بعض جهد الجاهد

قال الامدى : « قوله يذهب بعض جهد الجاهد اى بعض جهد الحزن الجاهد ، أي الحزن الذي جهدك ، فهو الجاهد لك . ولو كان استقام له (بعض جهد المجهود) لكان أحسن واليق ، وهذا اغرب واظرف . وقد جاء ايضا (فاعل) بمعنى (مفعول) قالوا : (عيشة راضية) بمعنى مرضية و (ملح باصر) وانا هو مبصر فيه . وأشبه لهذا كثيرة معروفة ، ولكن ليس في كل

(١٣) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٤١٧ .

(١٤) النقد المنهجي عند العرب : ١١٩ .

(١٥) نفسه : ١٢٤ .

(١٦) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٤١٧ ، ٤١٨ . وانظر : النقد المنهجي

عند العرب : ١٢٤ .

شيء يقال ، وانا ينبغي ان ينتهي في اللغة الى حيث انتهوا ، ولا يتعدى الى غيره ، فان اللغة لا تقاس عليها (١٧) » .

وليس على أبي تمام بأس اذا استعمل (جاهد) بمعنى (مجهود) ، لان لاستعماله هذا نظائر كثيرة ، كتولهم ، (عيشة راضية) بمعنى مرضية ، و (نهار صائم) اي مصوم فيه ، ولكن نظرة الامدي الضيقة الى اللغة ، هي التي دفعت الى عدم الاخذ بالقياس ثم تخطئة مالم يرد عن القدماء ، وان كان جاريا على اساليب اللغة ، وموافقا لروحها ونظامها .

اذن ، لم يكن لدى النقاد المترمين تصور ناضج لطبيعة اللغة في اشعر ، ولم يعترفوا بأن لغة الشاعر ترتبط في المقام الاول بطبيعة تجربته ، وبنوع الاشعالات التي يريد تقديمها في قصيدته ، فهو تبعاً لذلك مضطر الى أن : « يحتضن الكلمات ويتألمها ، ويعيد تشكيلها ، بل انه قد يغير من صياغتها ، ويحطم من أنسقتها ونظامها العرفي الثابت ويخلق لنفسه نظاما فريدا خاصا به (١٨) » . ومعنى ذلك ان لغة الشاعر لا ينظر اليها في ضوء عرف لغوي صارم ، وانا في ضوء تجربته الشعرية ، ومدى فاعليتها ، « وخصوصيتها وفرديتها (١٩) » .

ففي بعض الاحيان يكون السط التعبيري الذي يفرضه النحاة ، ويرتفونه ، مخالفا لما يريد الشاعر نقله او تصويره ، ومحيا للكلام اني نظم ركيك ، وعبارات مرصوفة . فالنحاة - مثلا - يجعلون الفصل بالنت بين المضاف والمضاف اليه ، ضربا من الضرائر (٢٠) ، التي يحسن بالشعراء تفاديها ، ولو ان معاوية في البيت المنسوب اليه وقى بما يرتضيه النحاة ، ولم يفعل بين المضاف والمضاف اليه بالنت ، لكان كلامه ضربا من النظم الركيك ، الذي

(١٧) الموازنة : ٢١٦/١ .

(١٨) الصورة الفنية : ١٤٥ .

(١٩) نفسه .

(٢٠) شرح ابن عقيل : ٧٠/٢ .

لا ينطوي على ما اراد تصويره ، ورغب في نقله . يقول معاوية وهو يتحدث عن نجاته ومقتل الامام علي :

نجوت وقد بل المرادي سيفه من ابن ابي شيخ الاباطح طالب

والشاهد النحوي في هذا البيت قوله (ابي شيخ الاباطح طالب) حيث فصل بين المضاف وهو (ابي) والمضاف اليه وهو (طالب) بالنعت ، وهو شيخ الاباطح ، وأصل الكلام من ابن ابي طالب شيخ الاباطح (٢١) .

ان معاوية كان عامدا الى ان يضع النعت هذا الموضع ، ليكون أسبق في قرع الذهن من الاسم ، وقد احسن مصطفى مندور حين قال معقبا على قول معاوية : « محور البيت هو - شيخ الاباطح - وما دون ذلك فقريب من وصف العبارات ، وقد جف ماؤها (٢٢) » .

ومعنى ذلك ان تقديم النعت في بيت معاوية ، ووضعه في غير الموضع الذي يرضيه النحاة ، لم يكن من قبيل الضرورة الشكلية المرتبطة بالوزن ، وانما هو من قبيل الضرورة الملحة النابعة من طبيعة المعنى المراد تقديمه .

ومن الشواهد التي حكم عليها النقاد بالخطأ ، لا نهم نظروا اليها في ضوء العرف اللغوي ، ولم ينظروا اليها في ضوء تجربة الشاعر ، او المعنى الذي يرمي اليه ، قول ابي النجم :

قد اصبحت أم الخيار تدعي عليّ ذنبا كله لم أصنع

الذي علق عليه عبدالقاهر قائلًا : « قد حمله الجميع على انه أدخل نفسه من رفع (كل) في شيء انما يجوز عند الضرورة ، من غير ان كانت به ضرورة ، قالوا لأنه ليس في نصب (كل) ما يكسر له وزنا او يسعه من معنى أراداه ، واذا تأملت وجدته لم يرتكبه ، ولم يحمل نفسه عليه ، الا لحاجة له الى ذلك ، والا لانه رأى النصب يسعه ما يريد ، وذاك انه اراد انها تدعي ذنبا لم يصنع

(٢١) شرح ابن عقيل : ٧١/٢ .

(٢٢) اللغة والحضارة : ٧ .

منه شيئا البتة لا قليلا ولا كثيرا ، ولا بعضا ولا كلا ، والنصب يمنع من هذا المعنى ، ويقتضي ان يكون قد اتى من الذنب الذي ادعته بعضه ، وذلك انا اذا تأملنا وجدنا اعمال الفعل في (كل) والفعل منفي لا يصلح ان يكون الا حيث يراد ان بعضا كان وبعضا لم يكن ، تقول : لم ألق كل القوم ، ولم آخذ كل الدراهم ، فيكون المعنى انك لقيت بعضا من القوم ، ولم تلق الجميع ، وأخذت بعضا من الدراهم ، وتركت الباقي ، ولا يكون ان تريد انك لم تلق واحدا من القوم ولم تأخذ شيئا من الدراهم (٢٣) » .

فالنصب الذي يفرضه النحاة ويرتضونه ، ويرون ما عداه خطأ ، او ضربا من الضرورة في الاقل ، لا يلائم المعنى الذي اراده الشاعر ، ولا يؤدي الغرض الذي رمى اليه ، على حين ان الرفع هو الذي يجعل التركيب دقيقا في نقل التجربة ، واداء المعنى ، فركب الشاعر السبيل التي تصل به الى ما يريده وتكسب النظام اللغوي المألوف ، لعدم مطابقتها تجربته ، وقصوره عن الاعراب عما يريد .

فالنقاد المتزمتون لم يلبسوا للشاعر - فيما عدا الضرائر - بقدر من الحرية اللغوية ، ولم يجيزوا له ان يعدل عن النظام اللغوي الصارم المفروض عليه حين تضطره تجربة ، او يحز به معنى من المعاني .

لقد نظروا الى أي خروج عن العرف اللغوي على أنه خطأ ، ولم يكفوا أنفسهم مؤونة البحث عما وراء الخروج من مسوغات بلاغية ، ولو أن هذا التزمت كان مع الادباء الذين لم تتحصد ملكاتهم ، ولم ترسخ في اللغة أقدامهم ، لكان أمرا محمودا ، ولكنه كان مع الادباء الكبار الذين اذا خرجوا عن الاطار اللغوي العام ، خرجوا عن قصد وبيّنة ، فكان من المفروض أن : « يحتج بهم على اللغة ، ولا يحتج باللغة عليهم ، ما دامت اللغة كائنا حيا تتطور وعقلية من يتكلمونها (٢٤) » .

(٢٣) دلائل الاعجاز : ٢١٥ .

(٢٤) في الادب والنقد : ٢٠ .

وكان حريا بالنقاد المزمّنين ان يستأنسوا بما في القرآن الكريم من خروج في غير موضع عن قواعد النحو الشكلية ، وذلك لمتطلبات بيانية وبلاغية ، فظن لها بعض علماء البلاغة . من ذلك استعماله الافراد بدل التثنية في قوله تعالى : « فلا يخرجكما من الجنة فتشقى (٢٥) » . او تقديم الضمير على ما يضره في الآية « فأوجس في نفسه خيفة موسى (٢٦) » . أو الاخبار عن ضمير الجمع بالمتفرد في قوله تعالى « فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين (٢٧) » . او عطف فعل مسند الى مفرد على فعل مسند الى جمع في قوله تعالى « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والاقدام (٢٨) » .

ب - عدم التفريق بين الخطأ والتطور :

ان كل لغة يعروها مع الزمن شيء من التحول ، وذلك لصلتها الوثيقة باحوال متكلميها ، والعربية - على الرغم من تمتعها بقط كبير من الاستقرار اذا ما قيست بغيرها من اللغات - لم تتوقف يد التطور عن العمل فيها . ولكن النقاد المزمّنين نظروا الى التطور الطبيعي على انه خطر ، تجب حماية اللغة منه .

ونحن لا نشك في ان حماية اللغة من أهم واجبات الناقد اللغوي ، لان التخريف فيها ، وفتح الباب على مصراعيه امام عوامل التغيير ، معناه القضاء عليها . الا ان الحماية لا تتحقق بالتزمت ، او بتحجير اللغة ، وانما تتم بضرب من المحافظة المعقولة التي تسمح بقدر من التطور اذا كان حسنا ، وقائما على اسس ومسوغات . فلا بد لمن يتصدى لحماية اللغة ان يعمل على نموها ، وان يؤمن بانها كائن حي ، او أشبه بشجرة نامية ، تحتاج بين العين والآخر الى تجديد في غذائها ، وتشذيب لما جف من اغصانها ، لتبقى حية سائمة ، ولتظل

(٢٥) سورة طه . آية : ١١٨ .

(٢٦) سورة طه . آية : ٦٧ .

(٢٧) سورة الشعراء . آية : ١٦ .

(٢٨) سورة الرحمن . آية : ٤١ .

قوية ومزدهرة . ولا بد له ايضا من : « التفريق بين ماهو خطأ وانحراف وما هو توليد وتجديد وتطور فكلاهما حدث جديد في اللغة ، وتبديل في بعض ظواهرها ، ولكن الخطأ تبديل يخالف خصائص اللغة ، وسنن نوحها ، وناموس حياتها ، وقواعد فطرتها ، ويخل بنظامها وأما التجديد والتطور فهو تبديل واحداث يجرى وقتا لسنتها ، وينساق مع فطرتها ، وينقاد لقواعدها ، ويوافق روحها وخصائصها^(٢٩) » . ولا بد له أخيرا من ان يدرك ان « اللغة كائن مرموق يستحيل وضعه في وعاء واحد ، او الحكم عليه ليسير في خط محدد^(٣٠) » .

واذا وضع الناقد اللغوي هذه الحقائق امام عينيه ، لم يتردد في قبول بعض الظواهر التي تعرض للغة ، او تجد فيها ، اذا كانت ما يوافق روحها ، وينساق مع طبيعتها ، وسنن التعبير بها .

ولكن المتزمتين لم يسلوا بهذه الحقائق ، فراحوا ينعنون اى دم جديد ينساب في عروق اللغة ، ويقضون على كل حدث فيها بأنه خطأ . والذي حصلهم على موقفهم هذا هو غيرتهم على اللغة ، ورغبتهم الشديدة في ذب عوامل الفساد عنها ، فكان بعض الذي فعلوه لا يقل خطرا على اللغة من الفوضى ، والخروج عن القواعد والاصول ، لان حماية اللغة ، او المحافظة عليها تعني : « تحريرها من الجمود والعقم من جهة ، ومن الفوضى والخروج على قواعد اللغة^(٣١) » من جهة أخرى .

فالموقف دقيق . والسبيل شائكة ، ولا بد لمن يتولى حماية اللغة ، من ان يدقق فيما يعرض لها ، ويقرأ عليها ، ليفرز ماهو خطأ لا يست الى روح اللغة ، ولا يتفق مع فطرتها وخصائصها ، وما هو تطور وتجديد يجرى على وفق سننها ، وينقاد لنظامها وقواعدها .

(٢٩) خصائص العربية : ٦٧ .

(٣٠) اللغة والحضارة : ١٢٨ .

(٣١) خصائص العربية : ٦٧ .

أما اللغويون المتزمتون فلم يفرقوا بين الخطأ والتطور ، ورأوا أن تقف العربية عند الحدود التي رسمها لنا عرب الجاهلية وعرب القرنين الأول والثاني . لقد اعترفوا بكل ظواهر التطور التي عرضت للعربية في تلك الحقبة ورفضوا ما حدث من هذه الظواهر بعدما ، ونظروا إليها على أنها لحن وخطأ تجب مقاومته . فابن السكت يقول مثلاً : « وتقول هي الملبؤة فهذه اللغة النسيحة ، ولبوة لغة » (٢٢) فيعترف بكلمة (لبوة) غير مهموزة ، لأنها سمعت عن بعض العرب ، ثم يقول بعد ذلك : « وهو عامر بن لؤي والعامة تقول لوي بلا همز ، وتقول طبي ، تعمل كذا ، والعامة تقول طي - تعمل كذا » (٢٣) ، فلا يعترف بنطق كلمتي (لوي) و (طي) لانهما لم تسمعاً عن العرب ، مع ان ترك الهمز فيهما لا يختلف عن ترك الهمز في لبوة (٢٤) .

ومثل ذلك قوله : « وقد فقات عينه ، لا تنقل فقيت » (٢٥) ، مع انه كان قد اعترف بان العرب قالت : « وقد استخذأت له وخذأت ، وخذيت لغة » (٢٦) . فتطور (فقات) الى (فقيت) مسائل لتطور (خذأت) الى (خذيت) ، ولكن التطور الذي عرض للكلمات في عصور الاحتجاج مسوح به ، وأما التطور المسائل ، الذي حدث بعد تلك العصور ، فمحكوم عليه بالخطأ .

ولم يكن التطور الذي أصاب المفردات العربية فيما سبي بعض عصور الاحتجاج ، مقصوراً على أصواتها ، وأوزانها ، بل لحق معانيها ، ودلالاتها ، فاعترف اللغويون بهذا الضرب من التطور لانه تم في تلك العصور السعيدة الحظ ، فهذا ابن فارس مثلاً ينقل لنا جملة من الالفاظ التي اكتسبت بعد مجيء

(٢٢) اصلاح المنطق : ١٢٦ .

(٢٣) نفسه .

(٢٤) لحن العامية والتطور اللغوي : ١٢٩ .

(٢٥) اصلاح المنطق : ١٤٩ .

(٢٦) نفسه .

الاسلام دلالات جديدة فيقول : « فكان ما جاء في الاسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق ، وان العرب انما عرفت المؤمن من الامان ، والايان وهو التصديق ، ثم زادت الشريعة شرائط واوصافا ، بها سمي المؤمن بالاطلاق مؤمنا . وكذلك الاسلام والمسلم ، وانما عرفت منه اسلام الشيء ، ثم جاء في الشرع من اوصافه ما جاء . وكذلك كانت لا تعرف من الكفر الا الغطاء والتر ، فاما المنافق فاسم جاء به الاسلام لتقوم ابطنوا غير ما اظهروا ، وكان الاصل من نفاق اليربوع ، ولم يعرفوا في الفسق الا قولهم فسقت الرمطة اذا خرجت من قشرها ، وجاء الشرع بان الفسق الافحاش في الخروج عن طاعة الله عز وجل . وما جاء في الشرع الصلاة ، واصله في لغتهم اللداء . وقد كانوا عرفوا الركوع والسجود وان لم يكن على هذه الهيئة وكذلك الصيام اصله عندهم الامساك ويقول شاعرهم :

خيل صيام وأخرى غير سائمة تحت العجاج وخيل تملك اللجبا

ثم زادت الشريعة النية وحظرت الاكل والمباشرة وغير ذلك من شرائع الصوم . وكذلك الحج لم يكن عندهم فيه غير التصد وسبر الجراح ، من ذلك قولهم :

واشيد من عوف حلولا كثيرة يحجون سب الزبرقان المزغفرا

ثم زادت الشريعة ما زادت من شرائط الحج وشعائره . وكذلك الزكاة لم تكن العرب تعرفها الا من ناحية النساء ، وزاد الشرع ما زاده فيها ، مما لاوجه لاطالة الباب بذكره « (٢٧) .

ونص ابن فارس هذا يفصح عن ان بعض الالفاظ اصابها ما يعرف بالتطور الدلالي ، وهو ضرب من التطور لا يني يحدث في كل عصر ، ويصيب طائفة من المفردات ، الا ان اللغويين المترمين اعترفوا بما تم منه في عصر معين ، ثم حرّموه على العرب المتأخرين .

(٢٧) صاحبى : ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ .

فابن قتيبة مثلا رفض التطور الدلالي الذي اصاب عددا من المفردات ، ودعا الادباء الى استعمال تلك المفردات في المسموع من معانيها فحسب ، فكلمة (الطرب) قد تخصصت دلالتها ، وصارت تطلق على (انترج) دون الجزع ، الا ان ابن قتيبة رفض هذا التخصيص ، ودعا الى استعمال الكلمة بالمعنيين (٢٨) ، وكلمة (الماتم) تخصصت دلالتها ايضا ، وصارت تعني اجتماع الناس لمصيبة ، فوصم ابن قتيبة هذا التطور في دلالة الكلمة بالخطأ ، وقال : « انما الماتم النساء يجتمعن في الخير والشر » (٢٩) ، وكلمة (اتناقلة) اتسع مدلولها ، وأصبح أهم ما كان عليه ، فهي تعني قديما (الرفقة العائدة من السفر) لانها من (قتل) أي رجع ، ثم صارت تعني الرفقة المسافرة او العائدة . الا ان ابن قتيبة رفض هذا التعميم والاتساع في دلالة الكلمة ، وحكم عليه باللحن (٣٠) ، واتمت دلالة (يتصدق) فصار الناس يقولون « فلان يتصدق اذا اعطى ، وفلان يتصدق اذا سال » (٣١) فقال ابن قتيبة : « وهذا غلط . والصواب : فلان يسأل وانما المتصدق المعطي » (٣٢) .

واتنقلت دلالة بعض الكلمات ، وتغير مجال استعمالها فوقف ابن قتيبة من هذا التطور موقعه من تخصيص الدلالة او تمييزها ، ووصمه بالخطأ أيضا .

ومن أمثلة انتقال الدلالة قوله : « من ذلك أشفار العين : يذهب الناس الى انها الشعر التابت على حروف العين ، وذلك غلط ، انما الاشفار حروف العين التي ينبت عليها الشعر ، والشعر هو الهدب » (٣٣) ، وقوله « ومن

(٢٨) ادب الكاتب : ١٨ .

(٢٩) نفسه : ٢٠ .

(٤٠) نفسه .

(٤١) نفسه : ٢١ ، ٢٢ .

(٤٢) نفسه : ٢٢ .

(٤٣) نفسه : ١٧ .

ذلك الحسة : يضعها الناس موضع الاستحياء ، قال الاصمعي : « وليس كذلك انا هي بمعنى الغضب » (٤٤) .

وكان موقف الامدي شيها بسوقف ابن قتيبة ، فقد رفض انزلاق الالفاظ عما وضعت له ، ووصم ابا تمام بالخطا لانه استعمل بعض الالفاظ في غير المسوع من معانيها . قال ابو تمام :

وصنعة لك ثيب أهديتها وهي الكعاب لعائذ بك مصرم
حلت محل البكر من معطى وقد - زفت من المعطي زفاف الأيم (٤٥) .

فخطاه الامدي لانه استعمل (الايم) بمعنى (الثيب) . قال الامدي :
« الايم هي التي لا زوج لها بكر! كانت او ثيبا . قال الله عز وجل :
وانكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم) اقتراه اراد انكحوا
الثياب من النساء دون الابكار ؟ انا اراد تبارك اسه انكحوا النساء اللواتي
لا أزواج لهن . فالثيب والبكر ، والصغيرة والكبيرة من لا زوج لها تدخل
في الآية ، قال الساخ :

يقر بعيني ان أحدث انها وان لم أنلها أيم لم تزوج
وهذا هو المعنى المعروف في كلامهم » (٤٦) .

وقد علق احسان عباس على نقد الامدي هذا قائلا : « ان الالفاظ
تنزلق احيانا انزلاقا يسيرا عما وضعت له بسور الزمن ، وهذا مبدأ لا يحترمه
أمثال الامدي القائلون بالتدقيق » (٤٧) .

(٤٤) ادب الكاتب : ١٩ .

(٤٥) يريد ان هذه الصنعة ثيب عندك ، لانك قد اصطنعت مثلها مرارا ،
وهي الكعاب - يريد البكر - عند هذا العائذ بك ، لانها اول ما اصطنعت
اليه ، او لانها اكبر صنعة صنعتها عنده . والمصرم : القليل المال .

(٤٦) الموازنة : ١٥٩/١ .

(٤٧) تاريخ النقد الادبي : ١٧٩ .

وقال ابو تمام يصف فرسا :

ما مقرب يختال في اشطانه ملان من حلف به وتلهوق

فخطاه الامدي أيضا لانه استعمل (الحلف) بغير المسوع من معناها . قال الامدي : « قوله (ملان من حلف به) يريد التيه والكبر ، وهذا مذهب العامة في هذه اللفظة ، فاما العرب فانها لا تستعملها على هذا المعنى وانما تقول : قد حلفت المرأة عند زوجها ، اذا لم تحظ عنده ، وحلف الرجل كذلك ، اذا كانت زوجته تكرهه والحلف الذي لا خير عنده » (٤٨) .

فاتتقال دلالة كلمة (الحلف) ، وتغير مجال استعمالها ، أمر لا بأس باقراره ، والتليم به ، لان له في العربية ظواهر كثيرة ، وهو على ذلك ليس خطأ وانما هو من باب التطور والتجديد في معاني المفردات .

وعلى هذا فن الجبود المنافي لروح اللغة وخصائصها ، ومن التضييق الذي لا مسوغ له ، ان يمنع ابن قتيبة والامدي ، وسواهما من المترمين ، اكتاب عدد من المفردات دلالات جديدة .

ج - التمسك بالافصح :

لم تكن القبائل العربية في نظر المترمين سواء من حيث الفصاحة ، بل كان بعضها فصيحاً ، موثوقاً بكلامه ، وكان بعضها مطرّحاً ، لا يؤخذ بما يروى عنه ، ويعزى اليه من صيغ واستعمالات . وقد أدت هذه النظرة الى اهدار كثير من كلام العرب ونبذه ، والحكم عليه بالشذوذ او الذرة او الضعف وعدم السماح للنشئين بالتكلم به ، أو النسخ على منواله .

قال ابن جني عن الاصمعي : « ومعلوم كم قدر ما حذف من اللغة ، فلم يشبه لانه لم يتوق عنده » (٤٩) . وروى ابن خالويه في شرح فصيح ثعلب قول ابي حاتم : « كان الاصمعي يقول أفصح اللغات ، ويلغي ما سواها ، وابو

(٤٨) الموازنة : ٢٣٤/١ .

(٤٩) الخصائص : ٣١١/٣ .

زيد يجعل الشاذ والفسيح واحدا فيجيز كل شيء قيل . قال : ومثال ذلك ان الاصمي يقول : حزني الامر يحزني ولا يقول أحزني . قال ابو حاتم : وما جائزان ، لان القراء قرأوا (لا يحزنهم الفزع الاكبر) و (لا يحزنهم) جميعا بفتح الياء وضما « (٥٠) » .

وقد نهج هذا النهج كثير من النقاد اللغويين ، فحرموا ضمنا ، وانكروا مفردات ، لا لشيء الا لانها أثرت عن قبائل لا يتقون بفصاحتها ، أو لانها ليست من الشائع أو المعروف في كلام العرب .

وكان ابن قتيبة ممن سلك سبيل التشدد ، واحتضن مذهب الاصمي فوسم باللحن والخطأ اشياء كثيرة صحيحة (٥١) . وقد رد ابن السيد البطيوسي على ابن قتيبة في اشياء جعلها من اللحن اعتمادا على ما رواه ابو حاتم عن الاصمي ، وكان ينبغي ان يقبلها لان غير الاصمي من اللغويين قد أجازوها ، أو كان ينبغي له : « الا يحدد شيئا وهو جائز من أجل انكار بعض اللغويين له » (٥٢) .

وكان الزبيدي من المترجمين الذين دعوا الى استعمال أفصح ما وعت اللغة من صيغ ومفردات ، كما كان يعيب ابا زيد لتسامحه ، وتجويزه للشاذ والقليل ، ويقول عنه : « كان ابو زيد يتسع في اللغات ... وكل ما انع في اللغات فهو شر » (٥٣) . وقد وردت في كتابه (لحن العامة) نقول كثيرة عن الاصمي وابن قتيبة ، وما معروفان ، كما قلنا بالتشدد ، وبالاخذ بالأفصح (٥٤) .

(٥٠) الزهر : ٢٣٢/١ ، ٢٣٣ .

(٥١) الاقتصاب : ٢١٦ .

(٥٢) نفسه : ١٠٦ .

(٥٣) طبقات الزبيدي : ١٨٢ .

(٥٤) ابو بكر الزبيدي وآثاره في النحو واللغة : ٤٠٧ . وتنتظر ص ٦٩ من هذه الرسالة .

وقد مرّ بنا ان الحريري كان قد تشدد في كتابه (درة الغواص) وحكم على كثير من الاستعمالات بالخطأ ، فرد عليه ابن برى والشهاب الخنجاوي ، واثبتا ان العرب قد تكلمت بتلك الصيغ والاستعمالات (٥٥) .

وكان الادباء والمنشئون ، كما تقدم ، يقاسون هذا التزمت ، ويوصون باللحن أو الخطأ اذا نحوا في كلامهم منحنى لغة قليلة ، أو نادرة ، أو جأروا في استعمالهم تلك القبائل المطرحة ، أو المرغوب عن لهجاتها .

ولم يحاول المتزمتون من النقاد ان يأسوا بنا في كلام النصحاء انفسهم من استعمالات ضعيفة ، او نادرة ، أو ردها وهم على علم بضعفها ، وقلة من يتكلم بها من العرب . مثال ذلك قول الفرزدق :

كلاهما حين جد الجرى بينهما قد اقلعا وكلا أشيها رابي

« فقوله : كلاهما قد اقلعا ضعيف ، لانه حمل على المعنى ، وقوله : وكلا

أشيها رابي قوي ، لانه حمل على اللفظ » (٥٦) . وقول ابن قيس :

لئن فتتني لبي بالامس انتت سعيدا فاضحى قد قلى كل مسلم

لان : « نتن أقوى من أنتن ، حتى ان الاصمعي لما أشد هذا البيت

شاهدا لانتن قال : ذلك مخنث ولست آخذ بلغته . وقد جاء به رؤبة الا انه

لم يضمه الى غيره ، قال :

يُعرضن اعرافا لدين المقتن » (٥٧)

وقد علل ابن جنى ظاهرة ايراد النصحاء لما ضعف من الاستعمالات بانهم

انما يشعلون ذلك لانهم يرغبون في توسيع مجال القول على انفسهم ولائهم

يعتزون بجميع اللغات ويكرهون ان يفرطوا في شيء منها ، قال ابن جنى :

« وقد يستعملون من الكلام ما غيره آثر في نفوسهم منه ،

سعة في التفسيح ، وأرخاء للتنفس ، وشحا على ما جشموه فتواضعوه ،

(٥٥) تنظر ص ٧٨ ، ٧٩ من هذه الرسالة .

(٥٦) الخصائص : ٣ / ٣١٤ .

(٥٧) الخصائص : ٣ / ٣١٥ .

أن يتكارهوه ، فيلغوه ويطرحوه ، فأعرف ذلك مذهبا لهم ، ولا تظن عليهم متى ورد عنهم شيء منه « (٥٨) . وقال في موضع آخر : ووجه الحكمة في الجمع بين اللغتين القوية والضعيفة في كلام واحد هو أن يروك ان جميع كلامهم - وان تفاوتت احواله فيما ذكرنا وغيره - على ذكر منهم ، وثابت في شومهم ، نعم ، وليؤنسوك بذلك ، حتى انك اذا رأيتهم وقد جمعوا بين ما يقوى ويضعف في عقد واحد ، ولم يتحاموه ولم يتجنبوه ، ولم يتدح اقوامها في أضعفها ، كنت اذا افردت الضعيف منها بنفسه ، ولم تضمه الى القوى فيتين به ضعفه ، وتقصيره عنه ، آنس به ، واقل احتشاما لاستعماله « (٥٩) .

فابن جني هنا يشرح المشيء حرية في تعامله مع اللهجات ، ويسمح له بان يتكلم بما شاء منها ، أسوة بالقدماء من شعراء العربية ، الذين كانوا لا يتورعون عن استعمال ما ساء المتزمتون فيما بعد ، بالضعيف أو المرذول من اللهجات . لقد كان فصحاء العرب ، وهم القدوة في هذا الشأن ، يحترمون اللهجات جميعا ، ولا يفضلون بعضها على بعض ، كما افصح عن ذلك ابن جني ، وأتى بما يشبه من الشواهد ، الا ان النقاد المتزمتين أبوا ان يفيد المنشئون من ثراء العربية ، وتعدد لهجاتها ، وكثرة قبائلها ، وراحوا يصفون الكلام الى قوي وضعيف ، أو كثير وقليل ، ثم يدعون الى استعمال القوى والتجافي عن غيره ، فاذا عثروا على ما توأصفوه بالضعف ، وحكموا عليه بالقللة ، رفضوه ، وأوسعوا قائله لوما وتعنيفا .

وهكذا غلب الجمود على عدد غير قليل من النقاد واللغويين واتست آراؤهم بالتزمت ، وقد تجلى جمودهم وتزمتهم في مظاهر ثلاثة ، هي الاحتكام الى القديم والتقييد بالعرف اللغوي ، وعدم التفريق بين الخطأ والتطور ، ثم التمسك بلغات عدد نزر من القبائل ، والحكم على لغات القبائل الاخرى بالبعد من الفصاحة .

(٥٨) الخصائص : ٣ / ٣١٩ .

(٥٩) نفسه : ٣ / ٣١٧ .

ولم تشر ظاهرة الجنود في النقد اللغوي ، دون ان تترك أثرا كبيرا في الشعر العربي ، فقد ظل الشعراء لا يجروؤون على التغيير ، أو الافلات مما رسه المترمبون من مناحي التعبير ، وطرق الصياغة ، وظلت اقوال المترمبون تطاردهم ، وتسفه كل جديد يأتون به ، لان ذلك الجديد : « خلاف ما عليه العرب » (٦٠) أو : « ضد ما نطقت به العرب » (٦١) أو « ليس على طريقة العرب ولا مذاهبنهم » (٦٢) .

لقد قيد المترمبون « الاسلوب والقالب ولم يحفلوا بضرورة تطوره » (٦٣) ، فادى ذلك الى ان يركد الشعر العربي ، ويظل محتفظا بنسطة ثابتة ، وان يشيع فيه ما يمكن ان نسيه بـ (اسلوب الذاكرة) ، ونعني به الاسلوب القائم على استخدام « التعابير المحفوظة التي طال استعمالها حتى هزلت وامحت معالمها ، كالنقود التي يأكلها التحات من كثرة التداول » (٦٤) .

وكيف لا يشيع مثل هذا الاسلوب ، والنقاد يدعون الى ان يجري المتأخر بريح المتقدم ، ويرفضون ان يتكئ الشاعر على نفسه ، ويأتي بما لم يألنه القدامى من أنماط الصياغة ، ووجوه التعبير . وكيف لا يشيع مثل هذا الاسلوب ، اذا وجد الشعراء ان الاجادة لا تكون الا بتقليد الاوائل ، والسير على درب السابقين .

ولكن ، اذا كنا هنا نحمل النقاد المترمبون ما أصاب الشعر العربي من جنود ، فاننا لا نعني الشعراء من التبعة ، ذلك : « لان النقد انما يستند تطوره من تطور الفن ، وينسحب على اذياله » (٦٥) . بمعنى ان الشعراء كان بوسعهم - لو تبيأت لهم الموهبة اللازمة - ان يخرجوا من الاطر اللغوية

(٦٠) الموازنة : ١٩٩/١ .

(٦١) نفسه : ١٤٢/١ .

(٦٢) نفسه : ٢٩٥/١ .

(٦٣) النقد الجمالي : ١٤٩ .

(٦٤) في الادب والنقد : ٢١ .

(٦٥) النقد الجمالي : ١٤٩ .

المالوفة ، التي رسها لهم المتزمتون ، كما فعل ابو تمام ، حين أقدم على استعمالات لغوية جديدة ، الا تكن نالت استحسان المتزمتين ، فقد قيض لها تقدة ممنفون ، يستطيعون هضم الجديد ، فاحتفلوا بها ، واتصروا القائلها .

فالشاعر - اذا تهيأت له الادوات اللازمة - يستطيع ان يغير مسار النقد ، ويحدث حركة في قيده وأحكامه .

ثانيا - التعصب للمثنيء او عليه :

وهذا عيب آخر من عيوب النقد اللغوي يجده الدارس بوضوح في بعض ما وصل الينا من احكام ونظرات نقدية . ومهمة الناقد هي عرض النتاج الادبي : « على الذوق المذب ، والمقاييس المتسلسة ثم الانتهاء من كل ذلك الى تقرير الحقيقة التي يقرها العقل ، ويرضى عنها الذوق ، سواء آكانت في صالح الشاعر أم في غير صالحه ... » (٦٦) . ومعنى ذلك ان سمة الناقد الاولى هي التجرد ، والبعد من الاهواء الشخصية ، لتلم نظرتة ، وتصح النتائج التي يصل اليها .

ولكن عددا من نقادنا لم يصدروا عن هذه الروح المتجردة ، ولم تلم نظرتهم الى النصوص التي ينقدونها من الهوى الاسر ، والغرض المضل . وسواء بعد ذلك ان يكون الهوى مع النص او عليه ، أو يكون الغرض باعنا على الدفاع او الهجوم ، فكلا الموقفين مذموم ، لا نستطيع ان نسي اصحابها نقادا ، أو باحثين .

لقد تعصب غير واحد من نقادنا لشاعر معين ، أو مجموعة من الشعراء ، فأداهم التعصب الى ان يتبلوا الخطأ ، بعد أن يتألولوه ، ويلتسوا له تخريجا ، او يرتضوا الرديء الذي يرفضه الذوق ، وتآباه المقاييس .

(٦٦) المنبى بين ناقدية : ٢٧٦ .

كما تعصب عدد آخر من النقاد على شاعر او مجموعة من الشعراء ، فجردوهم من كل احسان ، ونسبوا اليهم كل نقیصة ، ولم يتورعوا عن اختلاق العيوب ودسها على من تكاروهه ، وتعصبوا عليه .

فن امثلة النظرات النقدية التي املاها التعصب ، ما زعمه اللغويون المتقدمون من ان الشاعر القديم لا يخطيء في اللغة ، لانه يملكها فطرة وسليقة ، والسليقة عندهم ترتبط بالجنس والوراثة (٦٧) ، ومعنى ذلك انه لا يمكن لغير الشخص العربي ان يتقن اللغة العربية اتقاناً تاماً كما يتقنها الجنس العربي (٦٨) .

وتبما لهذه النظرة ارتابوا في فصاحة المرالي ، وأبوا ان يحتجوا بأقوالهم ، أو بسروياتهم . واتفق الرأي على أن الذي يحتج به في الشؤون اللغوية : « هو كلام العربي الاصيل الذي لا مجال لاتهامه او تجريحه » (٦٩) .

وتيجة لذلك قبلوا كل ما وصل اليهم من الشعر القديم ، ونظروا اليه على انه حجة لا تنقض ، ولو خالف القياس ، أو الشائع والمألوف في اللغة . وكانوا اذا وقفوا في شعر شاعر جاهلي ، أو اسلامي متقدم ، على اخلال ببعض القواعد ، أو خروج عن المألوف اضطره اليه الوزن او القافية ، راحوا يلتمسون له المعاذير والحيل ، ويتكلفون له التأويل والتخریج ، فان لم يشفهم تأويل او تخریج ، غيروا رواية البيت ليجعلوه متفقا مع القاعدة .

ومن الامثلة على ذلك ما صنعوه في بيت الفرزدق المشهور :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال الا مسحتا او مجلف

فقد رفع الفرزدق (مجلف) وحقها أن تنصب ، وما فعل ذلك الا ان

القافية قهرته عليه . غير ان اللغويين والنحاة أبو ان يعترفوا بخطأ الفرزدق ،

(٦٧) فصول في فقه العربية : ٧٩ ، ١٤٢ .

(٦٨) نفسه .

(٦٩) في اصول النحو : ١٩ .

وكبر عليهم ان يتصوروا ان شاعرا يملك اللغة فطرة وسليقة ، يخل باللغة من أجل قافية ، فذهبوا في الدفاع عن الفرزدق كل مذهب .

ففي الخصائص : « فأما قولهم : ودَعَّ الشيء يدع - اذا سكن - فاتدع فسوسع متبع ، وعليه أنشد بيت الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع ° من المال الا مسحت او مجلّف
فمعنى (لم يدع) - بكسر الدال - أي لم يتدع ولم يثبت ، وانجسلة بعد (زمان) في موضع جر لكونها صفة له ، والعائد منها اليه محذوف للعلم بسوسعه ، وتقديره : لم يدع فيه او لأجله من المال الا مسحت او مجلّف ، فيرتفع (مسحت) بفعله ، و (مجلّف) عطف عليه ، وهذا أمر ظاهر ، ليس فيه من الاعتذار والاعتلال ما في الرواية الاخرى « (٧٠) . وفي الانصاف : « فرفع مجلّف على الاستئناف فكأنه قال : أو مجلّف كذلك » (٧١) . وعلى كثرة ما جاء به النحاة من تأويلات وتخريجات لخطأ الفرزدق فأهم : « لم يأتوا فيه بشيء يرضى » (٧٢) . وكان ابن قتيبة قد علق على تأويلات النحاة هذه قائلاً : « ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر ان كل ما أتوا به من الملل احتيال وتسويه » (٧٣) .

ومن ذلك أيضا قول جرير :

ولو ولدت لعنزة جرو كلب لبّ بذلك الجرو الكلابا

« فنصب الكلاب بغير ناصب ، وقد تحيل له بعض النحويين بكلام

كالشريع لا يسن ولا يعني من جوع » (٧٤) .

(٧٠) الخصائص : ١٩/١ ، ١٠٠ .

(٧١) الانصاف في مسائل الخلاف : ١٨٩/١ .

(٧٢) العقد الفريد : ٣٦٢/٥ .

(٧٣) الشعر والشعراء : ٨٩/١ .

(٧٤) اعلام الكلام : ٣٧ .

ويطول بنا القول لو مضينا نستقري الاخطاء التي ارتكبها الشعراء الذين عاشوا فيما عرف بمصور الاحتجاج ، ثم نورد التاويلات والتخريجات التي تكلفها اللغويون والنحاة لتلك الاخطاء .

ويبدو ان هذه النظرة التي اسبغت العصمة على الشعراء القدماء ، لم يتد بها الزمن ، فقد ظهر في القرن الرابع نقاد ولغويون نظروا الى اللفظة على انها شيء يكتب ، وان مكتسبها عرضة لان يزل فيها ، ويخل بشيء من قواعدها ، لهذا العامل أو ذلك ، وان احدا مها بلغت منزلته ، وأيا كان عصره ، غير معصوم من الخطأ اللغوي . وكان الجدير بقدماء اللغويين ان يعترفوا بهذه الحقيقة ، ويحفظوا على ثوبهم ما بذلوه من جهد في تخريج الاخطاء ، والتماس التاويلات لها .

ومن هؤلاء النقاد الامدي ، فهو يقول : « اللحن لا يكاد يعرى منه أحد من الشعراء المحدثين ، ولا سلم منه شاعر من شعراء الاسلاميين ، وقد جاء في اشعار المتقدمين ما علمتم من الاقواء وغير الاقواء ، مما لا يقوم العذر فيه الا بالتاويلات البعيدة » (٧٥) .

وعبدالمعز الجرجاني يقول : « ودونك هذه الدواوين الجاهلية والاسلامية فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه ، اما في لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتقسيه ، أو معناه أو اعرابه ، ولو أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم ، واعتقد الناس فيهم انهم القدوة والاعلام والحجة ، لوجدت كثيرا من اشعارهم معيبة مسترذلة ، ومردودة منفية ، لكن هذا الظن الجميل ، والاعتقاد الحسن ستر عليهم ، ونفى الظنة عنهم ، فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب ، وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام » (٧٦) .

(٧٥) الموازنة : ٢٨/١ .

(٧٦) الوساطة : ٤ .

وابن فارس يقول : « وما جعل الله الشعراء معصومين يوقون الخطأ والغلط ، فما صح من شعرهم فستقبل ، وما أبتة العربية وأصولها خسرود » (٧٧) .

ويقول : « ان الشعراء يخطئون كما يخطيء الناس ، وينظفون كما ينظفون ، وكل الذي ذكره النحويون في اجازة ذلك ، والاحتجاج له جنس من التكلف » (٧٨) .

ولم يسلم ابن جنبي بإمكان صدور الخطأ عن العربي القديم فحسب ، بل أورد تعليلا لذلك ، كان قد ذهب اليه شيخه ابو علي الفارسي . قال تحت عنوان (باب في اغلاط العرب) : « كان ابو علي رحمه الله يري وجه ذلك ويقول : اننا دخل هذا النحو في كلامهم لانهم ليت لهم اصول يراجمونها ، ولا قوانين يعتمسون بها ، وانما تهجم بهم طباعهم على ما ينظفون به ، فربما استهواهم الشيء ، فراغوا به عن القصد » (٧٩) . ثم ساق ابن جنبي أمثلة من أخطاء العرب الاقدمين ، منها : « قولهم حالات السويق وراثت زوجي يايات ، واستالمت الحجر ولبات بالحج ، وقوله :

كشترىء بالحد أحمره بترأ » (٨٠)

ومنها قول بلال بن جرير :

إذا ضفتهم او سأيلتهم وجدت بهم علة حاضره

« أراد : ساءلتهم (فاعلتهم) من السؤال : ثم عزّ له أن يبدل الهزّة على قول من قال (سأيلتهم) فاضطرب عليه الموضع ، فجمع بين الهزّة والياء ، فقال : سأيلتهم ، فوزه على هذا (فاعلتهم) » (٨١) .

(٧٧) الصاحبي : ٢٧٦ .

(٧٨) ذم الخطأ في الشعر : ٣١ .

(٧٩) الخصائص : ٢٧٣/٣ .

(٨٠) نفه : ٢٧٩/٣ .

(٨١) نفه : ٢٨٠/٣ .

وكلام ابن جني يدل على أن سبب وقوع الغلط من العرب القدامى هو أنهم كانوا يتكلمون سليقة وطبيعة من غير معرفة بالقواعد والقوانين التي استقرت من كلامهم فيما بعد (٨٢) . ومعنى هذا أن معرفة القواعد تنسج الخطأ ، أو تحول دونه . والحقيقة أن الخطأ في اللغة لا ينجم دائما عن الجهل بقواعدها ، وإنما ينشأ عن الجهل حيناً وعن عوامل أخرى لمح بعضها القدامى ، وفصاها المحدثون (٨٣) .

فسواء أكان المتكلم يجري على فطرته ، ويتساند الى طبعه اللغوي الذي طبع عليه ، وأخذ من بيأته ، دون أن يعلم بالعلل والقوانين التي يخضع لها في نطقه أو تركيب كلامه ، أم كان يعرف القواعد التي تحكم نطقه ، فإن احتمال وقوعه في الخطأ اللغوي غير بعيد .

ولو أن قداماء اللغويين والنحويين فطنوا الى هذه الحقيقة ، أو أترفوا بها ، لما تحملوا مشقة الدفاع عما وجدوه من أخطاء عند الشعراء الذين عاشوا في عصور الاحتجاج .

وإذا كان اللغويون المتقدمون تعصبوا للقدامى من الشعراء ، واتسوا التخريجات لآخطائهم ، فانهم تعصبوا على الشعراء المحدثين ، وأسرفوا في استنكار أساليبهم والفض من شعورهم .

وكما وجدت ظاهرة التعصب لعصر أدبي أو عليه ، كذلك وجدت ظاهرة التعصب لشاعر واحد أو عليه . وأقرب مثال على ذلك هو المتبني الذي اتقى عنده جثمان من النقاد ، بعضهم له ، وبعضهم عليه . فأما الذين له فقد افرطوا في نصرته ، ودافعوا عن كل أقواله ، حتى أن احدهم اذا عثر : « على بيت مختل النظام ، أو نبه على لفظ ناقص عن التمام ، التزم من نصرته خطئه ،

(٨٢) كان ابن جني قد ذهب في غير هذا الموضع الى عكس هذا المذهب فرأى ان العرب كانوا يعرفون العلل والقواعد التي تصرف كلامهم ، ينظر : الخصائص : ٧٢/١ ، ٢٢٨ ، ٢٣٩ .

(٨٣) ينظر مثلاً : لحن العامة والتطور اللغوي : ٢٠ وما بعدها .

وتحسين زلله ، ما يزيله عن موقف المعتذر ، ويتجاوز به مقام المتصر « (٨٤) .
وأما الذين عليه فقد جردوه من كل حسنة أو مزية ، وغالى بعضهم فنحله
أقوالا لم يقلها ، ليتنى له تجريحه ، والطنن عليه . وقد مرت بنا الامثلة
على هذا في فصل (الخصومة) (٨٥) .

يتضح من ذلك ان ظاهرة التعصب بارزة في نقدنا اللغوي ، وهي ظاهرة
معينة ، سادت الى الكثير من المواقف الخاطئة .

ثالثا - الفصل بين اللفظ والمعنى (الشكل والمضمون) :

ومن عيوب النقد اللغوي ان اكثر النقاد في بحثهم لموضوع اللفظ
والمعنى ، فصلوا بين هذين الركنين ، ولم يجمعوا بينهما ، ونظروا الى الالفاظ
على انها كساء للمعنى ، أو وعاء موصل له .

والعمل الادبي - على وفق هذه النظرة - متكون من عنصرين متمايزين ،
يكن لاحدهما ان يتفصل عن الاخر ، كما يمكن للكساء ان يفصل ، أو كما
يمكن للوعاء ان يوجد ، من غير ان يكون في داخله شيء .

وقد برزت فكرة الفصل بين اللفظ والمعنى اولا عند المتكلمين في (خلق
القرآن) . فقد ذهب هؤلاء الى : « التفرقة بين المدلول والدلالة في النص
القرآني ، فالمدلول - وهو المعنى القائم بالنفس من الكلام - قديم ، وسابق
في وجوده ، اما الدلالة - وهي العبارات أو الالفاظ التي يعبر بها المتكلم -
فهي محدثة ، وعارضة . وكلام الله قديم من حيث معانيه ، لاتصاله بالذات
الخالقة ، اما من حيث الفاظه المتعلقة بالبشر المخلوقين فهو محدث
ومخلوق » (٨٦) .

ثم انتقل هذا التصور الثنائي للعلاقة بين الالفاظ والمعاني من دائرة
المتكلمين الى مباحث الادب بوجه عام ، والشعر بوجه خاص .

(٨٤) الوساطة : ٣ .

(٨٥) تنظر ص ١١٨ وما بعدها من هذه الرسالة .

(٨٦) الصورة الفنية : ٢٨٢ وينظر : نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام : ١٤٢ .

ثم جاء شراح أرسطو ، فعمتوا في النقاد فكرة الفصل بين اللفظ والمعنى ، وجعلوها أكثر نضجا . لقد ذهب هؤلاء الشراح الى ان كل شيء مصنوع لا بد له من صورة وهيولى (اي شكل ومادة) يتركب منها . وقالوا ان العلاقة بين الاثني وثيقة ، ثم قالوا : ان المادة الواحدة « يمكن ان تتشكل بأشكال أو صور مختلفة ، تتفاوت قيمتها تبعاً لما يحدث فيها من تأليف مخصوص ، أو نسبة بين الاجزاء » (٨٧) . فمن الممكن ان نجد اشياء كثيرة ، هيولاهها واحدة ، وصورها مختلفة ، مثال ذلك « . . . الباب والكرسي والسفينة وكل ما يعمل من الخشب ، فان اختلاف اسائها انما هو بحسب اختلاف صورها ، فاما هيولاه التي هي الخشب فواحدة . وعلى هذا المثال يعتبر حال انهيولى والصورة في المصنوعات كلها ، لان كل مصنوع لا بد له من هيولى وصورة يركب منها » (٨٨) .

ثم طبق النقاد هذا التهم للعلاقة بين الصورة والهيولى على الشعر ، لانهم افترضوا ان الشعر صناعة مثل غيره من الصناعات .

ومما زاد فكرة الفصل بين اللفظ والمعنى رسوخاً ، فوق ما قدمناه ، هو التصور القديم للغة ، ذلك التصور الذي يفصل اللغة عن حركة الفكر ، ويجعلها (علامات) لاشياء ادركناها من قبل .

والنظر الى اللغة بوصفها علامات أو سات : « لا يعني في جوهره الا فصل اللغة عن حركة الفكر ، وكأنا ندرك الاشياء ثم نسميها ، ونكون افكارا مستقلة عن العالم ، ثم نبحث لهذه الافكار عن علامات تشير اليها » (٨٩) .

وقد أشار النخر الرازي الى هذا المفهوم للغة عندما قال : « ان الوضع

(٨٧) الصورة الفنية : ٢٨٢ .

(٨٨) رسائل اخوان الصفاء : ٦/٢ .

(٨٩) الصورة الفنية : ٢٨٧ .

لا يكون الا بعد التعقل « (٩٠) . ومعنى ذلك أننا نعتل الاشياء ، ثم نجيء لها بعد ذلك بعلامات تشير اليها .

فالعلاقة بين اللغة والفكر - على وفق هذا المفهوم - علاقة احتواء ؛ أو تجاور ؛ أي ان اللفاظ توضع بازاء الفكر ، فنحن ندرك أولا ، ثم نخلع على مدركاتنا ثوب اللغة ثانيا . أو بعبارة اخرى ان اللغة : « وسائل متيزة من الغايات ، وازافات طارئة على الفكر ، تضاف اليه اضافات خارجية ، لتحل كساعي البريد غايات القائلين الى اذهان السامعين » (٩١) .

لقد عسقت هذه المفاهيم فكرة الفصل بين اللفظ والمعنى ؛ ووضعت لها موسفا فلنيا أغرى التقاد بها ، وزادهم حرصا عليها .

وقد نتج عن فكرة الفصل بين اللفظ والمعنى عدد من الاراء اللغوية والنقدية الخاطئة . فالجاحظ ذهب الى ان المعنى يسكن ان يوجد من غير لفظ يصوره ، او يعبر عنه (٩٢) .

وذهب اخوان الصفاء الى مثل هذا فقالوا : ان « كل معنى لا يسكن ان يعبر عنه بلفظ ما ، في لغة ما فلا سبيل الى معرفته (٩٣) » . ومؤدى هذا القول « ان هناك معاني يسكن ان توجد دون أن نعبر عنها بالكلمات (٩٤) » .

ولا شك في ان هذا الرأي غريب ؛ وان مصدقه ساذج ؛ فلا سبيل الى ان تصور ان هناك معنى ليس له لفظ يدل عليه ، لان وجود معنى يستلزم بالضرورة وجود الصورة التي تعبر عنه ، او اللفظ الذي يبرزه . والمعنى الذي لا تعبر عنه اللغة ليس معنى ؛ ولا وجود له ؛ لاتا لا تشكر الا باللغة ، وما كلماتنا الا المعاني نفسها : « وليس هناك (تعقل) يعقبه (وضع) وانما هناك وضع لا يفارق حركة التعقل (٩٥) » .

(٩٠) الصورة الفنية : ٢٨٧ .

(٩١) نفسه .

(٩٢) البيان والتبيين : ٧٥/١ ، ٧٦ .

(٩٣) رسائل اخوان الصفاء : ١٠٩/٣ .

(٩٤) الصورة الفنية : ٢٨٩ .

(٩٥) نفسه : ٣٩٠ .

وترتب على الفصل بين اللفظ والمعنى ان ابن قتيبة ذهب الى امكان وجود معنى جيد تعبر عنه الفاظ رديئة ، او العكس ، قال : « تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب : ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه ... وضرب منه حسن لفظه وحلا ، فاذا انت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى ... وضرب منه جاد معناه وقصرت الفاظه عنه ... وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه (٩٦) » .

وذهب ابن المعتز الى قرب من هذا فعدّ : « الالفاظ والصور الفنية شكلا من اشكال التزيين للشعر ، ومن ثم كان المعنى عنده هو الجوهر ، والالفاظ وسائل من التزيين والتميق (٩٧) » .

ولم يتعد ابن طباطبا عن هذين الناقدين حين قرر ان المعنى الجميل يبقى محتفظا بوجوده اذا عبر عنه بالفاظ رديئة ، كما ان المعنى القبيح يكن ابرازه بالفاظ حسنة . قال ابن طباطبا : « وكم من معنى حسن قد شين بعرضه الذي ابرز فيه ، وكم معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح البه (٩٨) » .

وشرح قدامه بأن شكل العمل الادبي لا يتأثر بمضمونه ، ورأى الاخير على الشاعر فيما يسوق من معانٍ رفيعة كانت ام وضعية ، وحيدة كانت ام ذميمة ، وحقا كانت ام كذبا ، ذلك ان : « المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعية ، والشعر فيها كالصورة ... وليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه (٩٩) » ، وكما لا ييبب جودة التجارة رداءة الخشب في ذاته ، كذلك لا تؤثر رداءة المضمون في جودة الشكل في العمل الشعري (١٠٠) .

وهذه الاحكام خاطئة ، وقد ساقهم اليها ايمانهم بانفصال شكل العمل الادبي عن مضمونه ، وعدم تأثر احدهما بالآخر . فالمعنى شيء ، والتعبير عنه

(٩٦) الشعر والشعراء : ٦٤/١ وما بعدها .

(٩٧) قضايا النقد الادبي والبلاغة ، ص ٢٨٤ .

(٩٨) عيار الشعر : ٨ .

(٩٩) نقد الشعر : ١٣ ، ١٤ .

(١٠٠) نفسه : ١٤ .

شيء آخر موضوع بازائه ، وكلاهما يحتفظ بجوهره وخصائصه على الرغم من تبدل الآخر واختلافه .

ان العلاقة بين لغة النص الادبي ومضمونه - في نظر هؤلاء النقاد - لا تتعدى علاقة الكساء بالجسم ، أو الغلاف الخارجي بما يحتويه ، وكل من هذين لا يؤثر ولا يتأثر بجوهر ما يحويه .

والحقيقة ان العلاقة بين لغة العمل الادبي ومضمونه لا تفهم على هذا النحو ، ولا يمكن بحال ان تشبّه بعلاقة الكساء او الوعاء بما في داخلهما ، اذ ان الكساء والوعاء يعرضان ما فيهما دون تأثير او تأثر جوهريين .

ولو صح ان علاقة لغة النص الادبي بمضمونه كعلاقة الكساء بالجسم ، او الوعاء بما يحويه ، ولو صح كذلك ان المعنى الجيد يمكن التعبير عنه بلفظ رديء مرة ، و بلفظ جيد مرة أخرى ، ثم تبقى له صفة الجودة في الحالتين ، لو صح هذا لامكن ان نتبدل ببعض كلمات النص الادبي كلمة أخرى ترادفها ، او تشبها في المعنى دون ان يفقد السياق معناه ، او شيئاً من خصائصه واذا كان هذا غير ممكن ادركنا ان لغة النص ليست كساء لمحتواه ، ولا غلانا خارجيا له ، يمكن استبداله على نحو ما تتبدل الاكسية والاغلفة ، دون ان يكون لاستبدالها أثر في جوهر ما تعرضه .

والتائلون بان معاني الشعر ليست بذات اثر فعال في شكله الخارجي ، او صورته التي هي الناطه ، او ان شكل الشعر ليس له أثر فعال في معانيه ، يتندون - كما يتند قدامة - الى حجة فلسفية ، مؤداها ان صورة الشيء لا تؤثر في هيولاه ، او المادة التي صيغ منها . فكما ان الخشب واحد لا يتغير بتغير صورته كأن يكون بابا او كرسي او سفينة ، فكذلك المعنى وهو هيولى الشعر ، يبقى واحدا مهما اختلف صوغه ، او تبدلت طريقة اخراجه والتعبير عنه .

وقد نرى عبدالقاهر تعدد الصياغة للمعنى الواحد ، وقرر عدم امكان بقاء المعنى في حال تغير صياغته ، واختلاف التعبير عنه . وفي هذا اعتراف

بتلازم الصورة والمضمون في العمل الادبي ، وتلاحمها تلاحما يفضي الى ان يتغير أحدها لما يطرأ على الآخر .

لقد أخطأ اذن عدد من النقاد حين ذهبوا الى ان الصياغة في العمل الادبي شيء طارئ على مضمونه ، طروء الكساء على الجسم ، او الوشي على الثوب ، او الغلاف على المحتوى ، فالحقيقة ان الصياغة شيء وثيق الاتصال بالمضمون ، وان كلا منهما مؤثر ومتاثر بالآخر ، ذلك لان المضمون يستدعي نطقا خاصا من عناصر التعبير ، ويعين ضربا من الصياغة ، بحيث يأتي كل عنصر في التعبير لاثبات عنصر مقابل له في التجربة ، او المعنى المراد تقديمه ، ويكون العنصران متلازمين ، يولدان في وقت واحد ، ثم لا يستغني احدهما عن الآخر ، ولا يمكن له ان يظهر بدونه . وان أي تبديل في اي منهما يعني تبديل الآخر . وهذا النحو من الترابط بين شكل العمل الادبي ومضمونه هو الذي يسيه المحذون بالترابط العضوي ، تشبيها له بما يكون بين اعضاء الجسم الحي من ترابط .

والفصل بين الشكل والمضمون أدى الى خطأ آخر ، هو الاهتمام بالشكل ووقوف النقاد عنده في درس النصوص وتحليلها ، مغفلين شأن المعاني والافكار . ولذا نرى ان أغلب الاحكام التي وصلت اليها تتصل بالشكل الخارجي ، او باللفظ دون المعنى . ذلك لانهم جعلوا البراعة في الشعر : « لا تكن في مادة المعاني او الافكار ، ولا تتصل بنية هذه المادة في ذاتها من حيث جلالها وهوانها ، او صدقها وكذبها ، انما تكن في الشكل الذي تتخذه هذه المعاني وفي طريقة الصياغة التي تخيل للمتلقى أمرا من الامور ، فيفضي به الى اتخاذ وقتة سلوكية بعينها ، تعجل في فعل او اشغال^(١٠١) » .

وان كان الشعر ظاهرة : « لغوية في جوهرها لا سبيل الى التاتي اليها الا من جهة اللغة التي تمثل فيها عبقرية الانسان ، وتقوم بها ماهية

(١٠١) الصورة الفنية : ٢٨٤ .

الشعر (١٠٢) « ، فان للغة النص صلة وثقى بالمضون ، فالتعريج على ذلك المضون والنظر فيه ، وبيان الصلة العضوية بينه وبين اللفظ او الشكل ، امور مهمة ، ينبغي للناقد ان يوليها عناية ، ويصرف اليها اهتمامه .

ليس شكل العمل الادبي ، كما تقدم آتيا من العدم ، او قائما على فراغ ، وانما هو نابع من تجربة معينة ، ومن أفكار وخواطر ، أملت ذلك الشكل بعينه وما على الناقد إلا أن يبرز التلاحم العضوي بين الشكل وما وراءه من عالم باطني مكتنز بالاسرار .

ان العالم الخارجي للشعر ثمرة لعالم داخلي ، ومن ثم لا يكون عمل الناقد اللغوي تاما ، ولا تكون النتائج التي يتوصل اليها صحيحة ، اذا أغفل العالم الثاني ، وحبس بحثه ونظره على العالم الاول . وقد أغفل عدد من نقادنا نفس المثى ، وعلمه الداخلي ، ولم يروا لها علاقة بسط الصياغة التي يختارها ، فجاءت أحكامهم قاصرة ، تتناول اللفظ ، وتنصب على العبارة .

وقد علل عز الدين اسماعيل عناية النقاد القدامى بالشكل دون المحتوى بأمرين : ذهب في الاول الى ان العرب عامة ، كانوا يرون الجمال الظاهري ، وقلما اهتموا بما وراء الظاهر ، فشاعرهم حين يحدثنا عن صورة حبيته يلح دائما على بيان الاجزاء الفاهرة من جسمها ، وقلما نجدد يحدثنا عن انوفاء او الطيبة او الذكاء او الحنان او غير ذلك من معنويات يتطوى عليها ذلك الشكل الجليل . ولم تختلف نظرة النقاد الى النص عن نظرة اسلافهم الى صور محبوباتهم ، بمعنى أنهم وقتوا عند ظاهره المتثل في الفاظه وصوره ، الى ان الشكل في العمل الأبي محسوس « والمحسوس يكن تبيين القاعدة التي يتبهما (١٠٤) » .

(١٠٢) التركيب اللغوي للادب (المقدمة) : ه .

(١٠٣) الاسس الجمالية في النقد العربي : ١٧٦ .

(١٠٤) نفسه : ١٧٥ .

وعندي ان التفسيرين كليهما غير مقبولين ، ذلك لانها ينطويان على اتهام العربي بقصور النظرة ، وعدم شموليتها ، او بالعجز عن رؤية الخفي ، والنشاذ الى ما وراء الظاهر .

والتليل الصحيح لاهتمام النقاد بالشكل يقوم على أمرين : الاول ايمانهم باستقلال الشكل عن المضمون استقلالاً يلغي ما بينها من تفاعل ، والثاني عدم حفلهم بالمعاني ، وتهوينهم من شأنها في عملية الخلق الادبي ، تلك العملية التي ردوا صفات البراعة فيها الى الشكل دون المضمون .

رابعاً - الجزئية :

ان كل دارس للنقد العربي عامة ، والنقد اللغوي خاصة ، يجد ان النقاد في كثير من الاحيان يفتزمون خطة لا يحددون عنها ، وهي النظر في البيت الواحد ، والكلمة المتردة ، لا يلتفتون الى القصيدة ككل ، ولا يلقون عليها نظرة موحدة مجلة^(١٠٥) .

لقد نظر النقاد الى كل بيت على انه قائم بنفسه ، لا يحتاج الى ما بعده لاتمام معناه ، فاذا لم يقم البيت بنفسه ، واحتاج الى الثاني عابوا الشاعر ، ورموه بالعجز . ومن هنا شبه كثير منهم القصيدة بالمعدن من الجوهر ، وكل بيت فيها جوهرة قائمة بنفسها ، مستقلة عن أختها .

وكما أفردوا البيت - عند نقده - عن القصيدة ، كذلك أفردوا الكلمة عن البيت ثم أفردوا القصيدة عن تاج الشاعر بأكمله . وجاءت احكامهم - تبعاً لذلك - مشحونة بالخطأ ، غالية في القوة ، بعيدة من طبيعة الفن الادبي .

لقد كان الناقد يسع القصيدة ، فليتنظ منها ما يناسبه ، او ينسجم مع ذوقه ، فيحكه بالنظر والنقد ، ثم يطرح سائرهما ، او كان يسع القصيدة فلا يلت نظرهما منها سوى كلمة شذت عن مقاييس اللغة ، او اتت بنقل او كراهة ، فكم جنت كلمة على قصيدة ، وكم جنى بيت على ديوان .

(١٠٥) النقد الجمالي : ١٤٧ .

فهذا يونس بن حبيب يسقط قصيدة كاملة للاعشى بسبب كلمة (الطحال) التي وردت في أحد آياتها . وكان يونس قد أصدر هذا الحكم الجائر على قصيدة الاعشى عندما أنشده مروان بن ابي حفصة لنفسه قصيدته التي اوليا :

طررتك زائرة فحيّ خيالها

قال يونس لمروان : « يا هذا اذهب فانظر هذا الشعر ، فانت والله فيه اشعر من الاعشى ، يريد في قوله :

رحلت سية غدوة اجالها

فقال له مروان : قدوة سؤتي وسررتي ، فاما الذي سررتني به فلارتضائك الشعر ، واما الذي سؤتي به فلتقديك اياي على الاعشى . قال : نعم ، ان الاعشى قال :

فرمت غفلة عينه عن شاته فاصبت حبة فلبنها وطحالها

والطحال لا يدخل في شيء الا انفه ، وانت لم تقل ذلك (١٠٦) » .

وهذا ابن لنكك البحري يحكم على مصراع واحد من قصيدة بأنه يسقط دواوين كاملة . جاء في الوساطة ان ابن لنكك سح قول المتنبي :

بقائي شاء ليس هم ارتحالا

فجعل يعجب من هذا المصراع من حضره ويقول : هل رأيتم أشد تعقيدا ، وأظهر تكلفا ، واسوأ ترتيبا من هذا الكلام . قال - يعني راوي الخبر - فقلت له : هب الامر على ما ادعيت ، وانا سلنا لك ما زعمت ، اين أنت من قوله في اثر هذا البيت :

كان العيس كانت فوق جنني مناخات فلما ثزن سالا

قال : فاستشاط غيظا ، ثم قال : هذا الصراع يسقط دواوين عدة شعراء (١٠٧) .

ونجد ابن شرف القيرواني يحكم على قصيدة لجرير بالثقل لورود كلمة (بوزع) في أحد آياتها ، وهي لفظة ثقيلة عندهم . قال جرير :

وتقول بوزع قد دبيت على العاص
هلا هزئت بغيرنا يا بوزع

فقال ابن شرف : « وهذا البيت في قصيدة من أحلى قصائد جرير وأملحها وأجزلها وأفصحها : فثقلت القصيدة كلها بهذه اللفظة (١٠٨) » .

وبسبب النظرة الجزئية ، وتطلبهم من البيت الواحد ان يستقل بمعناه رفضوا قول جرير :

فيا لك يوما خيره قبل شره
تغيّب واثيه وأقصر عاذله

قال خلف : « وبله وما ينفعه خير يؤول الى شره ... الاجود له لو قال :

فيا لك يوما خيره دون شره (١٠٩) » . ولو ان خلفنا ، ومن تبعه ، نظروا الى بيت جرير وهو في سياقه ، ولم يقتطعوه عما سبقه من آيات ، لتهوا المراد ، ولم يغيروا رواية البيت ، ولنجا جرير من وحنهم اياه بأنه : « كان قليل التفتح مشرد الالفاظ (١١٠) » . وبقي حكم خلف على بيت جرير مأخوذا به : حتى جاء ابن رشيقي ، فنظن ان فساد هذا الحكم ، وأدرك ان سببه هو النظر الى البيت متقلا عما قبله . قال جرير :

وليل كابهام الجبارى محبب
الذي هواه : غالب لي باظه
رزقتا به الصيد الغرير ولم تكن
كن نبله محرومة وجباله
فيا لك يوما خيره قبل شره
تغيّب واثيه وأقصر عاذله

(١٠٧) الوساطة : ١١٦ ، ١١٧ .

(١٠٨) اعلام الكلام : ٢٨ .

(١٠٩) الموشح : ١٩٩ .

(١١٠) نفسه .

وقال ابن رشيقي معلنا على حكم خلف السابق : « أما هذا الإصلاح فليح
الظاهر ، غير انه خلاف الناهر ، وذلك ان الشاعر اراد انه كان ليلة في وصال ،
ثم فارق حبيبه نهارا ، وذلك هو الشر الذي ذكر ، والراوية جعله لم يفارق
فغير عليه المعنى (١١١) »

يتضح من ذلك ان نظرة عدد من النقاد الى التصيدة على انها مجموعة
من أبيات مستقلة ، كانت مجافية للسنج النقدي الصحيح ، هذا المنهج الذي
يعد التصيدة كلا لا يتجزأ ، ولا ينفصل بعنه عن بعض .

ان الكلمات في التصيدة ليست قطعا من خشب صف بعضها اني جوار
بعض ، وانما هي اعضاء في نسيج حي ، تتفاعل فيسبح بعضها بعضا دلالات
وفاعليات خاصة (١١٢) . واذا كانت الكلمات داخل السياق تتفاعل على هذا
النحو ، وتتسلك كأعضاء جسم حي ، تندر على الناقد ان يتناول بعضها
بمعزل عن بعض ، او يخص كلمة بلاحظة أو حكم دون نظر الى السياق الذي
جاءت فيه .

وما يقال عن علاقة الكلمة بالكلمة ، يقال عن علاقة البيت بالبيت داخل
التصيدة . فأبيات التصيدة لم تتركب تركيبا آليا ، بحيث يمكن للناقد ان
يفصل بعضها عن بعض ، او ينظر في بيت منها دون آخر ، وانما عليه ان ينظر
اليها على أنها أجزاء في جسم حي ، تتعاون جميعا على تكوينه ، وبث
الحياة فيه (١١٣) . فالبيت الواحد لا يعني شيئا بنفسه ، وانما هو جزء مكل ،
وان قيسته ترجع الى صلتها باقبله وما بعده من جانب ، والى صلتها بموضوع
التصيدة كله من جانب آخر .

واذا كان الامر كذلك فقد اخطأ التدايمي اذ كانوا يقطعون البيت من
سياقه ، او الكلمة من مكانها ، ثم ينظرون الى كل منها على انه شيء مستقل ،
لا صلة له بسواه .

(١١١) الصلدة : ٢٤٨/٢ .

(١١٢) قضايا النقد الادبي والبلاغة : ٢٤١ .

(١١٣) النقد والنقد الادبي : ٦٦ ، ٦٧ .

وقد فطن المبرد الى أهمية ملاحظة السياق في الحكم على الكلمة ، وأشار الى ضرورة مراعاة مكانها من التركيب ، عند نقدها وتقويمها ، فقد تكون الكلمة مشينة اذا اقتطعت من موضعها ، ونظر اليها وهي خارج السياق ، فاذا ضحها التركيب ، وانعظت عليها جنبتا الكلام ، غطى ذلك على عوارها ، وستر من شينها . يقول المبرد : « وقد يضطر الشاعر المطلق ، والخطيب المعقع ، والكاتب البليغ ، فيقع في كلام أحدهم المعنى المتعلق ، واللفظ المستكبر ، فاذا انعظت عليه جنبتا الكلام غطتا على عواره ، وسترنا من شينه (١١٤) » .

وفي قول المبرد هذا تأكيد على مراعاة (الكل) عند الحكم ، ودعوة الى الاقلاع عن النظرة الجزئية ، التي تقف عند الكلمة المفردة ، والبيت الواحد ، لان مثل هذه النظرة لا تؤدي الى ادراك القيمة الفنية الصحيحة للكلمة او البيت ، فالجزء الواحد من العمل الادبي لا يقوم بنفسه ، ولا تكون له قيمة بذاته ، وانما تظهر قيمته عند النظر الى ما يكمله ، ويتلاحم معه من أجزاء اخرى ، تتعاون جميعا على خلق العمل الادبي ، واعطائه سباته .

واذا كان المبرد قد اشار الى أن قيمة الكلمة تتغير اذا دخلت في تركيب ، وتآخت مع غيرها في سياق ، فان عبدالقاهر قد افاض في شرح هذه الناحية ، وحشد لها العديد من الادلة ، وذلك في اثناء عرضه لقضية (النظم) .

وكما جزأ نقاد التصيدة أو البيت جزأوا نتاج الشاعر ، ونظروا في بعضه ، ثم طرحوا سائرهم ، فجاءت أحكامهم قاصرة ، ان صدقت على بعض ذلك النتاج ، فانها لا تصدق عليه كله .

واهمال « أدب الاديب في جملة تقصير من النقد ، والتشنيح ببعض سقطاته تقصير في جانب الحق ، وهو عيب من ناحيتين : الناحية الفنية ، وهي تلزمك بالنقد في جملة ما يقول الاديب وما اتجه ، والناحية الخلقية التي تنس الانصاف نفسه ، فيكون موقف الناقد من المنقود موقف انتحدي له ، والنقمة عليه (١١٥) » .

(١١٤) الموشح : ١٦١ ، ١٦٢ .

(١١٥) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان : ٣٣٢ .

فالتقاد كانوا يقدمون من يقدمونه من الشعراء ، ويؤخرون من يؤخرونه منهم ، دون استقراء واسع لأدبهم ، ولا درس واف ودقيق لما قالوه وأتجهوه . وقد وصلت إلينا احكام كثيرة ، تقضي لهذا الشاعر او ذاك بالسبق والتقدم ، لبيت قاله ، او معنى بديع وقع عليه كما وصلت إلينا احكام أخرى تصف هذا الشاعر او ذاك بالتأخر او الجهل ، لهفوة عابرة ، او زلة يسيرة . فانذي جعل الاسمي مثلاً يضعف الطرماح ، ويحكم عليه بالجهل باللغة ، خطأ واحد . قال الاسمي : « كنا نظن الطرماح شيئاً حتى قال :

وأكره ان يعيب علي قومي هجائي الارذلين ذوى الحنات

لأنها احنة واحن ، ولا يقال : حنات (١١٦) » .

ويذكر المبرد أنه كان يحترم علي بن الجهم ، ويشق بلفته ، ثم تغير رأيه فيه للحن سعه منه : قال المبرد : « كنا عند محمد بن عيسى بن عبدالرحمن الكاتب ، ومنا علي بن الجهم ، فاراد الانصراف ، فقال له محمد بن عيسى : لو متعتنا بنفسك . فقال له : انه بلغني شيء ، وأظنني مازور (كذا) في قعودي . قال ابو العباس : فنقص في عيني ، وانا هو موزور (١١٧) » .

وابن جني مثل الاسمي والمبرد كان يقر لبعض الشعراء ، بالنتاحة ويتلقى كلامه بالقبول ، حتى انشده يوماً لنفسه شعراً يقول فيه (كان فاهي) وكان الصواب ان يقول (في) بالياء ، لان ياء المتكلم تكسر أبداً ما قبلها ، فكان هذا الخطأ كافياً لان يقلب اعجاب ابن جني بالشاعر الى شرة منه ، واضراح للفتة (١١٨) .

وكان صاحب بن عباد قد حمل على المتنبى ، وقضى عليه بالتأخر ، ولم ين حكه هذا على درس واسع لشعر الرجل ، وانا بناه على قرابة ثلاثين

(١١٦) الموازنة : ٤٢/١ .

(١١٧) الموشح : ٥٢٨ .

(١١٨) الخصائص : ٧/٢ .

الغاممة

لم يحظ موضوع (النقد اللغوي عند العرب) بعناية كبيرة ، ولم يلتفت اليه الباحثون ، ولم تقم عليه مؤلفات كاملة ، بالرغم من اهميته وكثرة ما وصل الينا من آراء فيه ، ولذا أحسنت حين اتبعت من هذه الرسالة ، بعد جهد طويل مضن ، أنني استطعت ، بحدود ما اعرف وبأقصى ما يمكن ان يوصلني اليه البحث ، ان اقدم عملا عليا ، أتسى ان يد فراغا وأن ينال مكانة طيبة في المكتبة العربية وأن ينيد الدارسين وان يكون منطلقا لبحوث اخرى ومؤلفات متواصلة .

ان التراث العربي ، وان جندت الطاقات الهائلة لخدمته وتحليله ، ما فتئت جوانب منه بئسأى عن ايدي الدارسين ، وكان الجانب الذي تناولته هذه الرسالة واحدا منها . فان اكن في بحثي هذا قد وفقت الى ما هدفت اليه من رسم صورة كاملة للنقد اللغوي عند العرب ، ففي ذلك عزائي عما لقيته فيه من نصب ، وكابדתه من عناء ، والافحسي أنني لم اقصر ، ولم أبخل بوقت او جهد .

وان كان شيء قد حداني على الكتابة في هذا الموضوع ، غير ما ذكرت من أهيمته ، وانصراف الدارسين عنه ، فهو ما استشعره من ان اللغة في عصرنا هذا ينبغي ان تكون قطب النقد الاول ومداره الرئيس ، كما كانت عند اسلافنا من النقاد ، لأنها مادة الأدب ووسيلته ولا شيء يحدد منزلة الاديب ويعطيه سساته التي تميزه من غيره مثل اللغة ، وطريقة استخدامها ، والتعامل معها . ومن هنا كان لنا ان نقول ان عمل الناقد الاول هو البحث عن (الشخصية) في (اللغة) او الترد في استخدامها .

ان (اللغة المتميزة) مبتغى الاديب المبدع في كل عصر ، ولا بد للنقد من ان يقف على آثار الاديب ، ويتكشف ما في لفته من عناصر الابداع .

وإذا كانت ظاهرتا الأدب والنقد ترتبطان باللغة هذا الارتباط الوثيق ،
فإن الاتجاه الـ (اللغة) وجعلها في مقدمة ما يعنى به النقد امر ضروري •

وإذا كنا نطلب من النقاد المعاصرين أن يتجهوا إلى لغة النص الأدبي ،
ويحاولوا فهمها ، والبحث عما يميزها ، فإن الاسترشاد بما في تراثنا من آراء
بهذا الشأن أمر محتوم ، ليكون ما نبنيه من تقاليد جديدة امتدادا لما في ذلك
التراث ووثيق الصلة به •

وهنا تكمن أهمية هذه الرسالة ، فقد اضطلعت بتجلية ما في تراثنا
النقدي من نظرات وتقاليد تخص لغة الأدب ، ليكون الصالح من تلك التقاليد
الاساس الذي نبني عليه والمثال الذي نحتذي به ، إذا نحن اتجهنا إلى لغة
النص ، وجعلناها الغاية الأولى من النقد • وانظر ما سنجنيه من اهتمامنا بلغة
الأدب ، هو أننا سنطوي العريية للأجيال القادمة سليمة ومعافاة ، قوية وثابتة ،
كما اعطانا آياها الأقدمون ، بعد أن اهتموا بها ، وتفتنوا في ابتغاء الوسائل إلى
خدمتها ، واستكشاف عبقريتها •

لقد بدأ البحث بتحديد تضمن عرضا موجزا لأهمية اللغة ، في حياة
الجماعة وبيانا لنوعين من التعامل بها ، فهي مرة أداة تتواصل بها الجماعة
في شؤونها اليومية ، ومرة أخرى وسيلة للخلق الأدبي ، والفرق بين الحالتين
هو أن الإنسان العادي يتقيد في استعمال اللغة بما تواضعت عليه الجماعة ،
أما الأديب فيستع بقدر كبير من الحرية الفنية في استخدامه للغة ، ويستعملها
على نحو لم تألفه الجماعة في مخاطباتها ومحاوراتها •

وقد بينت أن عددا من النقاد المحدثين فطنوا إلى أهمية اللغة في الأدب
فرأوا أن المنهج النقدي الملائم للعمل الأدبي هو المنهج اللغوي ، فشرحت
هذا المنهج ، وبرزت ما بينه وبين المناهج النقدية المتعارفة من فروق ، كما
أوضحت تقصير تلك المناهج في خدمة النص ، وقلة عنايتها بآدائه الأولى وهي
(اللغة) • ثم بينت أن العرب عرفت (النقد اللغوي) منذ حقبة مبكرة في
العصر الجاهلي ، وقدمت حورا من هذا النقد في ذلك العصر •

ودرت في الباب الاول العوامل المؤثرة في (النقد اللغوي) . وقد بحثتها في خسة فصول : بحث في النصل الاول الرواية : وقد كانت عاملا اذكى حركة النقد اللغوي ، وبعثها قوية ونشيطة ، وكان النقد اللغوي القائم حولها نوعين : الاول نظري يتمثل في مقاييس عديدة هي : (الزمان والمكان) ، وبسقتضى هذا المقياس قبل الرواة بعض الشعر لاتسائه ان زمان معين ومكان معين ، ورفضوا آخر لعدم اتسائه الى ما تعارفوا عليه من حدود زمانية ومكانية . و (الغرابة) فقد اشترط الرواة في الشعر المروى ان يكثر فيه الغريب . و (الطبع والصنعة) فقد جوا في الشعر المهذب المحكك ، وقدموا عليه الشعر الذي يجمع فيه قائله الفث الى السين ، والجيد الى الردي ، لانهم عدوا هذا النوع من الشعر دليل التمكن الفطري من اللغة .

واما النوع الثاني من النقد الذي نشط بسبب الرواية فهو (النقد العملي) وهو الذي يعني باصلاح لغة النص المروى ، وتخليصه ما لحقه من تصحيف او تحريف ، او تحديد ما كان مختلعا ، من النصوص وقد هداهم اليها ما في لغتها من شذوذ عن التعبير اللغوي المعهود ، او الكثير المطرد .

وبحث في الفصل الثاني (التطور اللغوي) : وهو العامل الثاني من عوامل المؤثرة في النقد اللغوي ، وخلاصته ان العربية لم تجد على ما هي عليه ، بل امتدت اليها يد التطور ، منذ عصر الفتحوات ، وظلت تعمل فيها ، محدثة الواناشي من التغيير ، فادى ذلك الى ان ينشط النقد اللغوي ، ويتصدى في كل عصر ثمر من النقاد لحياية اللغة من التطور ، والعودة بالناطقين الى الموروث من النطق الصائب والاستعمال اللغوي السليم .

وقد رأيت ان التطور بدأ يسيرا في العصر الاموي ، ثم اشتد في اوائل العصر العباسي ، وتفاقم في القرون المتأخرة ، فكان النقد اللغوي يتأثر بنوع التطور وطبيعته ، ففي العصر الاموي واوائل العصر العباسي كان النقاد اللغويون يتشددون ويطالبون المشيء بافصح ما وعت اللغة من صيغ واساليب ، وفي القرون المتأخرة ، عندما انحط المستوى اللغوي ، وضعت الملكات

اللغوية عند الادباء ، ترك النقاد التشدد ، وقبلوا كثيرا ما كان الاوائل يرفضونه ، ويحظرون النطق به .

ثم درست في الفصل الثالث عاملا آخر من عوامل نشاط النقد اللغوي وهو (التعصب للتقديم) ، بسبب هذا العامل نشأت مقاييس ، وحددت احكام ومواقف نقدية ، هي : (الميل الى الغرابة والتخامة) ، بمعنى ان انتصار التقديم حاربوا السهولة ، وارتضوا من الاساليب ما كان فحشا ، يزخر بالغريب .
و (رفض اشتقاق ما يسح به القياس) ، ومعنى ذلك ان المحافظين رفضوا ما استحدثه بعض الشعراء من صيغ واساليب ، قاموها على نظائرها ، وانما فعل المحافظون ذلك حباية للغة من ان يدخلها لفظ ، لم ينطق به العرب .

و (رفض المرّب والدخيل) ذلك لان المتعصبين رأوا ان التعريب حق مقصور على العرب الاوائل انفسهم ، ولا يحق لمن بعدهم ان يدخل في اللغة لفظا لم يدخلوه .

والمقياس الاخير الذي نشأ بسبب (التعصب للتقديم) ، هو (التقيّد بالعرف اللغوي) في صوغ المجاز وبناء الاستعارة . ويستتضي هذا المقياس رفض المحافظون كثيرا من مجازات المحدثين ، لانهم وجدوا ان العرب كانت تستعير اللفظ لمعنى يقارب معناه الاصلي ، او يكون متصلا به بسبب من الاسباب ، اما المحدثون فلم يجروا في هذه السبيل ، وعبروا بالانفاذ عن معان مجازية لم تنترز في العرف اللغوي المأثور ، فجز عليهم ذلك نقد المتعصبين للتقديم .

وتكلت في الفصل الرابع على عامل آخر من العوامل المؤثرة في النقد اللغوي وهو (الخصومة) ، وعنت بها (الخصومة الشخصية) التي لم تنشأ لدواع فنية ، وانما اذكتها عوامل شخصية لا علاقة لها بالنس والادب . واوضحت ان غير قليل من النقد اللغوي نشأ بسبب هذه الخصومة ، وانه كان يكن ان يخشي لو تجرد النقاد من الحسد والهوى ، ثم قدمت امثلة كثيرة للنقد اللغوي الذي كانت الخصومة باعثا عليه ، وكامنة وراءه .

اما العامل الخامس وهو (الاعجاز) فقد تكفل الفصل الخامس بانهاره ، وبيان اثره في النقد اللغوي . لقد بينت في هذا الفصل ان الاسلوب القرآني بهر العرب ، واستول على افئدتهم ، فجزوا عن مجاراته ، وانعقدت الستهم عن الاثيان بشله ، فانطلق فريق من العلماء يشحون عن سر هذا الاعجاز وكنهه ، فاداهم البحث الى نظرات اغت النقد اللغوي ، وأمدته بأسباب القوة والنساء . لقد برزت في هذا النقد قضايا وموضوعات لم تكن لتظهر لولا فكرة (الاعجاز) ، وقد شرحتها ، واسهبت في الكلام عليها . ومن ذلك قضية (السهولة والغرابة) و (موسيقى اللفظ والتركيب) و (الفروق بين المترادفات) ثم (اللفظ والمعنى) وقضية (النظم) وما تفرع عنها من مسائل واحكام .

وكان موضوع الباب الثاني من هذه الرسالة هو (موضوعات النقد اللغوي ومقاييسه) وقد ضم فصلين : تكلت في اولهما على (مقاييس الخطأ والصواب) ، وذهبت الى ان النقاد عثروا في لغة الشعراء على صيغ واستعمالات لا تجرى على المعهود من قوانين اللغة واستعمالاتها ، فحللوا بعضها على (الضرورة) ، وحكموا على بعضها بالخطأ ولم يسلّم النقاد جميعا بالضرورة ، بل اختلف موقفهم منها : فهناك من اجازها وجعلها مقصورة على ما عرف منها عند الشعراء القدامى الذين يحتج بأقوالهم ، ومنهم من رفضها وعددها لاحقة بالخطأ الذي يحاسب الشاعر عليه ، وتوسط فريق ثالث فقبل ما جاء منها عن عصور الاحتجاج ، ورفض ان يحدث المولدون شيئا منها في شعرهم ، وان جاء عن الشعراء الموثوق بفصاحتهم ، وقد رد هذا الرأي عدد من العلماء منهم امين جني ، وتكلت بعد ذلك على (الاخطاء) الصريحة التي لم يحلها احد على الضرورة ، ولما كانت تلك الاخطاء كثيرة ، فقد اجترأت بأمثلة منها ، وبينت ما دار حول تلك الامثلة من خلاف .

وتناول الفصل الثاني من هذا الباب (مقاييس الجودة والرداءة) وجعلت الكلام على هذه المقاييس في قسمين : تناول القسم الاول مقاييس الجودة والرداءة في (المفردات) ورأيت ان النقاد كانوا يتجيدون المفردة ، اذا حسن تأنيها ،

وابتعدت من الحوشي الغريب ، وارتفعت عن العامي المتبذل ؛ وكان لها
 ايحاء محبب ، ووقع جميل . كما كانوا يستجيدون المفردة اذا كانت تلائم
 المعنى الذي سيقت له ، وتجانس الغرض الذي تكفلت هي وجاراتها بإبرازه .
 ويستجيدونها ايضا اذا كانت دقيقة الدلالة على المعنى ، غير زائدة في التركيب .
 او مقحمة عليه ، وذات دلالة محددة ، فان كان لها اكثر من معنى وجب ان
 تصاحبها قرينة ، تكشف معناها ، وتحدد المراد منها . ومن مقاييس جودة
 (المفردة) الا تكرر الا اذا كان وراء تكرارها علة توسوغه ، وتجعله مقبولا
 ومفيدا ، وقد بينت المواضع التي يحسن فيها التكرار في نظره . ومن
 مقاييس جودتها الا تكون من المصطلحات والفاظ العلوم ، وان تكون
 مصغرة اذا عبر بها عن معنى فيه خفاء وضوالة . كما كان لاساء الاعلام
 والاماكن واساء الاشارة والموصول والضائر وكاف المخاطب مقاييس
 خاصة ، وقد اوضحتها ، ودلت عليها . ولم اترك آراء النقاد فيما اوردوه من
 مقاييس بشأن المفردات دون مناقشة ، بل قبلت بعض ما ذهبوا اليه ، ووافقهم
 عليه ، ورفضت بعضه ، وبينت خطئه وبطلانه .

وتناول القسم الثاني مقاييس الجودة والرداءة في (التراكيب) ووضحت
 فيه ان التركيب الجيد عندهم هو التركيب الذي تتألف مفرداته ، وتتسجم
 الكلمات في داخله فينسب في سهولة ، كما اوضحت المواطن التي تسبب الثقل
 للعبارة ، وتجعل الفاظها متنافرة .

واوضحت كذلك ان النقاد استجادوا التركيب الذي تسجم الكلمات
 فيه من الناحية الصوتية ، بحيث تؤلف بسجوعها نفسا تطرب له الاذان ،
 وتقبل عليه النفس ثم بينت الوسائل التي يعمد اليها المنشي ، ليحقق لبعابته
 قيا موسيقية ترفع منها ، وتكسبها الجودة والروعة .

ورأيت ان جودة التركيب ورداءته تتعلق بوضوحه او غموضه ، وبينت
 ان النقاد كانوا يستجيدون التركيب الواضح ، وينفرون من التركيب المعقد
 او الغامض . على ان الغموض عندهم نوعان : غموض منشؤه الالفاظ ،

وطريقة التأليف بينها ، وقد حاربوا هذا النوع من الغوض ، وذموا التراكيب التي تتصف به . وغوض مرده الى صعوبة المعاني ودقتها ، وهو غوض محجب ، رضي عنه النقاد ، ومالوا اليه . لقد احبوا الادب الذي يتطلب فهمه وذوقه شيئا من جهد ومعاناة ، اما الادب الذي لا يستدعي جهدا ، فقد ازدروه ، ونالوا منه .

ثم بينت بعد ذلك انهم استجادوا (وحدة النسخ) ، وتطلبوا في التركيب ان تتأخى الفائده ، وتسجم ، وتأتي على صفة واحدة ، فلا تتفاوت بين الرقة والجزالة ، والوعورة والسهولة ، والطرافة والابتدال . ولم يتطلبوا وحدة النسخ في العبارة الواحدة ، بل راموه في القصيدة كلها ، وتاج الشاعر جسيمة . وقد ناقشت هذه المقاييس ، ورضيت ما اتضح لي وجه الحق فيه ، ورفضت ما لم يكن النقاد فيه على صواب .

وجاء الباب الثالث ليبين قية النقد اللغوي ، ويوضح ماله من اهمية وفوائد ، وما عليه من المآخذ . وقد كان هذا الباب في فصلين :

تكلت في الفصل الاول على وجوه الاهمية ، وضروب التوائد التي أسفر عنها النقد اللغوي ، ورأيت أنها :

١ - حياية اللغة ودرء عوامل التغيير والفساد عنها ، ولا شك في ان لاستقرار اللغة - بفضل النقد اللغوي - وثبات صيغتها الرئيسية قية عظي ، ونقما محمودا ، وذلك من اكثر من وجه ، وقد فصلت تلك الأوجه .

٢ - تهذيب اللغة ، وتصفية متنها من كثير ما شابه ، أو أسفه من اخطاء وأوهام ، تجعل ذلك المتن غير صالح لان يبنى عليه ، او يستنبط منه شيء من الحقائق اللغوية ، ثم غربلتها ونقي ما اصبح قليل الفائدة من الفائضا ، او ما ليس بالحلي ولا المستعمل من لهجاتها .

٣ - تسمية اللغة ، وجعلها أوفر مادة عن طريق قبول صيغ واستعمالات كان المنشئون يأتون بها ، اما قياسا على ما في اللغة من نظائر لها ، واما مجازاة للهجاء النادرة ، واما اقتباسا من لغات اخرى .

٤ - رصد وملاحقة ما كان يبرز في اللغة من ظواهر ، وعينا بالظواهر الغريب والنادر ، وما كان يجد في اللغة من خصائص واتجاهات تلت نظر الناقد اللغوي ، وتسترعي انتباهه .

٥ - تصحيح أخطاء المشنن، وقد رأينا ان هذا من الفوائد الجلية التي اداها النقد اللغوي للعربية ، وللناطقين بها ، ذلك لان اصلاح اخطاء المشنن كان يسع سيورتها واتشارها وما يؤدي اليه ذلك من تأثير في حياة اللغة ، كما ان اصلاح تلك الاخطاء قد يبعث المشنن على استكمال حظه من الثقافة اللغوية قبل التعدي لابداع الادب ، او الاقدام على نشر ما يتج منه .

٦ - ارشاد المشنن الى الحسن والاحسن من الالفاظ والتراكيب .

٧ - الدفاع عن المشنن حين يظلم فيرمى بالخطا او يوصف كلامه بالرداءة . وقد بينت المواقف التي كان المشنن يحتاج فيها الى الدفاع .

٨ - الكشف عن اسرار التعبير الادبي وخصوصيته ، وهذه فائدة تكاد تفضل فوائد النقد اللغوي السابقة ، لان المشنن بما يملك من موهبة كان يستخدم اللغة استخداما خاصا ، ويستخرج منها كل امكاناتها ، فكان الناقد اللغوي يبرز سمات ذلك الاستخدام اللغوي الخاص ، ويجعل المتلقي احسن فهما له ، وأشد أنسا به .

ثم تكلمت في الفصل الثاني على عيوب النقد اللغوي ، وما ظهر فيه من احكام ومواقف كان من شأنها ان تضر باللغة ، وتسيء الى الادب . وقد رأيت ان تلك العيوب هي :

١ - تزمت وجمود عدد كبير من النقاد اللغويين ، وقد تجلّى تزمتهم وجمودهم في مظاهر ثلاثة هي : الاحتكام الى القديم والتقيّد بالعرف اللغوي ، وعدم التفريق بين الخطأ والتطور ، ثم التسكك بلغات عدد نزر من القبائل ، والحكم على نجات القبائل الاخرى بالبعد من الفصاحة .

٢ - التعصب للشئىء او عليه ، ويبدو هذا العيب واضحا لمن يدرس النقد اللغوى عند العرب ، فقد تعصب عدد من النقاد للشعراء القدامى ، او من عرفوا بشعراء عصور الاحتجاج ، وعدوا كل ما صدر عنهم حجة لا يتورها الشك ، وان ظهر لهم في شعر هؤلاء ما يند عن المؤلف من قواعد اللغة ، راحوا يلتمسون لهم المعاذير والحيل ، ويتكلفون التخريج والتأويل . وكما تعصب هؤلاء النقاد للقدامى من الشعراء ، والتسوا بالتخريجات لاختلافهم ، فانهم تعصبوا على الشعراء المحدثين ، وغضوا من اساليبهم . وبجانب ظاهرة التعصب لعصر ادبي او عليه ، وجدت ظاهرة التعصب لشاعر واحد او عليه ، وقد شرحت ذلك كله ، وضربت الامثلة الكافية عليه .

٣ - الفصل بين اللفظ والمعنى او (الشكل والمضمون) ، وقد ترتب على هذه النظرة عدد من الاحكام النقدية الخاطئة ، عرضت لها ، وفصلت القول فيها .

٤ - الجزئية : وهي عيب بارز من عيوب النقد اللغوى ، وعينا به ان عددا من النقاد اللغويين التزموا خطة لم يحدوا عنها ، وهي النظر في البيت الواحد ، والكلمة المفردة ، ولم يلتفتوا الى القصيدة ككل ، ولم يلقوا عليها نظرة موحدة ومجملية . ولم يفرّدوا الكلمة عن البيت ، او البيت عن القصيدة فحسب ، بل عزلوا القصيدة عن تناج الشاعر كله ، فجاءت احكامهم - تبعا لذلك - مشحونة بالخطا وبعبدة من النصفة . وقد اومأت الى ان بعض النقاد قد فطنوا الى ضرورة مراعاة (الكل) وعدم الوقوف عند (الجزء) في عملية النقد والتقويم .

وواضح من هذه الابواب والتصول انها بما تقدم من مادة وامثلة ومناقشات ، لا يمكن ان تتسائل سعة وضيقا وتحديدا ، ولذا تركت لتلك الابواب والفصول مروتها فيما تستوعبه وتحتويه .

المصادر

- القرآن الكريم .
- ١ — الإبانة عن سرقات المتنبي ، أبو سعد محمد بن أحمد العميدي تح .
ابراهيم الدسوقي البساطي ، دار المعارف بمصر ١٩٦١ .
- ٢ — ابن السكيت اللغوي ، محيي الدين توفيق ابراهيم ، الطبعة الاولى ١٩٦٩ .
- ٣ — ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ، الدكتور عبدالعزيز
الاهواني ، القاهرة ١٩٦٢ .
- ٤ — أبو بكر الزبيدي الاندلسي وآثاره في النحو واللغة ، نعمة رحيم العزاوي،
مطبعة الاداب في النجف الاشرف ١٩٧٥ .
- ٥ — أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية ، الدكتور بدوي طبانة ،
الطبعة الثانية ١٩٦٠ .
- ٦ + اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، الدكتور محمد
مصطفى هدارة ، دار المعارف بمصر ١٩٦٢ .
- ٧ + اتجاهات النقد الادبي في القرن الرابع الهجري ، الدكتور احمد مطلوب،
الطبعة الاولى بيروت ١٩٧٣ .
- ٨ — الاتقان في علوم القرآن ، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي ، الطبعة
الثالثة ١٩٥١ .
- ٩ — اثر القرآن في تطور النقد العربي الى اخر القرن الرابع الهجري ، الدكتور
محمد زغاول سلام ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ١٩٦١
- ١٠ + اخبار ابي تمام ، أبو بكر محمد بن يحيى الصولي ، تح . خليل محمود
عساكر ورفيقه - بيروت ، بلا تاريخ .
- ١١ + اخبار ابي نواس ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ،
تح . محمد عبدالرسول ابراهيم وعباس الشرييني ، القاهرة ١٩٢٤ .
- ١٢ — الاخطاء اللغوية الشائعة ، محمد علي النجار ، القسم الثاني ، معهد
الدراسات العربية العالية ١٩٦٠ .
- ١٣ + اخلاق الوزيرين ، أبو حيان علي بن محمد التوحيدي ، تح . محمد بن
تاويت الطنجي ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق .
- ١٤ + ادب الكاتب ، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الديوري ، تح .
محمد محيي الدين عبدالحميد ، الطبعة الثالثة ١٩٥٨ .

- ١٥ - ادب الكتاب ، ابو بكر محمد بن يحيى الصولي ، تصحيح محمد بهجة الاثري ، بغداد ١٣٤١ هـ .
- ١٦ - اساس البلاغة ، جارالله محمود بن عمر الزمخشري ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية .
- ١٧ - الاستدراك على سيبويه في كتاب الابنية والزيادات على ما اورده فيه ، ابو بكر محمد بن حسن الزبيدي ، تح . جويدي ، روما ، ١٨٩٠ .
- ١٨ - الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان المسماة بالماخذ الكندية من المعاني الطائفة ، ضياءالدين بن الاثير ، تح . حفني محمد شرف ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ١٩ - اسرار البلاغة ، عبدالقاهر الجرجاني ، تح . ه . ريتز . استانبول ١٩٥٤ .
- ٢٠ - الاسس الجمالية في النقد العربي ، عزالدين اسماعيل ، الطبعة الاولى ١٩٥٥ .
- ٢١ - اسس النقد الادبي عند العرب ، الدكتور احمد احمد بدوي ، الطبعة الاولى ١٩٥٨ .
- ٢٢ - اصلاح المطلق ، يعقوب بن اسحاق السكيت ، تح . احمد محمد شاعر وعبدالسلام هارون ، الطبعة الثانية ١٩٥٦ ، دار المعارف بمصر .
- ٢٣ - اصول النحو العربي ، الدكتور محمد عيد ، القاهرة ١٩٧٣ .
- ٢٤ - الاضداد في اللفظة ، محمد حسين آل ياسين ، بغداد ١٩٧٤ .
- ٢٥ - اعجاز القرآن ، لابي بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، تح . السيد احمد صقر ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣ .
- ٢٦ - اعلام الكلام ، ابو عبدالله محمد بن شرف القيرواني ، عني بتصحيحه وضبط الفاظه عبدالعزيز امين الخانجي ، الطبعة الاولى ١٩٢٦ .
- ٢٧ - الاغاني ، ابو الفرج علي بن الحسين الاصبهاني ، من ج ١ - ج ١٦ طبعة دار الكتب المصرية وج ١٧ طبعة ساسي .
- ٢٨ - الاقتراح ، السيوطي ، طبع مجتبائي (بلا تاريخ) .
- ٢٩ - الاقتضاب في شرح ادب الكتاب ، ابو محمد عبدالله بن السيد البطليوسي ، بيروت ١٩٠١ .
- ٣٠ - الالفاظ الكتابية ، عبدالرحمن بن عيسى الهمداني ، ضبط وتصحيح الاب لويس شيخو اليسوعي ، بيروت ١٩١١ .
- ٣١ - الالفاظ اللغوية : خصائصها وانواعها ، عبدالحميد حسن ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧١ .

- ٢١- الانصاف في مسائل الخلاف ، كمال الدين ابو البركات عبدالرحمن بن محمد الانبازي ، تح . محمد محيي الدين عبدالحميد ، الطبعة الرابعة ١٩٦١ .
- ٢٢- بديع القرآن ، ابن ابي الاصبع المصري ، تح . حفني محمد شرف ، الطبعة الاولى ١٩٥٧ .
- ٢٣- بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ، الدكتور ابراهيم سلامة ، الطبعة الثانية ١٩٥٢ .
- ٢٤- البلاغة تطور وتاريخ ، الدكتور شوقي نيف ، دار المعارف بمصر ١٩٦٥ .
- ٢٥- البيان والتبيين ، ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تح . عبدالسلام محمد هارون ، الطبعة الثانية ١٩٦٠ - ١٩٦١ .
- ٢٦- تاريخ النقد الادبي عند العرب من العصر الجاهلي الى القرن الرابع الهجري ، طه احمد ابراهيم ، دار الحكمة - بيروت .
- ٢٧- تاريخ النقد الادبي عند العرب ، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري ، الدكتور احسان عباس ، الطبعة الاولى ١٩٧١ بيروت .
- ٢٨- تاويل مشكل القرآن ، ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، تح . السيد احمد صقر ، القاهرة ١٩٥٢ .
- ٢٩- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان احوال القرآن ، ابن ابي الاصبع المصري ، تح . الدكتور حفني محمد شرف . القاهرة ١٢٨٢هـ .
- ٣٠- التركيب اللغوي للادب ، الدكتور لطفى عبدالديع ، الطبعة الاولى القاهرة ١٩٧٠ .
- ٣١- تصحيح الفصح ، عبدالله بن جعفر بن درستويه ، تح عبدالله الجبوري ، بغداد ١٩٧٥ .
- ٣٢- تطور الاساليب النثرية في الادب العربي ، انيس المقدسي ، الطبعة الاولى بيروت ١٩٦٠ .
- ٣٣- التطور اللغوي التاريخي ، الدكتور ابراهيم السامرائي ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٦ .
- ٣٤- التفسير النفسي للادب ، الدكتور عزالدين اسماعيل ، دار العودة ودار الثقافة بيروت .
- ٣٥- التشبيه على حدوث التصحيف ، حمزة بن حسن الاسفهاني ، تح . الشيخ محمد حسن آل ياسين ، الطبعة الاولى ١٩٦٧ بغداد .
- ٣٦- التنبهات على اغاليط الرواة ، علي بن حمزة ، تح . عبدالعزيز الميمني الراجكوتي ، مطبوع مع (المنقوص والمدود للقراء) دار المعارف بمصر ١٩٦٧ .

- ٤٧ - تهذيب اللغة ، ابو منصور محمد بن احمد الأزهري ، تح . عبدالسلام هارون ، دار القومية العربية للطباعة ١٩٦٤ .
- ٤٨ - ثلاث رسائل في اعجاز القرآن .
بيان اعجاز القرآن ، لابي سليمان حمد بن محمد الخطابي .
النكت في اعجاز القرآن ، لابي الحسن علي بن عيسى الرماني .
الرسالة الثانية ، لعبدالقاهر الجرجاني . تح . محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام . دار المعارف بمصر .
- ٤٩ - ثمرات الاوراق ، تقي الدين ابو بكر بن علي بن حجة الحموي ، تح . محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٧٠ .
- ٥٠ - جامع البيان عن تاويل آي القرآن ، محمد بن جرير الطبري ، الطبعة الثانية ١٩٥٢ القاهرة .
- ٥١ - الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والنثر ، ضياءالدين بن الاثير ، تح . الدكتور مصطفى جواد والدكتور جميل سعيد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٥٦ .
- ٥٢ - جمهرة اللغة ، ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد ، الطبعة الاولى حيدر آباد الدكن ١٢٢٢هـ .
- ٥٣ - حديث الاربعة ، الدكتور طه حسين ، المطبعة التجارية الكبرى بمصر ١٩٢٥ .
- ٥٤ - الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام ، الدكتور محمود الربداوي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
- ٥٥ - الحيوان ، ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تح . عبدالسلام محمد هارون ، الطبعة الاولى ١٩٢٨ .
- ٥٦ - خزانة الادب ولب لباب لسان العرب ، عبدالقادر بن عمر البغدادي ، الطبعة الاولى ، المطبعة الاميرية ببولاق .
- ٥٧ - الخصائص ، ابو الفتح عثمان بن جني ، تح . محمدعلي النجار ، الطبعة الثانية - بيروت .
- ٥٨ - خصائص العربية ومنهجها الاصيل في التجديد والتوليد ، محمد المبارك ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٠ .
- ٥٩ - دراسات في اللغة ، الدكتور ابراهيم السامرائي ، بغداد ١٩٦٠ .
- ٦٠ - درة القواس في اوهام الخواص ، ابو محمد القاسم بن علي الحريري ، الطبعة الاولى - القسطنطينية ١٢٩٩هـ .
- ٦١ - درس النحوي في بغداد ، الدكتور مهدي الخرومي . بغداد ١٩٧٢ .
- ٦٢ - دروس في البلاغة وتطورها ، الدكتور جميل سعيد ، بغداد ١٩٥١ .

- ٦٢ - دلائل الاعجاز ، عبدالقاهر الجرجاني ، سحح اصله الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود الشنيطي ، وقف على تصحيح طبعه وعلق حواشيه محمد رشيد رضا ، الطبعة الرابعة - دار المنار بمصر ١٣٦٧هـ .
- ٦٤ - سحح اصله الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود الشنيطي ، طبع مطبعة الفتوح الادبية بمصر .
- ٦٥ - دلالة الالفاظ ، الدكتور ابراهيم انيس ، الطبعة الاولى ١٩٥٨ .
- ٦٦ - ديوان ابي الطيب المتنبي بشرح ابي البقاء العكبري المسمى بالبيان في شرح الديوان . ضبطه وصححه مصطفى السقا ورتبناه . الطبعة الثانية ١٩٥٦
- ٦٧ + ديوان ابي الطيب المتنبي ، شرح ابي الحسن علي بن احمد الواحدي ، طبع برلين ١٨٦١ .
- ٦٨ - ذم الخطا في الشعر ، احمد بن فارس ، مطبوع في ذيل (الكشف عن مساوي شعر المتنبي) عنيت بشرهما مكتبة القدسي . القاهرة ١٣٤٩هـ .
- ٦٩ - ذيل الامالي والنوادر ، ابو علي اسماعيل بن القاسم بن عيذون القالي - طبع دار الفكر .
- ٧٠ - الرد على الزبيدي في لحن العوام ، محمد بن احمد بن هشام اللخمي مخطوطة الاسكوريال رقم ٤٦ .
- ٧١ - رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء ، طبع دار صادر . بيروت ١٩٥٧ .
- ٧٢ - رواية اللغة ، الدكتور عبدالحميد الشلقاني . دار المعارف بمصر .
- ٧٣ - الرواية والاستشهاد باللغة ، الدكتور محمد عيد . القاهرة ١٩٧٢ .
- ٧٤ - زهر الاداب ونمر الالباب ، ابو اسحاق ابراهيم بن علي الحصري القيرواني تح . علي محمد البجاوي . الطبعة الاولى ١٩٥٢ .
- ٧٥ - سر صناعة الاعراب ، ابو الفتح عثمان بن جني ، تح . مصطفى السقا واخرون . الطبعة الاولى ١٩٥٤ .
- ٧٦ - سر الفصاحة للامير ابي محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي ، شرح وتصحيح عبدالتمال الصعيدي ، القاهرة ١٩٦٩ .
- ٧٧ + شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك ، لقاضي التثابة بهاءالدين عبدالله ابن عقيل تح . محمد محيي الدين عبدالمجيد ، الطبعة الثالثة عشرة ١٩٦٢ .
- ٧٨ - شرح درة الفواص في اوهام الخواص ، احمد شهابالدين الخفاجي . الطبعة الاولى . قسنطينية ١٢٩٩ .

- ٧٩ - شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ، أبو احمد الحسن بن عبدالله
المكري تح . عبدالعزيز احمد ، الطبعة الاولى ١٩٦٢ .
- ٨٠ - الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، الدكتور احمد
عبدالستار الجواري ، مطابع دار الكشاف - بيروت .
- ٨١ - الشعر والشعراء ، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، تح . احمد
محمد شاعر ، دار المعارف بمصر ١٩٦٦ - ١٩٦٧ .
- ٨٢ - الصاحب في نقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، احمد بن فارس ، تح .
مصطفى الشويبي . بيروت ١٩٦٢ .
- ٨٣ - صبح الاعشى في صناعة الانشا ، أبو العباس احمد بن علي القلقشندي ،
نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية .
- ٨٤ - الصبح النبوي عن حيشة المنبئي ، يوسف البديمي ، تح . مصطفى
السقا ورفيقيه . دار المعارف بمصر ١٩٦٢ .
- ٨٥ - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، الدكتور جابر احمد عصفور ،
القاهرة ١٩٧٤ .
- ٨٦ - الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر ، محمود شكري الالوسي ، دار
صعب بيروت .
- ٨٧ - ضرائر الشعر او كتاب ما يجوز للشاعر في الضرورة ، محمد بن جعفر
التميمي التزاز القرواني ، تح . محمد زغلول سلام ومحمد مصطفى
هدارة ، الاسكندرية ١٩٧٢ .
- ٨٨ - ضياء الدين بن الاثير وجهوده في النقد ، الدكتور محمد زغلول سلام ،
مكتبة نهضة مصر .
- ٨٩ - طبقات فنون الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي ، تح . محمود
محمد شاعر ، دار المعارف للطباعة والنشر .
- ٩٠ - طبقات النحويين والفويين ، لابي بكر محمد بن حسن الزبيدي ، تح .
محمد ابي الفضل ابراهيم . الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٥٤ .
- ٩١ - الطرائف الادبية ، صححه وخرجه عبدالعزيز الميمني ، القاهرة ١٩٢٧ .
- ٩٢ - طراز المجالس ، شهاب الدين احمد بن محمد الخفاجي ، القاهرة
١٢٨٤هـ .
- ٩٣ - عبقري من البصرة ، الدكتور مهدي المخزومي ، بغداد ١٩٧٢ .
- ٩٤ - العربية - دراسات في اللغة واللهجات والاساليب ، يوهان فك . ترجمة
الدكتور عبدالحليم النجار ، القاهرة ١٩٥١ .
- ٩٥ - عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح ، بهاء الدين السبكي ، الطبعة
الثانية القاهرة ١٣٤٢هـ .

- ٩٦ - العقد الفريد ، ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي ، تح .
احمد امين ورفيقه ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر -
القاهرة .
- ٩٧ - العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده ، ابو علي الحسن بن رشيق
القيرواني ، تح . محمد محيي الدين عبدالحميد ، الطبعة الثانية
١٩٥٥ .
- ٩٨ - عيار الشعر ، محمد بن احمد بن طباطبا العلوي ، تح . الدكتور طه
الحاجري والدكتور محمد زغلول سلام ، القاهرة ١٩٥٦ .
- ٩٩ - العين ، الخليل بن احمد الفراهيدي ، تح . الدكتور عبدالله درويش ،
بغداد ١٩٦٧ .
- ١٠٠ - عيون الاخبار ، عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، نسخة مصورة عن طبعة
دار الكتب المصرية .
- ١٠١ - الفتح على ابي الفتح ، محمد بن احمد بن نورجة ، تح . عبدالكريم
الدجيلي بغداد ١٩٧٤ .
- ١٠٢ - فصول في فقه العربية ، الدكتور رمضان عبدالنواب ، الطبعة الاولى
١٩٧٣ .
- ١٠٣ - فقه اللغة ، الدكتور علي عبدالواحد وافي ، الطبعة الثانية ١٩٤٤ .
- ١٠٤ - فنون الادب ، ه . ب . شارلتن ، ترجمة زكي نجيب محمود ،
القاهرة ١٩٤٥ .
- ١٠٥ - في الادب والنقد ، الدكتور محمد مندور ، الطبعة الثالثة ، القاهرة
١٩٥٦ .
- ١٠٦ - في اصول النحو ، سعيد الافغاني ، الطبعة الثالثة ١٩٦٤ .
- ١٠٧ - في تاريخ النقد والمذاهب الادبية ، العصر الجاهلي والقرن الاسلامي
الاول ، الدكتور طه الحاجري ، الاسكندرية ١٩٥٣ .
- ١٠٨ - في الميزان الجديد ، الدكتور محمد مندور ، الطبعة الثانية ، القاهرة
بلا تاريخ .
- ١٠٩ - في النقد الادبي ، عبدالعزيز عتيق ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٣ .
- ١١٠ - القاموس المحيط ، مجدالدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، الطبعة
الثانية ، القاهرة ١٩٥٢ .
- ١١١ - تضايح الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، الطبعة الثانية ١٩٦٥ .
- ١١٢ - تضايح الشعر الادبي والبلاغة ، الدكتور محمد زكي المشماوي ، القاهرة
١٩٦٧ .

- ١١٣ - قواعد الشعر ، أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، تح . الدكتور
رمضان عبدالنواب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٦ .
- ١١٤ - القواعد النحوية مادتها وطريقتها ، عبدالحميد حسن ، الطبعة الثانية
القاهرة ١٩٥٢ .
- ١١٥ - الكامل ، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، تح . محمد أبي الفضل
أبراهيم والسيد شحاتة ، القاهرة ١٩٥٦ .
- ١١٦ - كتاب الصناعتين ، لكتابة والشعر ، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن
سهل العسكري ، تح . علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل
أبراهيم ، الطبعة الأولى ١٩٥٢ .
- ١١٧ - كتاب ما تلحن فيه العوام ، علي بن حمزة الكسائي ، تح . عبدالعزيز
اليميني ضمن (ثلاث رسائل) . القاهرة ١٢٤٤ هـ .
- ١١٨ - كتاب ما يجوز للشاعر في الضرورة ، محمد بن جعفر القزاز القيرواني ،
تح . المنجي الكعبي . الدار التونسية للنشر ١٩٧١ .
- ١١٩ - كتاب النوادر ، أبو محل الاعرابي (عبدالوهاب بن حريش) تح .
عزة حسن ، دمشق ١٩٦١ .
- ١٢٠ - الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التاويل ،
جارالله محمود بن عمر الزمخشري ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
- ١٢١ - الكشف عن مساوي التنبي ، للصاحب بن عباد ، مطبوع مع (الابانة
عن سرقات التنبي) .
- ١٢٢ - لحن العامة والتطور اللغوي ، الدكتور رمضان عبدالنواب ، الطبعة
الأولى ، القاهرة ١٩٦٧ .
- ١٢٣ - لحن العوام ، أبو بكر محمد بن حسن الزبيدي ، تح . الدكتور
رمضان عبدالنواب ، الطبعة الأولى ١٩٦٤ .
- ١٢٤ - لان العرب ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ،
طبعة بولاق وطبعة دار صادر .
- ١٢٥ - اللغة ، فنديس ، ترجمة عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص ،
القاهرة ١٩٥٠ .
- ١٢٦ - اللغة بين الفرد والمجتمع ، أوتوجيرسن ، ترجمة ، الدكتور
عبدالرحمن محمد أيوب ، القاهرة ١٩٥٤ .
- ١٢٧ - اللغة بين المعيارية والوصفية ، الدكتور تمام حسان ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ١٢٨ - اللغة الشاعرة ، عباس محمود العقاد ، القاهرة ١٩٦٠ .
- ١٢٩ - اللغة العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، جورج الكفوري ،
بيروت ١٩٤٨ .

- ١٢٠- اللغة والحضارة ، الدكتور مصطفى مندور ، الاسكندرية ١٩٧٤ .
- ١٢١- اللغة والمجتمع ، الدكتور علي عبدالواحد وافي ، الطبعة الثانية ١٩٥١ .
- ١٢٢- اللغة والنحو بين القديم والحديث ، عباس حسن ، دار المعارف بمصر ١٩٦٦ .
- ١٢٣- باحث لغوية ، الدكتور ابراهيم السمراني ، مطبعة الاداب في النجف الاشرف ١٩٧١ .
- ١٢٤- المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث ، الدكتور محمد عبدالرحمن شعيب ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ .
- ١٢٥- المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ، ضياءالدين بن الاثير ، تح . محمد محيي الدين عبدالحميد ، القاهرة ١٩٣٩ .
- ١٢٦- مجالس ثعلب ، ابو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، تح . عبدالسلام محمد هارون ، دار المعارف بمصر ١٩٤٨ .
- ١٢٧- المجتمعات الاسلامية في القرن الاول ، الدكتور شكري فيصل ، دار العلم للملايين - بيروت .
- ١٢٨- مجلة مجمع اللغة العربية الملكي ، ج ١ اكتوبر ١٩٣٤ .
- ١٢٩- المحتب في تبين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها ، ابو الفتح عثمان بن جني ، تح . علي النجدي ناصف ورفيقيه ، القاهرة ١٢٨٦هـ
- ١٣٠- المخصص ، علي بن اسماعيل بن سيده ، الطبعة الاولى - بولاق ١٢١٨هـ .
- ١٣١- المدخل الى النقد الادبي الحديث ، الدكتور محمد غنيمي هلال ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ١٣٢- مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ، الدكتور مهدي المخزومي ، بغداد ١٩٥٥ .
- ١٣٣- مراتب النحويين ، ابو الطيب اللغوي عبدالواحد بن علي ، تح . محمد ابي الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٥ .
- ١٣٤- المزهري في علوم اللغة وانواعها ، عبدالرحمن جلال الدين السيوطي ، تح . محمد ابي الفضل ابراهيم ورفيقيه ، مطبعة عيسى البابي الحلبي - بلا تلريخ .
- ١٣٥- مستقبل اللغة العربية المشتركة ، الدكتور ابراهيم انيس ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٠ .
- ١٣٦- مشكلات حياتنا اللغوية ، امين الخولي ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٨ .

- ١٤٧ - مشكلة السركات في النقد العربي ، محمد مصطفى هدارة ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
- ١٤٨ - مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، الدكتور ناصر الدين الاسد ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ١٩٦٢ .
- ١٤٩ - مطالعات في الكتب والحياة ، عباس محمود العقاد ، القاهرة ١٩٢٤ .
- ١٥٠ - المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث ، الدكتور محمد احمد ابو الفرج ، الطبعة الاولى ١٩٦٦ .
- ١٥١ - معجم الادياء ، ياقوت الحموي ، بناية الدكتور احمد فريد رفاعي ، مطبوعات دار المأمون .
- ١٥٢ - المعجم العربي نشاته وتطوره ، الدكتور حين نزار ، القاهرة ١٩٥٦ .
- ١٥٣ - الفصل في علم العربية ، جارالله محمود بن عمر الزمخشري ، الطبعة الثانية - دار الجيل .
- ١٥٤ - مقاييس اللغة ، احمد بن فارس ، تح . عبدالسلام هارون ، الطبعة الاولى ١٣٦٦هـ - ١٣٧١ .
- ١٥٥ - سن اسرار اللغة ، الدكتور ابراهيم انيس ، الطبعة الثالثة ١٩٦٦ .
- ١٥٦ - من قضايا اللغة والنحو ، علي النجدي ناصف ، مكتبة نهضة مصر - بلا تاريخ .
- ١٥٧ - منهاج البلغاء وسراج الادياء ، ابو الحسن حازم القرطاجني ، تح . محمد الحبيب بن الخوجة ، تونس ١٩٦٦ .
- ١٥٨ - منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان اعجازه ، مصطفى الصاوي الجويني ، دار المعارف بمصر .
- ١٥٩ - من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده ، محمد خلف الله ، القاهرة ١٩٤٧ .
- ١٦٠ - الموازنة بين شعر ابي تمام والبحري ، ابو القاسم الحسن بن بشر الامدي ، تح . السيد احمد مقر ، دار المعارف بمصر ١٩٦١ - ١٩٦٥ .
- ١٦١ - موسيقى الشعر ، الدكتور ابراهيم انيس ، الطبعة الثانية ١٩٥٢ .
- ١٦٢ - الموشح ، ابو عبيدالله محمد بن عمران بن موسى المرزباني ، تح . علي محمد الجاوي ، القاهرة ١٩٦٥ .
- عنيت بشره جمعية نشر الكتب العربية ، القاهرة ١٣٤٣ هـ .
- ١٦٣ - نحو القرآن ، الدكتور احمد عبدالستار الجواوي ، بغداد ١٩٧٤ .
- ١٦٤ - نزهة الالباء في طبقات الادياء ، ابو البركات كمال الدين عبدالرحمن بن

- محمد الإنباري ، تح . الدكتور ابراهيم السمرائي ، الطبعة الثانية
 . ١٩٧٠ .
- ١٦٥ - نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ، الدكتور علي سامي النشار ، القاهرة
 . ١٩٥٤ .
- ١٦٦ - نصره الثائر على المثل السائر ، ابو الصفاء صلاح الدين خليل بن ابيك
 الصفدي ، القسم الاول ، تح . مناهل نخرالدين فليح ، رسالة
 ماجستير مخطوطة في المكتبة المركزية - جامعة بغداد .
- ١٦٧ - نظرات في اللغة والنحو ، طه الراوي ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٦٢ .
- ١٦٨ - النقد الادبي ، الدكتورة سهير القلماوي ، الطبعة الثانية ١٩٥٩ .
- ١٦٩ - النقد الادبي في العصر الملوكي ، الدكتور عبده عبدالعزيز قلقيلة ،
 الطبعة الاولى ١٩٧٢ .
- ١٧٠ - النقد الادبي واثره في الشعر العباسي ، ناصر الحاني ، بغداد ١٩٥٥ .
- ١٧١ - النقد الجمالي واثره في النقد العربي ، روز غريب ، الطبعة الاولى ،
 بيروت ١٩٥٢ .
- ١٧٢ - نقد الشعر ، ابو الفرج قدامة بن جعفر ، تح . كمال مصطفى ،
 الطبعة الاولى ١٩٤٨ .
- ١٧٣ - النقد العربي القديم بين الاستقراء والتأليف ، الدكتور داود سلوم ،
 الطبعة الثانية بغداد ١٩٧٠ .
- ١٧٤ - النقد عند اللغويين في القرن الثاني ، سنية احمد محمد ، رسالة
 ماجستير مخطوطة في المكتبة المركزية - جامعة بغداد .
- ١٧٥ - النقد المنهجي عند العرب ، الدكتور محمد مندور ، دار نهضة مصر
 للطبع والنشر ، بلا تاريخ .
- ١٧٦ - النقد والنقد الادبي ، الدكتور رشاد رشدي ، بيروت ١٩٧١ .
- ١٧٧ - نهاية الارب في فنون الادب ، شعاب الدين احمد بن عبدالوهاب
 النويري ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب .
- ١٧٨ - الوساطة بين المتنبي وخصومه ، للقاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني ،
 تح . محمد ابي الفضل ابراهيم وعلى محمد الجاوي ، الطبعة الثالثة ،
 بلا تاريخ .
- ١٧٩ - وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، ابو العباس شمس الدين احمد بن
 محمد بن خلكان ، تح . محمد محيي الدين عبدالحميد ، الطبعة الاولى
 . ١٩٤٨ .
- ١٨٠ - يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر ، ابو منصور عبدالملك بن محمد
 ابن اسماعيل الثعالبي ، تح . محمد محيي الدين عبدالحميد ، الطبعة
 الثانية ، القاهرة ١٩٥٦ .

- الاخفش الاوسط (سعيد بن مسعدة) ٨٨ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٨٠ ،
 . ١٨٩ ، ١٩٤ .
- الاخفش الاكبر (عبد الحميد بن عبد الجيد) ٧٨ ، ٨٨ .
 الاخش التقلبي ١٨٢ .
 الارجاني ٢٩٢ .
 ارسطو ٤١٢ .
 ارطاة بن سية ٢٤٢ .
 الازهري (ابو منصور محمد بن احمد) ٢٢٥ .
 بلاسترايادي (الرضي) ٨١ .
 اسحاق بن ابراهيم بن مصعب ٦٥ ، ٦٦ .
 اسحاق الموصلي ٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٨٩ .
- ابن ابي الاسبع المصري ٢٦٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢٤٨ ،
 . ٢٦٧ ، ٢٨٠ .
- الاصمعي ٢٦ ، ٢٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٦٩ ، ٨٧ ،
 ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ،
 ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ٢٦٩ ، ٢٩١ ، ٢٠٦ ، ٢٥٤ ، ٢٩٩ ،
 . ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٢٣ .
- ابن الاعرابي ٢٦ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٢٦١ .
 الاعشى ٤٦ ، ١٨١ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٩٩ ، ٢١٠ ، ٤١٩ .
 امرؤ القيس (الشاعر) ٥٠ ، ١٠٥ ، ١٢٥ ، ١٥٧ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
 . ١٨٧ ، ٢٥٧ ، ٢٠٨ .
- الاموي (عبدالله بن سعيد) ٢٤٧ .
 الامين (الخليفة) ٢٠٧ .
 امية بن ابي الصلت ٢٥٧ ، ٢٤٢ .
 الانباري (ابو البركات) ٨٠ .
 الانصاري (ابو زيد) ٥٠ ، ١١٩ ، ٢٢١ ، ٤٠١ .
 الايادي (ابو دؤاد) ٢٩ .

(ب)

- الباتلاني (ابو بكر محمد بن الطيب) ١٥٠ .
 البحري ٦٧ ، ١١٦ ، ١٤٠ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٢٧ ، ٢٤٠ ،
 . ٢٥٠ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢٤٩ ، ٢٦٢ ، ٢٧٩ .

- ابن بري ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٩٠ ، ٤٠٢ .
 يشار بن برد ٤٠ ، ٤٢ ، ٦٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ١١٤ ، ١٦٥ ،
 ١٧٨ ، ١٨٠ ، ٢٤٦ ، ٣٥٧ .
 يشر بن مروان ٤٠ .
 يشر بن المتمر ٢١٣ ، ٢٤٣ .
 البليوس (ابن السيد) ٧٨ ، ١٧٢ ، ٣٢٨ ، ٤٠١ .
 ابو بكر الشعرائي ١٢٢ .
 يكر بن النطاح ٣٧٦ .
 يلال بن ابي بردة ٦١ .
 يوالو ٤٢٤ .

(ت)

- تابك شرا ٢٣٥ .
 التبريزي ٧٢ .
 تشارلتن ٢٢٢ ، ٢٢٤ .
 تمام حسان (الدكتور) ٣٥٦ .
 التوحيدي (ابو حيان) ٣٢٥ .

(ث)

- الثعالبي (ابو منصور عبدالمالك بن محمد) ٧١ ، ٧٢ ، ٢٤٧ ، ٢٨٨ ، ٣١٢ .
 ثعلب (ابو العباس احمد بن يحيى) ٣٦ ، ٦٩ ، ٩٢ ، ٢٢٨ ، ٤٠٠ .

(ج)

- الجاحظ ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٩٤ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،
 ٢٠٣ ، ٢١٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٩ ، ٢٤٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩١ ، ٣٧١ ،
 ٤١٢ .
 الجرجاني (عبدالقاهر) ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٠ ،
 ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ،
 ١٥٠ ، ١٦٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ،
 ٢٧٢ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٩٢ ، ٤١٥ ، ٤٢٢ .
 الجرجاني (القاسمي علي بن عبدالعزيز) ٩٥ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ،
 ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٩ ، ٢٥٧ ،
 ٢٥٨ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢٢٣ ،
 ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٤١ ، ٣٥٥ ، ٣٦٢ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٤٠٨ ، ٤٢٤ .

جريب ٤٠ ، ٥٠ ، ٨٨ ، ٩٧ ، ٢١٠ ، ٢٢٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٨ ، ٢٠١ ، ٤٠٧ ، ٤٢٠ .

ابن جنبي ٤٧ ، ١١٢ ، ١٢٦ ، ١٥٦ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٩ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٩٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٧٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤٢٠ ، ٤٢٣ ، ٤٢٩ .

الجوهري (اسماعيل بن حماد) ٢٢٥ .

(ح)

ابو حاتم الجبتي ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٩٢ ، ١٨١ ، ٢٦٢ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ .

حبيب بن اوس (ابو تمام) ١٤ ، ٣٥ ، ٦٧ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٧ ، ١٤٠ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٤ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٤٨ ، ٢٥٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ .

الحجاج بن يوسف ٢٠ ، ٦٠ .

ابن الحدادية (قيس بن منقلد) ٢٥٩ .

الحريزي (ابو محمد القاسم بن علي) ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٢٧ ، ١٧٢ ، ٢٩٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٦ ، ٤٠٢ .

حسان بن ثابت ٣٠ .

الحسن بن هاني (ابو نواس) ٤١ ، ٦٦ ، ٨٩ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٢٦ ، ٢٧٦ ، ٢١٢ ، ٢٤٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٩ .

الحضرمي (عبدالله بن ابي اسحاق) ٦٢ ، ٦٣ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦٧ .

الخطبة ٤٣ ، ٥١ .

ابو الحكم بن البخري بن المختار ٢٦٤ .

حماد الراوية ٢٦ ، ١١٢ .

حمزة بن الحسن الافهاني ٥٠ ، ٤٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ .

الحميري (السيد) ٩٨ ، ٢٢٩ .

ابو خنيفة ١٠٩ .

(خ)

- ابن خالويه ٦٩ ، ١٥٤ ، ٤٠٠ .
- ابن الخثعمي ١١٤ .
- ابن خروف ٨٠ .
- الخطابي (أبو سليمان حمد بن محمد) ١٠٣ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
- الخفاجي (أحمد شباب الدين) ٤٩ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٤٠٢ .
- خلف الأحمر ٣٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦٢ ، ٢٢٧ ، ٤٢٠ .
- خلف الله (محمد) ١٧ ، ٢٠ .
- الخليل بن أحمد الفراهيدي ٣١ ، ٦٢ ، ٧٨ ، ١٥٥ ، ١٦١ ، ١٩٢ ، ١٩٦ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ .
- الخنساء ٢٦٨ .
- الخياط (الدكتور جلال) ٩ .

(د)

- داود سلوم (الدكتور) ١١٠ .
- ابن دراج ١٦١ .
- ابن دوستويه (عبدالله بن جعفر) ١١٠ .
- ابن دريد (محمد بن الحسن) ٤٤ ، ٦٩ ، ٣٥٥ .
- دريد بن الصمة ٢٤١ .
- دعبيل ١١٥ .

(ج)

- ذو الرمة ٤٠ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٨٢ ، ٢٧٨ ، ٣٦٤ .
- دؤبة بن الحجاج (الراجز) ٤٣ ، ٦١ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٧ ، ١٨٨ ، ٢٣١ ، ٢٤٤ ، ٤٠٢ .

(ب)

- الرشيد (هارون) ٩٨ ، ١١٢ ، ٣٠٧ ، ٣٦٠ .
- ابن رشيقي القيرواني (أبو علي الحسن) ١٠٣ ، ١١٣ ، ١٢٥ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٦ ، ٢٩١ .
- ٣٠٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٧ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ .
- الرقيات (عبدالله بن قيس) ١٨٦ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ .
- الرماني (علي بن عيسى) ١٠٣ ، ١٣٠ ، ٢٢٤ ، ٢٣٥ .

- ابن الرومي (الشاعر) ٦٧ ، ٢٢٧ ، ٢٧٧ .
 الزبيدي (أبو بكر محمد بن حسن) ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٩ ، ٧٨ ، ١٩٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٤٠١ .
 الزمخشري (محمود بن عمر) ٦٧ ، ١٧٩ ، ٢٢٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ .
 زهير بن أبي سلمى ٤٢ ، ١٦٥ ، ١٨١ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢٧١ .
 ابن الزيات (محمد بن عبد الملك) ١١٤ .
 زياد بن أبيه ٥٦ .
 زياد التبطي ٥٩ ، ١٦١ ، ١٨٧ .

(س)

- السبكي (بقاء الدين) ١٧٠ ، ١٧١ .
 سحيم (الشاعر) ١٧٩ .
 أبو سعيد الضرير ٢٠١ .
 سعيد بن المسيب ٢٨٢ .
 سفيان الثوري ٨٠ .
 السكري ٣٦ .
 ابن السكيت ٦٩ ، ٧٠ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٧١ ، ١٨٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٩٦ .
 ابن سلام (محمد الجمحي) ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٦٢ ، ١٠٨ ، ٢٤٤ .
 سلم بن قتيبة ٤٢ .
 سليمان بن سليم ٥٦ .
 ابن سناء الملك ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ .
 ابن سنان الخفاجي (عبدالله بن محمد بن سعيد) ٩٢ ، ١٠٣ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ .
 سنية أحمد محمد ١١٠ .
 سويد بن منجوف ٥٨ .
 سيويه ٢١ ، ٢٩ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ١٢٠ ، ١٥٥ ، ١٧٨ ، ١٩٤ ، ٢٢١ ، ٢٥٧ .

- ابن سيده ١٨٢ .
- السيوطي ٢٨ ، ٢٤٥ .

(ش)

- ابن شبة ٦٩ .
- ابن شبرمة ٣٦٤ .
- ابن الشجري (هبة الله بن علي) ١٧٨ ، ١٧٩ .
- ابن شرف القيرواني (ابو عبيد الله محمد) ١٣٦ ، ٤٢٠ .
- الشريف الرضي ٢٦٥ .
- الشريف المرتضى ٢٥٦ .
- شكري فيصل (الدكتور) ٦٨ .
- الشماخ ٢٩٩ ، ٣٦٨ .

(ص)

- الصابني (ابو اسحاق) ٢٠٤ .
- صاحب بن عباد ٧١ ، ٧٢ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ٢٢٨ ، ٢٤١ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ .
- ٢٢٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٤٢٣ .
- الصفدي (صلاح الدين خليل بن ابيك) ١٦٨ .
- الصقلي (ابن مكى) ١٩٠ .
- الصمة بن عبدالله ٢١٠ .
- الصولي (ابو بكر محمد بن يحيى) ٦٧ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٤ ، ٢٧٣ .

(ض)

- الضبتي (المفضل) ٣٦ ، ٢١٥ ، ٢٠٧ .

(ط)

- ابو طالب ٣٩٢ .
- الطاهر (الدكتور علي جواد) ٩ .
- ابن طباطبا (محمد بن احمد العلوي) ١٦٢ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٤ ، ٢٧٧ ، ٣٠٩ ، ٤١٤ .
- طرفة ٣٠ ، ٤٢ ، ١٦١ .
- الطرماح ٤٢ ، ٤٣ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٧٨ ، ٣٦١ ، ٤٢٢ .
- طه احمد ابراهيم ٢١ .

(ع)

- ابن عباس ٨٥ ، ٨٦ .
- ابو العباس بن ثوبة ٩٢ .
- العباس بن عبدالمطلب ٣٦٨ .
- عبدة بن الطبيب ١١١ .
- عبدالرحمن بن عيسى البغدادي ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٢٤٧ .
- عبدالصمد بن المذل ١١٣ ، ٣٦٤ .
- عبدالعزيز بن مروان ٣٦٥ .
- عبدالله بن عمرو بن العاص ٢٧٦ .
- عبدالمك بن مروان ٥٩ ، ٦٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٧٨ ، ٣٦٥ .
- عبدالواحد بن علي (ابو الطيب اللغوي) ٣٧ .
- ابو عبيد ٦٩ ، ١٨٢ .
- ابو عبيدة ٣٦ ، ٦٩ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٨١ .
- ٣٦١ .
- عبيدالله بن زياد ٥٦ ، ٥٨ .
- عبيدالله بن عبدالله بن ظاهر ٢٢٨ .
- ابو العتاهية ٦٧ ، ٢٠٩ .
- العجاج (الراجز) ١٧٤ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ .
- عدي بن الرقاع ١٧٢ ، ٢٥٨ .
- عدي بن زيد ٣٩ ، ٤٢ ، ٨٩ ، ١٨٢ .
- عزالدين اسماعيل (الدكتور) ٤١٧ .
- المسكري (ابو احمد الحسن بن عبدالله) ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٦٩ .
- المسكري (ابو هلال الحسن بن عبدالله) ٦٩ ، ١٠٣ ، ١٣٥ ، ١٦٤ ، ٢٠٨ .
- ٢١٥ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧١ .
- ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ .
- ابن عصفور ١٧٩ .
- ابو العطاء السندي ٥٦ .
- العقاد (عباس محمود) ٢٠ ، ٢١ .
- المكبري (ابو البقاء) ٣٣٥ .
- المكلي (ابو حزام غالب بن الحارث) ٢١٤ .

• علقمة ٢٧١ .

• علي بن الجهم ٤٢٢ .

• علي بن الحمزة البصري ٤٥ ، ١١٠ ، ١٨٢ .

• علي بن أبي طالب ١١٠ ، ٣٠٢ ، ٣٩٢ .

• أبو علي الفارسي ١٢١ ، ١٥٦ ، ١٨٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٤٠٩ .

• علي بن محمد العلوي الكوفي ٣٥٩ .

• ابن عمار ١٤ ، ٣٦٢ .

• عمارة بن عقيل ٦٥ ، ٩٨ .

• عمار الكلبي ١٥٤ .

• عمر بن الخطاب ٥٤ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢٤٩ .

• عمر بن أبي ربيعة ١١١ ، ٢٨٢ .

• أبو عمرو الشيباني ٣٦ .

• عمرو بن عبيد ٥٨ .

• أبو عمرو بن الملاء ٣٦ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ .

• ٩٢ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١٦٥ ، ٢٣١ ، ٢٦٤ .

• عمرو بن مسلم ٦٠ .

• عمرو بن معد يكرب ٢٦٤ .

• أبو العيشل ٣٠١ .

• العميدي (أبو سعد محمد بن أحمد) ١٢٠ .

• عيسى بن عمر ١٠٨ ، ١٠٩ .

• عيسى بن يزيد بن داب ٤٦ .

(ف)

• الفارابي ٣٨ .

• الفخر الرازي ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٤١٢ .

• الفراء ٦٩ ، ٧٨ ، ١١٢ ، ١١٩ ، ١٨١ ، ١٨٦ ، ٣٥٦ .

• الفهرزدق ٤٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٨٨ ، ١٠٧ ، ١٥٤ ، ١٧٥ ، ١٧٩ .

• ١٨٧ ، ٢٢٠ ، ٢٣٨ ، ٢٧٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٧ ، ٣١٤ ، ٣٥٧ ، ٣٦٧ .

• ٤٠٢ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ .

• الفضل بن الربيع ١٢٥ .

• أبو الفضل العروضي ١٢٢ .

• ابن نوريجة (محمد بن أحمد) ٢٤١ ، ٣٦٨ .

• الفيروز آبادي ١٨٥ .

(ق)

- القاسم بن محمد بن القاسم ٦١
- القاضي الفاضل ٧٦
- ابن قتيبة ٥٨ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٩٤ ، ١٢٥ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢١٢ ، ٢١٩ ، ٢٢٩ ، ٢٨٥ ، ٢٥٢ ، ٢٦٩ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٤١٤
- ٤٠٧ ، ٤١٤
- قدامة بن جعفر ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ١٦٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٤٤ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧
- ٢٦ ، ٢٨٦ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٤١٤ ، ٤١٥
- القرطاجني (حازم) ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٧ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧
- القزاز (محمد بن جعفر التميمي) ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٢
- ١٦٧ ، ٢٢٤
- القس (عبدالرحمن) ١٦١
- ابن القطاع ١٨٠ ، ٢٢٥
- قطري ١٧٥
- القلماوي (الدكتور سهير) ١٤
- قيس بن ذريح ٢٦٨

(ك)

- كافور الاخشيدي ٢٧٨
- كثير عزة ٢٤٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥
- كثير بن كثير البصري ٦٠
- الكساني ٣٩ ، ٥٧ ، ٦٩ ، ٧٨ ، ٢٥٦
- ابن الكلبي ٤٣
- الكميث بن زيد ٢٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ٢٢٤ ، ٢٤٧
- كولردج ٢٣٦ ، ٢٥٩

(ل)

- ليلى ٢١ ، ١٧٢ ، ١٧٥
- لعمان بن عاد ٤٣
- ابن لنك البصري ٤١٩

(م)

- ابن مالك (محمد بن عبدالله الطائي) ٨٠ ، ٨١
- مالك بن اسماء بن خارجة ٢٢٨

- المامون (الخليفة) ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٢٠٧ .
- البيرد (محمد بن يزيد) ٤٧ ، ٦٧ ، ٩٢ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ٢٨٢ ، ٣١٤ ، ٤٢٣ .
- متمم بن نويرة ٢٦٨ .
- التبسي ٢٠ ، ٢١ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٥٤ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ٢٠٠ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣١٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٤١٠ ، ٤١٩ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ .
- محمد عبدالرحمن شعيب (الدكتور) ٢٧٢ .
- محمد بن عمرو ١١٤ .
- محمد بن عيسى بن عبدالرحمن الكاتب ٤٢٣ .
- محمد غنيمي هلال (الدكتور) ٢٤٢ .
- محمد بن يسير ١٨٥ ، ٢٩١ .
- محمود الربداوي (الدكتور) ١١٥ .
- المخزومي (ابو سعد) ٢٧٢ ، ٢٧٣ .
- المرزباني (ابو عبيدالله محمد بن عمران بن موسى) ٢٩ ، ٢٤٦ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ .
- مروان الاصغر ٢٦٩ .
- مروان بن ابي حفصة ٤١٩ .
- مزرود ١٦١ .
- ابو محل الاعرابي (عبدالوهاب بن حربش) ٢٤٥ .
- مسلم بن الوليد ٢٥٦ ، ٢١١ .
- مسلمة بن عبدالله ٦٠ .
- السيب بن علس ٢٠ .
- معاوية بن ابي سفيان ٤٧ ، ٥٦ ، ٢٧٦ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ .
- ابن المعتز ٧٦ ، ٧٧ ، ٩٤ ، ٢٨٢ ، ٤١٤ .
- المعتز بالله ٢٤٩ .
- المعري (ابو العلاء) ٢١٦ .
- ابن مقبل ٥٠ ، ٢٥٧ .
- المنج الكندي ٢٦٦ .
- ابن مناذر ٦٢ ، ٨٩ .
- المنخل ٢٧٧ .

الفهرس

٥	المتددة
١١	التمهيد
١٥٠-٢٢	الباب الاول : العوامل المؤثرة في النقد اللغوي
٢٥	الفصل الاول : الرواية
٥٢	الفصل الثاني : التطور اللغوي
٨٥	الفصل الثالث : التعصب للتقديم
١٠٧	الفصل الرابع : الخصومة
١٢٥	الفصل الخامس : الاعجاز
٢١٦-١٥١	الباب الثاني : موضوعات النقد اللغوي ومقاييسه
١٥٢	الفصل الاول : مقاييس الخطا والصواب
١٩٢	الفصل الثاني : مقاييس الجودة والرداءة
٢١٧-٢٢٤	الباب الثالث : نوائد النقد اللغوي وعبوبه
٢١٩	الفصل الاول : نوائد النقد اللغوي
٢٨٥	الفصل الثاني : عيوب النقد اللغوي
٢٢٥	الخاتمة
٢٣٥	المصادر
٢٤٧	فهرس الاعلام

تصميم الغلاف : نضال الأغا

الخطوط : رضا الخطاط

رقم الإيداع في المكتبة الوطنية بغداد
(٢٥٧ لسنة ١٩٧٨)